


كتبه
باول شمتز

نقله إلى العربية
الدكتور محمد شامة

الناشر: مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - بعابدين
القاهرة - ت: ٩٣٧٤٧٠

بسم الله الرحمن الرحيم

## مقـــدمة المترجـم

أظهر استفتاء للرأى العام الفرنسى أجرته صحيفة « الفيجارو » فى ١٥ أكتوبر ١٩٧٣ ، أى بعد ٩ أيام من اندلاع الحرب الرابعـــة بين الدول العربية واسرائيل ، أن :

٤٥٪ مع اسرائيل
١٦٪ مع العرب
٨ ٪ مع الطرفين
٣٠٪ لا رأى لهم

وفى لندن : أسفرت نتائج استفتاء للرأى أجراه المعهد الوطنـــى لاستفتاء الرأى العام عن الحرب فى الشرق الأوسط عن أن ٥ر٤٧٪ من البريطانيين الذى شملهم الاستفتاء يؤيدون الاسرائليين مقابل ٥٪ فقط يؤيدون الدول العربية .

وفى واشنطون : أجرى معهد جالوب الأمريكى استفتاء للرأى عن النزاع فى الشرق الأوسط يوم ٦ أكتوبر ، وهو نفس اليوم الذى بدأ فيه القتال ، واتضح من نتائجه أن ٤٧٪ من الأمريكيين يؤيدون اسرائيل وأن ٦٪ فقط يؤيدون الدول العربية .

ثم علقت جريدة الأهرام على ذلك بقولها :

ان أرقام هذا الاستفتاء تظهر لنا الى أى مدى ما زالت الدعايـــة الصهيونية عميقة الجذور فى العالم .. وهكذا نرى حكومات غربيـــة كثيرة بحكم أنها أكثر ادراكا للمعلومات الحقيقية ، وأكثر دراية بمصالحها ، يتحول موقفهـــا بأسرع مما يتحول موقف المواطن العادى ، الذى ما زال متأثرا برواسب الاعلام الصهيونى منذ ربع قرن [1] .

---

(١) الأهرام فى ١٨/١٠/١٩٧٣ م .

ان عدم ادراك القائمين على وسائل الاعلام فى العالم الاسلامى بالخلفية الثقافية للمواطن الغربى ، دفعهم الى تفسير تحيزه الى اسرائيل بأنه أثر من آثار الدعاية الصهيونية ، ولا يقبل هذا الا اذا نظرنا الى الوضع الحاضر نظرة سطحية ، وقطعنا أسباب اتصاله بالماضى ، وهذا الاتجاه فى تحليل الظواهر يجعلنا نتخبط شرقا وغربا دون أن نصل الى نتيجة لصالح القضية المصيرية •

ان موقف المواطن الغربى — الذى أظهرته نتائج الاستفتاء — يرجع أساسا الى ما غرسته الكنيسة منذ الحروب الصليبية فى نفوس أتباعها من بغض وحقد وكراهية للاسلام والمسلمين ، وما فعلته الدعاية الصهيونية فى الربع قرن الأخير ، لم يكن سوى تنشيط ما ترسب من عداوة لا زالت كامنة فى الخلفية الثقافية للمواطن الأوروبى ، واحياء الصورة القديمة التى دفعت الصليبيين الى شن حملاتهم على الشرق الاسلامى ، ألا وهى الخوف منه ، ومن عناصر قوته المتكاملة التى ان استطاع المسلمون استغلالها على الوجه الأكمل لما كان هناك قوة على وجه البسيطة تفوقها • وهو وان كان خوفا غير محدد المعالم — علميا — عند المواطن العادى ، الا أن قادتهم والمثقفين منهم يدركون ذلك تفصيلا،فقد وضعت فى ذلك الدراسات وألفت الكتب ، ومن أدق ما كتب ، وأكثرها تصويرا لعناصر قوة الاسلام التى تمكنه من بناء قوة عالمية ، كتاب : « الاسلام قوة الغد العالمية » فقد استهدف مؤلفه تبصير بنى جنسه بتلك العناصر ، كى يخططوا لاضعافها ان أرادوا حماية أنفسهم من الاسلام ، فهو يرى أن المسلمين يملكون من مصادر القوة ما لا يملكه أتباع دين آخر على وجه الأرض :

أولا : يسكنون منطقة جغرافية تتحكم فى العالم كله :

« ان أهمية المنطقة الاسلامية فى نظام التجارة العالمية فى ذلك الوقت كانت واضحة ، وحقيقة واقعة ، فحكامها كانوا يستطيعون التحكم فى الأسعار عن طريق رفع رسوم المرور والجمارك ، بل كان فى مقدورهم قطع الطريق كلية ، اذا بدا لهم أن ذلك فيه فائدة لهم ، أى رغبوا فيه

اعتمادا على أى سبب • ومن هنا ظهرت الأطماع فى السيطرة على هذه المنطقة •• ولم يتغير شىء من هذا بعد دخول الاسلام •• فقد أصبح قدح الزند فى المجالات السياسية والتجارية فى الشرق الأدنى فى يد الدولة الاسلامية الجديدة ، التى مدت سلطانها على المنطقة جغرافيا وثقافيا »[1] •

وكانت السيطرة على المنطقة من الأسباب الرئيسية للحملات الصليبية: « فقد حمل الصليبيون معهم فكرة مدروسة ، مفادها أن أهمية السيطرة على منطقة غرب آسيا لا يمكن أن تقدر ، اذ هى نقطة اتصال بين الغرب والشرق الأقصى ، وثبتت صحة هذه الفكرة لحكام تلك المنطقة منذ قرون ، وما زالت حتى اليوم »[2] يشهد بذلك الصراع القائم بين القوى العظمى المعاصرة للسيطرة على هذه المنطقة •

ثانيا : لديهم خصوبة بشرية ، تمكنهم من التفوق على غيرهم أن هم أحسنوا اعدادها وتوجيهها :

« تشير ظاهرة نمو السكان فى أقطار الشرق الاسلامى الى احتمال وقوع هزة فى ميزان القوى بين الشرق والغرب ، فقد دلت الدراسات على أن لدى سكان هذه المنطقة خصوبة بشرية تفوق نسبتها ما لدى الشعوب الأوروبية • وسوف تمكن الزيادة فى الانتاج البشرى الشرق على نقل السلطة فى مدة لا تتجاوز بضعة عقود — أى عشرات قليلة من السنين — ، وسوف ينجح فى ذلك نجاحا لا نرى من أبعاده اليوم الا النذر اليسير » •

ثم بعد أن يعرض مؤشر زيادة السكان فى مصر من ١٨٨٧ الى ١٩٣٧ م يعقب على ذلك فيقول :

« وسيصبح فى مصر فى مدى ٩٦٨ سنة — أى أقل من ألف عام بقليل — أمة تعدادها ٩٧٣ مليارا من البشر ، أى أنها سوف تنمو بشريا

---

(١) ص ٣٤ (٢) ص ٣٥ — ٣٦ •

الى درجة لا تمكنها فقط من استعمار الكرة الأرضية ، بل من استعمار أعداد من الكواكب السيارة الأخرى » [1] .

ثالثا : يملكون من الثروات والمواد الخام ما يستطيعون به بنـــاء قوة صناعية تضارع أرقى الصناعات العالمية — ان لم تفوقها — وسوف تزداد هذه الثروات فى وقت تقل فيه فى البلاد الأخرى ، مما يجعلهم يتحكمون فى توجيه الصناعة فى العالم :

« يوم يقل الانتاج الغزير لهذا البترول ، الذى يغزو أسواق العالم اليوم سيحتل البترول الاسلامى — حسب التقديرات المتحفظة جدا — بعد اكتشـــاف باقى حقول الحزام البترولى فى غرب آسيا مركزا دوليا هاما ، وسيصل انتاجه رقما لم يعرف بعد ، ولا يستطيع الخبراء التكهن بـــه ، لأنه قد يفوق كل تقدير ... يجب ألا نغفل عن دلالة هذا التغيير وتأثيره اقتصاديا فى مركز العالم الاسلامى على مسرح التبادل التجارى العالمى » [2] .

رابعا : الاسلام ، ذلك الدين ، الذى له قوة سحرية على تجميع الأجناس البشرية المختلفة تحت راية واحدة ، بعد ازالة الشعور بالتفرقة العنصرية من نفوسهم ، وله من الطاقة الروحية مايدفع المؤمن به على الدفاع عن أرضه وثرواته بكل ما يملك مسترخصا فى سبيل ذلك كل شىء حتى روحه ، يحرض على التضحية بها فداء لأوطان الاسلام :

أى قوة وجدانية بعثت هذه الارادة اليوم فى الشرق ؟

قوة الوحدة الفكرية للاسلام ووجود الاحساس الحى للديـــن الاسلامى ، فهو ينتصر فى كل مكان ينزل فيه الميدان مع الأيديولوجيات الأخرى :

« ان اتجاه المسلمين نحو مكة — وطن الاسلام — عامل من أهـــم العوامل فى تقوية وحدة الاتجاه الداخلى بين المسلمين ، وأسلوب يضفى

---

(1) ص ٢٠٣ (1) ص ٢٢٦ — ٢٢٧

على جميع نظم الحياة فى المجتمع الاسلامى طابع الوحدة ، وصفة التماسك » [١] .

كتب أغا خان زعيم المسلمين فى الهند وصديق انجلترا فى عـام ١٩١٤م يقول :

« ان برنامج التربية والتعليم ، الذى وضعه الانجليز للهنـد ، ويقومون على تنفيذه يحمل فى طياته نزعات وطنية ، ولهذا نمت عند المسلمين فى الهند نزعة اقليمية ، غير أنهم لم ينطووا على أنفسـهم ، ولم تعزلهم عن اخوانهم المسلمين جبال الهملايا ، ولا امتداد المحيط الهندى ، فبينهم وبين اخوانهم المسلمين فى البلاد الأخرى وحدة لا تقبل الانفصال ، وحدة تعلو كل الخلافات المذهبية ، وتجمع كل الأوطان تحت لوائها ، أسست بين المؤمنين على قواعد دينية راسخة ، فلم يجمع المؤمنين تعاليم القرآن فقط ، بل أسهم أيضا فى وحدتهم تاريخ وفلسفة العرب والشعر الفارسى والمصرى والمغربى والأسبانى . والمسلمون الذين لا يشبعون من هذا المنبع هم الأتراك والعرب والفرس والهنود سواء اتصلوا بالغرب وبالثقافة الغربية أم لا . كل هؤلاء المسلمين مرتبطون بوحدة الفكر والشعور والانطباعات » [٢] .

ولهذا نجد المستعمرين ــ الحمر والبيض ، رغم الخلاف فيما بينهم ــ متفقين على شىء واحد ، وهو ضرب الاسلام وخنق كل الظروف ، واجهاض كل الملابسات التى تمده بأسباب القوة ، فتعاونوا فيما بينهم على خلق إسرائيل للحيلولة دون سيطرة المسلمين على هذه المنطقة الحساسة من العالم ، وهم يتسابقون ــ بأساليب مختلفة ــ لسلب ثروات هذه الأمة . وفى الوقت نفسه انطلقت ــ وما زالت ــ السهام من كل جانب للقضـاء على الاسلام كعقيدة ، فأبعدوه عن الحياة السياسـية والاقتصـاديـة ، وحرموا عليه التواجد فى ساحة القضاء ، اللهم الا شعارات يهدئون بهـا العامة ، ويرضى عنها أنصاف المثقفين مثل : « دين الدولة الرسـمى

(١) ص ٩٢ .

(٢) ص ٩٠ — ٩٦ .

الاسلام » و « الشريعة الاسلامية أصل من أصول التشريع » ولم يشر الى الشريعة الاسلامية فى قوانيننا التى نحكم بها الا فى قانون الأحوال الشخصية ، وحتى هذا القانون ، يتعرض لحملات صليبية الحادية ، يريدون أن يستبدلوه بقوانين غربية « تقدمية » بينما الغرب يتخلى عنها ، ويقترب — نوعا ما — مما قرره الاسلام ، فنتيجة الاستفتاء فى ايطاليا — منبع الكثلكة — كانت فى صالح اباحة الطلاق ، وأباحت السويد الطلاق دون الرجوع الى القاضى •

ان الداعين الى تغيير قانون الأحوال الشخصية فى المجتمع الاسلامى بما لايتفق مع الاسلام نبت من بذور وضعها الاستعمار فى العالم الاسلامى ، كى ينوب عنه فى محاربة الاسلام ، ويقابل المسلم الغيور على دينه هذا النوع فى كل مؤسسات الدول الاسلامية تقريبا ، ينتسبون الى الاسلام ، ويحاربونه • وقد يكونون من الذين يؤدون الصلاة ، ولكنهم يضربون الاسلام فى مقتله ، يرددون ألفاظ المستعمر ، وينفذون برامجه • ولضيق المجال لا أريد أن أتناول الأساليب التى يستخدمونها فى محاربة دينهم الا فيما يتعلق بقلم الرقيب (١) « المسلم » ، فولاؤه لسيده ، فهو لا يتورع أن يمنع نشر كتاب يفيد الشباب المسلم ، اذا كان فيه بيان لموقف سيده العدائى للاسلام والمسلمين ، أو يساوم على حذف ما فيه من حقائق ترضية لجهات أجنبية تحارب الأمة الاسلامية •

وقع كتاب « الاسلام قوة الغد العالمية » تحت بند المساومة ، فحجز فى الرقابة عامين كاملين ، خرج بعدهما — بعد مداولات — سليم النص ، مبتور المقدمة التى كتبها الأستاذ الدكتور محمد البهى • ولم يفرج عنه الا بعد أن كتبنا — تحت الضغط — هامش الصفحة ٢١٧ فى الطبعة الأولى ، والا بقى الكتاب مسجونا الى الآن •

وقد أعدنا اليه فى الطبعة الثانية ما بترته الرقابة — مميزا بوضعه بين حاصرتين [ ••• ] • ليقف القارىء على مدى تأثير المستعمرين على من يتولون أزمة القيادة فى بلادنا •

---

(١) ألغيت الرقابة الآن،ولذا استطعنا اعادة ما حذفه فى الطبعة الأولى.

ان اقبال القارىء على هذا الكتاب بهذه الدرجة ، واهتمامه به عقب ظهور الطبعة الأولى مباشرة اهتماما فاق كل تقدير ، لدليل على أن روح الاسلام لم تمت فى المجتمع الاسلامى وان توارت تقية ، وأن المسلمين لم — ولن — يرضخوا — الا ظاهريا فقط — للقوى التى تحول بينهم وبين تطبيق مبادىء الاسلام فى جميع نواحى الحياة ، فعندما شاع بينهم أن هذا الكتاب يبصر القارىء بنواحى القوة فى الاسلام ، ويبين له امكانية بناء قوة عظمى فى المنطقة الاسلامية ، تركع أمامها جميع القوى فى العالم ، وتخطب ودها ، وتحافظ على صداقتها ، سارعوا الى قراءته ودراسته ، مما حتم علينا اعادة طبعه حتى يتمكن كل مسلم من قراءته ، فيزداد وعيا بقيمة دينــه ، وأهميته فى التأثير على الأحداث العالميــة • وكان ذلك ما نبغى أولا وأخيرا تقربا الى الله حتى يرضى عنا •

والله لا يضيع أجر من أحسن عملا •

**د• محمد عبد الغنى شامة**

* * *

# مقـــــدمة

## للأستاذ الدكتور محمد البهى

قدم الناشر Wilhelm Goldmann في مدينة Leipzig بألمانيا كتاب : « الاسلام قوة الغد العالمية » لمؤلفه Paul Schmitz بهــذه الكلمة :

« باول شمتز عاش فى القاهرة عدة سنوات ويعرف جيدا : الأسس التى ينبثق عنها تطلع الشعوب الاسلامية الى الاستقلال ، الذى يعد أهم مشكلة سياسية فى الوقت الحاضر .

« وهذا الكتاب يوضح الخطر المتوهج الذى يمر عليه الانسان فى أوروبا بكل بساطة وفى غير اكتراث . فأصحاب الايمان بالاسلام يقفون اليوم ( قبيل الحرب العالمية الثانية ) فى جبهة موحدة معادية للغرب ، بينما الغرب نفسه لا يستطيع سوى أن يعرض تمزقه فى غير حدود ، تجاه هذه الارادة الحازمة .

« وهذا الكتاب هو نداء وتحذير يجب أن يلقى الاحترام الجــدى من أجل مصالح الغرب وحدها » من صحيفة الناشر الدورية .

*** 

بهذه الكلمات القصيرة يقدم الناشر هذا الكتاب . وهى كلمــات تنطوى : أولا : على أن هناك عداء بين الغرب الأوروبى والشرق الاسلامى وسببه ــ كما يشرحه مؤلف الكتاب ــ يعود الى الحملات الصليبيــة التى أظهرت تكافؤا فى القوة بين الشرق الاسلامى والغرب اذ ذاك ، ثم الى الحملات الاستعمارية التى دلت على تفوق الغــرب على هــذا الشرق الاسلامى ، وجمود هذا الشرق وضعفه .

وثانيا : أن الحرب العالمية ( الأولى ) مزقت الغرب وأبعدت عنه عامل التكتيل وهو عامل الروحية المسيحية ، بينما هذه الحرب ذاتها جمعت بين

المسلمين على أساس روحى وهو أساس الاسلام : « هزت مأسـاة الحرب ( الأولى ) أوروبا من الأعماق فأدرك الأوروبيون مدى الخسارة المـادية التى تكبدتها الدول الغربية بسبب هذه الحرب فى الشرق الاسلامى •• ثم ماذا ••• الا أن يحاول الأوروبيون اعادة تكوين الجبهة الأوروبية من جديد بحيث تكون قادرة على بعث حياة أخرى تتحكم فى توجيه مجرى التاريخ •• الا أن تبذل الجهود لتعويض أوروبا عما فقدته كى تحتل مكانا مرة أخرى كقوة فكرية ، وسلطة سياسية تسيطر على زمام الأمور فى مجال توجيه النزاع السياسى العالمى بين الشرق ( الاسلامى ) والغرب •

« ويستوى فى تحقيق هذا الهدف جمع الشعوب حول معبود واحد وهو ما يسمى بـ « اتحاد الشعوب » أو تنفيذ فكرة « الوحدة الأوروبية » التى لم تزل بعد أفكارا معلقة فوق الذرات المتطايرة من قلاع المصـالح الأوروبية •

« قضت الحرب العالمية ( الأولى ) على الأفكار الانسانية ودفنتها فى ساحة القتال • فلا يوجد اليوم مبدأ يجمع الدول الغربية على طريـق العمل المشترك والتعاون لحماية مصالحها فى أفريقيا وآسيا حتى من الناحية الدينية ، اذا نظرنا من جانبها الى ما يمكن الاستفادة منه لتجميع أوروبا • اذ لم يعد للوحدة وجـود بين الدول الغربية •• ولم يبق لأوروبا اليوم بهذا العالم الآخر ( الشرق الاسلامى ) أو من القوى التى كانت تدفعها الى التشييد والبناء •• سوى الخوف :

الخوف من الشعوب الآسيوية ( الصين ) التى تهدد بمساعدة موسكو النظام الأوروبى •

والخوف من الشعوب الأفريقية ونموها البشرى نموا مطردا ، ألقى الرعب فى قلوب المراقبين السياسيين •

اذ بدت معالم خطره فى وجود كثير من الأفريقيين فى فرنسا • ومعنى هذا أنهم وضعوا أقدامهم على أرض أوروبية •

« وهكذا : يرى المسلمون اليوم حالة تفكك الأوروبيين — أعدائهم بالأمس — فتستيقظ أمام هذه الصورة : الثقة بالنفس . وتزداد مطامعهم، وينسج خيالهم آمالا عريضة يندفعون الى تحقيقها فتنمو لديهم حرب المغامرة واشعال النضال والكفاح ضد أوروبا .

« وبينما تزداد صورة البلاد الغربية تمزقا يقترب الشرق (الاسلامى) من الوحدة التى ينادى بها المسلمون ، فيتفادى السقوط فى هوة الصراع السياسى التى سقطت فيها أوروبا اليوم » [١] .

ثم يستخلص المؤلف من ضعف الغرب فى تمزقه السياسى ، وقوة المسلمين فى تماسكهم الايمانى بالاسلام .. عودة المسلمين الى القوة ان هم أحسنوا استثمار مواردهم الطبيعية ، وموقعهم الجغرافى فى العالم . وان هم تعلموا التيكنولوجيا كما تعلمها الأوروبيون .

« وسيعيد التاريخ نفسه مبتدئا من الشرق ( الاسلامى ) عودا على بدء : من المنطقة التى قامت فيها القوة الاسلامية العالمية فى الصدر الأول للاسلام وستظهر هذه القوة التى تكمن فى تماسك الاسلام ، ووحدته العسكرية ، وستثبت هذه القوة وجودها ، اذا ما أدرك المسلمون : كيفية استخراجها والعمل على الافادة منها . وستقلب موازين القوى . لأنها ( أى قوة الاسلام ) قائمة على أسس لا تتوفر فى غيرها من تيارات القوى العالمية . وقد أدرك الكاتب الانجليزى «Hilaire Belloc» [٢] مدى فاعلية هذه القوة — معارضا بذلك كثيرا من الأحكام السطحية عليها — حين كتب :

« لا يساورني أدنى شك فى أن الحضارة التى ترتبط أجزاؤها برباط متين وتتماسك أطرافها تماسكا قويا ، وتحمل فى طياتها عقيدة مثل الاسلام . لا ينتظرها مستقبل باهر فحسب . بل ستكون أيضا خطرا على أعدائه . ومن الممكن أن يعارض المرء هذا الرأى بأن الاسلام فقد سيطرته

(١) من كلام المؤلف : ص ٣٥٥ .      (٢) توفى سنة ١٩٥٣ .

على بعض الأشياء المـادية وخاصة ما يتصل بالحرب • فهو لم يلحق بالتقدم التيكنولوجى الحديث • ولا أستطيع أن أدرك : لماذا لم يعـوض الشرق الاسلامى ما فاته فى هذا الميدان ؟ اذ لا تحتاج علوم الهندسة الحديثة الى طبيعة عقلية خاصة • بل يتطلب الالمام بهـا والتفوق فيها الى الخبرة وتوجيه الخبراء • ومن المؤكد : أنه غالبا ما يحدث : أن تكـون حضارة ذات منزلة عالية فى التقدم التيكنولوجى •• هى أقل درجة من حضارة أخرى لم تبلغ تطورها بعد فى هذا المجال ما بلغته الأولى :

« اذن فهناك احتمال كبير فى أن يصبح شعب ظهر حتى الآن أن مواهبه فى الناحية التيكنولوجية ضعيفة ••• سيدا على شعب آخر استولت التيكنولوجيا على حواسه ومشاعره ، فلم ينقذه أحد ، وتحكمت فى سلوكه النظريات التى تسلب الاحساس بالطبيعة •

« لماذا لا يتعلم العالم الاسلامى ما تعلمنا فى مجال التيكنولوجيا ؟ وفى مقابل هذا : سوف يكون من الصعب علينا استعادة التعاليم الروحية — وهى من العوامل الأساسية لوحدة أوروبية — التى فقدتها المسيحية ، بينما لم يزل الاسلام يحافظ عليها [١] » •

وثالثا : انذار أوروبا بخطر القوة النامية الجديدة فى الشعوب الاسلامية ودعوتها الى العمل فى حزم لرد خطر هذه القوة ووقف نموها وتزايدها ، كى تبقى أوروبا ذات سيطرة اقتصادية وسياسية • ودرء خطر هذه القوة النامية والمتزايدة هو فى توهين علاقة المسلمين باسـلامهم وتوجيه حملات تشويهية ضد الاسلام : « ان انتفاضة العالم الاسلامى صوت نذير لأوروبا ، وهتاف يجوب آفاقها يدعو الى التجمع والتساند الأوروبى ، لمواجهة هذا العملاق الذى بدأ يصحو ويزيل النوم عن عينيه • هل يسمعه أحد ؟ • ألا من يجيب ؟ » [٢] •

* * *

---

(١) من كلام المؤلف : ص ٣٥٦ •
(٢) من كلام المؤلف : ص ٣٥٦ •

وعنى مؤلف الكتاب فى الباب الثالث منه بابراز الاسلام كعامل رئيسى فى تجميع المسلمين فى مواجهة الغرب الاستعمارى ، حتى يصبح هدفا للغرب فى محاولاته توهين العلاقات بينهم وكسر شوكتهم قبل أن تقوى فى مواجهة الاستقلال السياسى والاقتصادى الذى يمارسه الغرب فى بلاد المسلمين •

وقد أظهرت هذه الفترة ( ما بعد الحرب العالمية الأولى التى قامت فيها حركات وطنية فى العالم الاسلامى جاهرت باستقلال البلاد وبناء الدول فى منطقة الشرق الأوسط بناء حديثا ) : أن الاسلام ليس عبادة جوفاء لا أمل فيها ، وانه لم يعد تلك المبادىء التى تعادى التطور ، أو انه الشكل البدائى للحياة الانسانية البعيدة عن التأثير فى مجرى الأمور ، كما شاع ذلك فى فترة انحطاط الفكر الاسلامى • بل انه أصبح عنصرا حيا يؤثر فى الأحداث عندما قرر علماء الاسلام تأييد الحركة الوطنية واضفاء صفة القداسة عليها ، ومنحوها رمز الدين فارتكزت على دعائم تمتد جذورها فى قلب كل فرد فى المجتمع • وقد أدى ذلك الى اقامة علاقة خصبة وبناءة بين العناصر القومية والدينية • وطغت هذه العلاقة على جميع الأحداث • حتى أن تاريخ العالم الاسلامى فى زمن ما بعد الحرب ( العالمية الأولى ) لم يكن فى حد ذاته شيئا آخر غير تاريخ مسطر بين سجلاته : أخبار تبادل الايديولوجيتين الدينية والقومية وتقاربهما [1] •

« وان حركة القومية العربية التى ظهرت على أرض هذه المنطقة ( الشرق الأوسط ) هيأت لكل الحركات ذات الاتجاهات المختلفة أسلوبا للعمل جمعهم على طريق كفاحهم ووسع جبهة الالتقاء ، حتى وجدت كل حركة لها مكانها فى هذا الاتجاه السياسى الذى يطلق عليه اسم القومية العربية •• ذلك الاتجاه الذى جذب كل القوى الى قاعدة صلبة متينة تقوم على أسس ثابتة مشتركة وهى الاشتراك :

١ — فى اللغة •   ٢ — والثقافة •   ٣ — والدين •

---

(١) المصدر السابق : ص ١٥٩

ربطت كل الاتجاهات الوطنية فى جبهة واحدة ضد القوى الغربية ونفوذها • وبهذا مثلت القومية العربية دور القومية الاسلامية • فهى عربية فى مظهرها اسلامية فى مخبرها وأهدافها (١) •

« ويتضح أن قوة القرآن فى جمع شمل المسلمين لم يصبها الوهن ، ولم تنجح الأحداث التى مرت على المسلمين فى القرون الأخيرة فى زعزعة ثقتهم به كقوة روحية تستطيع أن تجمع التيارات المختلفة التى نادى بها رجال يعدون من الصفوف الأولى التى صارعت الاستعمار الغربى على الصعيد السياسى ، وكيف جذبت الأحداث الاسلامية الزعماء الى التكاتف والتساند ضد الغرب : ان الروح الاسلامية ما زالت تسيطر على تفكير القادة وعواطفهم ، وستظل كذلك ما دامت هناك شعوب اسلامية ربطت مصيرها بتعاليم الاسلام ، واعتقدت أن الرباط الجامع بين أجناسها المختلفة هو الاسلام • ان روح التعاطف والتواد بين المسلمين هو السبب الرئيسى فى تجميع القوى الوطنية على طريق القومية الاسلامية (٢) •

ونظرة المؤلف الى الاسلام كقوة فى التجمع والتكتل للمسلمين ضد الغرب المستعمر •• لا تتغير حتى ولو أبعد الاسلام رسميا فى مجتمع اسلامى تحت ضغط الاتجاه الخاص بنظام الدولة :

« وان دعوة تركيا الى التحرر من الدين كانت عنيفة عن باقى الحركات الوطنية التى قامت فى العالم الاسلامى ، وأصبحت فريدة فى منهجها وسياستها ، فخرجت عن أن تكون مثالا لتلك القوى التى يتكون منها البناء الجديد للشرق الاسلامى • ورغم هذا المنهج الذى سلكته الحكومة التركية فلا زال حتى اليوم فى تركيا مراكز قوى ذات ثقل لدى الشعب تهتم بالدعوة الى عودة الدين الى الحياة السياسية ، مما يدل على أن « القومية » لم يخل لها الجو بعد ، وما فتىء التطور التاريخى سائرا فى طريقه لم ينته من هذه الحقبة التاريخية • فالمعارضة الداخلية

---

(١) المصدر السابق : ص ١٥٩ — ١٦٠
(٢) المصدر السابق : ص ١٦٠ — ١٦١ .

ضد النظام — الداعى الى التحرر من الدين — لم تزل أقوى مما قدر لهـــا المراقبون ، وتتمتع الآن بقوة لم يتوقعها أحد » (١) .

... ولا تتغير نظرته السابقة كذلك عندما يقيم القلاقل ضـــد الاستعمال فى شمال أفريقيا :

« وهكذا أصبح واضحا : أن كل الثورات والقلاقل العامة فى شمال أفريقيا — وان كان سببها المباشر أزمة اقتصادية تهدد بقحط عام — تحمل طابعا دينيا على نحو ما ، وآخر وطنيا فالدين والوطنية هنا أقوى منهما فى المناطق الأخرى من العالم الاسلامى ، وهما :متحدان لا ينفصلان » (٢):

ولم ينس المؤلف أن يشير الى دور الأزهر فى الموقف الصلب ضد الاستعمار الغربى ، حتى تعمل العوامل الأجنبية وربما بمساعدة الوطنيين على اضعافه والنيل من رسالته ومن زيادة علمائه وطلابه :

« ان موقف الأزهر بالنسبة للقوى الأوربية معروف ، فهو لا يهادن المستعمر ... ويعبىء كل من اتصل به : يكره الأجانب الذين اقتحموا ديار الاسلام ، ويهيئهم لمناضلة الاستعمار الغربى » (٣) .

... اسلام .... وأزهر .

قوتان مخيفتان للغرب المستعمر المستغل ، وهما معا مصدر الثورة عليه والبغض والكراهية له . هكذا : يراهما المؤلف ، وهكذا يحذر الغرب ويناديه قبل فوات الأوان بمواجهة « العملاق الذى بدأ يصحو وينفض النوم عن عينيه » .

* * *

يضاف الى الاسلام ، على نحو ما يوضح فى الباب الرابع — كعامل تجمع وقوة فى العالم الاسلامى ضد الغرب المستعمر — فى نظر المؤلف ،

(١) المصدر السابق : ص ١٦٦ — ١٦٧ .
(٢) المصدر السابق : ص ٣٢٨ .
(٣) المصدر السابق : ص ٣٢٨ .

ثلاث قوى أخرى ، تستطيع أن تخلق منه العملاق القوى فى وجه الغرب المتفوق فى حضارته التيكنولوجية :

١ — الوضع الاستراتيجى للشرق الاســلامى كمركز للمواصلات العالمية : البحرية ، والبرية ، والجوية •

٢ — والزيادة المطردة فى عــدد سكانه •

٣ — وثراؤه من المواد الخام فى أرضه ، وخاصة : البترول فى غرب آســيا أو الشرق الأدنى ، والقطن فى مصر ، والحديد فى تركيا فى سلسلة الجبال الشرقية الذى تصل نسبته الى ٦٨٪ والنحاس فى ايران بدرجة جيــدة •

« وبجانب هــذا الوضع ( كمركز للمواصلات العالمية ) الذى أكسب الشرق ( الاسلامى ) وضعا استراتيجيا فى السياسة الدولية ، يوجد لديه عنصران آخران يؤثران تأثيرا كبيرا فى سياسة التعــاون بين الأقطار الاسلامية الأمر الذى يؤدى به الى أن يصبح غدا قوة عالمية ( لو ترك دون تدخل فى شأنه ، ثقافيا ، وسياسيا ، واقتصاديا ) :

( ا ) الزيادة المطردة فى عدد سكانه •

(ب) وما توصلت اليه الأبحاث من أن فى باطن أرضه ثروة من المواد الخام تكفى كما يقول الخبراء : لقيام صناعة تضارع مثيلاتها فى أوروبا • بل سيكون لدى الشرق فائض من المواد الخام يجعله من أولى المناطق المصدرة لها فى العالم •

« والزيادة المطردة فى السكان ، وكذلك وفرة المواد الخام ، هما مصدرا القوة النامية فى العالم الاسلامى »[1] •

ومصادر القوة النامية من اطراد زيادة السكان ، ومن وفرة المواد الخام فى الشرق الاسلامى •• هى — فى نظر المؤلف — سبب الصراع بين دول الغرب فى استعمارها لبلاد الشرق ، وهى بذاتها سبب تنافس

---

(١) المصدر السابق ص ٢٠١ •

الشركات الغربية بينها وبين بعضها بعضا ، ثم أخيرا سبب دخول روسيا القيصرية ثم روسيا السوفيتية الباشفية بعد ثورة أكتوبر سنة ١٩١٧ مجال العالم الاسلامى [ مستعمرة استعمارا سافرا ، أو تحت ستار مساعدة الحركات التحررية الوطنية ضد الغرب الاستعمارى (١) .

وفى دخول روسيا السوفيتية البلشفية — تحت ستار مساعدة حركات التحرير بالسلاح — مجال العالم الاسلامى يشير المؤلف فى الباب الخامس الى خيبة الأمل التى منيت بها السياسة البلشفية بسبب مقررات المؤتمر الاسلامى فى باكو فى خريف سنة ١٩٢٠ وقد دعت اليه الحكومة السوفيتية أكثر من ألفين وخمسمائة من جميع البلاد الاسلامية . أن قرر المؤتمر رفض المقارنة بين الاسلام والاشتراكية ، التى أعلنها الشيوعيون فى موسكو على المؤتمر . ومفادها :

أنه كما يدعو الاسلام الى المساواة بين أتباعه ويؤاخى بينهم .. كذلك يدعو النظام الاشتراكى البلشفى الى المساواة بين كل الذين يؤمنون به . فهو يشبه النظام الاسلامى .

« وكان لرفض المسلمين المشتركين فى المؤتمر لهذا التحليل رفضا باتا .. أثر على السياسة البلشفية تجاه الشرق على مدى سنوات طويلة اذ جمدها وأعاقها عن الوصول الى أهدافها الأصلية التى أرادها الشيوعيون يوم ولوا وجوهم شطر الشرق لاشعال الثورة فيه ضد القوى الأوروبية . الا أنها — أى السياسة البلشفية — تسببت فى حدوث تغييرات فى الشرق الاسلامى ودفعت القوى العظمى الغربية الى تعديل سياستها ، كما كانت عاملا مهما للنمو السياسى فى العالم الاسلامى » (٢) .

وروسيا السوفيتية البلشفية تصر فى سياستها تجاه البلاد الاسلامية على أنها ضد الاستعمار الغربى ، وأنها لا تستهدف الاستعمار وان غزا

(١) حذفت الرقابة كل ما ميزناه فى المقدمة بالحاصرتين[...]
(٢) المصدر السابق : ص ٢٤٦—٢٤٧ .

جيشها الأحمر بعض بلاد المســلمين • ينقل مؤلف الكتاب عن صحيفة « ازفستيا » فى سنة ١٩٢٠ بعد دخول الجيش الأحمر فارس ومرابطته فى شماله ، وبعد بلشفة « بخارى » بعد اغتصابها عنوة من ايران :

ان من الضلال أن نعتقد : أن الثوار الفارسيين شيوعيون ، وأنهم النموذج الذى يلتزم بقواعد ثورتنا الاشتراكية • فليس فى فارس عمال مصانع بل هو بلد زراعى متخلف • ولا ينبغى : أن يحاول هناك القيام بثورة لم توجد بعد الافتراضات المقدرة لقيامها ، ولم يهيأ الجو لمثل هذا العمل فنحن ( أى السوفييت ) نحتاج الى صداقة فارس • لأن وراء هذا البلد تمتد مناطق نفوذ انجلترا ، وازدياد النفوذ الروسى فى فارس طبقــا لهذا المفهوم يعنى بالنسبة لرأس المــال الانجليزى •• اجباره على مسالمتنا ] [١] •

ومن الحقائق ذات الأهمية التى يكشف عنها المؤلف فى كتابه — فى الباب الثانى — أن العقل الأوروبى الذى يدخل بلاد المسلمين فى صورة « الخبرة » •• يحاول الاستقرار فيها ويصعب التخلص منه •

« ان العقل الأوروبى الذى استعانت به تركيا ليساعدها على تنفيذ البرامج الاصلاحية ، كى تستطيع الدفاع عن نفسها ، وتتمكن من الوقوف ضد الهجوم عليها لا يستطيع أحــد التخلص منه أبدا • لقد أعطى من الامتيازات ، ونال من الفرص ما يمكنه من تثبيت أقدامه فوق هــذه الأرض » [٢] •

وبعد : فيرى المؤلف أن :

- الاطراد المستمر فى زيادة السكان بين المسلمين •
- والثروة الوفيرة التى يكشف عنها البحث كل يوم فى أراضيهم
- والمركز الاستراتيجى الفريد فى المواصلات العالمية لبلادهم ••

---

(١) المصدر السابق : ص ٢٥١ •
(٢) المصدر السابق ص ٨٤ •

... كل ذلك يمثل القوة ذات الأثر البعيد للمسلمين فى غدهم ، أن هم أحسنوا استخدامها ، وبقوا متمسكين باسلامهم ، وتقدموا فى العلم والتيكنولوجيا .

كما يرى : أنها فى الوقت نفسه مصادر اغراء دفعت الغرب — وتدفعه — الى [ الاستعمار السافر ودفعت — وتدفع — روسيا البلشفية الى الاستعمار المقنع تحت ستار المساعدة العسكرية لحركات التحرر الوطنية من الغرب المستعمر .

ويعتقد أن الاسلام هو الرباط القوى الذى يجمع المسلمين فى وجه الاستعمار أيا كان مظهره فقد وقف فى وجه الغرب بالثورات والانقلابات ، ووقف فى وجه السوفييت البلشفى بعد ما كشفت القناع فى دخول الجيش الأحمر فارس ، وفى مؤامرة المؤتمر الاسلامى فى باكو فى سنة ١٩٢٠ ] .

... وينصح الأوروبيين بأن يقفوا بالمرصاد لنمو عوامل القوة بين المسلمين بطريق أو بآخر ، ان هم أرادوا الحفاظ على وضعهم الدولى فى السياسة والاقتصاد وليس أمامهم الا أن يتكتلوا تحت شعار « الوحدة الأوروبية » بعد ما فقدوا الوحدة المسيحية ، التى مزقتها تلك الحرب العالمية الأولى .

... ويرى فى وضوح : أنه من الممكن للمسلمين أن يتقدموا فى العلم والتيكنولوجيا ، كما تقدم الأوروبيون . وهم عندئذ ليسوا فى حاجة الى رباط يجمع شـــملهم سوى الاســـلام وهو قائم فعـــلا لم يفقدوه بعـــد .

* * *

هل يدرك المسلمون قيمة اسلامهم ؟

هل يقرأ المسلمون فى قرآنهم قول الله تعالى : « **لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شىء الا أن تتقوا منهم تقاة ، ويحذركم الله نفسه ، والى الله المصير** » (١) .

---

(١) آل عمران ٢٨ .

وقوله : « **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر ، قد بينا لكم الآيات ، ان كنتم تعقلون** » (١) .

وقوله : « **ان تمسسكم حسنة تسؤهم وان تصبكم سيئة يفرحوا بها ، وان تصبروا وتتقوا لايضركم كيدهم شيئا ،ان الله بما يعملون محيط** » (٢) .

[ هل يدرك من يسمون أنفسهم باليساريين أو الاشتراكيين البلشفيين بين المسلمين اليوم : أنهم باشتراكيتهم البلشفية لا يسهمون اطلاقا الا فى تخريب بنـــاء أمتهم ، ويساعدون بالأحرى الاستعمار الغربى السافر ، وكذلك الاستعمار البلشفى المقنع على تبديد قوة الاسلام ، واضعاف قوة الاســـلام ، واضعاف قيمه فى نفوس المســـلمين . وبذلك يكون الطريق معبدا :

١ — لأن تصبح الملايين من المســـلمين أتباعا للمستغلين لهم من الأجانب عنهم .

٢ — ولأن تصبح ثروة أرض المسلمين التى لا تنفد لأسياد جدد ، يضمرون لهم الاحتقار فى حاضرهم ، ويتمنون الموت لهم فى غدهم .

٣ — ولأن يصبح موقع بلادهم من العالم وســـيلة للتسلط عليهم وليس طريقا لسيادتهم ] .

ان الحرب العالمية الثانية ان أتت بتغيير فى صلة القوى الاستعمارية العالمية بالشرق الاسلامى .. فذلك التغيير هو ابراز الصراع والتنافس بين زعماء هـــذه القوى على استغلال ثروة المسلمين وما لديهم من عوامل القوة من جانب وتضامن هؤلاء الزعماء من جانب آخر على النيـــل من الاســـلام ، لأنه العقبة لهم جميعا فى ســـبيل الاستغلال ، وفى الوقت نفســـه : هو القوة الباقية فى حماية المسلمين من الذوبان والتبعية لمن سواهم ممن يريدون السيادة عليهم .

---

(١) آل عمران : ١١٨ .  (٢) آل عمران : ١٢٠ .

ومؤلف كتاب : « الاسلام قوة الغد العالمية » يبصر بكتابه أوروبا فى فترة ما بعد الحرب العالمية الأولى بيقظة الشرق الاسلامى ، وقوة الاسلام فى ترابط المسلمين .

ويدعو الأوروبيين الى الوحـــدة فى مواجهة هــذه اليقظة ، كى يحتفظوا بمصالحهم الاقتصادية والسياسية فى بلاد هــذا الشرق ، وكى لا يصبحوا فى الغد القريب أو البعيد تحت رحمة هؤلاء .

وما زالت صلاحية دعوته الأوروبيين جميعا الى التماسك فى مواجهة الشرق الاسلامى .. قائمة اليوم وبعد الحرب العالمية الثانية ، رغم ظهور الصراع بين الرأسمالية الغربية والاشتراكية البلشـفية . اذ لو قوى الاسلام فى غــد المسلمين لأصابت رهبته طرفى الصراع ، خشــية من « أزمة استغلال » تصيبهما بالضيق أو الوهن معا .

وكتاب المؤلف مع ذلك يمكن أن يكون الآن من جانب آخر ـــ كما كان بعد الحرب العالمية الأولى ـــ دعوة الى المسلمين ، كى يزدادوا ايمانا بالاســـلام بالتمسك به ، ابقاء على وجودهم ، واحتفاظا باستقلالهم السياسى والاقتصادى . وفى الوقت نفسه يمكن أن يكون لهم انذار بالفناء ان هم عاونوا [المستعمرين البيض والحمر] على السواء على اضعاف الاسلام . لأنهم عندئذ يكونون قد فقدوا الرباط الروحى بالاضافة الى ما هم فيه من تخلف واسع المدى عن التفوق الأوروبى الحضارى المادى ، والعلمى والتيكنولوجى .

وعوامل الهدم [ الأيديولوجية ] التى تحاول أن تقضى على الاسلام الآن ، وان باشر التقويض بها من يعدون ضمن المسلمين [ وقد يكونون من بين قادتهم ] لم تنل منه بعد ، وان كانت على الأمد الطويل ستذهب برونقه وصفاء مبادئه فى أعين الأجيال الصاعدة .

* * *

ومؤلف الكتاب ـــ فى الباب الثالث منه ـــ يجعل من المستحيل قيام دولة على أساس « وحدة اسلامية » بين المسلمين ، بعد ما قوض كمال

أتاتورك الخلافة فى استنبول : « بات من المستحيل قيام دولة على أساس فكرة الوحدة الاسلامية • بعد ما محا كمال باشا أتاتورك عرش السلطان وقضى على الخلافة الاسلامية فى تركيا • كذلك باءت بالفشل محاولة ظهرت بعد الحرب ( العالمية الأولى ) فى مؤتمرات القدس ، ومكة ، لاحياء فكرة الوحدة الاسلامية التى نادى بها السلطان قبلا ، ولم يستطع المؤتمرون تجميع الدعاة لتلك الوحدة » •

« ولهذا ظهرت القومية الاسلامية ( وهى فكرة تجمع بين الاتجاه الوطنى ممزوجا بالدعوة الى الدين ضد الاستبداد الداخلى ، ومقاومة الاستعمار الخارجى ) واحتلت مكان الوحدة الاسلامية » [1] •

ولكن فى الوقت نفسه يقدر امكان : « وحدة أوروبية » على أساس المصالح المشتركة ، فيدعو الأوروبيين الى اقامة هـذه الوحدة ، مع اعترافه بضعف الرباط الروحى المسيحى بينهم ، وأساس « المصالح المشتركة بينهم » — وهو أساس منافع اقتصادية مادية متبادلة — يستحيل أن يقيم « وحدة » من أى نوع الا مظهرا مؤقتا ولتحقيق السلب والاعتداء • اذ من شأن المنافع المـادية والحصول عليها أن يفرق ولا يجمع ، وأن يخاصم ولا يلائم • والرباط الحقيقى الذى يكتل هو الرباط الروحى • لأنه الرباط الذى يسمو فوق الماديات ومتعها ، وينفذ الى دائرة القيم الانسانية من الاخاء ، والمودة ، والتعاون ، والمحبة المشتركة •

وقد تحدث المؤلف عن الحركة الوهابية ، والحركة السنوسية •

[ ولو ظهرت له فى ذلك الوقت معالم حركة الاخوان المسلمين لتحدث عنها وأشار اليها ] •

وفى حديثه عن الحركتين الوهابية والسنوسية أشاد بدفعهما الايجابى نحو الوحدة والتكتل بين المسلمين • وذكر أن الذى وقف أو حال دون الاستمرار فى ايجابيتها نحو الانتشار الشامل •• عوامل خارجية تدخلت •

---

(١) من كتاب المؤلف : ص ١٥٤ •

ومعنى ذلك : أن الدعوة الى الاسلام لو وجدت منطلقا سليما لأثمرت ثمرتها نحو « الوحدة الاسلامية » ، مهما كانت العقبات فى الطريق • فدعوة ابن تيمية — التى هى أساس الحركات الاسلامية منـذ القرن الثامن عشر — لم تزل هى الأساس للدعوة الى اصلاح الفكر الدينى منـذ ابن تيمية •• حتى الآن • ودعوته الى الرجوع الى القرآن والسنة الصحيحة التى رفع بها صوته — حرا طليقا أو فى سجنه — الى أن مات •• هى دعوة : « الوحدة الاسلامية » بعد الضعف والجمود • والدعوة الى نبذ عوامل الطائفية والفرقة بين المسلمين •

ولكن اضطهد ابن تيمية ، واضطهدت الوهابية ، واضطهدت السنوسية [ واضطهد الاخوان المسلمون ] اما بفعل الاستبداد الداخلى فى الحكم أو بفعل الاستعمار وأعداء المسلمين • وشوه جمال الدين الأفغانى فيما يكتبه المؤرخون نقلا عن أعدائه الأوروبيين • لأنه صاحب « الجامعة الاسلامية » وهى دعوة تغضب الاستعماريين المستغلين •

وزعماء الدعوة الى الوحـدة أو الجامعة الاسـلامية لم يريدوها « دولة واحدة » بقدر ما أرادوها تنسيقا فى الاتجاه والنشاط : الفكرى ، والسياسى والاقتصادى والاجتماعى ، بين المسلمين جميعا •

انه لم يزل هنـاك مكان للدعوة الى جامعة أو وحدة اسلامية بين المسلمين أرحب بكثير من ذلك المكان الآخر للدعوة الى « وحدة أوروبية » أو « وحدة عمالية عالمية » • ولو أن دعوة الجامعة الاسلامية فى بدء أمرها وجدت قوة مادية تظاهرها كتلك القوة المادية التى تساند الشيوعية منذ الثورة البلشفية الروسية لأصبحت اليوم حقيقة واقعة بين المسلمين ، يحرسونها بايمان القلب •

[ بدلا من سفك الدماء ، والاعتداء ، والنيل من الحرمات ، واهدار الكرامات البشرية ] •

*** 

وكتاب : « الاسلام قوة الغد العالمية » •• يجب أن يقرأه المسلم

المعاصر ليعرف : فى أى جو يعيش المسلمون الآن ، وأية وسيلة تنجيهم من العصابة الدولية للمستعمرين ، وأى طريق يتحتم عليهم أن يسلكوه ، ان أرادوا لأنفسهم الحياة الكريمة والسير الحقيقى على أرض بلادهم التى أرادها الله لهم وجعلها نعمة مباركة عليهم .

* * *

والدكتور محمد عبد الغنى شامة الذى قام بترجمة الكتاب من الألمانية الى العربية هو أستاذ شاب لمادة مقارنة الأديان بكلية أصول الدين — بجامعة الأزهر ... يجمع فى دراسته بين الثقافة الاسلامية العربية فى الأزهر ، والثقافة الفلسفية الغربية فى الجامعة الحرة ببرلين الغربية . تخرج فى كلية اللغة العربية — قسم الفلسفة ١٩٦١ ، وسافر الى ألمانيا فى منحة دراسية فى يوليو ١٩٦٢ وحصل على درجة الدكتوراه فى الفلسفة ١٩٦٨ وكان تخصصه فى النحل والملل والمعتقدات .

وهو لذلك مؤهل بدراسته المزدوجة .. لهذا العمل العلمى الدقيق واتمامه لترجمة الكتاب على نحو ما يقدمه اليوم للقارىء العربى أمارة على استطاعته الفنية فى اللغتين معا ، ثم على مدى وقوفه على اتجاهات الأحداث التى مرت وتمر بالشرق الاسلامى .

واختياره لنقل هذا النوع من الكتب الى اللغة العربية دليل على ما يتملكه من وعى برسالة العالم المسلم فى عصرنا الذى نعيشه الآن وهو عصر التحديات الأيديولوجية للاسلام ، وعصر الصراع بين القوى المادية العالمية على استغلال العالم الاسلامى فيما بين يديه من ثروات طائلة ، وفيما له من طاقات بشرية : استهلاكية وانتاجية .

وفقه الله فيما اختطه من رسالة له ، تعبيرا عن ايمانه بالاسلام ومستقبل المؤمنين به .

مصر الجديدة فى : ٨ رمضان ١٣٩١ هـ
٢٧ اكتوبر ١٩٧١ م

**د. محمد البهى**

* * *

الباب الأول

# المجال المفتوح

# المجال المفتوح

لقد تغيرت مناطق كثيرة فى العالم بعد الحرب العالمية ، ولكن لا توجد منطقة تحولت تحولا جذريا فى جميع نواحى الحياة مثل منطقة الشرق الاسلامى التى تسيطر على الطريق من شمال افريقيا — شاطىء البحر الأبيض المتوسط — الى الهند والشرق الأقصى ، ففيها سقطت آخر مملكة اسلامية كبرى ، وقامت على أنقاضها دول حديثة تعتمد على القوميات واتصلت المنطقة بالبلاد الغربية واحتكت بالمدنية الأوروبية ونتج عن هذا أن تغير شكل بنائها الاجتماعى ونطاقها الاقتصادى والسياسى ، فقد قامت دويلات مستعمرة أو نصف مستعمرة على أنقاض الأوضاع السياسية فى منطقة الشرق الممزق التى كانت تتنازعها أطماع السياسة الدولية والتى كانت منذ عشرات السنين حقل تجارب لاختيار مدى القوى الاستعمارية الكبرى ، وقد وضعت الحرب حدا لهذه المنازعات بتقسيمها ، غير أن هذه الدول الجديدة حاولت بناء كيانها بمجهودها الذاتى وبمعاونة بعضها البعض فنظمت الحدود بينها كما ساندوا تأمين وجودهم ضد توسع القوى الاستعمارية العالمية ، وان كانت تتخذ هذه المحاولة أحيانا شكل الوقيعة بين الدول الاستعمارية •

ان الانهيار الذى عم المنطقة أثناء الحرب العالمية كان سببا فى ظهور حركة جرى الاستعداد للقيام بها منذ عشرات السنين ، حركة تدعو الى ايقاظ الوعى التاريخى والى الاستقلال السياسى ، وعلى اثرها لعبت شعوب الشرق الاسلامى دورا ايجابيا على مسرح السياسة العالمية بعد أن ظلت عشرات السنين سلبية ، اذ بلغت سن الرشد لممارسة دورها كطرف فى مناقشات تقرير المصير ، وبذلك ابتدأت حقبة جديدة فى هذا القرن فى تاريخ النزاع بين الشرق والغرب ، فى هذه الحقبة كافح — ومازال — الشرق الاسلامى للحصول على المساواة فى السياسة

العالمية ، ودافع عن وجوده فى منطقة لها أهميتها كسوق عالمى ، غنية بالمواد الخام ، وقبل هـذا كله فهى نقطة اتصال ومنطقة عبور بالنسبة لحركة المواصلات العالمية .

هـذا التحول الذى جرى — ويجرى — فى المنطقة الاسلامية منـذ الحرب العالمية أعد له وبدىء فيه قبلها بعشرات السنين ، فقد فتحت الدول الغربية — وعلى الأخص انجلترا — المنطقة لهذا التغيير الداخلى قبل الحرب العالمية على الصعيد السياسى والاقتصادى ، فقد أتيح لها — بناء على مخطط استعمارى — أن تزعزع البنـاء السياسى والاجتماعى القـديم الذى بلغ سن الشيخوخة بمرور القرون ، ولكنه رغم ضعفه وتهالكه استطاع أن يتصدى لمحاولات الاصلاح من جانب الدول الغربية . وفى الحرب العالمية كسر السلاح الغربى القيـود التى عاقت حركات التقدم ، وقطع الحبال التى قيدت المجتمع بتقاليد قديمة وتعاليم موروثة .

ان التغيير فى منطقة الشرق الاسلامى ظهر فى أشكال وأساليب متعددة من أهمها : أن شعوبه أصبحت شريكا ذا قدرة على العمل الايجابى فى مجال الاقتصاد العالمى ، واتصلت فكريا بالعالم الخارجى ، ولعبت دورا هاما على مسرح السياسة العالمية ، ولا يمكن أن يفهم هـذا ويقدره حق قدره الا فى اطار أهمية هـذه البلاد بالنسبة لأجزاء أخرى كبيرة فى العـالم .

فقد عرفت أهمية العالم الاسلامى على مدى القرون ، ذلك أنه كان يمثل جزءا من شبكة خطوط المواصلات فى العالم القديم ، فمن المعروف أن الشرق — قبل ظهور الاسلام — احتل مركزا هاما ، لأن الطرق العالمية الكبرى من الغرب الى الشرق الأقصى كانت تمر خلال أرضه فكان يسيطر على جزء كبير منها ، وهو الممتد من شمال افريقيا وغرب آسـيا الى الشرق الأقصى ، وكان شـكل الأوضاع السياسية فى هـذه البقعة يلعب دورا كبيرا فى الأحداث والتجارة العالمية ، ومن هنا اتصل الشرق الأدنى اتصالا كليا بالغرب عن طريق المعاملات التجارية وتبادل الخبرات

والبحوث العلمية ، ولهذا كان المستوى الحضارى بين الشرق والغرب فى درجة واحدة ٠

فطرق المواصلات الكبرى كانت تمتد من شرق وجنوب آسيا حتى الشواطىء الشرقية للبحر الأبيض المتوسط حيث توجد المراكز العالمية للتبادل التجارى ، ومن هناك تشحن البضائع الى جنوب ووسط أوروبا ٠

تبدأ هـذه الطرق من أقصى الجنوب من سيلان حيث مركز تجميع بضاعة الشرق الأقصى ، ومن هناك تخرج ثلاث طرق :

الأول — يمر عبر المحيط الهندى الى عدن ، ومنها يتفرع الى طريقين، طريق للقوافل يمر بالساحل الغربى لشبه الجزيرة العربية وينتهى عند شاطىء البحر المتوسط فى سـوريا وآخر يمر بالبحر الأحمر وخليج السويس ، وعند نهاية خليج السويس يأخذ مسارا له عبر مصر الى الاسكندرية ثم الى الغرب ، ولا ننسى أن نذكر هنا أن مصر كانت مركز تبادل تجارى كبير ٠

الثانى — الطريق الأوسط يبـدأ من سـيلان — ويمتد على طول الشاطىء الهندى حتى الخليج الفارسى ، ثم يعبر العراق الى وسط وشمال سوريا ، ثم يخترق الأناضول ٠

الثالث — فكانت طريقا برية ، تبدأ من الصين وتمر بوسط آسيا ، وشمال ايران ، وهناك يتجه الى البحر الأسود ، أو الى العراق وسوريا حتى شواطىء البحر الأبيض المتوسط ٠

وقد اكتسبت البلاد التى كانت تمر بها حركة القوافل أهمية كبرى ، فهى تملك السيطرة على هـذه الطرق ، فكانت تفرض رسوما ، وكثيرا ما كانت ترفعها ، وكانت تؤجر الحيوانات وتقوم على حراسة التجارة وكل هـذا أسهم فى رفع مستوى سكانها ٠ ان أهمية المنطقة الاسلامية فى نظام التجارة العالمية فى ذلك الوقت كانت واضحة ، وحقيقة واقعة ، فحكامها كانوا يستطيعون التحكم فى الأسعار عن طريق رفع رسوم المرور

والجمارك ، بل كان فى مقدورهم قطع الطريق كلية اذا بدا لهم أن ذلك فيه فائدة لهم ، أو رغبوا فيه اعتمادا على أى سبب ، ومن هنا ظهرت الأطماع فى السـيطرة على هـذه المنطقة ، وصاحب ذلك تقييم قوى الشرق والغرب ، الذى ظهر واضحا فى النزاع حول المراكز التجارية الهامة فى أرمينية ، وبلاد ما بين النهرين ، فقد نشط الصدام لأول مرة بين الدولة الرومانية القديمة — وفيما بعد بين الدولة البيزنطية ، وبين العنصر المغولى الزرادشتى ، وقد لعب هـذا دورا كبيرا فى تحـديد مصير العالم الغربى لقرون عدة •

ان دور الشرق الأدنى كان مفهوما ، وأهميته ثابتة ، فهو الوسيط بين الشرق الأقصى ، وأوروبا فى التجارة ، يلعب دور البائع والمشترى ، ومن خلال ذلك يسوق منتجاته الخاصة ، اذ أن مراكز التبادل التجارى تقع — منـذ قرون عدة — على شواطىء البحر الأبيض المتوسط فى بلاد الشرق •

ولم يتغير شىء من هـذا بعد دخول الاسـلام ، فبعد أن قضى الاسـلام على الخلاف بين القبائل العربيـة ، وغرس الروح الدينية الاسـلامية عند العرب • استطاع هؤلاء أن يقضوا على المملكتين اللتين كانتا تقتسمان تلك المنطقة الآسيوية : سقطت المسيحية البيزنطية فى الشمال الغربى ، والفارسية الزرادشتية فى الشمال الشرقى ، وطبعت تلك البلاد بطابع اسلامى ، ثم زحف الفتح الاسلامى الى شمال افريقيا وتعداه الى أسبانيا ، وكان علم الاسلام يرفرف على كل تلك المناطق فى عام ٧٥٠ م — أى بعد موت محمـد [ ﷺ ] بـ ١١٨ عاما — أصبح قدح الزند فى المجالات السياسية والتجارية فى الشرق الأدنى فى يد الدولة الاسـلامية الجديدة التى مدت سلطانها على المنطقة جغرافيا وثقافيا ، ففى بغـداد — عاصمة ما بين النهرين — أسس العباسيون الخلافة ، وظلت تلعب دورا كبيرا فى السياسة التجارية — لتحكمها فى طرق المواصلات العالمية — حتى عام ١٢٥٨ م حيث فقدت بغداد مركزها كمقر للسلطة الحاكمة فى بغداد وبلاد ما بين النهرين — حيث وقع أول

صدام بين الشرق والغرب وحيث تعارضت مصالحهما قبل الاسلام — •
باشر الاسلام العداوة الموروثة ضد الغرب وبالتالى ضد العنصر المسيحى ولم تنحدر هـذه العداوة من اتجاه دينى فى الاسلام ، بل كان مصدرها مصالح تجارية للشرق ، صبغت بصبغة دينية ، وتلقفها الخلفاء وألبسوها ثوب الحقيقة ، وعملوا على اظهار عداوة الاسلام للعنصر المسيحى الغربى •

فى عصر صدر الاسلام لم يتخل الشرق الأدنى عن دوره كوسيط بين البلاد الغربية ، والشرق الأقصى ، وسارعت البلاد الغربية فى ملاءمة نفسـها مع مصالح تجارة الشرق وبذلك استمرت تجارة بلاد الشاطىء الشرقى للبحر الأبيض المتوسط فى الازدهار •

ولكن هـذا الوضع تغير عندما قامت الحروب الصليبية التى لم يحركها الاحتياج الاقتصادى للبلاد الغربية ، ولم تحركها الرغبة فى أن توضع تجارة الشرق فى أيدى البلاد الغربية بقدر ما حركتها الفـكرة الدينية التى هيأت لصدام الدول الغربية بالشرق •

وأسست أول مستعمرة مسـيحية غربية فى بلاد الشرق فى وقت الحروب الصليبية ، ولم يهتم الغازون فى هـذه المستعمرات بالناحية الدينية ، بل مارسوا مصالح تجارية كهدف أول • ولم يكن تأسيس الدول فى تلك المنطقة سوى محاولة جديدة لممارسة توسيع سيطرة الغرب على بلاد الشرق ، فقد حمل الصليبيون معهم فكرة مدروسة مفادها أن أهمية السيطرة على منطقة غرب آسيا لا يمكن أن تقدر ، اذ هى نقطة اتصال بين الغرب ، والشرق الأقصى ، وثبتت صحة هـذه الفكرة لحكام تلك المنطقة منـذ قرون وما زالت حتى اليوم •

باءت بالفشـل محاولات البلاد الغربية فى انتزاع السيطرة على الطرق التجـارية ، فقد استولى المغول على بغـداد وأزالوا الخلافة الاسـلامية ، وجعلوها أثرا بعد عين وقطعوا أهم طريق يربط الغرب بالشرق الأقصى وفى عام ١٢٥٨ م انتقلت الخلافة الى القاهرة • ومن ذلك التاريخ بـدأ العالم الاسلامى يفقد مركزه كقوة عالمية •

ولكن هـذا التطور — الذى طرأ على المنطقة — لم يتوقف بهزيمة المغول ولا بقيام الخلافة الاسلامية فى تركيا : تلك الخلافة التى أجهزت عليها الدول التى قادت الحروب الصليبية ، فقد وضع الحكام الجدد حاجز العداوة ضد البلاد الغربية ، امتد من استامبول عبر آسـيا الصغرى ، ومن الأناضول حتى شمال افريقيا ، وقطعت بذلك حركة المرور كلية بين أوروبا والشرق الأقصى • وبدأت تظهر آثار عداوة الشرق الاسلامى ضد الشرق نفسه ، فلم تنعزل المنطقة بهـذه السياسة عن التأثير الأجنبى فحسب ، بل انقطعت صلتها بالمسائل الاقتصادية والتجارة العالمية التى اضطلعت فيها بدور هام فى الزمان القديم ، وقد جر عليها انعزالها هذا انحدارا وتأخرا فى جميع مجالات الحيـاة •

اختفى من الوجود ذلك الدور الذى لعبه الشرق الاسلامى فى سوق التجارة العالمية وبلغ ذروة مجده فى عهد الخلفاء فى بغداد ، فالمواصلات حولت — غير مختارة — الى طريق رأس الرجاء الصالح الذى اكتشف عام ١٤٩٨ م وبهذا فقد العالم الاسلامى مركزه كقوة عالمية ، وضاعت أهمية الشواطىء الشرقية للبحر الأبيض المتوسط ، وخسرت تلك المنطقة مركزها كمنطقة عبور الى الشرق الأقصى ، وظل الاتصال البناء بين الشرق والغرب مفقودا لعدة قرون •

أقيمت الحواجز بينه وبين العالم الخارجى ، فلم يمارس نشاطا اقتصاديا ، ولم يتبادل المعلومات الثقافية مع أوروبا ، فتقهقر الى الوراء ، وعاش فى انعزالية مميتة وازدادت الشعوب ترديا فى الجمود الذى يعوق كل تقدم فتخلف بذلك مستواها الحضارى عن البلاد الغربية • وبمرور السنين تفوق الغرب حضاريا واقتصـاديا وملك القوى التى هيأت له ، بل دفعته بعد قرون الى المواجهة المتتابعة مع الشرق ، وكان انهيار الشرق الاسلامى سياسيا نتيجة حتمية لتفوق أوروبا حضاريا عليه •

كانت حملة نابليون على مصر أول مواجهة — بعد قرون عدة — بين الشرق والغرب : تلك الحمـلة التى لم تتميز بأنها غزو للشرق الأدنى

فحسب ، بل أبرزت أهمية منطقة الشرق الاسلامي على مسرح السياسة العالمية ، فقد رأى نابليون أن مصر محطة مهمة على الطريق الى الهند حيث كان يأمل أن يخنق انجلترا التي كان يكرهها .

ولأول مرة منذ قرون يدرك الأوروبيون مرة أخرى أهمية الشرق الأدنى كمعبرة الى الشرق الأقصى ، ويظهر هذا في تحركات السياسة التجارية ، فعندما رحل الفرنسيون عن مصر اتجهت سياسة انجلترا نحو تثبيت أقدامها في تلك المنطقة حتى لا تخرج من يدها مرة ثانية ، فاحتلت القوات البريطانية عدن في عام ١٨٣٩ م وجزيرة بريم ( الواقعة عند باب المندب ) في عام ١٨٥٧ م وفيما بعد امتدت سيطرة بريطانيا على الشاطئ الجنوبي للجزيرة العربية وعلى سقطرى ، وكان الدافع لهذه التحركات كلها ما برز من أهمية مصر على الطريق الى الهند ، ومما هو جدير بالذكر أن انجلترا بسطت سلطانها على الجنوب قبل بناء قناة السويس بمدة طويلة .

فقبل قيام قناة السويس رسمت انجلترا معالم الطريق الى الهند عبر مصر وأدخلت بذلك وادى النيل ضمن الطريق التجارى العالمى ، وبهذا دخل الشرق الأدنى لأول مرة منذ قرون في شبكة خطوط التجارة العالمية ، وفي عام ١٨٤٠ م أقامت ثلاث شركات ملاحية كبرى — في لندن — اتحادا ، وهذه الشركات هي « شركة شبه الجزيرة Peninsular Company » التي تبحر سفنها من انجلترا عبر البحر الأبيض المتوسط الى مصر ، و « شركة شرق الهند للملاحة East India Steam Navigation Company » و « الشركة الشرقية للملاحة Eastern Steam Navigation Company » وأطلقوا على هذا الاتحاد « خطوط الشرق وشبه الجزيرة Peninsular and Orient line » وبذلك اتحدت مصالح السفن البريطانية التي تبحر من الوطن الأم الى البحر الأبيض المتوسط ، والتي تبحر من البحر الأحمر الى المحيط الهندى . وبين هذين الخطين كانت مهمة مصر « بلد العبور » نقل البضائع والحفاظ عليها والاهتمام بها ، وبذلك أصبحت معبرة على طريق الهند الجديدة . وفي عهد عباس الذى

بعد فتح قناة السويس ، اذ واصلت السفن سيرها عبر القناة ، وأصبحت من البحر الأبيض المتوسط الى البحر الأحمر ، الا أن الاتصال عاد ثانية طريق التجارة العالمية ، لأن مصر خرجت منه ، وتخلت عن نقل البضائع وهو الذى وافق على مشروع ديلسبس لحفر قناة السويس — انقطع كان يكره الأجانب ، وكذلك فى عهد سعيد الذى كان صديقا للفرنسيين — انجلترا مربوطة بالهند بطريق بحرى • ومن هنا تأكد لمصر أهمية عالمية جديدة من الناحية السياسية ، ووضح ذلك لساسة البريطانيين وضوحا لا غموض فيه ، ولا اختلاف عليه ، فبينما كانت الأمور تسـير بالنسبة للفرنسيين — كمشيدين للقناة — الى هدف انشاء خط أقصر موصل الى المحيط الهندى ، اهتمت انجلترا بمصر كمنطقة استراتيجية فحاولت أن تخضعها لسيطرتها السياسية ، ونجحت فى ذلك ، فقد احتلت القوات البريطانية مصر عام ١٨٨٢ م وتقدمت فى ظل السفن الحربية ولم تلق مقاومة تذكر •

وعلى مدى الخمسين سنة التالية اهتمت انجلترا بتطوير هـذا الجزء من الطريق التجارى العالمى حسب قواعد مدروسة ، وتنفيذ متوال • بافتتاح قناة السويس — التى أعادت لخط المواصلات البحرى القديم من الشرق الأقصى الى أوروبا أهميته كخط رئيسى ، وألبسته ثوب الحيـاة من جديد — نمت بطريقة تلقائية — أهمية البلاد الواقعة على هذا الطريق ، ولم تكتسب مصر فقط مركزا مرموقا على هـذا الطريق ، بل كل البلاد الواقعة على البحر الأحمر بشاطئيه العربى والافريقى • وازدادت أهمية مصر والسودان عندما أقامت انجلترا خطا بين القـاهرة ورأس الرجاء الصالح ، وهو يعتبر ثانى خط فى شبكة المواصلات العالمية • وفى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ثبتت ركيزة مهمة — فى العالم الاسلامى اذ جرى غزو السودان بقيادة كتشنر فى الفترة من عام ١٨٩٦ — ١٨٩٨ م •

* * *

بعد أعوام قليلة من اقامة الجزء الجنوبى لخط المواصلات العالمية —

الطريق البحرى الى الشرق الأقصى حيث توجد مناطق المواد الخـــام — بانت أهميته ، ووضحت استراتيجيته بصورة لم تكن متوقعة • وعندمـــا أنشأت انجلترا طريق القاهرة — رأس الرجاء الصالح دخلت منطقـــة الشرق الأدنى بجزئها الآسيوى مرة أخرى فى شبكة المواصلات العالمية واتصل هذا الجزء بأوروبا الوسطى بشبكة الامتداد القارى •فبجانب الخط البحرى عبر قناة السويس امتد طريق من وسط وجنوب أوروبا عبر الأناضول ، وبلاد ما بين النهرين ووصل الى الخليج الفارسى •

وقد أكد امتداد هذا الخط البرى الذى وصل استانبول بشبكة خطوط السكك الحديدية وسط أوروبا ، تلك التى لما ينته العمل فيها آنذاك ، فقد بذل على باشا مجهودا متواصلا لتحقيق ذلك ، ننتج عنه أن أبرم — بتوجيه منـــه — فى عام ١٨٦٨م اتفاق بين الحكومة العثمانية وبين هيئة بلجيكية على رأسها بنك « فان در الست وشركاه Van der Elst and Co. » وبمقتضى هـــذا الاتفـــاق التزمت الهيئـــة الخط الـــذى يخترق دول البلقان ، ولكن ما لبثت هـــذه الهيئـــة البلجيكيـــة أن تفككت ، ثم كلف الباب العالى وزير العمل أن يقوم بمشاورات جديدة فى أوروبا حول هذا الموضوع وتوصل هذا الوزير الى اتفاق جديد تعهد بمقتضاه البارون البلجيكى « هيرش Hirsch » أن يمول بناء الخط ويشرف على ادارته مقابل دفع ١٤٠٠٠ فرنكا سنويا عن كل كيلو متر وقـــد جمع البارون أموالا كثيرة لتمويل هذا المشروع عن طريق قرض غير حسن (عن طريق بيع أسهم يجرى سحب الأرقام الفائزة منها ) ولا زال موجودا ومعروفا باسم « يانصيب الأتراك » — بعد زمن قليـــل باع البارون الامتياز الذى حصـــل عليه من الباب العالى لتمويل خط البلقـــان الى شركة نمساوية — ولم يبدأ بتنفيذ البناء الا بعد أن بيع ٧٥٠ر٠٠٠ ورقة ( سهما ) وكان ثمن الورقة ٤٠٠ فرنكا •

ولم يكد يبدأ العمل فى الخط حتى توقف بسبب قيام الحرب بين ألمانيا وفرنسا فى عام ١٨٧٠ — ١٨٧١ م وبعد الحرب استؤنف العمل غير أنه اختصر طول الخط من ٢٠٠٠ ك م الى ١٢٦٠ك م • لم يكمل البارون

الخط على حسابه بل تولته الحكومة التركية مقابل التنازل عن بعض مسئوليات الخط للحكومة التركية،وفى عام ١٨٧٢ انتقلت جميع الالتزامات الى الحكومة التركية التى عهدت الى الشركة النمساوية باتمامه ، وبعد ثلاث سنوات انتهت الشركة من الخط وكانت المسافات كما يلى : استانبول — أدرنة ٣١٨ك م ، أدرنة — فلبه وسارامبا — بلوفو٢٤٣كم ، وترنوفا — بامولى ١٠٦ كم والمسافة فى منطقة بوسنة ١٠٦ كم ، وسالونيك — اسكوب ٢٤٤ ك م واسكوب — متروفيتس ١١٩ ك م •

ارتكب فى تنفيذ هذه الشبكة — المسماة خط الشرق — أخطاء جمة فقد نص فى العقد على تحديد المبلغ الذى يتكلفه كل ك م وتحديد نسبة أرباحه دون أن يبين مسار الخط بالضبط ، ولهذا سار فى منحنيات ومتعرجات لا لزوم لها ، واشتهر هذا الخطأ الفاحش بين العامة والخاصة، وصار ندرة يتفكه بها المتفكهون حتى أثر عنهم : أن أرباح البارون من منحنى واحد فى خط الشرق الحديدى تقيم له فيلا •

وقامت الحرب بين روسيا وتركيا بعد اتمام المرحلة الأولى من خط الشرق ، وكان من نتيجتها انتفاضة جديدة فى دول البلقان • وقد عهد الى هذه الدول — وبخاصة بلغاريا — فى اتفاقية برلين العمل على مد خط البلقان ووصله بشبكة خطوط السكك الحديدية فى أوروبا ، وفى مايو ١٨٨٣م وضعت تفاصيل هذه الاتفاقية •

وأثناء ذلك ساءت العلاقة بين البارون « هيرش Hirsch » والحكومة التركية بسبب ما أخذ عليه من تلاعب ، وأعطيت امتيازات مد الخط فى الأراضى التركية الى مجموعة من المولين وعلى رأسهم البنك العثمانى ، وتنازل البارون عن حقه عند الحكومة التركية للبنك الألمانى وعدد من البنوك النمساوية التى كانت قد أنجزت تمويل مشروع خط الأناضول الحديدى • وبهذا أسهم رأس المال الألمانى — لأول مرة — بمبلغ لا بأس به فى بناء شبكة المواصلات البرية العالمية التى امتدت من وسط أوروبا عبر القارات ، وكانت هذه المساهمة نقطة بداية تلتها أخر •

وفى عام ١٨٨٨ تم ربط العاصمة التركية بشبكة المواصلات فى وسط أوروبا وانتهت المرحلة الأولى فى الطريق البرى الكبير ، وعقب ذلك بدأت السياسة الألمانية فى القاء ثقلها فى المنطقة ، باقامة الخط الحديدى فى دول البلقان الذى أسهم فيه البنك الألمانى مساهمة لها وزنها دفعت الحكومة التركية الى مد الخط عبر أراضيها ، وبذلك هيئت الفرصة لقيام خط حديدى عبر الأناضول وقد استمر العمل فيه من ١٨٧٣ — ١٩٠٦ .

ففى عام ١٨٧٣ م بدأت الحكومة التركية فى اقامة خط حيدر باشا — اسمد — اسكشيهر برأس مال حكومى ، وبد سبع سنوات منح امتياز تمويله للقطاع الخاص ثم أخذه البنك الألمانى فى عام ١٨٨٨م . وفى عام ١٨٩٦م . بدىء العمل بمد الخط عبر الأناضول فى المنطقة الممتدة بين اسكشيهر وكونيا ومنها الى بولجولو عام ١٩٠٥ وانتهى من اقامة المسافة الأخيرة فى خط الأناضول فى عام ١٩١٣ . وهى الواقعة بين بولجولو وحلب ولم يبق سوى نفق لم يكن قد تم بعد .

* * *

والى هنا سار الخطان — الخط البحرى الانجليزى عبر قناة السويس والخط البرى الألمانى عبر البلقان والأناضول — فى اتجاهين متوازيين الا أن مصالحهما تعارضت وتقاطعت عندما اتجهت النية الى مد الخط البرى الى بغداد ، لأنهما وان كانا مختلفين فى مساريهما فنهايتهما واحدة ، وكلاهما اتخذ منطقة الشرق الأدنى واسطة العقد وأدخلها فى سلسلة شبكة المواصلات العالمية . وظهر على المسرح الدولى مصالح متعارضة بين الطريقين العالميين جسمها توصيل الطريق البرى الى بغداد، وأدت هذه الحالة الى تصادم كبير فى الحرب العالمية .

لم يتسبب الطريق البرى الذى أقامته ألمانيا فى خلق نزاع مع انجلترا — بسبب منافسته للطريق البحرى عبر قناة السويس — فقط ، بل سبب قلقا لروسيا أيضا ، اذ أصابها أرق شديد ، وخاصة بعد ما أذيع نبأ مده الى بغداد فان روسيا تعمل جاهدة على مد خط تاجرتها بأى وسيلة

من الشمال الى الخليج الفارسى ، فوصول الخط الألمانى الى بغداد سوف يبدد هذه الجهود ، ويحول دون التوسع التجارى الروسى فى هذه المنطقة، ورأى المراقبون فى بطرسبورج أن آملهم فى أن تكون المناطق الواقعة شرق خط بغداد الحديدى — أرمينية ، فارس ، كردستان — تحت نفوذهم يهدده الآن تقدم النفوذ الألمانى حتى الخليج الفارسى •

وفرنسا التى كانت لها مصالح هامة فى شمال سوريا وصقلية أحست هى الأخرى بالخطر الذى يهدد مصالحها فى تلك المنطقة ، وتيقظت على صوت النفير الذى أطلقه مد الخط الى بغداد •

هذا التحرش بين القوى العالمية الذى حركه الاتصال بالشرق الأدنى باتخاذه معبرة لطرق المواصلات العالمية أبان بوضوح أهمية منطقـــة الشرق الاسلامى ، فظهرت على مسرح السياسة العالمية وأخذت دورا رئيسيا فى تحريك الصراع بين الدول الكبرى بعد أن ظلت قرونا مهملة منطوية على نفسها •

ولم ينس أى من القوى العالمية الثلاث التى أقلقها قيام الألمان ببناء خط بغداد ، أن بناءه دعامة تشد صلب الخلافة الاسلامية المتهالكة التى كان الاستعداد لوراثتها فى آسيا يخطط منذ عشرات السنين بل بدىء فعـــلا فى شمال افريقيا • ان النفوذ الانجليزى الذى تمركز فى الخليج الفارسى وبدأ يمتد الى داخل المملكة العثمانية فى مناطق الجنوب الشرقى ، تعثر امتداده فى بلاد ما بين النهرين بسبب بناء خط بغداد ، وأن السياســـة الاسلامية التى كان يدعو اليها السلطان عبد الحميد أصبحت قريبة من الناحية الفكرية من مسلمى الهند بعد أن انتهى من بناء الخط وتوصيله الى شاطىء الخليج الفارسى ، وكان ذلك خطرا على انجلترا لأن المســلمين فى الهند كانوا يعتقدون أن الخلافة هى حكومة الله فى الأرض • أضف الى هذا كله أن خط بغداد اخترق حقول الزيت فى الموصل التى اكتشفت آنذاك واقتربت نهايته من المناطق التى كان ينقب فيها الانجليز عن البترول فى شمال غرب ايران ، وكانت أهمية البترول تزداد يوما بعد يوم • ولذا

سعت انجلترا بكل الطرق ، بل فجرت كل ما لديها من طاقات لدى الباب العالى لتمنع امتداد الاتصال البرى بين أوروبا الوسطى والهند وبالتالى ، بينها وبين الشرق الأقصى عن طريق خط بغداد •

ورغم هذا — وبعدما تكهنت الدوائر السياسية أن انجلترا تسعى للتفاهم فى هذه المسألة — بدأ البنك الألمانى بناء الخط مبتدئا من الجنوب ، أى من بغداد ، الا أن التنفيذ الفعلى أخذ مجراه عندما أفصحت انجلترا عن رغبتها فى التفاوض ، وجلسوا على مائدة المفاوضات وحاولوا أن يضعوا حدودا للمصالح المتعارضة فى الحقل المتنازع عليه ، الشرق الأدنى ، وكان رئيس وفد المفاوضات الألمانى « ريتشارد فون كموليان » مستشار السفارة الألمانية فى لندن آنذاك • ولكن لم يظهر فى الأفق استعداد الدول المعارضة لاقامة الخط البرى بين أوروبا الوسطى والخليج الفارسى فى التنازل عن هذه المعارضة الا بعد أن أعطت الحكومـــة التركية الدولتين المنافستين لألمانيا — انجلترا وفرنسا — امتيازات ذات أهمية فى منطقة الأناضول ، كما نص فى بروتوكول عام ١٩١٤م على ضمان وتأكيد المصالح الانجليزية على الخليج الفارسى وفى منطقة ما بين النهرين • وفجأة أطلقت الرصاصة فى « ساراييفو » التى اغتالت ولى عهد النمســا « فرانس فيرديناند » واندلعت الحرب وعاد المتنازعون الذين اتفقوا منذ وقت قريب على توزيع المصالح فى منطقة الشرق الأدنى مرة ثانية أعداء ألداء •

كانت المسافة التى انتهى منها فى خط بغداد عند اندلاع الحرب ٦٠ ك م من بغداد شمالا حتى محطة اسطبلات ، وفى الشهور الأولى للحرب وضعت قضبان ٦٠ ك م آخر وامتد الخط بذلك حتى محطة سامراء وهى مدينة شيعية صغيرة • أما من الشمال فكان الخط — بعد الانتهاء من نفق طوروس — صالحا للعمل فى اتجاه الموصل حتى نصيبين • وتوقف العمل بسبب العمليات العسكرية التى جرت فى منطقة ما بين النهرين وبقيت مسافة تبلغ ٤٥٠ ك م بين سامراء ونصيبين • وحينما وقعت بغداد فى أيدى القوات البريطانية حاولت القوات التركية الألمانية أثناء تقهقرها

الى الشمال نسف كل المنشآت حتى لا يستخدمها الجيش الانجليزى فنسفت كل ما يساعد على امداد الجيش بالماء وكذلك خربت الخط الحديدى وتركته غير صالح للاستعمال • وعندما احتلت القوات البريطانية القطاع الشمالى من منطقة ما بين النهرين شرعوا فى تصليح الخط الحديدى ، وبالقضبان التى عثروا عليها فى البصرة استطاعوا مد الخط مسافة ١١٠ ك م حتى محطة بيجى عند سفح جبل الحمرين وهو يقع على مسافة ٢١٠ ك م شمال بغداد ، واهتمام انجلترا المتزايد بمد الخط أملته المصالح الاستراتيجية فى ذلك الوقت أكثر من رغبتها فى مد الخط البرى فى منطقة نفوذها ، فقد ظهر جليا فى المعاهدة المعقودة فى ١٩١٦ م المعروفة بمعاهدة Seikes - Picot فلم يعبر فى طيات مناقشتها على رغبة انجلترا فى مد هذا الخط بل بالعكس فلم تتغير نظرة انجلترا فى أن هذا الخط البرى ينافس الخط البحرى عبر قناة السويس وتبلغ هذه المنافسة نقطة الخطورة اذا اتصل بالخليج الفارسى ، وفى هذه المعاهدة اتفقت انجلترا وفرنسا — هذا خلاف سياستهما الظاهرة تجاه القوى التى مدت لهما يد المساعدة — على تقسيم المناطق الآسيوية الواقعة تحت حكم العثمانيين فى حالة سقوط مملكتهم وانهيار تركيا كما نص فيها كذلك على أنه لا يجوز — مهما كانت الظروف — تتميم خط بغداد الحديدى ، فيجب أن يحال بين وصل الجزء الجنوبى منه بالجزء الشمالى •

ولكن سرعان ما تغلبت المصالح الاقتصادية والمطامع السياسية على نصوص الاتفاقية فكان الحرص على المزيد من المكاسب أقوى من الحروف المكتوبة فى نص المعاهدة ، ففرنسا — التى كانت طرفا فيها — كانت الدولة الأولى التى نقضت ما اتفق عليه فى معاهدة « Seikes - Picot » ففى عام ١٩٢١م بعد ما وطدت أقدامها فى سوريا — شرعت فى اقامة الجزء الشمالى من خط بغداد على طول الحدود الجديدة بين سوريا وتركيا مارا بنصيبين • وكانت تهدف بذلك الى مد الخط حتى الموصل آملة أن يتصل بشبكة خطوط السكك الحديدية العراقية وبذلك يربط بالجزء الجنوبى لخط بغداد •

ولم تقف انجلترا مكتوفة الأيدى أمام هذا المشروع الفرنسى فعملت جاهدة على الحيلولة دون وصول هذا الجزء الشمالى بخط بغداد ، ففى منطقة نفوذها — كوصية على الدولة العراقية الحديثة — أهملت الخط الواقع شمال بيجى بحجة أنه لا يدر ربحا وبذلك لم يتحقق الهدف الذى أرادته فرنسا من المشروع •

وتمضى عجلة التاريخ ويتخلص العراق من الوصاية وتتحرر الدولة العراقية من القيود الانجليزية وكان أول عمل تقوم به الحكومة العراقية — التى لم تعد تأتمر بأوامر انجلترا — أن استجابت لالحاح الدوائر الاقتصادية الشمالية ، فقررت اصلاح المسافة المخربة فى الخط وأن توصل المنطقة الجنوبية بالشمالية أى تمده فى المنطقة الباقية فى الوسط ، وفى ٢٠ نوفمبر ١٩٣٦م وضعت أول قضبان لمد خط بغداد حتى الشمال وبمد هذا الخط أصبحت بغداد مربوطة بتل كوتشك آخر محطة على خط الأناضول وبهذا انتهى الخط البرى العالمى الذى ربط وسط أوروبا بالخليج الفارسى وجاوزه الى الشرق الأقصى •

لقد اعترضت اقامة هذا الخط البرى صعوبات على مدى عشرات السنين فأهمل فى أعقاب الحرب العالمية لتدهور العلاقة بين بغداد وأنقرة بسبب تقويض المملكة التركية الكبرى وخمود توسع أوروبا الوسطى تجاه الجنوب الشرقى ، ولكن ما لبث أن تغير الوضع حينما كمل الخط ، فباكتماله استعاد أهميته مرة ثانية ولفت النظر الى الجنوب الشرقى عبر دول البلقان والشرق الأدنى • كانت الدوافع التى حملت المختصين الى الاهتمام باتمام الخط متعددة الجوانب :

١ — استؤنفت العلاقة بين بغداد وأنقرة وتحسنت فتطورت الى صداقة بين البلدين •

٢ — زادت الأهمية الاقتصادية لأوروبا الوسطى فى تركيا الحديثة وفى الشرق الأدنى •

٣ — الوضع الجغرافى لتلك المنطقة التى كثيرا ما ذكرها قيصر ألمانيا فى أحاديثه عن الاسلام والمنطقة الاسلامية •

كان لهذه العوامل كلها أثر فى استكمال الخط وتهيئته للاستعمال ، وعليه فقد عادت المناقشة مرة أخرى حول أهمية الخليج الفارسى والشرق الأدنى ، تلك المنطقة التى كانت تتصارع عليها القوى الكبرى قبل الحرب، عادت بعد أن اختفت ألمانيا وانحسر نفوذها عن المسرح السياسى فى هذه البقعة •

ان انطواء السياسة التركية أثناء القرون الماضية هيأ لتركيا سيطرة كاملة ( جعل لها الكلمة الأولى ) على الشاطىء الشرقى للبحر الأبيض المتوسط فأقامت حاجزا عليه من آسيا الصغرى حتى مصر فعزلت بذلك منطقة البحر الأبيض عن الشرق الأوسط والأقصى ، وازدادت قوة هذا الحاجز ـــ الذى أفقد البلاد الواقعة وراءه أهميتها السياسية ـــ بحاجز طبيعى : الصحراء السورية التى فصلت بين شاطى البحر الأبيض المتوسط وبلاد ما بين النهرين • وتأكد للمراقبين آنذاك أن وجود المملكة الاسلامية الكبرى ـــ وان اعتراها الضعف وتساقطت بعض أطرافها ـــ عقبة فى طريق الخط البرى العالمى الثالث من شواطىء البحر الأبيض المتوسط عبر بلاد ما بين النهرين متجها الى الخليج الفارسى فى فرع والى ايران وتركستان فى آخر •

لقد وجدت مشروعات لاحياء الخط قبل الحرب اتسمت بالطابع البريطانى وكان القصد بها خدمة مصالح انجلترا التى ثبتت أقدامها آنذاك على الشاطىء السورى الفلسطينى رغم احتفاظ الباب العالى بسيادته هناك ، فكان هدف السياسة البريطانية وضع مراقبة الطريق الى الهند فى يد انجلترا ـــ وخاصة فى تلك المنطقة ـــ وقد وضح ذلك جليا للمهتمين بسير الأحداث فى الشرق الأدنى وبلغت مرادها بعد الحرب بسقوط الخلافة العثمانية وبعد خداع العرب فيما وعدتهم به وهو الاستقلال ان هم أعانوها على ضرب تركيا واسقاط سيادة الباب العالى •• وعندما نفذت بريطانيا سياستها المرسومة وبعد أن تطورت هندسة السيارات والطائرات وأصبحتا صالحتين للنقل ـــ كوسيلة ميكانيكية للتغلب على

الصحراء السورية — دبت الحياة بشكل غير متوقع فى خط المواصلات العالمى الثالث •

قضت معاهدة « Seikes - picot » — التى سبقت الاشارة اليها — على جهود ألمانيا قبل الحرب فى اقامة شبكة المواصلات البرية « الطريق البرى الى الهند » وهدمت المشروع هدما نهائيا وفى الوقت نفسه اعترفت بضرورة تأمين النفوذ الانجليزى فيما بين الشاطىء الشرقى للبحر الأبيض المتوسط وبلاد ما بين النهرين ، تجد هذا الاتجاه فيما تلاها من معاهدات ، فقد ووفق فى معاهدات السلام التى عقدت فى « فرساى » و « لوزان » — وبالأخص فى اجتماع « سان ريمو » — على فرض الوصاية الانجليزية على بلاد منطقة عبور الخط البرى ، من الشاطىء الفلسطينى عبر جبال الأردن حتى العراق ، وبذلك اعتقدت انجلترا أن هدف الحرب قد تحقق ، فبدا « الطريق البرى الى الهند » مؤمنا فهو لا يمثل خطرا الآن على المصالح البريطانية ، ويمتد هذا الطريق فى منطقة اجتازتها — وما زالت — القوافل منذ الأزمان الغابرة تلك القوافل التى كانت ترحل من مصر الى سوريا وبلاد ما بين النهرين ، وكانت قبل الحرب محل بحث ، اذ طرح مشروع اقامة شبكة مواصلات زعم أنها تسمى « السكك الحـــديدية البريطانية » وكان القصد منها ربط مصر والبحر المتوسط بالخليج الفارسى بخط مباشر •

ففى تسعينات القرن التاسع عشر حصلت هيئة انجليزية علـــى أمتياز لمد خط حديدى يربط حيفا بدمشق ويتجاوزها مارا عبر الصحراء السورية الى بلاد ما بين النهرين وفى الناحية الأخرى يوصل هذا الخط بشبكة الخطوط الحديدية المصرية عن طريق سيناء كى يربط بطريق القاهرة — رأس الرجاء الصالح • وبجانب هذا المشروع الانجليزى كان هناك — قبل الحرب أيضا — المشروع الفرنسى بتكوين شركة عثمانيةللسكك الحديدية لانشاء خط بين حماة ودمشق وما وراءها **Société Ottoman du Chemin de Fer Damas Hamah et Prolongement**

وكان يرمى الى ربط طرابلس ببغداد عبر حمص ودير الزور على نهر الفرات ثم يعبر وادى الفرات الى بغداد •

ولم ينفذ كلا المشروعين بينما وصلت حيفا بشبكة الخطوط الحديدية المصرية أثناء الحرب ، فقد أقيم خط حديدى فى سيناء على طول شاطىء البحر الأبيض المتوسط •

ورغم هذا فقد اتسمت تحركات انجلترا السياسية بطابع الرغبة فى السيطرة على هذه المنطقة كمعبرة الى الهند ، حاولت قبل الحرب بعشر سنوات أن تمهد سياسيا لمشروع الخط البرى البريطانى الذى يمتد من البحر الأبيض الى الهند عن طريق الخليج الفارسى ، فاستعانت على اسقاط الخلافة العثمانية بالعرب ، أظهرت الود لهم فى سوريا وفلسطين وأنشأت ترابطا بينها وبين القبائل العربية ، وكذلك بينها وبين الشريف فى مكة • وعكف الدبلوماسيون البريطانيون — منذ أن قبلت ملكة انجلترا لقب امبراطورة الهند فى عام ١٨٧٤م — على دراسة تطوير مشروعات المعبرة الانجليزية الى الهند واستمروا فى هذا دون أن يصيبهم ملل أو يعتريهم وهن • وكان وقوف انجلترا ضد الألمان أثناء اقامة خط بغداد حلقة من حلقات تلك السياسة المرسومة لفرض النفوذ البريطانى على تلك المنطقة وبلغت انجلترا مرادها بالانتصار فى الحرب العالمية واسناد الوصاية لها على الشرق الأدنى • فى هذا الوقت — حين سمح الوضع السياسى بوضع المشروع الهندسى الموضوع قبل الحرب موضع التنفيذ — حققت هندسة السيارات نجاحا كبيرا ونافست السيارة القطار فى مجاليه : نقل المسافرين ونقل البضائع •

كان قرار الحكومة البريطانية فى ابريل عام ١٩٣٧ م برصف طريق السيارات بين فلسطين وبغداد يحمل فى نفس الوقت العدول عن مشروع « السكك الحديدية الانجليزية » عدولا نهائيا •

كان ابتداء هذا الخط حيفا ، ويمر بالناصرة متجها الى الحدود الفلسطينية عند جسر المبانى ومن هناك يتجه عبر شرق الأردن مارا باربد

والمفرق ويخترق الحدود العراقية الى رطبة والرمادى على نهر الفرات وقبل أن يبدأ العمل فى هذا الخط عبد فى سنوات ما بعد الحرب خط صحراوى يربط حيفا ببغداد وقرب بغداد عاصمة العراق من البحر الأبيض المتوسط بحيث يستطيع الانسان أن يقطع تلك المسافة فى نهار يوم ، وعبرت السيارة الشاطىء السورى أيضا لأول مرة أثناء الحرب وكان قبل ذلك طريقا للقوافل فقط • ولتنشيط حركة المواصلات على هذا الخط دفـــع البريطانيون فى عام ١٩٢٣ م ، بسيارات عمومية « أتوبيسات » تعمل بانتظام بين بغداد ودمشـــق ، وانزال الاخوة النيوزيلنديون « **Nairn** » سيارات على الخط وما زالت « أتوبيساتهم البولمان » تجوب الخط جيئـــة وذهابا الا أنهم لا يستعملون طرقا مرصوفة ، ولا معبدة بل يسيرون فى طريق وعر ، وهو يتحلل أثناء المطر الى وحل — وكثيرا ما يحدث ذلك — مما يضطرهم الى تحويل مسارهم ، وبذلك تتأخر السيارات ساعات وربما أيـــاماً •

وفيما بعد — أى فى السنوات التالية لسير هذه الخطوط — قام عمال الطرق بتعبيد المناطق الشديدة الوعورة تعبيدا مؤقتا ، ثم ما لبث أن استبدل كله بطريق رصف رصفا حديثا ، وأصبحت السيارة تقطعه من بغداد الى شاطىء البحر الأبيض المتوسط فى ١٢ ساعة ، بينما كانت تقطعه القوافل فى العصور السالفة فى ثلاثة أسابيع •

واتصلت بغداد بطرق مواصلات بنيت على أحدث طراز ، طريـــق يصلها بالخليج الفارسى ، وآخر يصلها بالمرتفعات الايرانية ، ومن ثـــم أصبحت طهران — عاصمة ايران — مربوطة بطريق قصير جدا بمنطقـــة البحر الأبيض المتوسط وبأوروبا ، ولكن اذا اتجهنا شرقاً نجد طريقا قديما — هو طريق القوافل الذى مهدت بعض أجزائه للسيارات — يمتـــد الى تركستان وأفغانستان وبلوخستان والهند • ومن يسير فى هذا الطريق موليا وجهه صوب أعماق آسيا الوسطى يلاحظ أن حركة المواصـــلات لا تنقطع •

وهكذا أصبحت حيفا تمثل ميناء فارسيا على البحر الأبيض المتوسط فهى مصب الطرق التجارية القادمة من أعماق آسيا البعيدة المتوجهة الى العالم ولم يكتسب هذا الخط الثالث للمواصلات العالمية أهميته من الاتجاه المنحدر من أواسط آسيا الى الشاطىء فقط — هذا الاتجـاه أثر فى تحويل مقادير منطقة الشرق الاسلامى أكثر من أى شىء آخـر — بل أيضا من الاتجاه الآخر ، فقد فتح أسواق الشرق للبضائع المصدرة من الغرب بعد أن كانت — حتى ذلك الحين — منطقة نفوذ روسية ، كانت أسواقهـا مربوطة فقط — عبر القرون الماضية — بشبكة المواصلات الآسيوية الواقعة شرق روسيا •

***

ولم يحتل العالم الاسلامى مكانا أسمى ولا أوضح أهمية ولا أحسن وضعاً مما ناله عندما أقيمت شبكة مواصلات جوية من أوروبا الى الشرق الأقصى ومنها الى وسط وجنوب افريقيا ، فقد احتلت مصر المكان الأول فى عالم المواصلات الجوية والنقل بالطائرات ، لأنها نقطة ربط فى هـذا المجال ، ولم ينل بعد أى مكان فى العالم مثل هذه الدرجة • فشركات الطيران الانجليزية والفرنسية والألمانية والهولندية والايطالية مهدت طريقا جويا فى سنى ما بعد الحرب عبر الشرق الأدنى ، وربطت أوروبا بالشرق والجنوب مارة بهذه المنطقة ونافسوا بذلك الخطوط البحرية عبر قناة السويس • وأصبحت البلاد الاسلامية ركائز الطريق الجوى الى الهنـد واستراليا والشرق الأقصى وجنوب افريقيا •

فى السنين الأولى التى أعقبت الحرب كانت طائرات «السلاح الجوى الملكى Royal Air Force » تنقل بريد الجيش الانجليزى من الموانـى الشرقية للبحر الأبيض المتوسط ومن مصر الى بلاد ما بين النهرين مخترقة أجواء الصحراء السورية وكانت هذه بداية صغيرة فى حجمها غير منتظمة فى مواعيدها ، تطورت فيما بعد الى شركة الطيران الانجليزية «الخطوط الجوية الملكية Imperial Airways Ltd. » التى تأسست فى عام ١٩٢٤م واتخذت أول طريقها الجوى الكبير عابر القارات من لندن الى الهند ، وفى ١٩٢٩م

وضع لها أول جدول ينظم مواعيد قيامها ووصولها • وفى عام ١٩٣٥م تجاوز هذا الخط الهند الى أستراليا وكان يقوم برحلتين فى الأسبوع • وفى صيف عام ١٩٣٧ م كانت الطائرة تقطع المسافة : لندن — القاهرة فى ٣٦ ساعة ، حسب الجدول الزمنى الموضوع لها ومن القاهرة الى الهند فى ٤٨ ساعة ، ومن لندن الى سنغافورة فى ٦ أيام ومن لندن الى أستراليا فى ٨ أيام • وكانت بريسبان نهاية هذا الخط ، حيث نقطة الاتصال بالخطوط الداخلية لأستراليا •

فى الاسكندرية تفرع من الخط المتجه الى الهند فرع آخر اتجه الى جنوب افريقيا حدد له جدول الطيران رحلتين فى الأسبوع • منذ عام ١٩٣٧م والجدول الزمنى للرحلة من لندن الى يوهناسبرج ٧ أيام •

أما شركة الطيران الفرنسية « اير فرانس Air France » فقد أنشأت خطا بين فرنسا والهند الصينية مارا بمنطقة الشرق الأدنى ويعتبر من أهم خطوط شبكة المواصلات الفرنسية ، فهو يبدأ من مارسيليا الى سوريا مارا بايطاليا واليونان وطرابلس فى سوريا ، ومن طرابلس يواصل الطيران الى بغداد وبوشير وكراتشى ثم يتقاطع مع الخط البريطانى الى الهند ويواصل سيره الى رانجون وبانكوك وسايجون وهانوى فى الهند الصينية الفرنسية •

ويتلو الهولنديون الفرنسيين والانجليز ، فقد أسسوا شركة طيران تحت اسم «الخطوط الجوية الملكية الهولندية Koninglije Luchtvaart, Maatschappij » ورمزوا لها — اختصارا — بالحروف « KLM » وكانت طائرات هذه الشركة تقوم برحلتين أسبوعيا من لاهاى الى المستعمرات الهولندية فى آسيا ، واتخذت مسارها كما يلى : أثينا ، الاسكندرية ، بغداد ، البصرة ، كراتشى ، جيبور ، الله آباد ، كلكتا ، رانجون ، بينانج ، سنغافورة ، بتافيا ، باندونج • وهناك تلتحم مع شركة الطيران الهندية الهولاندية •

وتتخذ الشركة الايطالية « Ala Littoria » خطها الجوى من

ايطاليا الى المستعمرات الايطالية فى شرق افريقيا عن طريق مصر • أما شركة « لوفتهانزا Lufthansa » الألمانية فقد وضعت ضمن برنامج انشاءاتها الاستعداد لاقامة خط طويل الى شرق آسيا يبدأ من برلين الى الصين ويمر بأثينا ورودس وحيفا وبغداد وطهران وكابول •

والى جانب هـذه الخطوط الكبيرة — التى تخترق العالم من الغرب الى الشرق — التى أنشأتها شركات متعددة يوجد خطان كبيران من الشمال الى الجنوب وهما موسـكو — تفليس ، وموسـكو — كابول ، هذان الخطان — لأسباب سياسية — لم يجدا سبيلا لامتدادهما ولم يتصلا بعد بالخطوط الممتدة من الغرب الى الشرق • وتلعب المنطقة الاسلامية بالنسبة لهما أيضا دورا أساسيا غاية فى الأهمية •

انحصرت أهمية منطقة شمال افريقيا — التى هى جزء من العالم الاسلامى — فيما مر من العصور على موقعها من الساحل ، وفيما تؤديه عادة بلاد الشاطىء من خدمات ، وبعد أن تطورت المواصلات التجارية عابرة القارات — بنوعيها : السيارات والطائرات — احتل شمال افريقيا مكانة فى سلسلة الطرق وأصبح معبرة الى وسط افريقيا فقد انطلقت السيارات ( الأتوبيسات ) الفرنسية من الجزائر فى خطين عبر الصحراء الكبرى — تماما كمـا فعلت الشركات الانجليزية فى منطقة الصحراء السورية — متجهة صوب الجنوب ، وفى أيام قليلة يأخذان مسارهما الى المناطق الحارة فى قلب افريقيا • وبجانب هذين الخطين للسيارات يوجد خطان جويان أحدهما لشركة « اير فرانس Air France » يبـدأ من مارسيليا الى المستعمرات الفرنسية عند خط الاستواء الأفريقى مارا بالجزائر والصحراء الكبرى • وأما الآخر فبلجيكى يعمل على الطريق بين بروكسل والكونغو البلجيكى •

مما لا شك فيه أن أهمية هـذه الشبكة الجوية عابرة القارات — التى تخترق أجواء الشرق الأدنى والأوسط — لم تزل محدودة فى الوقت الحاضر ، فلم تستطع الطائرات بعد — حتى فى سرعة تقدمها هندسيا —

أن تنافس القطار ، وكذلك لم تستطع بعد — من باب أولى — منافسة رحلات السفن على الطريق البحرى من الغرب الى الشرق • ولكننا نقف على أبواب ثورة عارمة فى عالم المواصلات ، فتطور الخطوط الجوية فى العشر سنوات الأخيرة ينبىء بأن الجولة ستكون لها ، فبينما كانت ترسل الطائرة — قبل ١٠ سنوات — ذات المحرك الواحد والمقاعد الأربع ارسالا عشوائيا ( أى بدون جدول زمنى ) فى رحلة كانت تتسم بالمغامرة ، أصبحت الآن ترسل بجدول زمنى محدد ، حاملة ٣٠ راكبا وكثيرا من أطنان البريد ، ولا يشك انسان فى أن الرسائل البريدية سترسل — بعد وقت قصير جدا — كلها بالطائرة الى أماكن بعيدة ، وقد لاح فى الأفق بوادر هـذا التكهن فقد تعهدت هيئة بريد الامبراطورية فى صيف عام ١٩٣٧ م • بارسال جميع خطابات الامبراطورية البريطانية من الوطن الأم الى مناطق النفوذ والمستعمرات والمناطق الموضوعة تحت الوصاية أو الحماية ( وبالعكس ) بالطائرات دون رفع سعر الرسوم البريدية • وأبرم بذلك اتفاق دخل فيه كثير من البلاد الاسلامية ذات السيادة ، فمصر — على سبيل المثال — أصبحت — بانضمامها لهذا الاتفاق — متصلة يوميا بالبريد الجوى بوسط وغرب أوروبا •

لا تستطيع الطائرات حمل أشياء كثيرة وهـذا وان كان نقصا فى سبل المواصلات الجوية بالنسبة لغيرها تعوضه السرعة الفائقة للطائرة التى أصبحت بالنسبة للشرق الأدنى عنصرا جوهريا أثر فى كل شىء فيه ، فقد صغر حجمه بواسطة الخطوط الجوية مما جعل سكانه لا يشعرون بالوحدة ، وقد تعمق هـذا الشعور فيهم بدرجة لم تحدث من قبل • والمسافات التى كانت تقطعها القوافل — الممتدة فى الطول امتدادا لا نهاية له — على ضوء الأقمار فى أسبوع تطويها الطائرة اليوم فى ساعات • وجملة القول ان الطرق الجوية العابرة للقارات غيرت المناطق الكبيرة ونظامها تغييرا كاملا وأزالت الحواجز الطبيعية — الجبال والصحارى — التى وقفت قرونا عقبة فى طريق المواصلات •

* * *

ان دخول العالم الاسلامى مرة أخرى فى حركة المرور الدولية له أهمية كبرى وأكثر منه أهمية التماسك الداخلى للدول التى قامت حديثا فى الشرق الأدنى وتطور التقارب بين هـذه الدول .

لو استعرضنا وسائل المواصلات فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين فى هـذه المنطقة الاسلامية ووضعنا بجانبه ما وصلت اليه اليوم لظهر من النظرة الأولى مدى التغيير الذى طرأ على المنطقة وخاصة منـذ أن خطت السـيارة ذات المحركات « أوتوموبيل » خطوات واسعة فى هـذا المضمار .

ففى مدى سنوات قليلة تخلصت الدول الاسلامية من القيود التى فرضتها الطبيعة عليها ، واكتسبت قوة فى هـذا المجال ، ما كان يستطيع أحد قبل عشرين سنة أن يحلم بها ، وكان لهذا التقدم الآلى آثار بعيدة المدى ، ففى الأقاليم التى يكون الاتصال بين سكانها المتناثرة هنا وهناك يكاد يكون معدوما بسبب وعورة جبالها أو مشقة اجتياز صحرائها التى لا ماء فيها ولا خضرة يأخذ التفكير فى التغلب على هـذه الصعوبات بالدرجة الأولى من اهتمام الدولة كى ترسى القواعد الأولى فى المحافظة على كيانها وسلامتها وتقوم بواجبها فى تقديم الخدمات للمجتمع وتتمكن من الاسهام فى عمل ايجابى مع الدول المجاورة سياسيا واقتصاديا . ففى الممالك الاسلامية التى كانت قبل الحرب — تركيا القديمة وايران — عاش الناس داخل المملكة الواحدة منفصلين عن بعضهم بمسافات لا يمكن قطعها بسـهولة ، وكلما كان الاقليم بعيدا واقعا على أطراف المملكة كثرت فيه الثورات للخروج على الدولة ، وقوى فى الناس طبيعة المقاومة ضد السـلطة المركزية ، وفى هـذا الجو تنمو وتتطور النزعة الاقليمية ، فاهتمام السـكان منحصر فى اقليمهم ، وأفكارهم لا تتعدى حدوده فلا يلفت انتباههم ما يحدث فى خارج البقعة التى يعيشون عليها ، وتلك كانت ظاهرة عامة — اذا استثنينا المناطق الواقعة على الشـاطىء — فالاهتمام بسبل الحيـاة فى العالم الخارجى معدوم وتتبع الأحداث العالمية لا وجود له ، فهم لا يعرفون شـيئا عن التقدم الذى تحرزه

المجموعات البشرية الأخرى فى عالم الحضارة ، ولا يصل الى سمعهم أخبار الاكتشافات العلمية بل لا يبلغون بالاتفاقات الدولية التى تقرر مصيرهم — سواء أكانت على مستوى الفرد أو مستوى الشعب — الا بعد زمن طويل — وغالبا ما تترتب عليها نتائج قاسية بالنسبة لمستقبلهم — فالى أن يصل أخبارها اليهم عبر الصحارى والجبال يكون التنفيذ قد أخذ طريقه ، ولا يستطيع أحد الفكاك منه •

ولهذا استهدفت جهود دول الشرق الاسلامى الكبرى فى زمن ما قبل الحرب النهوض بأقاليمها ، لقد عادت المواجهة مرة أخرى مع العالم الغربى بدخول تلك المنطقة فى حركة المواصلات العالمية فازدادت أهمية المنطقة الاسلامية ، وطمع فيها الطامعون وتكالب عليها الاستعمار الغربى وفتتها بهجومه المتواصل وأصبح يمثل خطرا ، دفع الحكومات الاسلامية الى الاهتمام بنهضة أقاليمها — باقامة طرق مواصلات ، والقيام بخدمات اجتماعية — وفرض الرقابة عليها ( حتى لا تقع فريسة هذا العدو الزاحف عليها بأساليب حديثة ووسائل فتاكة ) ولكن هـذا الطموح كان محدودا وضيقا ، فشبكة المواصلات آنذاك اشتملت على وسـيلة وحيدة سريعة ألا وهى السكك الحديدية التى تعلقت الآمال بها فى نهضة البلاد وتطورها ••• ولم يكن فى الخزانة ما يكفى لاقامة هـذه الشبكة ، فاتجهت الأنظار الى المولين الأجانب وهم يعكفون على خدمة أهداف سياسية جندوا لها ، وعليه فقد رسموا مخططا استعماريا مفاده حل الأقاليم الواقعة على حدود المملكة الاسلامية من سيطرة الحكومة المركزية واخضاعها لسيطرتهم ونفوذهم ، وممارسة أعمال الرقابة على تلك الأقاليم ، ولهذا حاول المولون أن يمنعوا بناء الخطوط الحديدية — أو يضعوها فى برنامج اقامة شبكة المواصلات — التى لا تخدم هدفهم المرسوم ، وهكذا أقيمت معظم الخطوط — التى بنيت قبل الحرب فى تركيا بمساعدة قروض أجنبية — بشروط سياسية واقتصادية مجحفة ، ومدت حيث يكون الأمر مرضيا للممول وحيث يعتقد أن الظروف ملائمة له • وانطلاقا من هـذا المفهوم ظلت منطقة الأناضول الشرقية معزولة عن استانبول لم توصل بخط حديدى ، لأن

روسيا رغبت فى ذلك ، فهى تطمع فى الاستيلاء عليها ، وخدمت شبكة الخطوط الحديدية فى سورية وفلسطين — التى أقيمت برأس مال فرنسى — النفوذ الفرنسى فى البلاد الواقعة على الشاطىء الشرقى للبحر الأبيض المتوسط ، كما حملت معها ضعف قوة الحكومة المركزية التركية •

ولم يكن هنـــاك سوى خط واحد أقيم لهدف رمت اليه الحكومة التركية ، خط الحجاز ، فقد أقامته الحكومة لربط الأجزاء العربية — حيث تقوم الثورات ويكثر المتمردون على السلطة العثمانية — بمنطقة الأناضول التى هى جزء من الوطن الأم • كما كان هو الخط الوحيد الذى لم يتم بمساعدات أجنبية ، فرأس ماله وطنى من موارد الوقف ، وادارته وطنية ، وكانت القطارات تسير عبر الصحراء الموحشة الى الجنوب حيث الأماكن المقدسة ، يقودها سائقون مسلمون ويعمل عليها محصلون مسلمون أيضا •

لقد استمر العمل فى بناء هذا الخط من عام ١٩٠١ حتى عام ١٩٠٨ م وتوقف عند المدينة المنورة لأن الخامات استنفدت وموارد المال نضبت ولم يكمل المشروع الذى كان مقدرا له أن يربط مكة وميناءها جدة بالباب العالى•

حاولت بريطانيا أن تمنع ربط استامبول بالبحر الأحمر وكان لمكايدها السياسية أثر فى فشل المشروع ، الا أنه لم يكن السبب الوحيد فى توقف العمل فى مد هـــذا الخط بل سانده عامل آخر يتعلق بالايراد ، فالقطار يخترق مناطق غير آهلة بالسكان ومناطق الواحات وسكانها لا يرحلون ، ولهذا قل ايراده وبالتالى لم يحقق ربحا •

وفى أثناء الحرب العالمية دمرت انجلترا الجزء الجنوبى من خط الحجاز ، وبعد الحرب فقد أهميته الاستراتيجية فلم تعد هناك الدولة العثمانية التى أرادت به ربط المناطق النائية بمركز الخلافة • ورغم هذا فقد استؤنف العمل فيه بعد الحرب ، ففى جزئه الشمالى بين دمشق وعمان — عاصمة الأردن — كان يسير يوميا بعض القطارات ، أما الجزء الجنوبى بين عمان ومعان فكان يسير قطار واحد فقط أسبوعيا ولم تعد المنطقة بين معان والمدينة المنورة — الواقعة تحت سيطرة ابن سعود — صالحة للعمـــل •

ان التقارب بين البلاد العربيـــة أصبح ضرورة ملحة بعـــد الحرب العالمية دفعت الى التفكير فى اعادة تشغيل خط الحجاز واتمامه ، فقد نوقشت هـــذه المسألة فى المؤتمرات الاسلامية التى عقدت على مستوى عالمى فى مكة عام ١٩٢٦ م وفى القدس ١٩٣١ م ورغم أنها استغرقت كثيرا من نقاش المؤتمرين ودرست باستفاضة لم يصلوا الى قرار .

وأهم هـــذه المؤتمرات مؤتمر خط الحجاز الذى افتتح فى خريف عام ١٩٣٥ م ، فقد اشترك فيه ممثلون عن سوريا وفلسطين وشرق الأردن والعربية السعودية وعلى مائدته وضعت الحقائق التالية أمام المؤتمرين : الجزء الواقع فى سوريا وفلسطين وشرق الأردن صالح للاستعمال وحالته تسمح باستئناف سير القطارات ، ويقدر لاصلاح هـــذه الأجزاء مبلغ ٢٠٠ر٠٠٠ جنيها ... ولكنهم لم يصلوا الى قرار يبين كيفية جمع هـــذا المبلغ ... وبعد فشل هـــذا المؤتمر درست حكومة العربية السعودية الأمر ، وانتهت الى وضع خطـــة لتمويل هـــذا المشروع منطوقها تأسيس شركة اسلامية مساهمة تتسلم ادارة الخط من الدول التى تمر فيها وتعمل على تكميله الى مكة وجدة ، وشاركت جهات أخرى السعودية فى اتجاهها نحو ضرورة اتمام الخط ، فالدوائر التجارية فى دمشق أبدت اهتماما كبيرا لذلك وأظهرت استعدادها لتدبير المبالغ اللازمة ، وأبدت الدوائر المصرية والعراقية رغبتها فى تدبير ما ينقص وكذلك الهنود المسلمون — وهم نشطون فى النواحى الدينية — عرضوا مساعداتهم .

* * *

قامت دول قوية حديثة فوق الأنقاض السياسية التى خلفتها الحرب العالمية ، وتمكنت هـــذه الدول من تطوير شبكة المواصلات فى العالم الاسلامى ولم يكن الدافع لهذا التطوير مصالح المولين الأجانب — كما كان قبل الحرب — بل رغبة اقليمية فى النهوض بالبلاد ، واندفعت هذه الدول الحديثة فى هـــذا المجال بقوة هائلة وارادة لا تعرف اللين ، ولا ترضى بالحلول الهزيلة ، وكان غايتهم تأمين الاستقلال الذى حصلوا عليه والمحافظة على كيانهم الجديد وتطويره .

وتعتبر تركيا الحديثة — بقيادة كمال أتاتورك — مثالا حيا فى هذا المضمار ، فقد توصلت الى نتيجة بالغة الأهمية بالمجهود الذاتى رغم ضيق مواردها المالية ، فمنذ قيام الدولة الحديثة حتى عام ١٩٣٦ م بلغ طول الخطوط الحديدية التى أقيمت ٢٦٣٠ كم برأس مال وطنى بلغ ربع مليون جنيها تركيا • وقد وضع بند فى الميزانية التركية لتمويل بناء السكك الحديدية ، واستمرت الدولة فى تقديم المال اللازم ، ولكن عندما عجز هــذا البند عن تقديم ما يطلب من المال ، دعم بقروض كانت كلها تقريبا من أموال وطنية وفى نفس الوقت أعادت الدولة الحديثة الخطوط الحديدية التى أقيمت قبل الحرب الى ملكية الدولة ، وذلك بشراء الأسهم والسندات من شركة خطوط الأناضول ، وأصبحت اليوم كل الخطوط الحديدية فى تركيا ملكا للدولة حتى المسافة الجنوبية فى خط بغــداد فهــذا الجزء من الناحية القانونيــة مملوك لشركة تركــية وان مول بأموال فرنســية •

من الخطوط الحديدية الجديدة فى تركيا خطوط لها استراتيجية هامة كتلك التى تربط مناطق الفحم بأطراف الدولة البعيدة ، والخطوط التى توصل الموانى غرب الأناضول بالمناطق الداخلية • وكذلك الخط الطويل الذى يمتد من أنقرة الى مناطق الدولة الشرقية مارا بقيصرى وسيواس • وسوف يربط خط بغداد — الذى يدور البحث الآن حول اتمامه كما ذكرنا — تركيا بالعراق ( لو تم ••• ) ويضفى على شبكة خطوط الأناضول جميعها أهمية كبيرة ، وسيكون سببا فى توثيق العلاقة بين الدولتين — تركيا والعراق — توثيقا طبيعيا يعلو فوق الأطماع السياسية •

ويوجد الآن مشروع مهم جدا — لم يبدأ فى تحقيقه بعد وان كان قد فكر فيه جديا — اقامة خط يربط ميناء طرابزون على البحر الأسود بمدينة أرضوم حيث يتصل بالخط الذى أقيم قبل الحرب • وان تحقق هــذا سيكون دافعا لتوصيله الى تبريز الايرانية ، ومن هنــاك يتصل بالخط الايرانى الذى يقام حاليا ، وبعد اتمامه سيكون هناك خط حديدى

بين ايران وتركيا يحتل مكانا ذا أثر بالغ فى التجارة الايرانية ، اذ سينقل حاصلات ايران الى أوروبا •

* * *

كذلك فى الدولة الايرانية الجديدة ، دولة رضا شاه ، فبعد ما محت الدولة أطلال العهــد القديم المتناثرة مضت بعزم لا ينثنى على طريق النهوض بالمناطق النائية من المملكة ، فأنشأت شبكة خطوط حديدية أصبحت حديث الناس اليوم ، فاذا ما التقى ايرانيان أو ايرانى وأجنبى على سفر ودار حديث بينهما — كما يحدث عادة فى مثل هــذه الحالة — سرعان ما ينتقل الى الموضوع الذى يحرك الدولة الجديدة وينال الدرجة الأولى من اهتمامها ، ألا وهو الخط الحديدى الكبير العابر الذى يعد قنطرة مواصلات من الشمال الى الجنوب عبر المجال الايرانى الذى لم يكن مربوطا من قبل ، وسوف يربط هــذا الخط بحر قزوين بالخليج الفارسى وبالتالى يربط روســيا بأطراف مناطق نفوذ انجلترا ، ويبلغ طوله ١٥٠٠ كم •

قام رجال الاقتصاد بدراسات طويلة وشاقة لهذا المشروع قبل أن يبدأ العمل فيه دون أن يدركوا أهميته الاقتصادية ، فسخر الناس من هذا المشروع وعارضوه وبينوا — بعمليات حسابية — أن ما يصرف عليــه مال ضائع فهو موضوع وضعا خاطئا من الناحية الاقتصادية ، وكل هذا لم يثن عزم المسئولين عن المضى قدما فى مد هذا الخط ، فالعمل قائم على قدم وساق ، ووضع القضبان يتقدم خطوة بعد أخرى الى الشمال والجنوب • يستطيع الانسان أن يفهم استراتيجية هذا الخط من كلمة قالها أحد الشرقيين الأذكياء : ان درجة السيطرة على المنطقة تتوقف — بطريق مباشر — على مقــدار ما لدى الشعب من حضــارة وان حركة المواصلات دليل الحضــارة ، بل تخلق حضــارة ، ولهذا ينبغى ألا ينظر الى هــذا المشروع من الناحية الاقتصادية •

ولم تكن هــذه الناحية اطلاقا هدف ذلك الرجل — رضا شاه —

الذى أصدر أمرا باقامته ، أما هدف رضا شاه منه والى أى شىء أراد أن يتوصل من ورائه فيستطيع الانسان أن يفهم أبعاده — فى نفسية الشاه — اذا تحدث مع الايرانيين عن هـذا المشروع الضخم الذى أقيم فى ايران المتحضرة ، فسرعان ما يتبين أنه مثال حى لجهود القوى الوطنية فضلا عن أنـه رمز للتقدم — تقريبا كخط السـيارات السريع « Autobahn » فى ألمانيا — تجاوزت أهميته الغرض الذى أقيم من أجله ، فهو المقياس الذى يقاس به كل تطور فى البلد وهو موضع قدح الزند الذى وضعت فيه ارادة وشعور المواطن الايرانى ، فاذا ما دار الحديث حول الانجازات التى قامت بها ايران المتحضرة فان الخط الحديدى أول ما يذكر ، رغم أنه لم ينته بعد ورغم أنه أقيمت فى دولة رضا شاه كثير من الانشاءات غيره • وهكذا أصبح سـهما يرشد الايرانى الى ساحة النزعات القومية حيث يتأجج الشـعور الوطنى ، بل تبوأ مكانا مرتفعا يذهل الايرانيين أحيانا ويضفى عليهم ثوب الخيلاء • ان عزم الشاه على تنفيذ هـذا المشروع — الذى كان احـدى دعائم النهضة فى بلاده — دليل واضح على أنه ادارى ناجح ، ومصلح عظيم ، وليس هـذا فحسب بل تبين أنه عالم نفسانى كبير فهم نفسيات شعبه وعرف كيف تحرك ، وهـذه ميزة قل أن تجدها عند أحد من الايرانيين غيره • كان بناء الخط الحديدى نداء الشاه الى الشعب الواعى ليوقظه ، ودعوة الى العمل وبذل المجهود لبناء الأمة واستعاب الشعب له وسار وراءه ، وموِل الخط برأس مال وطنى — كما حدث فى اقامة الخط التركى ، ويماثله أيضا فى الاستراتيجية — فكانت تدفع المصاريف من أرباح شركات السكر والشاى ، وعند ما تبين أن هذه الأرباح لا تكفى — كما لم يكف فى تركيا ما رصد لبناء الخط الحديدى هنـاك — فرض على كل ايرانى — من الوزير الى الفلاح — أن يسهم بقروشه حسب مستوى دخله ، وأطلق على هـذا ضريبة بنـاء الخط الحديدى •

كان لهذا الخط — قبل أن ينتهى — تاريخه واقتصادياته وهندسته وانسانيته فقد دار البحث بادىء ذى بدء للوصول الى قرار حول هندسة

القضبان ، أتكون عريضة مثل الخط الروسى ، أم ضيقة مثل الخط الهندى ، أو عادية مثل الخط الأوروبى واختيرت هندسة الأخير : لأن شبكة الخطوط الحديدية الايرانية موصلة بالتركية بواسطة الخط الفرعى — الذى تكلمنا عنه سابقا — من طهران الى تبريز ، وبذلك تمتد وصلته الى الخط الأوروبى ، ففى بداية عام ١٩٣٧ م ، زار وفد تركى طهران للتشاور مع الحكومة الايرانية حول تناسق العمل لربط خطى المواصلات الحديدية فى البلدين ببعضهما •

وفى عام ١٩٢٥م عندما تبلور المشروع من الناحية النظرية ركز الشاه تجارة الشاى والسكر فى قطاع واحد ( شركة واحدة ) ورصد أرباحها لبناء الخط • وبعد عامين — عندما ابتدأ العمل — تجمع مبلغ ضخم من هـذه الأرباح وضع تحت تصرف الهيئة الممولة ، وأبرمت شركة البناء العالمية — التى أسهمت فيها شركات ألمانية وفرنسية وأمريكية — عقدا مع الحكومة الايرانية للقيام باقامة الخط ، فتعهد الأمريكيون بالعمل فى الجنوب ، من ميناء بندر شاه مسافة ٢٠٠ كم الى الشمال • والفرنسيون والألمان الجزء الشمالى من بندر شاه بحذاء المنحنى الجنوبى الشرقى لبحر قزوين • وفى عام ١٩٢٨ ، أسندت الحكومة عملية بناء الخط الى القطاع الحكومى ، وذلك اثر صعوبات مع المقاولين الأجانب ، واستدعى للاشراف بلجيكيون ويابانيون وفيما بعد أمريكيون ، وفى هذه المرحلة دخل تغيير على التخطيط الألمانى للمشروع واختصرت الخطوط فمدت فى مناطق جغرافية صعبة ردم فيها أنفاق كثيرة ودمرت خطوط لمسافات عديدة بسبب الانهيارات الطبيعية ، وفى عام ١٩٣١ م طرأ تغيير جديد على الخطة ، فقد تخلت الحكومة عن قيامها بالبناء لمجموعة سويدية دانمركية — محتذية بذلك حذو تركيا — وعقدت معها اتفاقا دخله تغيير فى عام ١٩٣٣ م ، فتعهـدت هـذه المجمـوعة « Kampsax - Konsertium » بأن تتم بناء الخط فى جزئه الشمالى — من بحر قزوين حتى طهران — فى موعد غايته أوائل ربيع عام ١٩٣٧ م وقطاعه الجنوبى — من طهران حتى الخليج الفارسى — أوائل ربيع عام ١٩٣٩ م مقابل أن تأخذ عن

كل متر دولارا ذهبا ، وفى مارس ١٩٣٧ كمل بناء القطاع الشمالى فى الوقت المحدد له واحتفل بافتتاحه • وفى ٢٢ مايو ١٩٣٩ م أسدل الستار على أصعب عملية بناء لخط حديدى فى القرن الحالى •

* * *

ونهجت نهجها — أى نهج الحكومتين الايرانية والتركية — الحكومة العراقية ، فقد استثارتها تجربة الدولتين الكبيرتين فوضعت مشروع بناء الخطوط الحديدية وبدأت بأهمها ، كما عقدت العزم على تكملة خط بغداد فى المنطقة الواقعة فى أراضيها • وبجانب هذا تدرس الدوائر المسئولة مسألة مد الخط — الذى بدىء فيه قبل الحرب — من بغداد حتى خافقن على الحدود العراقية الايرانية وكان مقررا له من قبل أن يصل الى طهران ؛ ويجب أن يعاد النظر فى هندسة قضبان المسافة التى وضعت قبل الحرب فى هذا الخط لأنها صممت على طريقة الخطوط الهندية ، وهى أضيق من الخطوط الايرانية فلا يمكن لها هــذا الوضع أن تتصل بشبكة الخطوط الايرانية الحديثة ، وعارضت الحكومة التركية هــذا الاتجاه — وصل بغداد بطهران — وبذلت محاولات للحيلولة دون تحقيقه ، لأن اقامته قضــاء على أستراتيجية المشروع الايرانى التركى المزمع اقامته لربط طهران بطرابزون •

ومما يجدر ذكره هنا فى تاريخ شبكة الخطوط الحديدية العراقية أنه فى أوائل عام ١٩٣٧ م نقلت هــذه الشبكة من يد الشركة الانجليزية الى ملكيــة الدولة •

* * *

بعثت الخطوط الجوية الداخلية التى أنشأتها شركات اسلامية الحياة فى المنطقة الاسلامية وأضفت عليها نوعا من الوحدة السياسية ، فقد اضطلعت هــذه الخطوط بخدمات ذات قيمة للخطوط الكبيرة عابرة القارات فضلا عن أنها قربت المسافة بين الدول الاسلامية وربطتها ببعضها ، وكانت شركة الطيران المصرية — والخطوط الجوية المصرية احــدى شركات بنك مصر فى القاهرة — على رأسها ، فقد أنشأت هــذه الشركة خطوطها

داخل القطر المصرى فغطت البـلاد على ضفتى النيـل بشبكة خطوط جوية • ثم ما لبثت أن تعدت حدود القطر المصرى وأنشأت خطوطا : مصر — فلسطين ، مصر — سورية — قبرص ، كذلك مصر — العراق ، وكانت الرحلات فى بعض هـذه الخطوط يوميا وفى بعضها الآخر ثلاث مرات فى الأسبوع • وفى مدرسة طيران الشركة عنى بتخريج طيارين وطنيين للعمل على خطوط الطيران داخل الشرق •

أما فى العراق فقد وضع مشروع بالاشتراك مع الخطوط الجوية المصرية لانشاء خط بين الموصل وبغداد والبصرة وأثناء موسم الحج وضع برنامج قامت بمقتضاه رحلات الطائرات الى مكة بصفة منتظمة ، وفى أوائل عام ١٩٣٧ م انتظمت رحلات الطيران على طريق الجنـوب العربى بين عدن وحضر موت •

ولم تقم تركيا حتى الآن باتخاذ خطوة ايجابية للاتصال بالخطوط الجوية عابرة القارات — ويظهر أن ذلك راجع الى اهتمامها بتحقيق التفوق العسكرى — فلا زالت خطوطها الجوية محلية تلبى الاحتياجات الداخلية ، ولم تتعد حدود الدولة فخدمتها مستمرة منذ عام ١٩٣٣ م بين استانبول وأنقرة ، ومنـذ نهاية عام ١٩٣٤ م بين استانبول وديار بكر ، وتبذل الجهود الآن لاقامة خط بين أنقرة وأزمير • وفى عام ١٩٣٦ م وضع مشروع السنوات الثلاث لتطوير قطاع المواصلات الجوية فى تركيا وأسند الاشراف على تنفيذه الى وزارة العمل التى يجب أن تستعد لاقامة شبكة خطوط جوية ، ورغم الانطواء الحالى للمواصلات الجوية التركية فان اتصالها بشبكة الشرق الأدنى وبالتالى بالخطوط الكبرى عابرة القارات لا يعدو أن يكون مسألة وقت فقط •

* * *

كانت الطائرة — وكذا القطار — عاملا من عوامل التقدم فى البلاد الاسلامية فقد هيأت المجال لبعث الشعور الاسلامى المشترك ، ولكن لم تبلغ كلتا الوسيلتين — الطائرة والقطار — مثل ما أحدثته السيارة فى

هـذا المجال ، اذ أن أثرها كان بالغا فى عالم المواصلات ، فالسـيارة « ثائر على مسرح سياسة النقل » فى الشرق الاسلامى .

وأقرب الأمور توضيحا لهذه الحقيقة أن السيارة ربطت المناطق المتناثرة بشبكة الخطوط الحديدية . ثم انها أصبحت وسـيلة المواصلات السريعة التى تنافس الجمل ، « سفينة الصحراء القديمة » فى مجال سـلامة وأمن المسافرين والبضائع ، وتتفوق عليـه من ناحية السرعة بمراحل . تطورت السيارات هندسيا فازداد الشعور لدى المسافرين بالأمن والاطمئنان فغزت المنـاطق المترامية الأطراف واحتلت المركز الأول بين وسائل المواصلات .

ولقد مهدت السيارة طريقها على طرق القوافل القديمة قبل أن يفكر فى تعبيد ورصف طرق لها ، فقد مرت الأولى وتبعتها الثانية ، ثم تتابعت آلاف أخرى من السيارات وبهـذا عبدت طرق عبر الصحراء والمناطق القاحلة ، ولم تلتزم السيارة التى عبرت تلك المناطق طريقا واحدا مرسوما ، بل كان كل سائق يبحث عن أسهل المناطق عبورا حسب ما تتطلبه سيارته . وليس من المبالغة اذا قلنا ان السيارات عبدت الطرق المحليـة الكبرى لنفسـها ، ثم تناولت الدولة فيما بعد هـذه الطرق ببعض التنظيمات والاصلاحات ، فقد أزاحت الحواجز التى كانت تعوق السير ، وأقامت حجارة على الطريق مبينا عليها عـدد الأميال ، ووضعت اشارات ترشد المسافر الى اتجاهات الطرق ، وأقامت خطوطا للتلغراف ، وأنشأت محطات على طول الطرق تقدم للمسافر — الذى مهد هـذه الطرق قبلا — خدمة للسيارات من وقود واصلاحات وغير ذلك ، وبهذا دبت الحياة فى شبكة المواصلات التى خرجت الى الوجود بطريقة تلقائية وسط الصـحراء والمناطق القاحلة ، وأصبحت الدروب التى كانت تجتازها القوافل طرقا للسيارات .

بان للحكومات أهمية حركة المواصلات التى شقت لنفسها طريقا فى الصحراء والمناطق الوعرة فألقت بثقلها هنـاك حيث لم تستطع السيارات

تعبيد الطريق لنفسها على دروب القوافل وأعنى بذلك المناطق الجبلية فى تركيا والمرتفعات فى ايران وأفغانستان فحولت تلك الدروب الى طرق للسيارات وأنشأت شبكة مواصلات شاملة فى البلاد بلغت الأقاليم المهجورة • ولا يستطيع أحد أن يقدر التقدم الذى حدث فى هذه الفترة القصيرة — فى العشر سنوات الأخيرة — الا اذا سبق له مشاهدة هـــذه المنطقة قبل الاصلاحات التى جرت فيها ، ففى السنين الأولى بعد الحرب كان المسافرون يصبون لعناتهم على الطرق لرداءتها ، والسير بالسيارة فى المناطق الجبلية مخاطرة لم يقم به الا المغامرون •

ثم تحسنت فيما بعد بعض الشىء ، الا من عدد من المناطق الرديئة على الطريق الرئيسى ، حيث يجبر السائق على تهدئة السرعة تهدئة تبلغ الوقوف كلية أحيانا بسبب القنوات التى تعترض الطريق أو الحفر ، والقناطر المتهدمة والفجوات التى خلفتها المستنقعات • وينفذ اليـــوم مشروع طريق عبر المناطق الجبلية الايرانية التركية يمتد طوله من عام الى آخر • ومما يلفت النظر ويسترعى الانتباه تجهيزه بامكانيات تمكن الســـيارة من ارتفاع معدل سرعتها ، وترشده فى الطرق الجانبية اذا انحرف السائق بطريق الخطأ عن الطريق الرئيسى ومال الى طرق جانبية •

تقاربت مراكز الأسواق التجارية — التى هى عصب الحياة — بعد أن كانت مفصولة بمسافات يقطعها المسافر فى أسابيع وتدانت الأقاليم الواقعة على أطراف الدولة فأصبحت فى متناول يد الســـلطة المركزية فتستطيع أن تبعث بقواتها هنا وهناك فى مدة أقل بكثير من ذى قبل لو حدث تمرد فى أى مكان أو أعلن اقليم عصيانه على السلطة المركزية أو لو بدا فى الأفق خروج على قانون الدولة فى المناطق التى يســـكنها البـــدو أو القبائل الرحل : أصبحت دروب القوافل فى كل مكان طرقا للسيارات ، وحلت السيارات محل قوافل الجمال التى كانت تتقدم على الطريق ببطء متمايلة بحركة منتظمة الى الأمام والخلف بحيث يظن رائيها أنها تخطو فى متاهات ، حلت محلها السيارات التى تسابق الرياح وتقطع فى ساعات ما كانت تقطعه القوافل فى أيام • ولم تعد رحلة السيارة

فوق الجبال الشاهقة الارتفاع وخلال المناطق الوعرة وعبر الصحراء القاحلة التى لا تجد فيها نقطة ماء مخاطرة ، أو تحتاج الى مهارة من السائق ، بل أصبحت مواصلة عادية تسير فى بعض أحوالها وفق برنامج موضوع محدد • آلاف من السيارات تمر اليوم على طرق العالم الاسلامى الذى كان بالأمس منطقة مغلقة ، وغدا يزيد عددها الى مائة ألف •

انطلقت السيارة من ساحل شـمال افريقيا — أو من نهاية الخط الحديدى الممتد الى الجنوب — متجهة صوب الجنوب واخترقت الحزام الصحراوى وتغلبت على الصحراء الكبرى وتوغلت فى المناطق القاحلة فى وسط افريقيا واجتازت المناطق الحارة فى القارة • عبد طريق على الساحل عبر ليبيا فربط تونس بالحدود المصرية فى مدة لا تتجاوز ساعات • وتقـام فى مصر شبكة خطوط على أحدث النظم — وهى مكملة لشبكة الخطوط الحديدية والخطوط النهرية — حددت استراتيجية الدفاع عن البـلد تصميماتها ورسمت خططها ، ورغم أنها أقيمت لتخدم أهدافا عسكرية فهى تقدم للبلاد منافع جمة فى عالم المواصلات • وكذلك فى تركيا الفتية ، قدمت الطرق الحديثة للسيارات ما عجزت عن تقديمه شبكة الخطوط الحديدية ، فبينما كان فى تركيا عام ١٩٢٣ م طرقا رديئة بلغت ١٨٠٠ كم أصبح لديها بعد عشر سنوات ٣٠٠٠ كم مرصوفة رصفا جيدا ، وصالحة لكل أغراض المواصلات واشتملت خطة السنوات القادمة على ضرورة رصف مسافة تتراوح بين ١٠٠٠ كم و ١٥٠٠ كم سنويا •

وتمتد طرق الى الشرق من موانى الشاطىء الشرقى للبحر الأبيض المتوسط عند الشواطىء السورية والفلسطينية الى تركستان وتجتازها السيارات بجميع أنواعها ، وهنا يبدو واضحا كيف تغلبت السيارة على غيرها من أنواع المواصلات ، ففى دمشق يستقبل الانسان احداها — على خطوط « Brüder Nairn » التى سبق الكلام عليها — وبعد ٢٤ ساعة يصل الى بغداد ، فهى سيارات ضخمة ملونة باللون الفضى ومجهزة بكل أجهزة الراحة : بوفيه فيه كل ما يحتاجه الانســان وسراير للراحة ، وبجانب هـذه السيارات « الأتوبيسات » التابعة لشركة انجليزية يوجد

عدد آخر عربى منافس لها ، فهو أسرع وأرخص فيما يقدمه من كماليات سخرية • هـذا فضلا عن عدد كبير من سـيارات النقل ذات الحمولة الضخمة وكثير من السيارات الخاصة التى تجازف بالقفز عبر الصحراء • السيارات ؟ ••• لم تعد اليوم مخاطرة بل رحلة متاعبها كبيرة فى وقت الصيف حيث لا تعرف أشعة الشمس المسلطة رحمة ولا شفقة ، ويجب أن تسافر السيارات فى قوافل — حسب تعليمات رجال الأمن — حتى يأمن المسافرون قطاع الطرق فتتبع السيارات الخاصة « الأمنيبوس » ••• وتسير القافلة عبر الصحراء ساعات وساعات ، وكل يبحث عن أسهل الطرق فى محاولة لتفادى عقبات الطرق ، مما يباعد — غالبا — بـين سيارات القافلة بمسافة الكيلو متر ، ولهـذا السبب تبعد أيضا القافلة المتجهة عكسيا بمرمى البصر ، فيتيه المرء فى دروب ملتوية ومتشابكة ويرشده الى الطريق الرئيسى سهم وضع على رأس كل ٥ ك م •

ونرى قوافل السيارات آتية من بغداد يتقدمها أحيانا « أتوبيس » عربى مزدحم ازدحاما لا مثيل له ، هيئات ركابه وأشكالهم تعود بالفكر الى الوراء ، الى الماضى البعيد ، فهم — وبعضهم حجاج — يجلسون جلسة المتربع على مقاعد « الأتوبيس » ويتلاصقون تلاصقا أشبه بالالتحام من شدة الزحام وتبدو على وجوههم علامات الجلد فى تحمل المشقات والصبر على متاعب السفر • وخلفه سيارة نقل محملة حملا ثقيلا تنقل بضائع ايران والعراق الى شواطىء البحر الأبيض المتوسط ، ويمر القطار مسرعا ويلوح الركاب محيين ثم ما يلبث أن يختفى خلف التراب الذى تنثره الرياح ••• ويرى المسافر على يمين الطريق وشماله ضوامر متهالكه ، وسيارات تعانى من وطأة السير ، فلم يبق منهـا سوى جسم المحرك المتهالك وهيكل السيارة •

تتوقف القافلة فى المساء عند رطبة ، وهى بمثابة قلعة فى الصحراء فقد اختيرت فى منتصف الطريق لانشاء نقطة شرطة ومحطة يجد المسافر فيهـا كفايته من وقود وماء ، وقد خلقت الادارة الانجليزية من رمال الصحراء دار ضيافة « فندقا » حديثة أضفت على المكان سحرا ، فيتوقف

« الأتوبيس » السريع فى هـذا المكان وقتا قصيرا ثم يستأنف السير ، أما الآخرون فينتظرون فى هـذه الواحة حتى اليوم التالى فيستأنفوا رحلتهـم مع أول ضـوء النهار ... ان من ينظـر الى لوحات أرقام الكيلو مترات يتبين أنه قطع مئات ومئات من الكيلو مترات ويرى أسهما رسمت عليها ، تشير الى أهداف بعيدة جهة الشمال والجنوب تمتد حتى شواطىء البحر الأحمر أو شواطىء المحيط الهندى ، ويتوقف الانسان عند هـذه اللوحات التى تشير الى الاتجاهات المؤدية الى المدن — مدن كانت قبلا متباعدة كأنها فى آخر العالم ولكنها تبدو اليوم متقاربة — وأثناء وقوفه يهدأ صوت المحرك مفسحا المجال لتفكير الانسان ليتمعن فى المـاضى وفيما غيرته المحركات الآلية وماذا ستفعله فى المستقبل . يتخلل العالم الاسلامى اليوم دروب صحراوية وطرق للسيارات ، فدمشق مربوطة ببغداد ومكة . ويتفرع من الطريق الرئيسى الذى يخترق العالم الاسلامى من الغرب الى الشرق طرق فرعية الى الشمال حيث حقول الزيت العراقية والى تركيا الغنية ، وفتحت شريان مواصلات الى الجانب الشرقى من بغداد ، فهى تمتد الى المرتفعات الايرانية الى طهران وأصفهان التى هى درة البنـاء الايرانى ، والى شيراز الى مدينة الورود ويستمر فى اتجاهه صوب الشرق الى المدينة المقدسة مشهد،ثم يتجاوزها الى الحدود الايرانية الأفغانية — حيث يترك المرتفعات الايرانية الى الجبال الشاهقة فى وسط آسـيا — فيصل الى أفغانستان ، وترتبط أفغانستان بمدنها الثلاثة — الواقعة على شكل مثلث : هراة فى الغرب ، وقندها فى الجنوب وكابول فى الشرق — بشبكة الخطوط الممتدة من شواطىء البحر الأبيض المتوسط الى أعماق العالم الاسلامى فى غرب ووسط آسـيا ، فهى تعتبر الحدود الشرقية للأسواق فى ايران . ومما هو جدير بالذكر أن سيارات النقل التى تمر هنا مزينة برسوم أحب الورود لدى المالك وبآيات قرآنية لحفظها ولحماية السائق .

هذا هو العالم الاسـلامى الذى ترامت أطرافه وتباعدت ، أصبح اليوم — بفضل تطور المواصلات — صغيرا ومتقاربا ، فكلٌ يشعر بصلة

جوار تربطه بالآخر وان تباعد جغرافيا فمن فى بغداد جار لمن فى مكـــة ، ومن فى طهران جار لمن فى كابول • لقد أرسى ربط الأقاليم ببعضها ، والتغلب على الحواجز — التى عاقت المواصـــلات فيما مضى — أسس الشعور الجماعى بمصير هـــذه المنطقة وكان مقدمة لمشروعات جماعية فى المجالات الاقتصادية والسياسية والثقافية ، ••• وهكذا أصبح واضحا وجود ارهاصات لقيام وحدة تقف على قدم المساواة مع أوروبا •

بدأت حقبة جديدة فى تاريخ العالم الاسلامى بعودة الحيـــاة الى طرق المواصلات القديمة وسوف تشهد صراعا مرا بين الشرق والغرب مثل الصراع الذى قـــرر مصير هـــذه المنطقة فى القرون المـــاضية ، والتاريخ يعيد نفسه فقد أدرك الاسلام — مرة أخرى — أنه يحتل مركز قوة فى العالم •

* * *

الباب الثانى

# الفِكْرُ المتجَدِّد

## الفكر المتجدد

عاد الشرق الاسلامى فأخذ مكانه فى شبكة المواصلات العالمية ونزل ميدان التجارة الدولية بعد أن ظل منطويا على نفسه قرونا عدة ، انقطعت خلالها أسباب اتصاله بالعالم الخارجى ، ولم تكن عودة الحيـــاة الى خطوط المواصلات وتنشيط التجـــارة نتيجة لعوامل ذاتيـــة فى الشرق الاسلامى ، بل حركتها قوى ذات اهتمامات بعيدة المدى حملت معها خططا استعمارية اقتضت عودة الحيـــاة الى خطوط المواصلات القديمة • هذه القوى قطعت شوطا طويلا فى طريق الحضارة وارتفعت على سلم المدنية درجات أكسبتها تفوقا واستعلاء على غيرها •

واستئناف فتح الطرق العالمية القديمة جر الشرق الى مواجهة مــع هــذه القوى ، مع أوروبا التى ابتعد عنها الشرق الاسلامى وعزل نفسه ، فقطع اتصاله بها قرونا خيم عليـــه فيها الجمود فوقع فى التخلف وظل بعيدا عما يجرى هناك من الأخذ بأسباب التقدم والعمل على مسايرة وركب المدنيـــة •

فعودة المواجهة بين الشرق والغرب ــ التى ابتدأت بهجوم أوروبا على الشرق فى القرن المـــاضى ــ سبقت وأحيطت بظروف وملابسات تختلف اختلافا كليا عن نظائرها فى المـــاضى يوم أن دارت رحى الحروب الصليبية فى هــذه المنطقة ، فقد كانت القوتان المتصارعتان آنذاك على درجة متساوية حضاريا فالتقابل كان بين فريقين متكافئين • ولكن حملة نابليون ــ التى ابتدأت بها المواجهة ــ أظهرت أن الصراع بين الشرق والغرب يدار بأسلحة غير متساوية ، فالمعركة بين طرفين غير متكافئين ، لأن تقدم البلاد الغربية منحها تفوقا حضاريا ومكنها من أن تكون سيدة المعركة • ولم يستطع العالم الاســـلامى الصمود أمام هــذا التفوق الحضارى لأنه عاش منطويا على نفسه حقبة طويلة أضعفته وأنهكته بحيث سقط أمام الزحف الغربى سياسيا واقتصاديا • ويبدو أن الزمن قد وقف

بالشرق قرونا طويلة ، فظل ثابتا مجمدا لم يطرأ عليـــه جديد وبدا وكأنه لم ير هـــذه القرون ولم يعشها ولم يكن لـــا طرأ عليه من تغيير داخلى — فى نوع الحكم وتعدد الحكام — أى تأثير اطلاقا ، وبالتالى لم يكن له أى تنوع من التطور السياسى والاقتصادى •

كان الشرق هو الطرف المهاجم فى سلسلة الصراع بين العالم الغربى المسيحى والشرق الاسلامى • وظل محتفظا بهـــذا المركز حتى معاهدة السلام التى عقدت فى كاراوفيتس عام ١٦٩٩ م • ثم ساد الموقف هدوء قرنا من الزمن تحول ميزان القوى بعد هـــذه الفترة ، واتخذ الغرب موقف المهاجم ، فقد شن نابليون هجوما على الشرق ••• ووقف الشرق ليدافع ••• بهذه الحملة التى كان المحرك لها عقلية ذات دراية بالمنطقة بدأت حقبة تاريخية جديدة بين الشرق والغرب اكتسب الشرق فيها أهمية موقعه الجغرافى ، وعادت اليه استراتيجيته القديمة مصحوبة بتمزقه سياسيا • وقد ظهرت قضية هـــذا التمزق على المسرح السياسى بشكل ملموس وبلغت ذروتهافىالحرب العالمية[الأولى]حيث انهار النظام الذىكان قائما فى تركيا القديمة ، وبهذا الانهيار وصل الأمر فى نفس الوقت الى أعمق نقطة فى انهيار الشرق الاسلامى ••• وحدثت ردود فعل ••• وبدأت حقبة جديدة تفاعلت فيها العلاقة بين الشرق والغرب فقد أفاق الشرق من صدمة الهزيمة وتحرك تاركا المكان الذى تردى فيه ، وأخذ يتقدم بمرور السنين مستهدفا الوصول الى منطقة الهجوم ، فنحن نقف اليوم فى زمن الهجوم الشرقى على الحصون الغربية •

ابتدأ الهجوم الغربى على الشرق بحملة نابليون،وكانتالحلقةالتالية غزو شمال افريقيا ، وتلا ذلك فرصة السيطرة على شواطىء البحر الأبيض المتوسط وجنوب الجزيرة العربية ، وضم بلوخستان والتفاهم بين انجلترا وروسيا حول ايران وأفغانستان وأخذ أسلوب مقاومة الشرق للهجوم الغربى طرقا متعددة وأساليب مختلفة •

ففى الممالك الاسلامية حيث الحكم المطلق والسيادة «الأوتوقراطية»

أحست الحكومات ورجال السلطة بأن مراكزهم مهددة بالانهيار وسلطانهم يهتز تحت الموجات التى يطلقها الغرب ، فحاولوا الدفاع عن أنفسهم وتحصين مراكزهم بأن دعوا الى حركة اصلاحية — تولوا هم قيادتها — اتخذت النظام الغربى نموذجا لها ، ونسوا أن الأسس التى تقوم عليها ركائز هـذا التقدم ليست موجودة ، وأن الظواهر لظهور تغيير اجتماعى لم تتوفر بعد فى مجتمعاتهم ، فما زالت الشعوب التى أمليت عليها هذه النظم الجديدة ترزح تحت وطأة التمسك بالقديم وهى مصرة على هذا الجمود • ويسر الحكومات المطلقة السيادة — رغم كل ما تبديه من ارادة الاصلاح — أن يكون الشعب مصرا على جموده ، وأن يرفض كل ما هو جديد ، بل كانت توحى اليه بذلك ، لأنه ان قبل النظم الغربية يهدد مركز سلطة الحكومة ، ولن يكون هـذا التهديد أقل أثرا من العدو القادم من الغرب • لم تفهم الشعوب هـذه الاصلاحات فاستعانت الحكومة بخبراء غربيين ، لكى يقيموا لأنفسهم « حصونا » تحميهم من النفوذ الغربى وكانت هـذه محاولة دفع شيطان بشيطان[1] آخر ، وكان الفشل نتيجة حتمية لهذه الحركة الاصلاحية ، الا أنها تركت أثرا ايجابيا لدى الشعب، فقد أخذت المسافة بين الشرق والغرب تزداد اقترابا لدرجة أن الشعب الشرقى — الذى أمليت عليه خطة الاصلاح طبقا للنموذج الأوروبى دون أن يكون لديه مقومات تنفيذها — استيقظ وأخذ طريقه فى مسيرة التقدم ، وكان تحركه الأول ضـد أولئك الذين يمارسون كبت أنفاسه والذين يشعر بضغطهم واستبدادهم بطريق مباشر : ضـد الحكام المستبدين وحكوماتهم « الأتوقراطية » •

لم تكن الدعوة الى الاصلاح نابعة من الشعب بل جاءت من الحكام ، أى أنها « ثورة من القمة » وليست من القاعدة ، وكان الهدف الرئيسى لها تأمين مصالح الحكام والحفاظ على رجال السلطة ، والدفاع عن « الأوتوقراطية » ولهذا امتد خطها الأول فى المجال العسكرى ، والثانى

---

(١) اراد المؤلف ان يقول : ينطبق على هذه المحاولة قول الشاعر :
والمستجير بعمرو عند كربته كالمستجير من الرمضاء بالنار ( م.ش )

فى المجال الاقتصادى والثقافى • ولم تلق هـذه الدعوة صدى كبيرا بل معارضة قوية ، ففى بداية حقبة الهجوم الغربى لم يشعر الشعب اطلاقا بأنه مهدد •

* * *

بعد توقيع معاهدة كارلوفيتس تبين للسلطان سليم الثالث أن التجديد مسألة لا مناص منها ، وأنه يجب أخذ المبادرة بقيادته فى المملكة الاسلامية ، فهو مهم جدا وضرورة ملحة بالنسبة للجيش ، فبدأت من الباب العالى حركة تجديد واصلاح ، سرعان ما انكمشت وطواها النسيان بعد موت السلطان •

وأعاد محمود الثانى الحياة الى دعوة الاصلاح ، عندما بدأت حرب التحرير اليونانية فى عام ١٨٢١ م ، فقد استصدر فتوى من شيخ الاسلام — وهو أعلى سلطة دينية لها حق اصدار الفتاوى طبقا للشريعة الاسلامية — تبرر له اصلاح الجيش طبقا للنموذج الأوروبى ، وأن طريقة القتال الحديثة لا تتعارض مع القرآن الذى بين فى بعض سوره كيفية القتال[١] ، وبعد أن حصل على هذه الفتوى قام بحركة تنظيم وتجديد فى الجيش وتولى ضباط محمد على التدريب ، وكانوا خبراء عسكريين فى جيش الباب العالى ، لأنهم كانوا أبطال العالم الاسلامى آنذاك ، والسبب فى بلوغهم هذه المرتبة أن محمد على اتجه بمصر الى الاستقلال عن الباب العالى ، ومشى فى هذا المضمار قدر استطاعته ، واعتمد على نفسه فى مقاومة الهجوم الغربى ، واتخذ النهوض بمصر وسيلة لذلك ، فكان جيشه أقوى جيش فى المنطقة فى ذلك الحين •

---

(١) لعل المؤلف يشير بذلك الى قوله تعالى : « **ان الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص** » ( الصف : ٤ ) فان كان المؤلف يريد المعنى الحسى القريب فقد أخطأ لأن المقصود من هذه الآية دفع الجنود الى الاقدام والشجاعة ، والجندى محتاج لذلك حتى وان كان فى يده أسلحة الكترونية والأدلة على جواز التكتيك الحربى كثيرة فليرجع من شاء الى كتب الغزوات • ( م.ش ) .

والمعروف أن تنظيمات الجيش المصرى فاقت مثيلاتها فى الجيش التركى القديم فقد انهارت قوات الباب العالى أمام جنود محمد على قبل أن يصل المدد الذى أرسله السلطان ويتمكن من الدفاع عن شرف الدولة ، وسببت هـذه الهزيمة للدولة موقفا حرجا ، وجرتها الى وضع كادت روسيا أن تكون وصية عليها فيه ، وألحقت بها سبة الضعف وعدم الصمود فى مواجهة محمد على ، الذى اقتحمت جيوشه سوريا وضمت شواطىء البحر الأبيض المتوسط الى مصر ، وتقدمت الى داخل الدولة دون أن تلقى مقاومة تذكر •

ومما يجدر ذكره أن البروسيين نقلوا تنظيمات و « تكتيكات » الجيش المصرى وأضافوا اليها أفكارا جديدة ، غير أنهم لم يستطيعوا تنفيـذ ما وضعوه من برامج ، وفشلوا كمـا فشل أسـلافهم على صـخرة المعارضة الداخليـة •

* * *

كذلك أدرك « محمود الثانى » خطر الهجوم الغربى على الشرق الاسلامى ، وبان له أنه يهدد المملكة العثمانية ويستهدف قطع أوصالها وشل ادارتها المركزية ، أى تنحيتها عن ادارة الأقاليم وانكماش سلطانها عليها • لذلك اتجه فى عام ١٨٣٠ م بالاصلاح الادارى مستهدفا تقوية السلطة المركزية فحدد سلطة الولاة ، وضيق دائرة استغلال حماة الحكم — ظهر فى ذلك العصر تعبير حماة الحكم وقصد به الحكام المستبدين الذين يستغلون الشعب — وتكون لأول مرة مجلس وزراء ومجلس شورى ، وكان على الولاة أن يلتزموا بقرارات ذلك المجلس ، فاذا ما أعلن أحدهم العصيان حاول المجلس اخضاعه بواسطة القوات التى كانت ترسل لاخضاع الولاة الخارجين على الدولة • وقرر هـذا السلطان نفسه أيضا — لأول مرة منـذ قرون — عقد معاهدات مع حكام البلاد الغربية لتنظيم التبادل التجارى بين الولايات الواقعة على شاطىء البحر الأبيض المتوسط وبين أوروبا ، ولم ينبع هـذا القرار من رغبـة لدى السـلطان فى تنشيط التجارة ، أو اقامة علاقات مع أوروبا ، وانما كان اجراء يحمل بين طياته

محاولة الدفاع ضد ذلك التيار الغربى ، فقد أمل الباب العالى بواسطة هــذه المعاهدات أن يمسك بزمام التأثير الغربى الذى ينمو كل يوم ، وأن يراقبه ليكون على علم بخطواته ومسالكه التى يتخذها منافذ للوصول الى أغراضه ، وأصبح واضحا لدى السلطان وجوب العمل على وضع هذا التيار الزاحف من الغرب حيث يستطيع مراقبته ويبعده عن الوصول الى النقطة التى يصبح فيها خطرا على وجود السلطة الحاكمة لتركيا القديمة • وطبقا لهذين الهدفين رسمت سياسة تركيا ، وفهم الباب العالى كيف يلعب بهذه السياسة بين القوى الأوروبية المختلفة ويوقع بينها على مدى عشرات السنين • وتحت ظل هــذه العداوة التى وقعت بين الدول الأوروبية — كانت العداوة بينها نسبية ان صح هــذا التعبير — استطاع السلطان محمود الثانى أن يؤمن وجود الدولة — الذى كان متهالكا وآيلا للسقوط — الى فترة ، ودلت التقديرات آنذاك أنه سوف ينهار لا محالة •

مات محمود الثانى فى عام ١٨٣٩ م الذى بدأ زمن الاصلاح فى عهده ، فهو الذى أرسى قواعده وقطع شوطا كبيرا فيه وكان أول سلطان يوقن ايقانا تاما أن أوروبا لا يمكن أن تضرب وترد الى ديارها الا بسلاح أوروبى ، وبغير هــذا لا يستطيع الشرق أن يقف أمامها ويوقف زحفها • ولهذا بذل جهده وحاول بكل الوسائل أن يحقق لبلده المستوى الحضارى الأوروبى كى يستطيع مقابلة هــذا الخطر الداهم ويكون لديه امكانية ردعه والوقوف أمامه • وكان ينقص هــذا الاتجاه دراسة أحوال وظروف الشعب الذى أريد رفع مستواه ، فمما لا جدال فيه حتمية وجود أرض خصبة لبذر هــذه الحضارة والا يبست قبل أن تنبت ويعتريها الذبول ان نبتت بين شعب لا يملك مقومات رعاية الحضارة وليست لديه رغبة تقبلها ، أى لابد من وجود عوامل تتناسب مع ارادة التطور وتساعد على دفعها ورعايتها • فحياة شعوب الشرق اتسمت بالجمود لا تعرف له بديلا ، ولم يكن من السهل اثناء الشعب عما اعتاده أو تغيير هــذه العادات ، فمحمود الثانى حاول وضع الحضــارة الأوروبية على أرز شرقى يبس وتحجر وصار غير مستساغ ••• حاول أن ينقل المدنية الأوروبية الى بلاد

الشرق محاولا النهوض بهـا دون أن يكون لدى شعوب هـذه البلاد مقومات استقبالها وعناصر التفاعل معها فقد ألقى ببذرة جديدة على أرض قحلت وتحجرت وحيل بينها وبين عودة الحياة اليها بتطعيمها بالمواد العضوية لتخصيبها وانباتها ، ولم تكسبها المحاولات التى قام بها المصلحون قوة ، ولم يرفع دعاة الاصلاح قدرتها بل أضعفوها • ومن هذا يتضح أن الأقاليم التى انحدرت وضاعت ، أكثر فى عهد هـذا السلطان منها فى أى عهد سبق ، رغم الجهود الجبارة التى بذلها فى سبيل الاصلاح •

وفى عهد «عبد المجيد» ــ الذى خلف «محمودا» على عرش تركيا ــ استمرت عجلة الاصلاحات فى التقدم • وقد لعبت أوروبا دورا غير مباشر فى استمرار التجديد فى تركيا ، فخف ضغط الخطر القادم من الغرب الذى ينذر باطاحة جميع الحكومات « الأوتوقراطية » • اضطرت الحكومة أن تعطى الشعب « نوعا من الدستور » « مرسوم التنظيمات أو خط جولخانا Hatti Scherif von Gulhane » غير أنه اشتمل على عبارات رنانة وجمل دعائية أكثر منها حقائق ثابتة ومفاهيم محددة ، وقد فتح ذلك طريقا للباب العالى لتعطيله كلما أمكن ذلك ، ويجىء تعطيل الدستور وعدم الالتزام بما فيه وتحويره للتخلص منه فى وقت يجرى فيه تهيئة الشعب للاصلاحات التى اتخذت أوروبا نموذجا لها ، فأى تعارض هـذا •• لقد أوحى بهذا التلاعب ــ بل أملاه ــ خوف الحكومة من نوعية الشـعب ، اذ من المسلم به تاريخيا ــ ومنطقيا ــ أن وعى الشعب خطر على سلطة الملكيـة « الأوتوقراطية » ومصدر قلق لها • وكيفما كان نوع هـذا الدستور فقد أقيم طبقا له « نوع من البرلمان » ونفذ كثير من الاصلاحات وخاصة فيما بعد عام ١٨٤٠ ، فقد نشأ نوع من عدم الثقة بين انجلترا والنمسا وبروسيا وتربصت كل واحدة بالأخرى محاولة منعها كسب مناطق من المملكة التركية ، وفى عام ١٨٤٠ م التزموا فيما بينهم بالمحافظة على حدود تركيا لا يجوز لأحد أن يتخطاها ، وأن يكون جهدهم موجها للتأثير فى الاصلاح الادارى طبقـا للنظم الحديثة • وقد أرادوا بالاصلاح الادارى ــ كذلك أيضا بالاصلاح فى المجال العسكرى ــ « ترميم »

الدولة المتهالكة واحياءها لتكون على وضع يمكنها من الدفاع عن نفسها • وكان من برامج هـذا الاصلاح اقامة هيئات ادارية فى الأقاليم على نمط النموذج الأوروبى يكون للشعب فيها تأثير كبير •

وفى عام ١٨٥٣ خرجت روسيا من التحالف الذى عقد فى عام ١٨٤٠ م وتنكرت له وتنحت عن التزاماتها فيه ، فشنت هجوما على تركيا كان بداية حرب القرم ، فكان ذلك دليلا على رغبتها الاستعمارية تجاه الباب العالى وكشف الغطاء عن نيتها القديمة لانتزاع مناطق من تركيا • ولكن تدخل بريطانيا وفرنسا ضيع الفرصة على روسيا وحال بينها وبين ما أرادت بهذا الهجوم فتراجعت الى ما وراء الحدود طبقا لمـا قرر فى اجتماع باريس الذى أنهى حرب القرم •

وكان الهجوم الروسى ناقوسا رن على الباب العالى وأيقظ الشعور لديه بأنه يعيش فقط على حساب النزاع القائم بين القوى الأوروبية ، فنمت مرة أخرى ارادة الاعتماد على النفس فى الدفاع ، ووسيلة ذلك مزيد من الاصلاحات ، وعليه فقد اندفعت موجات متتالية من النظـم الاصلاحية كى تطرد الخطر الداهم السريع فى اندفاعه الى داخـل حدود البلاد وفى نفس الوقت جرت محاولات لكسب صداقة كل القوى ، وكان الطريق الى ذلك منح كل الامتيازات الممكنة للدول الأجنبية ، ولعـب حرص كل دولة فى الحصول على امتياز مثل الأخرى دورا له وزنه فى الحفاظ على الوضع القائم للدولة العثمانية ومن الامتيازات التى منحتهـا الدولة السماح لكل المذاهب بحرية ممارسة طقوسها وعبادتها ، وأعلنت حرية الأديان وأعطى لكل طائفة الحق فى انشاء مدارس خاصة بها ، وبهذا انهارت الجسور الأخيرة التى حمت المملكة العثمانية من الطوفان الثقافى الذى نبع فى الغرب ، ودفع على هيئة تيارات قوية عبر المسالك التى فتحتها أوروبا الى الشرق • لقد بدأت حقبة تاريخية تنساب فيها الموجات ذات الأثر الفعال الذى سيقرر مصير العالم الاسلامى بالنسبة لاستمرار التطور ، فلأول مرة فى تاريخ الاسلام يسوى بين المسيحى وبين المواطن المسلم فى قانون مدنى فى دولة اسلامية • وقد قصد البـاب العالى

بهذه التسوية التى نص عليها فى قانون عام ١٨٥٦ م المرسوم السلطانى « Hatti Humajun » أن يلعب بها دورا فى الأرجوحة السياسية فى عالم الصراع بين القوى الكبرى ، غير أنها كلفته كثيرا فقد انتقصت من سلطاته المطلقة وأضعفت هيبته داخل المملكة وفى أوساط المواطنين المسلمين ودفعتهم الى التحرك .

وتحت ضغط القوى الغربية اندفع فيضان التجديد الى أبعد من هذا ، ففى أواخر العقد الخامس فوجىء الشعب باصلاحات فى القضاء وفى أجهزة الدولة المالية ، ولم يتوقف عند هذا الحد ، بل واصل تقدمه فحصل لبنان على نظام ادارى جديد منح المسيحيين امتيازات جعلت كفتهم راجحة على كفة غيرهم ، كذلك منح المناطق الواقعة تحت النفوذ الفرنسى حكما ذاتيا وتبع ذلك قيام هيئة مالية من الفرنسين والانجليز بتأسيس Banque Imperiale Ottomane ( بنك الامبراطورية العثمانية ). بعد هذا بسنتين أنشئت ادارة أوروبية لديون الدولة التركية . ان العقل الأوروبى الذى استعانت به تركيا ليساعدها على تنفيذ البرامج الاصلاحية كى تستطيع الدفاع عن نفسها وتتمكن من الوقوف ضد الهجوم عليها لا يستطيع أحد التخلص منه أبدا ، لقد أعطى من الامتيازات ونال من الفرص ما يمكنه من تثبيت أقدامه فوق هذه الأرض . فى نهاية العقد السابع خطا تطوير القانون خطوات واسعة وانتقل الى مرحلة صياغته طبقا للنموذج الأوروبى الذى اتخذ أسوة لهذا التجديد ، ولم يفهم الشعب ما يجرى حوله واستيقظ متباطئا ففتح عينه على أشياء غريبة عنه ، وقانون ظن أنه خطر على وجوده فعارضه ، وكانت موجة المعارضة شديدة ، لأنه ظن أنه سيضيع ويقضى عليه بالفناء اذا تم هذا التغيير فى القانون .

ولقد جرت حرب القرم أزمات مالية ، فتراكمت الديون على الدولة من جراء ما أنفق عليها ، وأدى الأمر بالباب العالى الى الافلاس فى عام ١٨٧٥ م ، ونتج عن ذلك خلع السلطان واستدعاء ادارة دولية للاشراف على صندوق الدين سميت بـ « Dette Puplique Ottomane »

تولى « عبد الحميد » الحكم فى عام ١٨٧٦م فبدأت فترة عصيبة فى تطور تركيا القديمة ، فتحت تأثير القوى الأوروبية ، وعد عبد الحميد — فى بداية عهده — الشعب بدستور يتسم بالمرونة ولا يتحيز لطائفة معينة ، فسوف ينص فيه على أن كل المواطنين سواء أمام القانون ويطلق عليهم من الآن « عثمانيون » بصرف النظر عن دينهم ومذهبهم العقدى ، ومع أن الاسلام لا زال دين الدولة الرسمى فقد ضمنت الحكومة لكل الطوائف حرية ممارسة شعائرهم ومزاولة طقوسهم دون أدنى تضييق • وأعلنت حرية النشر وحرية التعليم والتعلم ، واعترف بحق الاجتماع وحق الشكوى ، ولم تلق هذه الاصلاحات أى صدى عند المواطنين بل فتحت أبوابا أخرى أمام قوى البلاد الغربية نفذت من خلالها والتقت بجبهة جماهيرية عريضة ، وازداد التقاء الغرب من هذه الجماهير زيادة مطردة•

كون البرلمان الذى ناقش الدستور وكان يتألف من مقصورتين وعدد أعضائه ١١٦ ، منهم أربعون مسيحيا وتعثر سير هذا النموذج الأوروبى لعدم فهمه ، فلم يستمر سوى سنتين فقط ، ثم فكر عبد الحميد فى أن يعيد الماضى ••• يعيد نظام الحكومة « الأتوقراطية » ، الحكومة صاحبة السيادة المطلقة دون أن يلغى الدستور من الناحية الشكلية ، فحل البرلمان ولم يجتمع برلمان بعد ذلك فى تركيا الا بعد مضى ثلاثين عاما عندما ثارت قوى الشعب التركى ، وقد هيئت الظروف تهييئا كاملا لاستقبال هذا التجديد •

لو أحصينا ما حدث فى هذا القرن من الاصلاحات التى أمليت املاء من الطبقة الحاكمة ، ولو استعرضنا محاولات التجديد لتبين لنا أن كثيرا من مجهودات الباب العالى ذهبت هباء ، رغم أن الرغبة فى الاصلاح كانت مدفوعة بمحاكاة النظم الأوروبية — لأنها اتخذت نموذجا له — وبالحرص على انقاذ تركيا من الانهيار السياسى وحمايتها من الضغط الأوروبى ، ولكن النتيجة جاءت على عكس ما أراد الباب العالى ، فلم تجد الاصلاحات أى صدى فى الشعب بل فتحت أهوسة مرقت منها تيارات التأثير الغربى وازداد تأثير هذه التيارات على الشعب الشرقى ازديادا مطردا نبتت فى

ظله بشائر المعارضة ، وتحولت الى مراكز قوى ضد الاستعباد السياسى الذى مارسته السلطة الحاكمة زمنا طويلا ، وتحول الأمر الى كفـــاح لابراز الكيان الشعبى ثم كونت تلك القوى — بعد الانهيار السياسى للشرق — جبهة ضد البلاد الغربية فأمنت البناء الجديد للدولـــة فى العـــالم الاســـلامى .

***

وفى مصر سايرت النهضة ما حدث فى تركيا زمنا وموضوعا ، فقــد جرى فيها مثل ما حدث فى تركيا رغم أن ربطها بتركيا منذ عهد محمد على كان واهيا ، فقد قامتهنا أيضا « ثورة أتت من القمة » مقتفية أثر أوروبا ومتخذة ما يحدث فيها نموذجا يحتذى ، فأرغمت الجماهير ارغاما على تقبل التجديد دون أن تعرف نواحى الخصوبة فى هذه النظم المستوردة فلم تهتم بها . لقد فتحت هذه النهضة فى مصر بابا بل بوابة للنفوذ الأوروبى ، وسرعان ما أغرق البلد الغنى على ضفتى النيل فى بحيرة الاستعمار الاقتصادى الأوروبى ، وأدى ذلك الى فقدان الدولة سيادتها عام ١٨٨٢م عندما احتل الجيش الانجليزى مصر بعد أن قصف الاسكندرية بمدافعـــه .

***

وفى مملكة القاجاريين فى ايران اتخذت النهضة نفس المســـار طريقا لها ، فتشابها فى كل شىء ، الا أن الاصلاحات هنا لم تلق صدى كبيرا ، وكان طنينها خافتا وسيرها أبطأ منه فى تركيا وفى مصر ، والمعروف أن طبيعة التجديد حملت معها عوامل تحليل لكل ما عاق المجتمع عن التقدم « وأدوات كيميائية » تذيب الصدأ الذى وقف عازلا المجتمع عن تلقـــى النظم الجديدة التى تسهم فى تقدمه وتدفعه الى التحضر ، كذلك كانـــت محاولة القضاء على الجمود مقدمة لغرس البذور الجديدة ... فى ايران كانت قيود الجمود أبطأ فى تحللها وانفكاكها منها فى البلاد الساحليـــة التى كانت تصيبها تيارات الأحداث العـــالمية رغم سياسة الانعـــزال ... بدأت ايران حقبة التجديد باصلاح الجيش — كما كان الحـــال فى

تركيا — فأدخلت النظم الحديثة لترفع من قدرة الجندى القتاليـــة وتهيىء له أحسن وسائل الدفاع ، ففى عام ١٨١٧ م استدعيت بعثة عسكرية من انجلترا وفرنسا للعمل كخبراء عسكريين فى الجيش والقيام بتدريب القوات على الأساليب الحربية الحديثة ••• وبينما كانت ايران منشغلة كلية باصلاح الجيش وقعت فى نزاع مع روسيا واضطرت على أثره مملكة القاجاريين التى أسسها محمد خان فى عام ١٧٩٤ أن تلقى أول هزيمة وتفقد مناطق من المملكة • وفى عام ١٨١٣م فقدت ايران كل ما تملكه من القوقاز والقرغيز واضطرت الى قبول التنازل عنه فى معاهدة الصلح التى أبرمت فى جلستان ، وبعد خمس عشرة سنة خرجت ايران من أرمينية •

بعد هذه الخسارة الفادحة أراد الشاه محمد أن يوسع قاعدة المقاومة ضد الطامعين فاستجلب معلمين وخبراء من الدول المحايدة ، كى يثقفوا الشعب ويعدوه اعدادا يمكنه من تنظيم نفسه ، واعداد مقاومة شعبية مرتكزة على أوسع الجبهات • وحاول الخبراء والمعلمون القادمون مـــن النمسا وايطاليا وفرنسا توعية الشعب بالحضارة الأوروبية وأجروا تجارب بين الجماهير — التى تعيش حياة خلت من عنصر الحركة وخيمت عليها السآمة — لدفع المجتمع الى التحضر ، والى أن يأخذ مكانه فى ركـــب المدنية ، وكان الفرنسيون أقدرهم على استغلال هذه الفرصة ، ويرجـــع تاريخ انتشار اللغة الفرنسية فى ايران الى تلك الفترة •

لقد تعرضت ايران لضغط روسى من الشمال — كما ذكر آنفا — وقابله ضغط انجليزى من الجنوب ، فقد بدأ توسع بريطانى فى الخليـــج الفارسى وفى أفغانستان فى عهد الشاه محمد الذى امتدت فترة حكمـــه من عام ١٨٣٤ حتى ١٨٤٨م أصبح خطر البلاد الغربية من الناحيتين واضحا ومثل كالشبح أمام العيون وبان للمسئولين أن أوروبا لا بد أن تضرب بسلاح أوروبى ، ووجد هذا الرأى صدى مثل ما حدث فى تركيا • كان الشاه ناصر الدين — الذى قاد دفة الدولة فى ايران من عام ١٨٤٨م حتى عام ١٨٩٦م — مصلحا من الطراز الأول وثائرا يجلس على العرش ، وقد أثرت فيه الرحلات الثلاث التى قام بها الى أوروبا ، حيث اطلع

على النهضة الأوروبية ، وعاد منها حاملا أملا كبيرا ورغبة ملحـــة فى تطوير بلاده ووضع أمامه خطة تنفيذ الاصلاح حسب ما تخيل وتصور ولكنه نسى مستوى ثقافة شعبه ومدى وعيه ، وغاب عن خاطره المقدمات التى لا بد من وجودها ، والامكانات التى يجب أن يسبق تحققها كل عمل على طريق التجديد للوصول الى محاكاة النهضة الأوروبية • فتح الشاه طريقا للعقل الأوروبى — كما كان الحال فى تركيا • ولم يستطع التخلص منه بعد ذلك ، ونقل المحيطون به ظواهر الحضارة الأوروبية دون جوهرها ، وأخذوا منها القشور دون اللب وكذلك كان حال معظم الطلبة الذين أرسلهم الشاه الى أوروبا للدراسة ، فقد عادوا الى بلادهم بصورة مظلمة لأصل الحضارة الأوروبية •

وسارت الأمور فى ايران كمـــا سارت فى تركيا فواجه الشـــعب القوى الغربية والانتاج الأوروبى واستمرت المواجهة زمنا طويلا فأخرجته ببطء من جموده فبدأ عهدا جديدا أخذ فيه بزمام التطور وتحركت تلـــك القوى التى سوف تشكل المستقبل بوقوفها أمام المشروعات السياســـية للطبقة الحاكمة ، ففى عام ١٩١٧ — حيث وصلت حقبة التجديد الى نهايتها فى عهد الشاه مظفر الدين — ظهرت تلك القوى على مسرح الصراع السياسى وقد اتجهت معارضتها ضد الشاه وحاشيته الملتفين حوله من الرجعيين ، وفيما بعد ضد البلاد الغربية ، والأوروبيين الذين جىء بـــهم للاشراف على تنفيذ المشروعات الاصلاحية •

* * *

استهدف التجديد فى النظم السياسية محاولة تقوية الشرق ليتمكن من الدفـــاع عن نفسه ضد أوروبا التى اتخذت موقفا هجوميا ضده ، ورغم ما بذل فى هذا المجال من جهود فقد ازداد ضعف العالم الاسلامى ، وتلاحق انضمام مناطقه الى القوى الغربية بدون انقطاع • أيقظ سير الأحداث لمأساة السقوط الاسلامى فى الضحايا وعيا جديدا ، فبان لهم أن عودة المواجهة مع البلاد الغربية لم توقف التدهور ، وأن محاولتهم تقليد أوروبا لم يعد عليهم بالفائدة وأن مجهوداتهم للعمل على ضرب أوروبا

بسلاحها ذهبت هباء ، وأن تأثير الأوروبيين الذين جاءوا للاسهام فى تحضير الشعب كان سلبيا أكثر منه ايجابيا •

وهكذا اتجه التفكير الى أسلوب آخر لطرد الأشباح الغربية ، فبدىء بتعبئة الشعب دينيا واتخذ الاسلام وسيلة الدفاع السياسى ضد البلاد الغربية المغيرة التى تمثل المسيحية لدى الشرقيين ، كما دلت على ذلك حوادث الماضى • لقد كانت هذه محاولة أخيرة لتجميع كل القوى المادية وتوحيدها تحت شعار اسلامى لمواجهة الغرب ، والدفاع عن الكيان السياسى وتبلورت هذه المحاولة فى الدعوة الى الوحدة الاسلامية التى أعادت الى الأذهان كفاح العصر الاسلامى الأول الذى اتسم بالانتصارات الساحقة للدولة الاسلامية • وفتحت هذه الدعوة الآمال أمام الشعوب لاستعادة المجد القديم ، لذلك ذكرت بانتصارات الشرق فى الحروب الصليبية ضد الغرب المسيحى ، وكان احياء هذه الأفكار وقودا ساعد على سرعة انتشار الدعوة الى الوحدة الاسلامية ، فقد فهم الشرقيون أن البلاد الغربية تتقدم لتحقيق مطامعها الاستعمارية وهى حاملة الصليب ومدعية أنها تمثل المسيحية فى حين أن ما يدفع القوى الأوروبية ويقودها فى الطريق الى البلاد الشرقية شىء آخر غير المسيحية ، وحيث تعسرت محاولات الاصلاح التى قامت بها الحكومات الشرقية للوقوف أمام الاستعمار الغربى ، فبعث ذلك يأسا فى النفوس أعقبه تميعا واهمالا ، واتجهوا الى أخذ علم النبى راية يحاولون تحت لوائها مقابلة البلاد الغربية الزاحفة الى الشرق دون توقف ، وحملوا شعار الهلال ليقابلوا به الصليب ، اعتنقوا الوحدة الاسلامية كأسلوب دعائى لتوحيد كل المسلمين تحت علم النبى ولتجميعهم للمقاومة الدينية صفا واحدا ضد البلاد الغربية « المسيحية » •

ظهرت فكرة الوحدة الاسلامية — أو بتعبير آخر الدفاع الاسلامى الوحدوى — بسيطة ولكنها لاقت حماسا شديدا وصدى كبيرا بين شعب عبىء عاطفيا ووجدانيا بالتراث الاسلامى ، واستولى عليه أمل عودة مجد الدولة الاسلامية فوجدت هذه الفكرة منه استجابة أكبر مما وجدته

الاصلاحات التى أملتها عليه الحكومات دون أن تهيأ لها الظروف الملائمــة ودون أن يكون هناك مقومات بقائها ونموها •

ان طبيعة التدين هى شعور بقوة غيبية مقدسة لها سلطان على المتدين تخضعه لطاعتها وتوجهه حسب ارادتها ، فالمتدين يتلقى الأوامر وينفذها دون اعتراض بل يحاول التقرب الى هذه القوة بتنفيذ ما سنته من شرائع وما أوحت به من سنن ، ولم تبلغ درجة هذه الطاعة والخضوع فى الأديان — ربما فى الأديان كلها • قوة ما بلغته فى الاسلام • ( فكلمة الاسلام تعنى الاستسلام ) ، فطبيعة المسلم التسليم لارادة الله والرضا بقضائه وقدره والخضوع بكل ما يملك للواحد القهار •

وكان لهــذه الطاعة أثران مختلفان : ففى العصر الاسلامى الأول لعبت دورا كبيرا فى الحروب ، اذ حققت نصرا متواصلا ، لأنها دفعت فى الجندى روح الفداء ••• وفى العصور الأخيرة كانت سببا فى الجمود الذى خيم على العالم الاسلامى فقذف به الى الانحدار وعزله وطواه عن تيارات الأحداث العالمية(١) •

وتنطلق اليوم استغاثة لاحياء هــذه الطاعة ، التى تبعث فى الجندى روح التفانى فى سبيل الله الذى تأكدت فاعليته فى التعبئة الدينية أثناء العصر الذهبى للاسلام ولكن الدافع لهذه الاستغاثة الوصول الى هدف سياسى لا يمكن الوصول اليه الا عن طريق عقيدة راسخة لها قوة فى نفوس الشعب •

وقد خرجت هــذه الاستغاثة أولا من استانبول حيث كان السلطان التركى يعتبر خليفة المسلمين ويمثل جميع العالم الاسلامى ، فهو الرمز الظاهر لعالم اسلامى متحد — عقديا — ، هــذا اذا صرف النظر عن المذهب الشيعى الذى يقطن أتباعه فى ايران وفى جنوب الجزيرة العربية ، فهم لا يعترفون بهذا الخليفة لأن بينهم خلافا مذهبيا ، اذ أن هــذا المذهب

---

(١) لا يرجع الجمود الى الطاعة العمياء كما يقول المؤلف بل الى استبداد الحكام وايثارهم جهل الشعب ليظل خاضعا لسلطتهم • ( م • ش ) •

الشيعى لا يمثل أهمية من الناحية العددية ، فأتباعه يبلغون تقريبا ٥٪ من مجموع المسلمين •

ويفهم المرء من هــذا أن الباب العالى ظل يقود حروبه ويحمس جنوده بهذه الطريقة التى تدفع الجندى الى الجهاد بشعوره ووجدانه لأنه يدافع عن عقيدة ويحمل لواء الهلال ضد الصليب ، وظلت هــذه سياسة الباب العالى حتى زمن الصراع فى البلقان • وفى نفس الوقت عقــد اتفاق مع تلك الحضارة التى تطورت تحت لواء الصليب ليؤمن تفوقها الآلى • لقد أحيت حركة الوحدة الاسلامية مسائل عديدة ونفضت عنها غبارا حجبها زمنا طويلا ، وأهم تلك المسائل أن الاسلام — منــذ عصره الأول حتى يومنا هــذا — ليس نظــاما دينيا فقط بل سياسيا واقتصاديا واجتماعيا أيضا ، فلم يذكر القرآن أمور الحيــاة الدينية فحسب ولم تقتصر السنة على وصف حيــاة محمد [ ﷺ ] فيما يتعلق بالعبادة — قولا أو فعلا أو تقريرا — بل تناولت نواحى حياته الدنيوية أيضا • هــذه التعاليم التى جاء بها القرآن لبست تعاليم كنسية كما هو الحال لدى الكنيســة المسيحية بل تناولت كل شئون الحيــاة الدينية والدنيوية ، ومن هنا كانت وحدة الدين والدولة فى كل الممالك الاسلامية فى العصور السالفة ، ومن هنا أيضا احتل العلماء والفقهاء مركزا مرموقا فى العالم الاســلامى ، وكانوا المرجع فى كل الآراء ومصدر الفتاوى وأصحاب الرأى فى كل ما يتعلق بالدولة الاســلامية ونظم ادارتها ، فعندما حاول السلطان سليم اصلاح الجيش فى أوائل القرن الماضى تحتم عليــه أولا استشارة العلماء للحصول على فتوى من شيخ الاســلام تبين أن مثل هــذا الاصلاح لا يعارض ما جاء فى القرآن الكريم ، اذ أن الآية تقول : « **ان الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص** »(١) فقد بدا له أن الآية تقف عقبة فى سبيل اصلاح الجيش ليحارب « بالتكتيك » الحديث ولم يدر أن هنــاك آية أخرى تقــول :

---

(١) الصف : ٤ •

« **وقاتلوا المشركين كافة كمـا يقاتلونكم كافة** »[1] فهذه الجملة أعطت الاصلاح العسكرى الذى أراده السلطان اشـارة الانطلاق ، وأضفت عليـه حكم الجواز ، لأن البلاد الغربية التى اتخذت نموذجا للنهضة العسكرية هى تمثل الفريق غير المؤمن ، هى العدو الكافر الذى عبأ جيوشه ضد الشرق الاسـلامى وعلى المسلمين أن يقاتلوه ، ويقابلوه بالمثل ، ويقاتلوه كافة كما يقاتلهم .

ان اتجاه المسلمين نحو مكة — وطن الاسلامى — عامل من أهم العوامل فى تقوية وحدة الاتجاه الداخلى بين المسلمين وأسلوب يضفى على جميع نظم الحياة فى المجتمع الاسلامى طابع الوحدة وصفة التماسك ، يتوجه المسـلمون كل سنة نحو مكة فتتحد خطاهم نحو هدف واحد ، وأفكارهم — وان كان ذلك غير ممكن — الى غاية واحدة . وهناك فى مكة تبسط حالة العالم الاسلامى ، ويتصاعد منها أنين الأفكار المكلومة ممزوجا بوحدة الشعور بضرورة الكفاح سويا والسير معا على طريق النضال ، ويتعمق هـذا الشعور فى نفس الحجاج ، ويحملونه معهم عائدين الى الأقاليم البعيدة المكلومة فى العالم الاسلامى .

حاولت الدعوة الى الوحدة الاسلامية ايقاظ هذا الشعور والاستفادة من طاعة المسلمين وتعبئة المسلمين لمساندة هذه الدعوة التى اتخذت محركا سياسيا فى معركة الدفاع ضد الغرب المهاجم . وكان أهم شخصية حملت لواء هذه الدعوة السلطان عبد الحميد الثانى نظرا لمركزه كخليفة ، كذلك كانت الوحدة الاسلامية مهمة بالنسبة له فهى السهم الذى يحمل سياسته كسلطان — حاكم — على شعب المملكة العثمانية وكخليفة تجاوز سلطانه وهيبته حدود تركيا وانتشر بين المسلمين فى جميع المناطق الاسلامية وفى هـذا المجال — خارج حدود تركيا من مراكش الى البحر الجنوبى — بحث عن القوى الاسلامية ليبعثها للدفاع عن مملكته الكبيرة المتهالكة ، فبعد توليه السلطة مباشرة — عندما سن تحت الضغط دستورا لتركيا —

(١) التوبة : ٣٦ .

أصدر مرسوما يربط الخلافة بالسلطان ، أى أنه أصبح خليفة المسلمين ، فهو ذو لقبين : سلطان وخليفة وبهذا استعاد مكانته وهيبته فى المناطق التى انتزعت منه سياسيا ، ولأول مرة منــذ قرون عادت الهيبة والمكانة الى الخلافة مرة ثانية واعترفت بها الدول الغربية نفسها ، لأن الخليفة حصل على حقوق وواجبات على الرعايا المسلمين فى البلاد التى انفصلت عن تركيا ، بل أصبح له هيمنة روحية على كل المسلمين •

ولكن الدعوة الى الوحدة الاسلامية كانت اتجاها حتمته الظروف السياسية فصادمت ظروفا غير مهيأة ولم تكن مقومات نجاحها مكفولة بالضبط كما حدث فى تلك الاصلاحات حسب نموذج البلاد الغربية • ولو سبقت هــذه الدعوة بمقدمة تجديد الفكر الاسلامى وتحرره من الجمود والعكوف على النصوص لكان الوضع مغايرا ولتحولت النتيجة ، ليتهم عكفوا على النهوض بالفكر وتخليصه من شوائب الجمود ورواسب الماضى المتخلف ، ولكن لم يظهر هــذا الاتجاه فى عهد عبد الحميد • ومع عدم وجود مواصفات نجاح الدعوة الى الوحدة الاسلامية فقد بالغت البلاد الغربية فى تقديرها وأهميتها وأثرها عندما وصفها المعلقون فى نهاية القرن الماضى وأوائل القرن الحالى بأنها منطلق سياسى ، فى حين أنها خلت من مضمون محدد • فهى لم تخرج عن ذاتها ولم يكن لها من ذاتها أى تأثير ، بل كانت مرتبطة بأهداف سياسية ، فقد استهدف من ورائها فى تركيا خضوع وانطواء الاتجاهات المتعددة تحت راية المصالح الرئيسية للباب العالى ، وأراد عبد الحميد بهذه الدعوة احياء الخلافات الدينية فى الشرق الاسلامى مع المسيحية ، وأمل من وراء ذلك ضرب السياسة الغربية ، أى أنها كانت أسلوب اثارة ضد « البلاد الغربيــة والمسيحية » وضد مطامعها الاستعمارية ، لقد أريد بالوحدة الاسلامية أن تكون مركز ثقل وتيار مضاد للأفكار الجديدة غير المتعصبة التى جاءت من الغرب المسيحى والتى مهدت حملة النهضة الأوروبية ممرا لها فى العالم الاسلامى • هــذه الأفكار الحرة تهدد بثلم الأسلحة التى غزت ثلاث قارات وانتصرت فى غزاوتها انتصارات ساحقة وبنت قوة عالمية •

تنتفض هـذه الأسلحة الآن للدفاع ، وفى هـذا المعنى كانت استغاثة الوحدة الاسلامية موجهة الى العاطفة الدينية أى الى التعصب الدينى •

على الرغم من تيقظ أوروبا الزائد لحركة الدعوة الى الوحـدة الاسلامية فقد وجد هـذا الاتجاه الذى تبناه عبد الحميد تجاوبا كبيرا لدرجة أن الناقدين للاسلام يعرفون بأن الشعور بالوحدة الاسلامية بين المسلمين فاق كل تقدير ولم يبلغ من القوة منـذ الحروب الصليبية مثل ما بلغه فى الفترة التى دعى فيها الى الوحدة الاسلامية ، فخط الحجاز الذى دعا عبد الحميد كل المؤمنين لبنائه كان تعبيرا حيا لصدى هـذه الوحدة خارج تركيا ، لقد ربطت العاطفة الدينية كل المسلمين ، ووحدت بينهم للعمل على اتمام هذا الخط ، ومول البنـاء من التبرعات التى انسابت من جميع أنحاء العالم الاسلامى • كذلك كانت عواطف الشعوب الاسلامية فى جميع أنحاء العالم الاسلامى فى جانب الجيش التركى فى الحروب التى قادتها تركيا فى النصف الثانى من القرن الماضى ••• حتى بداية القرن الحالى ، فنصره كان نصرا للاسلام وهزيمته كانت هزيمة للاسلام •

وهكذا ازداد الشعور الجماعى قوة ، وبلغ نموه وتطوره حد نبذ الخلافات وايثار المصالحات على المضى فى المنازعات التى تقف فى طريق الوحدة داخل العالم الاسلامى ، وكان التوصل الى المصالحات يحدث أحيانا بطريق مفاجىء ، ففى حرب طرابلس عندما تعرض جزء مستقل سياسيا فى شمال افريقيا المسلم لهجوم ايطالى عقدت مصالحة فى نفس اليوم بين السنوسى وتركيا ، وتوصل الباب العالى الى ما بذل فى سبيله مجهودا طوال عشرات السنين دون الحصول عليـه •

كتب أغا خان زعيم المسـلمين فى الهنـد وصديق انجلترا فى عام ١٩١٤ م يقـول :

« ان برنامج التربية والتعليم الذى وضعه الانجليز للهند ويقومون على تنفيذه يحمل فى طياته نزعات وطنية ، ولهذا نمت عند المسلمين فى

الهند نزعة اقليمية • غير أنهم لم تعزلهم عن اخوانهم المسلمين جبال الهملايا ولا امتداد المحيط الهندى • فبينهم وبين اخوانهم المسلمين فى البلاد الأخرى وحدة لا تقبل الانفصال ، وحدة تعلو كل الخلافات المذهبية وتجمع كل الأوطان تحت لوائها ، أسست بين المؤمنين على قواعد دينية راسخة ، فلم يجمع المؤمنين تعاليم القرآن فقط ، بل أسهم أيضا فى وحدتهم تاريخ وفلسفة العرب والشعر الفارسى والمصرى والمغربى والأسبانى • والمسلمون الذين لا يشبعون من هـذا المنبع هم الأتراك والعرب والفرس والهنود سواء اتصلوا بالغرب وبالثقافة الغربية أم لا • كل هؤلاء المسلمين مرتبطون بوحدة الفكر والشعور والانطباعات » •

لقد طرح المسلمون المنازعات جانبا وتناسوا الخلافات بين المذاهب الاسلامية وتكاتفوا لازالة العقبات الداخلية التى تعوق الوحدة ، يظهر ذلك جليا فى سياسة التقارب بين تركيا وايران • هاتان الدولتان الاسلاميتان انفصلتا من زمن بعيد بسبب العداوة بين السنيين والشيعيين ، ويرجع تاريخ هـذه العداوة الى عصر صدر الاسلام ، فبعد موت الخليفة الرابع ( على بن أبى طالب ) الذى اغتيل فى عام ٦٦١ م اندلع صراع حاد بين المسلمين ، وانقسموا فريقين : فريق يؤيد أبناء على — أحفاد النبى ، لأن عليا كان زوج فاطمة بنت النبى — فى دعوتهم بأنهم أحق بالخلافة ، وآخر وقف بجانب الأمويين الذين انتزعوا الخلافة لأنفسهم بعد موت على ، فالنزاع فى مبدأ أمره كان نزاعا على السلطة وصراعا حول الحكم وخلافا حول تقييم الأشخاص ، غير أنه أخذ طابعا دينيا • وتناول بعد ذلك مسائل عقدية وأحكاما فقهية • هـذا الانقسام الدينى الذى كان طابع الخلاف بين تركيا وايران كان سياسيا أيضا ، ولكنه طوى وتنوسى عندما ظهرت الدعوة الى الوحدة الاسلامية ، فقد عرف شاه ايران طريقه الى استانبول فقام بزيارة اسلطان تركيا — خليفة المسلمين — ليدعم وحدة الاسلام • ولا يستطيع فهم أثر ذلك التقارب الا من عرف حجم العداوة بين المذهبين ، بل لا يستطيع ذلك الا من رأى مظاهر العداء بين الشيعيين والسنيين فى تلك المناطق الاسلامية حيث يعيش أتباع

كلا المذهبين ، فقد ذكروا أن عددا كبيرا من الشيعيين الذين يحجون الى كربلاء والنجف حيث يرقد على وبنوه — ضحايا الأمويين الذين اغتصبوا السلطة وانتزعوا السيادة — يكتبون على نعالهم أسماء الخلفاء السنيين كى يطئوها أثناء سيرهم على الرمال المتوهجة من أثر أشعة الشمس •

كان عبد الحميد الثانى — الذى أطلق عليه لقب الخليفة الأحمر — أول داعية الى الوحدة الاسلامية وكان يرمى من وراء هذه الدعوة الى هدفين : الأول يتعلق بالسياسة الخارجية، والآخر يتعلق بالسياسة الداخلية، فقد أراد فى مجال السياسة الخارجية تجميع قوى المقاومة فى العالم ضد الغرب ، أما فى مجال السياسة الداخلية فقد استعمل هـــذه الدعوة فى وقف اصلاحات النظم الادارية التى كانت تحتوى النموذج الأوروبى — لأن فى هـــذه الاصلاحات خطرا عليـــه فهى تؤثر فى أذهان المواطنين وتعبىء فيهم روح الثورة على الاستبداد ، وذلك يهدد سلطة الخليفة ويهدد كيان المملكة العثمانية القائمة على « الأوتوقراطية » — والأفكار التى انتشرت فى أوروبا منـــذ اعلان حقوق الانســـان بطريقة سريعة ، هـــذه الأفكار التى جاءت بها الثورة الفرنسية اقتحمت الفكر الشرقى ، جاءت مـــع الاصلاحات التى نفذت فى الشرق ودخلت مع الحقـــوق والامتيازات التى حصلت عليها البلاد الغربية فى البـــلاد الاسلامية • وقد أثرت تأثيرا كبيرا فى بعض طبقات الشعب ودفعت هـــذه الطبقات الى الحركة ، فالدعوة الى الحرية والمساواة والاخاء وجدت صدى بين الشباب ، ودعوة القومية — على النحو الأوروبى — هزت أجزاء المملكة الاسلامية الكبرى ، وزعزعت حكم صاحب السيادة المطلقة ، فما كان من عبد الحميد الثانى الا أن أحيا الوحدة الاسلامية على مسرح الصراع الفـــكرى ليعيد العصبية الرجعيـــة التى يستند اليهـــا لتحمى حكمه الاستبدادى •

ان سياسة الأخذ والعطاء فى وقت واحد سياسة فاشلة ، حاول عبد الحميد أن يتبعها ، ففشل فشلا ذريعا وقضى عليها نهائيا عندما اضطر خليفته أن ينهج سياسة سلفه ، فعند اندلاع الحرب العالمية دعا محمد

الخامس كل المسلمين الى الجهاد «الحرب المقدسة» كى يصد هجوم انجلترا وروسيا ، وانطلق هــذا النداء الى الجهاد دون أن يحدث صدى ، وبدا أن سياسة الدعوة الى الوحدة الاسلامية لم تحدث الا رنينا خافتا وفشلت آخر محاولة يائسة لتعبئة كل القوى المــادية فى العالم الاسلامى من أجل فكرة سياسية تحمل مسوحا دينيا ، فلم يتحرك المسلمون فى الهند وارتفع السلاح فى العالم العربى ضد الباب العالى ، وانهارت آخر سلطة اسلامية كبرى ، وسقطت دعوة عبد الحميد الى الوحدة الاسلامية ، ولم تصمد أمام تيارات القومية •

* * *

انطلقت الدعوة الى الوحدة الاسلامية من طبقة الحكام ذات السيادة المطلقة وقامت الدعاية لها لتحقيق أهداف سياسية وكان أهم منها رد الفعل الذى بدأ ينتشر بين الشعب ويحتل قاعدة شعبية عريضة اثر عودة المواجهة مع البلاد الغربية والاتصال بمراكز الثقافة والمدنية الأوروبية •

وكان رد الفعل هــذا طبيعيا وأخذ طريقه لتحقيق أهداف سياسية بعد ما خفف من قيود الجمود الفكرى الذى عم العالم الاسلامى قرونا طويلة ودفع العقول للحركة والتفكير •

والمقصود من رد الفعل تيارات ضئيلة سارت سيرا بطيئا فتبلورت وأخذت طريقها الى الظهور فى اتجاهين ، فى الحركة الوطنية التى دعت الى القومية وفى دعاة الاصلاح الدينى الذين دعوا الى تجديد واصلاح المفاهيم الاســلامية •

فالحركة الوطنية كانت نتيجة الاتصال بالعقل الأوروبى الذى اقتحم المنطقة بسلاحه • ذلك العقل الذى كونته الثورة الفرنسية وبعثت به الى أوروبا ثم الى الشرق • ففكرة الدولة القومية التى غيرت ملامح أوروبا تلقفها الشــباب فى الشرق وكتبها شعارا على علم التجديد الذى يحمله ، ووضع شعار الدولة القومية هــذا فى مواجهة شعار الوحدة الاسلامية •

وسرعان ما تبين أن دعوة الحركة الوطنية الى دولة قومية تناصب

فكرة عبد الحميد العداء ، اذ أن الوحدة الاسلامية التى وجدت عناصر مختلفة داخل حدود تركيا القديمة تجد نفسها مهددة فى صلبها بالدعوة الى القومية التى تقود كل شعب للانفصال عن تركيا •

وقام فى كل اقليم حركة وطنية تتخذ الدعوة الى القومية أساس وجودها ، فظهر حزب القوميين الأتراك ، والقوميين المصريين ( تركيا الفتاة ومصر الفتاة ) ••• الخ وقويت فى المنطقة العربية أثناء الحرب العالمية حركة المقاومة ضد الباب العالى لانهاء الحقبة التاريخية للعالم الاسلامى ، حيث كان الطابع العام لحياة الشعوب دينيا ، فالدين هو الذى يرسم للأفراد وللمجتمع طريق حياتهم وأسلوب معاشهم ، وحيث كانت شريعة النبى [ ﷺ ] المرجع الأول لنظام الدولة ، تشرحه وتفسره وتقره ، قامت هــذه المقاومة للقضاء على ذلك واستبداله بقواعد قومية ، ومبادىء سياسية يقوم على أسسها نظام الدولة الجديدة •

وانطلاقا من هذا الموقف وتحقيقا لتلك المطالب كانت الحركة الوطنية فى كل مكان — حيث يوجــد قلاقل نتيجـــة محاولتهم الوصـــول الى أغراضهم — العــدو الأول لنظم الحــكومات ذات الســيادة المطلقة أو الحكومات المستبدة فى ظل ملكية ذات طابع الهى ، اذ أنها — أى الحركة الوطنية — كانت تعمل على تنفيذ برامج الاصلاح ، فان تعذر ذلك حاولت قلب هــذه الحكومات : لقد جرت محاولات للحد من سلطة المستبدين ذوى السلطة الفردية التى أضفت على نفسها ثوبا الهياً واستبدالها بنظم أكثر ممارسة للحرية وأقرب الى الديمقراطية يعطى الشعب فيها حق ممارسة الســـلطة ، اذ أخذت هــذه النظم « نموذج الديمقراطية الأوروبية » مثلا لها • فى ظل هــذه التجربة ، تجربة مشاركة الشعب — الذى ما زال مكلوما ومنطويا على نفسه — فى الحكم ، كان لابد أن يشارك الشعب أيضا فى الدفاع ضد البلاد الغربية التى اقتحمت أوطان الشرق ، نمت الحركة الوطنيـــة كما وكيفا ، وازدادت أهميتهـــا بمقدار ما ينفذ من اصلاحات وبمدى تأثير الفكر الأوروبى فى عقول الحاكمين ، ولا ريب فقد كان تأثير الفكر الأوروبى لدى الطبقة الحاكمة فى ازدياد مستمر :

فقد طبق نظام التربية والتعليم الأوروبى ، وظهرت اثر ذلك قضية أطلقوا عليها تحويل الشرق الى أوروبا ، ويقصدون بذلك أن الشرق سيصبح بهذه الطريقة كأوروبا يفكر كما يفكر الأوروبيون ، وهم مخطئون فى ذلك ، فقضية الاحيـاء والتجديد فى الشرق تعتمد أساسا على قدرة العقل الشرقى ، ويستعمل فيها النموذج الأوروبى ، والشرقيون يقلدون الغرب دون أن يفكروا تفكيرا غربيا ، لأن طريقة التفكير الأوروبى التى توجد فيها الانسانية الأوروبية والثقافة المسيحية لا توجد لدى الشرقيين[١] •

تبلورت الحركة الوطنيــة الى مذهب له أيديولوجيته وله مفكرون يدافعون عنه اتخذوا اقامة الدولة القومية هدفهم السياسى ، وبجانب هــذا التيار ظهر اتجاه مضاد شق طريقا آخر غير طريق القومية ، واتخذ الاصلاح الدينى وتجديد مفاهيم الاسلام قاعدة انطلاقه ، الاسلام يجب أن يحرر من جموده كى يعبىء قواه الذاتية للدفاع ضد الغرب ، فهو قوة يمكن أن توقف زحف التيارات الاستعمارية • لقد تنبه المسلمون الى أن الاسلام ليس طقوسا للعبادة فحسب ، ولم يقتصر فقط على المجالات الكنيسية بل شملت تعاليمه أيضا نظما سياسية واجتماعية ، الا أن هذه التعاليم التى لها القدرة على دفع المجتمعات الى التطور ظلت حبيســة هــذا الجمود ، وحال بينها وبين تفاعلها فى المجتمع اتجاهات انطوائية ، وآراء بعيدة عن روح الاسلام ، لقد خطا العالم خطوات واسعة عبر قرون طويلة ، وبلاد الاسلام جمدت مكانها لأسباب خارجة عن الاسلام •

وهكذا بان للمسلمين أن واجبهم الأول هو احياء الأفكار الاسلامية الأولى مرة أخرى كى يستفاد منها فى عالم سريع خطواته على طريق التقدم ، وعرض المبادىء التى خلقت المجتمع الأول فى عصر النبى والخلفاء الراشدين وازالة التراب الذى تراكم عليها بمرور القرون ، وتفتيت خيوط العنكبوت التى نسجت حولها من جراء الأحداث التى عاصرتها عبر هذه

---

(١) يكفى للرد على هــذا ، الرجوع الى ما أنتجه العقل الاسلامى فى عصر صدر الاسلام فى جميع النواحى الفكرية المختلفة • ( م • ش ) •

القرون الطويلة • وأراد المسلمون بذلك بعث النشاط فى القيم الروحية التى احتوتها تعاليم محمد [ ﷺ ] لتكون صالحة للتطبيق فى العصر الحاضر ، عصر التكنولوجيا •

واتجهوا هـذا الاتجاه لأنهم اعتقدوا أنه لا يمكن خلق مقومات للدفاع الايجابى ضد الغرب الا عن طريق اصلاح دينى ونهضة روحية بين الشعب • فقد تبخرت آثار الدعوة الى الوحدة الاسلامية التى كانت توجهها أهداف سياسية ولم يكتب النجاح لها لأنها لم تستطع استخدام الاسلام فى مواجهة الحضارة الغربية ، وعجزت عن اثبات أن النظام الاجتماعى فى الاسلام يتقبل مظاهر الحياة الحديثة ، كذلك فشلت جهود الوحدة الاسلامية فى التوفيق بين تعاليم الاسلام ومتطلبات المدنية •

الوطنية والاصلاح الدينى : شعاران لاتجاهين ظهرا فى الشرق نتيجة عودة المواجهة مع أوروبا ، وتطور اتجاههما الفكرى تحت ظروف الرغبة فى صد هـذا الهجوم الاستعمارى ، ففتح المنطقة الاسلامية أمام القوى الغربية أنذر بضياع الكيان السياسى لدول هـذه المنطقة • فى هـذه الفترة — أعنى فترة عودة المواجهة مع أوروبا — أصيب الشرق اصابة مباشرة تهاوت على أثرها أبنيته السياسية ، رغم المحاولات اليائسة التى بذلتها الحكومة « الالهية »[1] الاسلامية للدفاع عن كيانها ، ورغم جهود الطبقات الحاكمة للحفاظ على امتيازاتها : الوطنية والاصلاح الدينى، أو القومية والنهضة ، ظهرا فى المجتمع الاسلامى قبل الحرب بعشرات السنين ، وأصبحا بعد الانهيار السياسى فى الشرق أثناء الحرب العالمية عنصرى تكوين تلك القوة التى أقامت البناء الحديث للدولة فى العالم الاسلامى • أقامته من تلك الأنقاض التى خلفتها معاول البلاد الغربية • وتعتبر القومية والنهضة من أهم عوامل ظهور القومية الاسلامية التى ترفع اليوم من جديد على واجهة العالم الاسلامى •

* * *

---

(١) لم يعرف المجتمع الاسلامى حكومة الهية كتلك التى يتصورها المسيحيون ، فالحاكم فرد من أفراد الشعب لا يتميز الا بقدرته التى تهيئه لتولى السلطة ، ولا تخرجه عن كونه انسانا . ( م . ش ) .

حاول الوطنيون فى وقت مبكر أن يكتسبوا الصفة الرسمية فى تركيا فبدأوا فى تمهيد طريقهم للوصول الى أغراضهم التى رسموها ، وأعلنوا مبادئهم السياسية ، وسرعان ما تحولت الهيئة الأوروبية التى انحصرت واجباتها فى العناية باللغة التركية الى جمعية ذات أهداف سياسية ، نظمت هذه الجمعية نفسها فى بداية ستينات القرن الماضى وجعلت هدفها الوصول الى تطبيق النظام الأوروبى « الليبرالى » فتنصلت — معتمدة — من الاتجاه الدينى واتخذت طريقها بعيدا عن الاسلام ، ثم حول الزعماء هذه الحركة الوطنية الى تركية متطرفة • قال مدحت باشا — زعيم هذه الحركة وأحد الشخصيات البارزة فيها ، بل أبرزها — فى عام ١٨٦٧ م : « لن تبنى الدولة التركية بعد أربعين أو خمسين سنة مساجد جديدة بل مدارس ومؤسسات اجتماعية » كان التصريح بهذا يعتبر مجازفة فى ذلك الوقت ، فضلا عن أنه كان تنبؤا بالتطور والتغيير الذى نراه اليوم حقيقة واقعة فى النظم المطبقة فى تركيا فى عهد كمال باشا •

فى عام ١٨٦٣ نجحت الحركة الوطنية فى تركيا لأول مرة فى تنظيم هيكلها السياسى — أطلقوا عليه حزب تركيا الفتاة — وأصدرت جريدة « المخبر Mukhbir »غير أنها صودرت ومنعت من الظهور بعد أعوام قليلة ، بينما اضطر مؤسسوها الى الهروب خارج البلاد وأقاموا فى باريس • ولم يتوقف نشاط الحركة الوطنية بنفى زعمائها ، فقد استطاع الزعماء المنفيون أن ينظموا خلايا الحزب فى منفاهم ، وأصدروا جريدة فى المنفى كانت تهرب الى أعضاء الحزب عبر الحدود التركية • ونما حزب تركيا الفتاة واشتد نشاطه وقوى ، لدرجة أن الحكومة اضطرت فى عام ١٨٧٠ الى السماح بعودة المنفيين الى تركيا وعينت زعماءهم فى مناصب عامة فأصبح مدحت باشا محافظ اقليم • وعين زملاؤه أعضاء فى لجنة مسودة الدستور التركى — دستور عام ١٨٧٦ م •

توقف نشاط الحركة الوطنية وأصيب حزب تركيا الفتاة بنكسة أوقفت تقدمه نحو هدفه وذلك عندما صدر مرسوم الخلافة — أى أن سلطان

تركيا هو خليفة المسلمين — فعلى الرغم من أن عبد الحميد الثانى أظهر فى بدء عهده ميلا محدودا الى الحرية لم يعد ذلك على الحركة الوطنية بفائدة ، لأن هـذا الميل من عبد الحميد لم يكن سوى مناورة سياسية تجاه القوى الغربية كان القصد منهـا احثاء الرمال فى عيون البـلاد الأوروبية التى تضايقه ، يدل على ذلك أنه شايع الأهداف الرجعية وعارض فكرة الدعوة الى القومية التى ينادى بها الشباب التركى ، وقام بينه وبين زعماء الحركة الوطنية خلاف نشأ من دعوته الى الوحدة الاسـلامية ونشاطه لاحياء الخلافة .

تطور الخلاف الى صدام ، واضطر مدحت باشا وزملاؤه الى ترك البـلاد فى عام ١٨٧٧ م ، وتأكد عبد الحميد أن الحركة الوطنية تبغى النيـل من حقوق العرش والقضاء على المملكة العثمانية التى تقف وراءها غالبيـة الشعب ، فأمر بتعقب أعضـاء الحزب دون هوادة ، واستمرت مطاردتهم أكثر من عشرين سنة وقد أطلق على عبد الحميد : « السلطان الأحمر » لما قام من تنكيل وتعذيب وتشريد أعضاء حزب تركيا الفتاة . كما اتخذ الاسلام طريقا للقضاء على فكرة القومية ، فالاسلام لا يعرف حدودا بين المسلمين ولا يقر انفصالية تعتمد على أساس القومية ، ولكى يدعم عبد الحميد فكرته دعا الى احياء الخلافة كواجهة سياسية للاسلام ، ولا شك أن الخلافة تذكر المسلمين بمجد الدولة الاسـلامية فى عصر صدر الاسـلام .

استبد عبد الحميد استبدادا لا مثيل له ، وفاقت الاضطهادات كل تصور ، فهرب الآلاف من الشـباب التركى الى خارج الوطن ، وانزوى كثير الى الأقاليم التركيـة البعيدة مطرودين . ولكن رغم كل هـذه الاضطهادات فقد استمر التنظيم السرى لحزب تركيا الفتاة فى نشاطه وازداد عـدد المنتسبين اليه ، وأصبحت الأقاليم التى يعيش فيها هؤلاء المطرودون واقعة تحت تأثير الحـركة الوطنية . لقد سرى تأثيرها بين المواطنين سريان المـاء تحت التبن — أى فى خفاء — وتفاعلت أفكارهم مع الشعب كما تتفاعل الخميرة مع العجين ببطء ، ولكن تدفعه الى الفوران

لا محالة ، فلم تكن مرارة الكفاح — الذى استمر سنينا طويلة — أقسى ولا أوضح مما فعله عبد الحميد مع زعيم الحركة الوطنية مدحت باشا ، استدعاه السلطان من المنفى فى عام ١٨٨٢ م وعينه واليا على سوريا ، ولم يكن هـذا العمل الا استرضاء ظاهريا وخدعة من السلطان للقضاء عليـه ، اذ لم يمض غير وقت قليل على استلام عمله حتى اتهم بأن له يدا فى اغتيال السلطان عبد العزيز — سلف عبد الحميد — وأدين مدحت باشا أمام المحكمة فى القسطنطينية بأنه مذنب وحكم عليـه بالاعدام وظن عبد الحميد أنه بهذه الطريقة يستطيع التخلص من عدوه الخطير بطريقة قانونية ، ولكن انجلترا تدخلت وحالت دون هـذا الحكم الجائر ، وهكذا لم يستطع عبد الحميد أن يرد وساطة الانجليز وخضع للقوة الأكبر منه ، وأرسل مدحت الى المنفى ، ولم يكن منفاه فى هـذه المرة باريس بل داخل البلاد العربية ، مدينة الطائف ، وهناك مات مخنوقا بايعاز من السلطان عام ١٨٨٤ م •

استعمل عبد الحميد طرقا متعددة لتعقب دعاة القوميـة ، أرسل جواسيسه الى خارج البلاد — حيث تظهر تنظيمات لحزب تركيا الفتاة — ليختطفوا الزعماء ويرسلوهم الى تركيا حيث يقضى عليهم ، وحاول عن طريق الرشوة بالمـال أن يصل الى القضاء على هذه التنظيمات ، فالمـال كان وسـيلة فى البلاد التى لا تخضع لنفوذه يحقق له نفس الهدف الذى يصل اليه بالقوة والعنف داخل حدود تركيا •

ورغم هذا فقد نجحت الحركة الوطنية نجاحا كبيرا ، وازداد انتشار فكرة القومية ونمت وظهرت براعمها وتحولت فيما بعد الى ثورة ضد نظام عبد الحميد الاستبدادى • ولقد أثبتت بهذا مدى تقـدم فكرة الدعوة الى القومية وسريانها بين الشـعوب التى كانت حكم المملكـة العثمانية ، ففى مؤتمر باريس الذى عقد لتنظيم المقاومة ضد عبد الحميد ، ظهرت لأول مرة خلافات شعوبية داخل صفوف المعارضين للسلطان • ولكن فيما بعد توصل المؤتمرون — وهم اليونانيون والبلغاريون والألبانيون

والأتراك الذين يضطهدهم عبـد الحميد — فى عام ١٩٠٧ م الى وضع برنامج جماعى وتأليف لجنـة مشتركة لتنظيم العمل المشترك وهو تنحية عبـد الحميد ، وينص هـذا البرنامج على اصلاح المملكـة العثمانية — بعد تنحية السلطان — على أساس المساواة بين جميع الشعوب التى تمثل فى هـذه اللجنـة .

لقد نظمت المقاومة ضد السلطة الدينية التى كان يمثلها عبد الحميد وتجمعت عناصرها خارج حدود تركيا الا أنها لم تستطع المبادرة ، بقيادة المعركة الفاصلة ضده ، بل جاءت هـذه المعركة أولا من الداخل وعلى وجه التحديد من داخل الجيش الذى أصابته عدوى الأفكار القوميـة .

هيأت سياسة التقارب بين الدول الغربية الجو للقوميين للانقضاض على حكم عبد الحميد ، ففى عام ١٩٠٦ عقد الروسيون والنمسيون مؤتمرا فى « مورتس شتيج Mürzsteg » لبحث مستقبل مقدونيا . وبعد ذلك بعام انضمت روسيا الى حلف « التفاهم » على سياسة موحدة تجاه مناطق النفوذ فى الشرق الأوسط المعقود بين انجلترا وفرنسا . هذه السياسة — سياسة التفاهم على تقسيم مناطق النفوذ — سدت الطريق الذى كان يسلكه عبد الحميد ، اذ أنه كان يستفيد من الخلافات القائمة بين البلاد الغربية للدفاع عن نفسه . وأعقب هـذا التفاهم ظهور خطر مباشر على تركيا ، وفى هذا الجو تكونت مجموعة سرية — كانت من أقوى المجموعات المناهضة لعبد الحميد — من المقدونيين للدفاع عن مصالحهم ، وكانت على اتصال بالمقدونيين فى سرايا الجيش ، وفى عام ١٩٠٨ كان استعدادهم كاملا وتنظيماتهم على أهبة القيام بالثورة .

فى ٤ يوليو ١٩٠٨ م هبت العاصفة ضد عبد الحميد وضد الأفكار السياسية التى كان يمثلها واتجه الثوار الى المقدونيين بأن قاموا بحملة دعائية واسعة النطاق بينهم ، شرحوا فيها الأخطار التى تهدد البلد من جراء سياسة الحكومة المركزية فى القسطنطينية ، وبذلك أثاروا الشعور الوطنى بشكل سافر لأول مرة ، ويعتبر هـذا منهجا جديدا فى اللغـة

السياسية للشرق • وفى غضون أسبوعين من اعلان الثورة كانت مقدونيا فى يد الثوار الذين اغتالوا كبار الضباط الموالين للسلطان • وحاول عبد الحميد قمع الثورة غير أن هـذه المحاولة أظهرت تخلف سياسته وخلوها من مضمون تعتمد عليـه ، لأنه عندما أراد أن يقذف بقوات من داخل الأناضول ليكافحوا ضد الثوار فى الشمال بان للرأى العام أن جيشا مسلما يزحف ضد مسلمين ، وأن المسلمين يقاتل بعضهم البعض ، الأمر الذى يحرمه الاسلام • فجمع عبد الحميد العلمـاء لاستصدار فتـوى تحل له ذلك ، فما كان من المجلس — الذى يعتبر أعلى مجلس شورى فى المسائل الدينية — الا أن أصدر فتوى تحرم على المسلم أن يشهر السلاح فى وجه أخيه المسلم •

أمنت هـذه الفتوى النصر الذى أحرزه الثوار • ووضعت القومية أفكارها فى هـذه الثورة الوطنية لأول مرة موضع التنفيذ حيث أخذت شكلا سياسيا • وعاد دستور عام ١٨٧٦ م — الذى أسهم فى وضعه الزعماء الوطنيون وعلى رأسهم شهيد الوطنية مدحت باشا — مرة أخرى ، فعم الابتهاج والسرور البلاد ، وفاق تهليل الشعب وفرحه كل وصف ، ولكن هـذا لم يدم طويلا ، فقد نشر الغم أجنحته عليهم اثر الانقسام الذى وقع فى صفوف الثوار بسبب الاختلاف فى الرأى ، وهكذا تبين لكثير من الشباب التركى خطورة عدم وضوح الرؤية فى تطبيق الأفكار التى كافحوا من أجلها عشرات السنين • اذ أنه عند تطبيقها سياسيا انقسم الوطنيون الى مجموعتين : مجموعة معتدلة فى مطالبها أرادت الكفاح فى ركب مبادىء القومية لنيل مآرب ابتغوها ، ودعاية أرادوا الوصول اليها ، ولهذا رأوا عدم تقسيم المملكة التركية والحفاظ على الادارة المركزية ، فهى ضرورية ، وأمر لابد منه لبقاء تركيا كما هى ، ورموا بهذا الى تبخير الأفكار القومية وترك تيارها يسيل فى صحراء تبتلع رمالها ماءه •

أما المجموعة الأخرى فتمسكت بتنفيذ مبادىء القومية غير ناظرة الى ما ينتج عن ذلك من تفكك المملكة التركية ، ولم تقم له وزنا ، ولهذا احتكت احتكاكا مباشرا ببقاء المملكة •

أراد عبد الحميد أن يستغل هذا الخلاف فقام بمحاولة مضادة للثورة وانضم لهذه المحاولة — فكريا — جزء من الجيش وجزء كبير من الشعب الذى لا زال يعيش داخل اطار العهود الغابرة ، وبأفكار التقاليد القديمة والعادات الموروثة • وكان الاسلام محور هذه الدعوة التى اتخذت أساسا لبناء الدولة ، كى ينقذ حكم عبد الحميد من الخطر المحدق به ، غير أن الفشل لحق بهذه المحاولة وفقد عبد الحميد عرشه وما هو متصل بالعرش ، أعنى الخلافة •

بدأ التفتيت النهائى للمملكة الكبرى فى تركيا القديمة عندما تولى الوطنيون السلطة فى تركيا ، وأصبحت فكرة الدولة القومية — التى كانت شعار الكفاح ضد استبداد عبد الحميد — كلمة سحرية للانهيار السياسى ؛ وتسببت فى قيام سلسلة من القلاقل التى أدت الى نكســه فى الحرب العالمية ، حيث تفتتت أوصال الدولة نهائيا وسقطت المملكة العثمانية حطاما ، لتفسح الطريق لقيام دول حديثة تختلف فى نظمها عما سبقها •

ولم يعد ينحصر العــدو الرئيسى للوطنيين فى تركيا فى البــلاد الأوروبية التى تتقدم بدون رحمة لتحصل على مزيد من الامتيازات تمكن نفوذها ، بل فى قومية الشعوب التى عاشت فى اطار المملكة العثمانية ، فموقف الوطنيين الأتراك من عبد الحميد وكفاحهم الطويل للوصول الى تطبيق المبادىء القومية فى تركيا انعكس على الشعوب الأخرى ، واتخذت الشعوب العربية فى الجنوب والجنوب الشرقى هــذه المبادىء نموذجا وأساسا للدعوة الى الانفصال عن تركيا ، فسادت القلاقل المنطقة العربية ، وقام العرب بثورة ضد أولئك الذين وقفوا فى طريق الحرية العربية ، وضد الذين عارضوا فكرة حصول العرب على الحكم الذاتى : أى ضد الوطنيين فى تركيا لأنهم عارضوا فكرة قيام الدولة على أساس قومى • اذ حرموها على غيرهم فى حين أنها أساس « الأيديولوجية » التى نادوا بها ، لم يسمحوا بها حيث رأوا أنها ضارة بمصالح تركيا كدولة كبرى • وعليــه فقد اضطهدت حكومة الوطنيين فى تركيا جميع الحركات العربية التى تنادى بالانفصال ، واتسم اضطهادهم بالشدة والقسوة ، فرسموا

خطة لطبع كل الأجزاء غير التركية فى المملكة بالطابع التركى ، واتخذوا اجراءات تنفيذها بطريقة منظمة وشاملة • غير أن الضغط على هــذه الأقاليم غير التركية ولد ضغطا مضادا ، فانطلقت فى البلاد العربية دعاية ضد كل ما هو تركى ، فتكونت منظمات سرية فيها — وخاصة فى سوريا حيث توجد نسبة كبيرة من المثقفين — الدعوة الى القومية العربية ، وكان هدف هــذه الدعوة فصل البلاد العربية عن تركيا • أيدت انجلترا هذا الطموح السياسى للعرب ضد القسطنطينية ، ورأت أن الوقت قد حان لتنفيذ خططها الاستعمارية ، بعد أن تفاهمت مع روسيا حول منطقة العبور فى غرب آسيا • وسبق هــذا التأييد تحركات غير مرئية لانجلترا ، فقد كان السوريون قبل الحرب العالمية على اتصال باللورد كتشنر المندوب السامى البريطانى فى مصر الذى كان يرى — وظل معتنقا هــذا الرأى مدة طويلة — أن تحقق رغبة سوريا فى الانفصال عن الباب العالى ، غير أن لندن كانت تومىء بالرفض لأن الوقت لم يكن مناسبا آنذاك •

ولم يتصل القوميون السوريون وحدهم باللورد « كتشنر » كى يكسبوا قوة غربية ويضمنوا مساعدتها ضد الوطنيين فى تركيا ، بل اتصل به أيضا ممثل الشريف حسين الذى كان أمير مكة آنذاك ، فقد أرسل اليه ابنه الأكبر الذى يتولى امارة شرق الأردن الآن • وعرض الأمير على كيتشنر المشروعات العربية التى تهدف الى خلع نفوذ تركيا من البــلاد العربية لتحرير المنطقة من العبودية التركية • وهكذا كان للثورة الوطنية أثر فى داخل البلاد العربية • اذ فجرت قضية القومية العربية التى انتهت فى عام ١٩١٦ م بتلك الثورة التى قادها المعتمد الانجليزى لورانس • لقد طعنت الثورة العربية المملكة التركية طعنة موت ، كما يطعن الرجل حيوانا مريضا لا سبيل الى علاجه ، ففى ازهاق روحه ألم ، ولكنه ألم يريحه من عناء مرض أنهكه •

* * *

وفى مصر — البلد الذى يخضع منذ عام ١٨٨٢ م • لرقابة انجليزية شديدة — سارت الحركة الوطنية فى خط مواز لمثيلتها فى تركيا • فقد

دعا الوطنيون الى تكوين حكومة وطنية ( قومية ) ولم تكن جهودهم موجهة فقط ضد طبقة الحكام الرجعيين أصحاب السيادة المطلقة ، بل أعلنوا معارضتهم للاستعمار الأجنبى ، واصطدموا بطريق مباشر بقوة استعمارية غربية : بريطانيا التى عرفت كيف تستخدم الخديوى وحكومته لتحقيق مطامعها الاستعمارية وكيف تتخذه وحكومته ستارا بينها وبين الشعب المصرى الذى انضم لصفوف الحركة الوطنية ، هـذا الصدام المباشر بين مطامع الاستعمار الغربى وبين الحركة الوطنية — التى كانت تريد اقامة دولة قومية — ظهر فى مصر فى وقت مبكر ثم انتشر بعد الحرب العالمية فى الأجزاء الأخرى من العالم العربى فظهرت حركات مماثلة للحركة الوطنية فى مصر .

كانت الثورة التى قادها عرابى فى عام ١٨٨٢ م — أدت هذه الثورة الى احتلال القوات البريطانية بلد النيل — فى مبدأ أمرها حركة تمرد من الفلاحين المصريين الذين دفعهم الاضطهاد والظلم والفقر الى القيام بهذه الثورة ، فأفكارها نبعت من البيئة ، والظروف الاجتماعية هى التى حركتها . أما الحركة الوطنية التى ارتفعت أسهمها فى نهاية القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين فقد نبتت فى تربة النفوذ الأوروبى فى البـلاد الشرقية وخرج سلاحها الفكرى من « ترسانة » الديمقراطية الفرنسية . وكان تفكير الوطنيين فى مصر مطبوعا بطابع أوروبى وغايتهم تطبيق نموذج الديمقراطية الأوروبية لأنهم تأثروا بها مدة اقامتهم فى أوروبا — أرسلوا للدراسة فعادوا الى الوطن وهم يحملون الرغبة فى نشر نظم الحضارة الغربية فى مصر ، وتكونت منهم الحركة الوطنية .

وكان مصطفى كامل من زعماء الحركة الوطنية الذين تعاطفوا مع اخوانهم فى تركيا دون أن يظهروا أنفسهم بمظهر العداوة للاسلام . درس فى فرنســا وأصبح بعد عودته الى الوطن زعيما لمجموعة من الشباب استولت عليهم أفكار أوروبا ، ولكنهم ظلوا على أرض وطنهم يغرسون هـذه الأفكار بطريقتهم الخاصة . تملكهم الشعور بضرورة التخلص من الاستعمار ورأوا أن الواجب الأول ينحصر فى تحرير الوطن سالكين كل

سبيل ومستعملين كل وسيلة ، فقد أصبح هـذا المفهوم « الوطن » فكرة حية لدى الجميع ، ورمزا مطبوعا فى أذهان الكثيرين الذين دفعتهم الرغبة الى الكفاح من أجله ليأخذوا هذه الأماكن التى يحتلها الأجانب ، ويتقلدوا الوظائف التى يستأثر بها الدخيل ، ويرتفعوا الى المقام الذى يتمتع به الأوروبى القادم مع جيش الاحتلال •

أصـدر مصطفى كامل فى عام ١٨٩٥ م نشرة صـغيرة بعنوان « مصر الحرة « Libéral égyptien » حدد فيها معالم الدولة القومية المصرية التى يسعى لتحقيقها ، يظهر ذلك واضحا فى قوله : « أريد أن أبعث الوطنية فى بنى وطنى ، التى تعيد مصر للمصرين والمصريين لمصر » • وأسس جريدة اللواء فى مستهل القرن العشرين ، حملت أفكاره فى مفهوم الوطنية ، وأوصلت الى القارىء معارضته للاحتلال البريطانى ، فانتشرت بسرعة ، وازداد عدد قرائها • وتبلورت الحركة الوطنية فى تنظيمين سياسيين : الحزب الوطنى الذى تزعمه مصطفى كامل ، وحزب الأمة الذى تزعمه سعد زغلول باشا • وفى عام ١٩٠٧ تآلف الحزبان وكونا جبهة سياسية متينة رسمت برنامجها السياسى على أسـاس الدعوة الى الاستقلال وجلاء الجيش الانجليزى من مصر بدون تراخ • وقد عارض هـذا البرنامج حزب الدستوريين ، لأن أعضاءه رأوا أن انحسار النفوذ الانجليزى يمكن أن يتم بطريقة تدريجية ، ويحتاج الى زمن طويل ، يجرى فيه توسيع سـلطة الدولة المصرية مقابل الانحسار التدريجى للنفوذ البريطانى •

لم تهتم الوطنية المصرية بالاسلام ، ولم تأخذه كوسيلة لتحقيق أغراضها السياسية كما فعل عبد الحميد ، بل أظهرت فقط عدم معارضتها له ، وأنها لا تنوى التخلص منه ، هـذا الموقف السلبى من الاسلام حصرها بشكل واضح فى الطبقة المثقفة ففقدت قاعدة الشعب العريضة ، وفقدت معها القوة الدافعة لها على طريق تحقيق أهدافها ، وكانت فى أشد الحاجة الى شعور الأمة وقوة الشعب عندما اصطدمت بصخرة مقاومة السلطة البريطانية • وهكذا كان التأثير العملى المباشر للحركة الوطنية المصرية —

من ناحية قياس نجاحها السياسى — غير جوهرى . اذ كان محدودا . ورغم هـذا فقد حققت بمرور الزمن نجاحا مستمرا ، وحفرت لها قنوات بين صفوف الشعوب عندما ركزت دعايتها على الدور الذى قام به زعماؤها فى سبيل الوطن ، وتمثل ذلك فى نشاط قادة الحركة الوطنية بزعامة سعد زغلول باشا ، الذى أدى الى نفيهم ، فاندلعت الثورة ، وكان اشتراك الشعب فيها دليلا على أن الحركة الوطنية وجدت طريقها بين الجماهير .

مات مصطفى كامل فى العام الذى قامت فيه ثورة الحركة الوطنية فى مقدونية واشترك فى تشييع جنازته جمع غفير ، سار فيها أعداد هائلة من جميع الأوساط ، وبان للمراقبين أن هذا الشاب — الذى مات صغيرا — احتل فى قلوب أبناء أمته مكانا مرموقا ، وأن دعوته الى الوطنية اكتسبت أنصارا من جميع مستويات الشعب ، واعتنق فكرته — التى تدعو الى انشـاء دولة قومية مصرية — كثير من المصريين ، ويذكر معاصروه أن الشعب المصرى رافق جثمان الزعيم رائد الحركة الوطنية المصرية فى وحـدة لم تعرف من قبل .

لم يكافح ثوار مصر فى جبهة واحـدة — كما ذكرت سابقا — بل اضطروا الى مواجهة عدوين : انجلترا ، وعملائهم من المصريين ، فلم يقتصر برنامجهم على الاصلاح الوطنى والتحرر من استبداد الحكام ، بل واجهوا أيضا بريطانيا ، وكان هـذا سبب فشلهم لعدم التكافؤ بينهم وبين قوة أعدائهم الغربيين . هؤلاء الأعداء الغربيون استمروا فى تفوقهم على الوطنيين حتى بعد الحرب العالمية ، عندما زعزع الترابط القوى الذى نشأ بين الطبقات المثقفة والفلاحين مركزهم ، لأن هؤلاء الفلاحين يمثلون السواد الأعظم من الشعب ، ولا تعبئهم الشعارات الوطنية ولا المبادىء الديموقراطية ، وانما تبعث فيهم روح الكفاح ، وتعبئهم للثورة الدعوة الى احياء تعاليم الاسلام .

* * *

كذلك وجدت الحركة الوطنية التركية صدى لها فى ايران ، فكما رفع

فى تركيا الشعار « تركيا للأتراك » ، وعلى ضفاف النيل « مصر للمصريين » كتبت فى ايران كلمة « ايران للايرانيين » على أعلام الدعوة الى النهضة • وكانت الثورة الروسـية فى عام ١٩٠٥ ضد الاستبداد القيصرى أهم الأحداث التى ساعدت التيارات الوطنية فى ايران على الظهور فى بداية القرن العشرين ، فقد أعطت القوميين الايرانيين — الذين تملكهم الشعور بالحركة كما كان لدى زملائهم الحزبيين فى تركيا وفى مصر فى وقت واحد — اشارة الانطلاق ، وانحصرت مطالب الحركة الوطنية فى ايران — أطلقت عليها الجريدة الايرانية « الحبل المتين » مطالب الشباب الوطنى الايرانى ، وظهر هـذا الاسم لأول مرة فى سبتمبر ١٩٠٨ م — فى القضاء على استبداد الشاه الذى أفسد البلد ، وباشراك المثقفين فى الحكم ، وتحرير البلاد من التبعية للروس والانجليز ، الذين منحهم الشاه حقوقا وامتيازات واسعة ، ولا زال منح هـذه الامتيازات مستمرا ، وكل ذلك على حساب حقوق الايرانيين التى تضيق دائرتها من عام لآخر •

وتمتاز الحركة الوطنية فى ايران عن مثيلتها فى تركيا وفى مصر أنها ارتبطت منذ وقت مبكر بعدد كبير من الزعماء الروحيين من طائفة الشيعة ، بينما وقفت الحركة الوطنية فى تركيا موقفا معارضا لعلماء الدين ، وقامت خـلافات حادة بـين الوطنيين وعلمـاء الدين ، أما فى مصر فـكان موقف المهادنة •

بدأت الثورة الوطنية فى ايران بالقيام بمظاهرة دينية — قاموا بما يسمونه « Bast » — اعتصم المتظاهرون فى المسجد وأعلنوا استمرار الاعتصام حتى تنفذ مطالبهم التى من أجلها تظاهروا • وبمثل هـذه المظاهرة فتح باب الكفاح ضد استبداد الشاه فى ديسمبر ١٩٠٥ ، أى بعد أشهر قلائل من اطلاق رصاصات الثورة الروسية فى بطرسبورج • وطالب علماء الشيعة بالاشتراك فى تقرير شئون الدولة على أساس من القرآن وأحكام الشريعة المستنبطة منه ، عارض الشاه هـذه المطالب وسانده فى ذلك رجال بلاطه ، فترك العلماء طهران وهاجروا الى المدينة المقدسة : « قم » حيث مسجد فاطمة ذى القباب المرصـعة بالذهب فاتخذوها

منفى لهم • وتعاطفت دوائر شعبية واسعة مع هــذا الاحتجاج ، فأغلقوا حوانيتهم ودخلوا المساجد وأعلنوا الاعتصام ويعتبر هــذا أول اضراب عام فى تاريخ ايران •

وافق الشاه مظفر الدين على تنفيذ مطالب العلماء ، ووعد بالاعتراف بالدستور الذى يعطى الشعب حقوقه ، ويؤمن حياته حتى يتفادى النتائج التى تترتب على القلاقل التى اندلعت فى طهران نتيجة ترك الملا لها واقامته فى « قم » ، وأعلن الملا — وهو فى قم — انتهاء الاعتصام ، ثم عاد العلماء الى طهران ، غير أن الشاه لم يف بوعده ، وبعد مصادمات عنيفة فى طهران ، بدأ الاعتصام مرة أخرى فى « قم » احتجاجا على هــذا الموقف ، وأغلقت المحلات فى العاصــمة ، وواصل الأهالى اعتصامهم بالمســاجد •

عندما رجا الشاه العلماء — للمرة الثانية — انهاء الاضراب والعودة الى طهران احتفلت الثورة الوطنية بأول انتصار لها ، اذ وافق الشاه على المطالب التى كان أهمها وضع دستور للبلاد ، وتمثيل الشعب فى المجلس الملكى الذى كان يطلق عليــه « منزل العدالة » ، وكان أول برلمان ايرانى جاء نتيجة الثورة الوطنية اجتمع فى أكتوبر ١٩٠٦ م وناقش مسودة الدستور ، وانتهى من صيغته ، فوقع عليــه مظفر الدين ، وكان آخر وثيقة من وثائق الدولة يوقعها الشاه •

خلف مظفر الدين على العرش الايرانى ابنه محمد على الذى كان رجعيا بأقصى ما تدل عليه هــذه الكلمة ، وعدواً للحركة الوطنية الايرانية، ولم يكد محمد يتولى الحكم حتى اصطدم مع البرلمان الجديد ، ورمى من وراء هــذا الصدام جس نبض القوة الوطنية فى البرلمان •

فى ٣١ أغسطس ١٩٠٧ م أذيع فى طهران نصوص المعاهدة التى عقدت بين روسيا وانجلترا ، وقــد نص فيها على تقسيم ايران الى منطقة نفوذ روسية وأخرى انجليزية ، وبدت هــذه المعاهدة وكأنها قد كسرت العصا الموجهة لمستقبل شعب هــذا البلد ، وفى نفس اليــوم

اغتيل رئيس الوزراء الذى كان يساند الشاه المستبد فى موقفه عند اصطدامه مع البرلمان ، وكان الجانى شاب ايرانى من تبريز انتحر اثر ارتكابه الحادث ، فمحا معالم مسئولية قتل رئيس الوزراء ، وان كان الوطنيون عدوه من الأبطال واحتفلوا بيوم بطولته •

وقد أزعجت الطلقة التى أزهقت روح رئيس الوزراء الشاه ، وأدخلت فى قلبه الرعب ، فتراجع عن موقفه الرجعى حينما شعر أن الجو معبأ فى طهران وينذر بالانفجار • فأعلن — بعد حادث الاغتيال مباشرة — استعداده أن يقسم أمام البرلمان على احترام الدستور الذى وقعه والده تحت ضغط الشعب •

ساد الهدوء فترة • وتأجل حل النزاع جذريا ، ولم يكن هذا استسلاما نهائيا من جانب الشاه بأى حال من الأحوال ، لأنه أحس بشعبية الوطنيين وعرف أن جذورهم تمتد فى باطن أرض ايران ، وأنهم ينخرون عرشه فى خفية من أعين رقبائه ، ولهذا أعطى البرلمان مهلة نهائية وتحذيرا أخيرا ، لاصدار قرار بحل المنظمات السياسية السرية • ولكن الوطنيين رفضوا هذا الطلب ، وكان اجابة الشاه على هذا الرفض استعمال القوة كما استعملها سلفه • وعبأ حزب القصر الرجعى الجماهير للثورة ضد الوطنيين واستعملوا النفوذ والوشاية وأعطوا وعودا سخية ، فثار الغوغاء ، وصبوا غضبهم على مبنى البرلمان ، وحولوه الى أنقاض •

ولكن الوطنيين الفارسيين لم يستسلموا ، فقد كانوا يتمتعون بنفوذ كبير فى الأقاليم ، فبدأوا فى تنظيم مجموعات فدائية خارج العاصمة أعدوها للزحف على طهران كى يدافعوا عن الدستور •

وتراجع الشاه محمد على مرة ثانية ، وأعلن ولاءه للدستور • ولكنه فى نفس الوقت طلب — بطريقة علنية — مساعدة روسية فى الصراع السياسى الداخلى فقدمت روسيا وانجلترا — اللتان كانتا تنتظران اشارة للتدخل كى تؤمنا مصالحهما — مساعدات ضخمة للشاه فى اجراءاته الاستثنائية ومحاولات القمع التى قام بها فى صيف عام ١٩١٨ م •

فقد اقتحم البرلمـان — الذى تحصن فيه الوطنيون — جنود القوقاز الروسيين الذين استدعاهم الشاه وأحرقوه وسط تهليل الرجعيين فى طهران ، واحتفالهم بالانتصار على الوطنيين بمساعدة القوة الاستعمارية وهكذا تغلب أولئك الذين كانوا أداة للجنود والأجانب وعملاء الاستعمار •

ألغى الدستور فى العاصمة ، لكن هـذا الالغاء لم يصادف نجاحا فى الأقاليم ، ومن هنا بدأت حركة مضادة ، ففى شمال البلاد فى تبريز ، ورشت ، وكذلك فى الجنوب فى أصفهان تجمع الثوار الذين ضربوا فى العاصمة ، وبدأوا الزحف على طهران • سقطت العاصمة مرة أخرى فى يد الثوار بعد مضى شـهر واحد من اتخاذ الاجراءات الاستثنائية الثانية التى قادها الشاه فى العاصمة • واجتمع البرلمان مرة ثانية وأعلن عزل الشاه محمد على عن العرش وعين مكانه ابنه أحمد الذى لم يبلغ سن الرشد ، ومكن الوسطاء من الانجليز والروس الجبار المخلوع من الهرب الى الخارج • وبعد خمسة أشـهر من الزحف على طهران افتتح البرلمان الايرانى الثانى وكان افتتاحه فى نوفمبر ١٩٠٩ م •

بقيت آثار الاجراءات التى أفقدت الشاه عرشه ، ولم ترفع رغم هروبه الى الخارج فلم تبرح القوات القوقازية الروسية — التى استدعاها هو لمساعدته ضد الوطنيين — شمال ايران . وبقيت على أرض ايران عشرين عاما حتى سحبتها الثورة البلشفية ، وهـذا يدل على مدى ضعف الدولة الايرانية التى أعقبت خلع الشاه •

وقد دفع وجود القوات الروسية فى شمال ايران انجلترا الى المطالبة بالسماح لها بارسال ضباط انجليز الى المخافر فى جنوب ايران ، وتحت ضغط السيطرة البريطانية ووفق على هـذا الطلب ، وبهذا أصبح جليا أن مصير فارس فى أيد أجنبيـة ، وأنه قد طبع بطابع اسـتعمارى لا يستطيع الفكاك منه •

قام الشاه محمد على بمحاولة من منفاه لاستعادة عرشه — وحدث ذلك بعد عامين من خلعه — فأقلقت هـذه المحاولة أمن أعدائه الذين

خلعوه وهزت مركزهم فى مجال السياسة الداخلية • وكان المحرك له يد أجنبية فلم يكن ســوى أداة لا ارادة له فى يد الدبلوماسيين الروس ، وبمساعدتهم قاد بنفسه مجموعة من الجنود القوقازيين فى عام ١٩١١ وزحف بها فى شــمال ايران ، ولكن مخاطرته باءت بالفشــل واضطر محمد على الى الهرب مرة ثانية خارج البلاد ، وأجبرت الحكومة الانجليزية والروسية الوطنيين أن يدفعوا له معاشا من خزينة الدولة •

أقلق النظام الحاكم فى ايران روسيا ، فساعدت الشاه المخلوع على القيام بهذه المخاطرة الفاشلة ••• ثم ماذا ؟ •• ترقبت روسيا فرصة تتيح لها تدخلا مباشراً فى شئون ايران ، وواتتها هذه الفرصة عندما استدعى وزير ايرانى خبيراً أمريكيا لتنظيم واصلاح الخزانة الايرانية بناء على تفويض غير محدد حصل عليه من البرلمــان لاتخاذ الاجراءات اللازمة الكفيلة بتنظيم الادارة المــالية ، وكان هذا عملا وطنياً استهدف الحصول على الحرية الاقتصادية بالتخلص تدريجياً من قيود القروض الأجنبية ، غير أن روسيا وجدت فيه حجة للهجوم فأرسلت انذاراً الى الحكومة الوطنية فى ايران لأنها — أى روسيا — رأت فى استدعاء خبير اقتصادى توسيط قوة ثالثة فى المسائل الداخلية الايرانية ، ولم تستشر فى هذا العمل ، وكان يجب على حكومة ايران أن تحصل على موافقة روسيا فى هذا الشأن •

طالبت الحكومة الروسية بطرد هذا الخبير الأمريكى فوراً وأن تقدم الحكومة الايرانية وعداً بألا تستدعى فى المستقبل أى أجنبى الى ايران دون أن تحصل قبل ذلك على موافقة الحكومة الروســية والانجليزية •

رفضت الأغلبية الوطنية فى البرلمــان — بيت العدالة — الانذار الروسى ولم تجب المطالب التى جاءت فى هذا الانذار ، وخرجت طهران فى الشوارع احتجاجا على هذا الهجوم الاستعمارى ، وعارضت كلتا القوتين الغربيتين ، وكانت الجماهير متحمسة ضد روسيا وانجلترا نتيجة

رد الفعل الايرانى على ذلك الانذار الذى اعتبر تهجما على السيادة الايرانية ، ولأول مرة خرجت النساء فى مظاهرة سياسية ••• ولم يكن خلف هذا الاحتجاج ما يسنده سوى التحرك لكرامته ، فلم يملك قوة تدافع عنه ، وليس له حليف قوى يقف معه •• والقوة تخضع الحق دائما وتقضى عليه ••• ولهذا انزلق الوطنيون فى واد ليس لهم فيه سند ، ولا يملكون ما يدافعون به عن حقهم ، وبالتالى لا يملكون فيه حقاً •

عززت روسيا قواتها فى الشمال فى المنطقة المتنازع عليها ، وزحف القوقازيون الى طهران ، فأطاحوا بالحكومة الوطنية وحلوا البرلمـــان وسلمت السلطة لحفنة من الرجعيين ضمنت ولاءهم ، وبهذا انتهت الحركة الوطنية الأولى فى ايران ، تلك الحركة التى ارتبطت ارتباطا جزئيا بالفكر الاسلامى وكانت صلتها أوثق بعلماء الدين ، وتميزت بذلك عن الحركات المماثلة فى الأجزاء الأخرى من العالم الاسلامى •

فشل الوطنيون فى مواجهة القوى الاستعمارية ، فقد التقت وجهة النظر الروسية والانجليزية على ضرورة ضربهم والقضاء عليهم ، ونجح مخططهم فى ذلك ، وتولت السلطة حكومة قوية ، وقف وراءها كلتـــا القوتين الغربيتين ، واتخذوا البلاد مجالا مباحا لهم ، فعلى الرغم من الموقف الحيادى الرسمى لايران ، صارت بعد اندلاع الحرب مسرحا للعمليات الحربية بين القوات الانجليزية والروسية من جانب ، والقوات التركية والألمـــانية من جانب آخر •

ولم يظهر الوطنيون الا بعد سقوط القيصرية فى روسيا ، بعثوا منجديد بأفكار جديدة وفى تنظيمات حديثة ، واستمدوا قوة اندفاعهم من مساعدة الثوار فى روسيا ، الذين آزروا الوطنيين فى منازعاتهم مع انجلترا ، وأمنوا ايران للايرانيين •

أحدث التقاء الشرق بالقوى الاستعمارية الغربية تفاعلا فى العالم الاسلامى نشأت عنه الحركات القومية التى اتخذت النموذج الغربى طابعا لها ، واتسمت فى غالب أمرها بالفهم والتسامح ، وغلب على أعضائها طابع الاعتدال وعدم التعصب ، ولم يكن هذا فقط نتيجة التقاء

الشرق بالغرب ، بل حدث أيضا رد فعل قوى فى المجال الدينى ، حيث انطلقت دعوة لتجديد مفاهيم الاسلام ، واحياء تعاليمه ، وظهرت حركات كرست جهودها لتخفيف حدة التشدد فى التعاليم الاسلامية ، حتى تصبح ممكنة التطبيق بين ظواهر الحياة التى غيرتها الحضارة الغربية التى اقتحمت البلاد ، واعتقد بعض الباحثين أن القرآن مشتمل على كل ما فى الحياة ، فما جاءت به الحضارة وما توصل اليه العـلم الحديث موجود فيه ، فحاولوا شرح تعاليم النبى على وجه يفهم منه أنه تنبأ بهذه الحقبة التى ظهرت الآلة فيها ، وأراد هؤلاء العلماء بهذا المنهج ملاءمة الشريعة الاسلامية لما تتطلبه سياسة العصر الحديث ، سواء أكانت علمية أو غير علمية •

اقتنع دعاة الحركات القومية أن الزمن الذى يصلح لتطبيق التعاليم الاسلامية فى جميع شئون الحياة قد انتهى ، وبدأت حقبة انحسار الدين من الحياة العامة ورجوعه الى المساجد ، حقبة بدا فيها الدين مسألة شخصية ، أما حياة الدولة فيجب أن تقام على مبادىء غير دينية أى أن قوانين الدولة ونظمها لا ينبغى أن تؤخذ من شريعة النبى [١] • عارض هذا الاتجاه تيار آخر اتخذ الاسلام مبدأ له ، ودعا أنصاره الى بعث التعاليم الاسلامية من جديد على أساس أنها تنظم حياة الدولة اجتماعياً وسياسيا بجانب كونها مبادىء دينية تربى الفرد روحيا وترسم له طريق العبادة والتقرب الى الله •

وكان من أهم عوامل ظهوره مواجهة الشرق للغرب غير المتدين • وقد سلك هذا التيار الدينى طريقين :

---

(١) حاول المستعمرون هدم الاسلام فنشروا بين أبنائه عدم صلاحيته للمجتمع الحديث وتلقف هذا الرأى عملاء الاستعمار ومن شايعهم من أنصاف المثقفين الذين لا يعرفون شيئا عن التعاليم الاسلامية سوى ما يجرى على ألسنة العامة والجهلاء وقد تناول الاستاذ الدكتور محمد البهى ، هذه المسألة باستفاضة فليرجع القارىء الى ما كتبه فى كتاب « الفكر الاسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى» و «الفكر الاسلامى والمجتمع المعاصر .. مشكلات الاسرة والتكافل » • ( م • ش ) •

١ — عودة الاسلام الى صورته الأولى عن طريق التمسك بتعاليمه حرفيا ، كى يعود له صفاؤه السابق وطهارته التى كانت له على عهد الصحابة ، ويكون ذلك مقدمة لاسترجاع مجده السياسى وقوته الدفاعية ، ليستطيع الوقوف ضد البلاد الغربية .

٢ — محاولة التخفيف ، من التمسك بالنص وتقديم المعنى الذى يساير العصر ، بشرط أن يقبله النص ، وبذلك تطرح هذه الآراء المشتركة التى أصبحت بمرور مئات السنين صيغ تردد ، ولا معنى لها للمناقشة ، وأريد بهذا العمل بيان أن تعاليم الاسلام ليست صورا ميتة ، بل لها القدرة على مسايرة التطور ، ولهـا صلاحية التطبيق فى جميع شئون الحياة ، سواء تعلقت بالفرد أو بالأمة ، فهى صالحة لأن تكون أسلوب الحياة فى المجتمع الحديث الذى غيرته المدنية .

ولم يقصد أحد من أنصار هذا الرأى المساس بالمبادىء العامة للاسلام ، ولا تغيير نصوص القرآن فهى راسخة فى نفوس الجميع وتنفرد بقدسية فى جميع أنحاء العالم الاسلامى ، غير أنها مهددة بتأثير الحركات القومية على العامة ، ذلك أن دعاة الوطنية حملوا شعار حرية الآراء كسلاح له خطره على وضع الدين فى المجتمع [1] .

تقابلت هذه الدعوة الى النهضة الدينية مع طموح عبد الحميـد حين دعا الى الوحدة الاسلامية ، غير أنهما يختلفان فى المنبع ، فدعوة عبد الحميد مدفوعة بدوافع سطحية ، وهدفها التمكن من السيطرة

(١) دعا الاسلام الى كفالة الحرية فى جميع ميادينها ، ضمن حريـة الفرد وأباح حرية التعبير وحرم على المسلمين محاولة الاعتداء على الآخرين سواء أكان اعتداء على أموالهم أو أعراضهم أو أقواتهم ويسمى ذلك فى العصر الأخير فى المجتمع الحديث بالآداب الاجتماعية العامة ، ومن يقرأ القرآن يجد كثيرا من هذه الآداب الاجتماعية ، اقرأ على سبيل المثال آية ٥٨ من سـورة النور — ويفهم من هذا أن الحرية لا تكون سلاحا ضد الدين فى المجتمع بل بالعكس لا يعيش الدين الا فى جو من الحرية « **لا اكراه فى الدين ، قد تبين الرشد من الغى** » ( البقرة : ٢٥٦ ) . ولا يتسع المقـام هنا لتحـديد موقف الاسلام من الحرية على وجه التفصيل ، وعسى الله أن يوفقنا مستقبلا الى الكتابة فى هذا الموضوع . ( م . ش ) .

والاستبداد السياسى ، أما هذه النهضة ففجرتها قوى كمنت فى الأعماق ، واندفعت من طبيعة الشعب المتدين ، ولكنها اتخذت الوحدة الاسلامية أساسا لخططها السياسية ، وفى هذه النقطة التقت تلك النهضة مع دعوة عبد الحميد ، وكلاهما كان رد فعل للحركات القومية وقفا جنبا الى جنب فى طريق دعاة القومية •

أول من رفع لواء هذه النهضة جمال الدين الأفغانى ، فهو يعتبر الأب الفكرى لها وباعث حركتها فى معظم بقاع العالم الاسلامى ، جاب المنطقة الاسلامية شرقا وغربا داعيا لفكرته معبئا القوى حولها ، وكان استمرار الدعوة من أهم أهدافه ، لذلك أسس مدرسة من المفكرين ، كان وأجبهم توجيه التيار — الذى يسرى فى البلاد الاسلامية متخذا أوروبا نموذجا له — وجهة اسلامية ، وحصره فى دائرة عقيدة الاسلام • أراد جمال الدين صبغ التيارات الآتية من المنابع الأوروبية بصبغة اسلامية ••• وترتب على رغبته فى ضرورة الاصلاح السياسى هجوم على الأوضاع الفاسدة ، وادانة سوء الاستعمال الذى ارتكب فى عهد الحكومات الاستبدادية ، وكان يلتزم روح القرآن فى اصدار حكمه على أولئك الذين يستغلون الشعوب ويستنزفون دماء المسلمين ، ولا ينتمى جمال الدين وتلاميذه فى جميع بلاد العالم الاسلامى الى تلك الفئة التى انحدر منها دعاة القومية الذين يتخذون الطابع الغربى نموذجا لهم دون نقاش ، ولأدنى نقد ، فقد استولت عليهم مباهج الحضارة الغربية ، فاعتنقوا مبادئها قضية مسلمة لا تقبل الشك اطلاقا • أما جمال الدين وتلاميذه فقد تخيروا منها ما يتفق وطبيعة العالم الاسلامى ، ولم ينقلوا ما أخذوه بصيغته ، بل صاغوه صيغة جديدة تتناسب مع ما تتطلبه الحياة الشرقية • ولذلك لا ينطبق على ما قاموا به بأنه اضفاء الطابع الأوروبى على بلاد الشرق ، بل تلوين مبادىء الحضارة الغربية بلون شرقى • واعطاء ما أنتجه الفكر الأوروبى صبغة اسلامية •

ولد جمال الدين الأفغانى فى منطقة الأطراف الشرقية من المرتفعات الايرانية فى شمال أفغانستان ، وقضى حياته الأولى فى بخارى حيث

عاصر الاستعمار الروسى يتقاطر هناك ، واحتك لأول مرة بالقوى الغربية ، ثم رحل الى الهند حيث قابل الاستعمار الغربى فى طابعه الانجليزى • وعندما بلغ العشرين من عمره انخرط فى سلك خدمة أمير أفغانستان ، ولمس فى هذه الفترة أيضا صورة حية لما آل اليه المجتمع الاسلامى عندما زار مكة لأول مرة • مكث جمال الدين عشر سنوات فى أفغانستان يفكر فى حال المسلمين ويطيل النظر لاختيار المكان الذى تنطلق منه دعوته الى الاصلاح ، واستقر رأيه على أن أنسب المناطق ، تلك التى يتواجد فيها صراع مر بين الشرق والغرب • أقام وقتا قصيرا فى القاهرة وتمهل فى دمشق ، ثم ظهر فى القسطنطينية عام ١٨٦٩ م عاقدا العزم على البدء بتهيئة الفكر كى ينطلق على طريق الاصلاح الدينى •

تولى منصب الأستاذية فى المدرسة العليا للشريعة الاسلامية ، فجمع التلاميذ حوله ولقنهم المبادىء التى آمن بها ، ورباهم تربية دينية ثورية فكانوا هم الرعيل الأول الذين سيواصلون حمل دعوته الاصلاحية ، وقد سبب له التفاف التلاميذ حوله متاعب ، اذ حرض عليه العلماء المتزمتين ، واتهمه شيخ الاسلام بالزندقة ، واضطر على اثر ذلك الى مغادرة تركيا ، كى يتفادى هذا الهجوم من شيخ الاسلام •

تلقت القاهرة الثائر المصلح وأفسحت له مكانا فأقام فيها من ١٨٧١ م حتى عام ١٨٧٩ م • اشتغل فى هذه المدة مدرسا فى الجامعة الاسلامية التى تعتبر أقدم وأشهر جامعة فى العالم الاسلامى : الأزهر الذى كان له فيه تلاميذ حملوا رسالته من بعده ، وساروا على نهجه فى طريق الاصلاح الدينى والسياسى • تبين لجمال الدين فى القاهرة مدى الخطورة التى تهدد الشرق ، ففى مصر تتركز هجمات أوروبا ، فأعلن المقاومة ، ولم يكن كفاحه ضد الاستعمار الغربى أقل من معارضته موقف الطبقات الحاكمة واستغلال الباشوات الشرقيين الشعوب الاسلامية ، ومن هنا اقتنع اقتناعا جازما أنه يجب بذل الجهود واشحاذ الهمم للمحافظة على الوحدة الفكرية فى العالم الاسلامى ، وفى الوقت نفسه ينبغى تسليح

المجتمع الاسلامى بسلاح المدنية الغربية ، وتثقيف العامة ورفع مستواهم الفكرى ، لأن ذلك يؤثر فى المجال السياسى ، وبين جمال الدين أن الاسلام يعطى للشعب حق تقرير مصيره ، وأن الاحداث السياسية التى تنتج عنها أقامة نظم الحكم الموجودة اثر الهجوم الغربى على الشرق لا يجوز قبولها على أنها قضاء وقدر كتب على جبين هذا الشعب ، ولا تستسلم لعبثها اعتمادا على أن ذلك ارادة الله ، بل يجب الكفاح ضدها حتى تستقيم أو تزول ، لتحل محلها حكومات عادلة ، والدفاع عن حقوق الشعب واجب مقدس فى عنق كل مسلم •

نجح الأفغانى فى تحرير الأزهر من نظام التعليم التقليدى الذى توارثه الخلف عن السلف ، وأعلن فيه صيحة التجديد ، ولقن تلاميذه طريقته لاصلاح هذه الجامعة ، وعندما اضطر الى مغادرة القاهـــرة عام ١٨٧٩ م ترك خلفه عدداً من التلاميذ الممتازين حافظوا على أفكاره ، ودعوا اليها ، ونشروها فى مصر التى كانت فى أمس الحاجة اليهـــا لدفعها الى الأمام فى المجالات الدينية والسياسية ، وكان محمد عبده الذى تولى منصب الافتاء فيما بعد من أنجب تلاميذه ، دعا الى اصلاح مناهج التعليم فى الأزهر ، وتحقق كثير من آرائه التقدمية التى سارت ببطء لمـــا لاقاه من معارضة الشيوخ الذين لم يفهموها آنذاك •

ظل الأزهر منذ عهد جمال الدين المكان الذى نبتت فيه براعم الثورة الاصلاحية على الرغم من طرده منه فى وقت مبكر ، فتطورت فيه الدعوة الى النهضة الاسلامية ، واكتسبت منه القدرة على التأثير بين الجماهير واستمدت منه القوة على الاستمرار بين التيارات الغربية الدخيلة ، ففيه نمت طبقة الزعماء الاسلاميين الجدد الذين كرســـوا جهدهم لتحويل الحركات القومية فى الشرق مرة أخرى الى الناحية الاسلامية وجذبها الى دائرة الاسلام — بعثت هذه الطبقة النشاط فى الأزهر وخلصته من الجمود الذى ران عليه عبر القرون — وكان الهدف من ذلك تحويلها الى حركات شرقية ، وقد ارتبط هؤلاء الزعماء الروحيين الذين حملوا أفكار جمال الدين بالنظام الداخلى للاسلام ،

وتعمقوا فى الدراسة الدينية ، وغلب عليهم الطابع الاسلامى ، فعرفوا بأنهم حماة الاسلام والمدافعون عنه •

ترك جمال الدين الأفغانى القاهرة مضطرا ، لأن دعوته أقلقت الخديوى توفيق ومستشاريه الماليين الأوروبيين ، وهزت مراكزهم ، فأرادوا التخلص من هذا « المشاغب الخطير » كما كانوا يسمونه ••• اتجه الى الهند ثم طرده الانجليز من هناك عام ١٨٨٣ م بسبب نشاطه « الهدام » الذى أفسد عليهم الجو هناك وأيقظ صوت المعارضة ضدهم فذهب الى أوروبا ، وعاش هناك منفيا سبعة أعوام ، متنقلا بين عواصمها حتى دعاه الشاه مظفر الدين الى طهران فى عام ١٨٨٩ •

كان تأثيره فى طهران مثل ما كان فى القاهرة والقسطنطينية ، يسرى بين الناس بسرعة فائقة ، ويدفع الملتفين حوله الى التجديد والنهضة ، والى الثورة على الجمود ، كما تدفع الخميرة العجين الى الفوران ، وجره هذا الى الوقوع فى نزاع مع الشاه المستبد فى حكمه ، وبعد سنتين من النشاط المر والحركة الدائبة هرب الى لندن فى عام ١٨٩٢ م وقابل هناك الايرانى « بالكوام خان » الذى كان أخلص تلميذ للأفغانى أثناء اقامته فى لندن ، وأصبح فيما بعد خليفته فى ايران حيث ربى الشباب الايرانى الجديد الذى تسلم قيادة الثورة القومية فى ايران فى سنى القلاقل ، فى بداية قرننا الحالى •

فى عام ١٨٩٥ م طلب السلطان عبد الحميد من جمال الدين — كان يقيم آنذاك فى لندن — أن يعود الى القسطنطينية ، فلبى الطلب ، وواصل نشاطه فى عاصمة تركيا وترك عبد الحميد له الحرية ، لأنه وجد فيه أداة طيبة لمساعدته فى دعوته الى الوحدة الاسلامية ، ولكن عطف عبد الحميد بقى مدة لم يتبين فيها خطر تعاليم جمال الدين عليه كممثل للاستبداد الشرقى ، غير أنه بمجرد أن عرف « السلطان الأحمر » هذا الخطر تغيرت صداقته ، وانقلب عطفه الى الضد وحاول بكل الوسائل أن يسكت صوت الأفغانى ، كما أزال من الطريق زعيم القوميين « مدحت باشا » ، فواتته

الفرصة عندما اغتيل الشاه ناصر الدين شاه ايران فى عام ١٨٩٦ م فى طهران ، واعترف الجانى — وهو أحد الشبان الايرانيين — بأنه تلميذ جمال الدين الأفغانى ومن أبنائه ، فطلبت الحكومة الفارسية تسليمه لأنها اعتبرته فاعلا غير مباشر ، اذ أن أفكار الجانى مستمدة منه ، ولم ينفذ هذا الطلب ، لأن أعوان عبد الحميد دسوا السم لزعيم الاصلاح الاسلامى جمال الدين ، قبل أن تنتهى محادثات تسليمه ، وسلم ثلاثة من تلاميذه الى السلطات الايرانية بدلا منه ، وتم اعدامهم فى ايران •

ظلت تعاليم جمال الدين حية بعد موته ، واستمر تأثيرها فى كل المدارس الاسلامية « اللاهوتية » تقريبا ، وتربى عليها طبقة جديدة من زعماء الفكر الذين درسوا فى المعاهد العليا وفى الأزهر • جذب هؤلاء القادة العالم الاســلامى الى أفكارهم ، وأثروا فى توجيه كثير من المؤسسات الاسلامية ، وتزعموا فكرة الالتقاء البناء بين القومية فى الشرق وبين الاسلام الذى تخلص من شوائب الجمود التى علقت به فى عصور الانحطاط ، وبين هؤلاء نمت فكرة لها اتجاهها ومنهجها تطلق عليها اليوم كلمة « القومية الاسلامية » •

قامت حركة دينية تختلف فى طابعها عن حركة جمال الدين الأفغانى ، تمسكت بالنصوص كما هى ، وتعصبت لها وأرادت الرجوع بالمجتمع الاسلامى الى عهد صدر الاسلام وأن تعيد للاسلام صفاءه الأول ، وظهرت هذه الحركة فى مذاهب وجماعات تعدى أثرها المجال الدينى ، اذ أنها خاضت مجالات سياسية واجتماعية •

وأهم المذاهب التى حملت لواء الدعوة الى هذا النوع من الاصلاح الدينى مذهب الوهابيين ، الذى يرجع تاريخ ظهوره الى القرن الثامن عشر ، وقـد نال الوهابيون نجاحاً غير متوقع — بعد الفترة التى بان فيهـا ضعف مذهبهم وظن أنه اندثر — ذكر الناس بأيام الاسلام الأولى •

لقد ظهرت الوهابية فى قلب الجزيرة العربية حيث يصعب الوصول اليها ولهذا ظلت أهميتها ومدى قوة تأثيرها غير معروف فى أوروبا ، فلم

يلتفت اليها أحد حتى نضجت ثمارها ، وظهرت أفكارها الى حيز التنفيذ والانتشار ، وأصبحت ذات مغزى خطير بالنسبة للشرق الاسلامى كله .

أسسها رجل كان له نشاط كبير ، وقدرة على تحمل أعباء مثل هذه الدعوات هو محمد بن عبد الوهاب ، الذى أراد أن يعيد تأسيس المملكة الاسلامية على أسس فكرية حنبلية كتلك التى أقامها النبى فى عصره ، فكلف أتباعه بتطبيق مبادىء صارمة فى شئون حياتهم ، وحارب كثيراً من ألوان الحياة التى تتعارض مع الحياة الطبيعية للانسان ، حرم المشروبات الكحولية والنيكوتين والحرير والذهب وحرم على النساء الزينة — كل أنواع المساحيق — وعلى الرجال حلق اللحية لأن الله خلقها حلية للرجل . وبالغ فى التشدد ، فهدم كل الأضرحة الدينية ، وحرم تعظيم الأولياء والآثار المقدسة ، لينصرف التعظيم والتقديس لله وحده ، وقد جر عليه موقفه هذا كثيراً من المصاعب أدت الى طرده من مسقط رأسه «العيينة Al-Ayayna » لأنه يسبب قلاقل سياسية واضطرابات فى المنطقة .

وجد هذا المطرود من وطنه ملجأ له فى « الدرعية AL -Daraiia » حيث كان يحكم الشيخ محمد بن سعود ، الذى أعجبته تعاليم ابن عبد الوهاب المنشودة فاعتنقها ، ثم عقد تحالف بين المدرس الداعى وبين الحاكم ، وبذلك أصبح للوهابية سلطة ، وطبقا للخطط السياسية والحربية التى رسمها محمد بن سعود قامت المملكة « الالهية » الثانية ، كما كان يحلم بها ذلك الداعى محمد بن عبد الوهاب .

وأصبح لجنود ابن سعود قوة لا تدلاق ولا تنثنى بسبب العقيدة الروحية التى بثها فيهم ابن عبد الوهاب ، والتعصب الدينى الذى ملك شعورهم ، ودرجة حميتهم للتصميم على اقامة حكم الله فى الأرض ، وانطلق الدعاة — تؤازرهم الجنود — من داخل الجزيرة العربية الى كل جهة ، تلازمهم انتصارات متلاحقة وتلقاهم أعداد كبيرة من المريدين والمؤيدين ، وظهر فى كل مكان « مطهرو الاسلام » كما كانوا يسمون أنفسهم ، فهزموا القبائل ونظفوا المساجد من كل الصور والآيات الزخرفية ،

وهدموا الأضرحة ، وجردوا العبادات الدينيـة من الشـوائب ، التى دخلت فيها فى عصور التخلف •

فى عام ١٨٠١ غزا الوهابيون كربلاء — كعبة الشيعيين ومقصد حجيجهم كل عام — وأزالوا الأضرحة المقدسة ، وفى عام ١٨٠٤ كانت مدن النبى [ﷺ] — مكة والمدينة — فى قبضة أيديهم • ونفذت حركة « التنظيف » هناك فوقع قبر النبى [ ﷺ ] ضحية • ولم يمض عامان حتى كان جنوب الجزيرة العربية بعمانه ورعنه فى قبضة أيديهم ، ثم امتدت انتصاراتهم شمالا حتى وصلت « مملكة النبى الثانية » فى عام ١٨٠٨ م جبال لبنان وبلغت سيطرتها شاطىء البحر الأحمر وشاطىء المحيط الهندى •

دفعت الانتصارات محمد بن سعود أن يضع نفسه موضع الخليفة فى القسطنطينية فعجل ذلك — بالاضافة الى تعصب ابن عبد الوهاب — بنهايته ، اذ كلف السلطان واليه فى مصر محمد على الذى كان يضرب به وبجنوده المثل فى الشجاعة والانتصارات الحربية أن يقوم بحملة ضد الوهابيين الذين أصبحوا خطراً يهدد وحدة المملكة التركية •

وقاد محمد على حربا ضارية امتدت ثمانية أعوام ، قوض فيهـا « مملكة الله » التى أقامها محمد بن سعود وطرد الوهابيين من مكة والمدينة وأعدم زعماءهم أمام الحاجة صوفيا فى القسطنطينية • وبهذا أسدل الستار على الحقبة التاريخية الأولى للوهابيين ، ثم عاشوا بعد ذلك داخل الجزيرة العربية فى بقعة صغيرة حاولوا الحفاظ عليهـا بصعوبة بالغة ، فكان وجودهم مزعزعاً ، اذ انكمشت مملكتهم الالهية العملاقة الى دولة بينها وبين القزم شبه • اختار ابن سعود فى عام ١٨٣٠ م الرياض عاصمة له ، ولكن سرعان ما ضاعت السلطة السعودية وانهارت هذه الدولة الصغيرة أيضا بسبب هجوم القبائل المجاورة عليها ، وظل الوهابيون مهملين على مدى عشرات السنين ، حتى خلقت مواجهة الشرق للبلاد الغربية جواً فى العالم الاسلامى أتاح لفكر ابن عبد الوهاب فرصة للظهور مرة ثانية •

ففى عام ١٩٠١ ظهر للوهابيين قائد جديد استولت تعاليم المذهب على مشاعره وتملكته الفكرة ، فقام بمغامرة أعاد بها سلطة السعوديين فى الرياض ، ومن هذه المدينة بدأ فى بناء « مملكة الله » الثانية . هذا القائد هو عبد العزيز بن سعود — حفيد محمد بن سعود الكبير — الذى يعرف الآن فى العالم باسم ابن سعود وهو الآن سيد الجزيرة العربية .

أقلق هذا النجاح الدوائر الحاكمة فى القسطنطينية ، لأنها عرفت قبل قرن أن الوهابيين مجاهدون يدافعون عن الدين ، يتعقبون الوثنية الضالة فى دين نبيهم ، ويتخذون ذلك منطلقا لخلق دولة منظمة ذات كيان سياسى مستقل فى الجزيرة العربية ، كى يقيموا رباط أخوة وثيق بين أبناء الجزيرة ، قائم على أساس دينى ، وكونوا بذلك شيئا يشـــبه القومية العربية ، واستحثوا سكان المنطقة على تعضيد هذه الفكرة ببرنامج دعائى ، كرس نشاطه على تذكير العرب بالعصر الذهبى فى تاريخهم ، يوم أن كانوا وحدة قوية تحمل لواء الاســلام وتدافع عن جهازه السياسى ، وهو الدولة الاسلامية ، وكان هذا الأسلوب وسيلة للقضاء على المنازعات القبلية ، وطريقا لخلق الشعور القومى بعد بناء العصبية القبلية .

أرادت القسطنطينية أن تحول — بكل وسيلة — دون عودة الوهابيين، حتى لا يتكرر الخطأ حين تركتهم المملكة التركية قبل قرن حتى استفحل أمرهم ، وقاموا بثورتهم التى هددت الدولة آنذاك ، فألب الباب العالى عليهم القبائل المجاورة للرياض وعبأها ضد ابن سعود وأوعز اليها بالهجوم على الرياض ، غير أنه فشل وقضى الوهابيون فى هجوم مضاد على دولة الشمريين التى كان يتزعمها ابن رشيد ، ذلك الرجل الذى ملك السيادة على قلب شبه الجزيرة العربية سنينا عدة ، وبالقضاء عليه انتقلت هذه السيادة الى ابن سعود ، وبالتالى الى الوهابيين .

كان عام ١٩١٠ بدء مرحلة فكرية جديدة فى تاريخ الوهابية ، بدأ فيها انتشار المذهب بطريقة منظمة وشاملة ، ففى هذه السنة أسس ابن سعود حركة الاخوان ، التى حاول بها أن يدفع من طريقه القبائل العربية التى

وقفت تراحمه وتعترض بناء دولة كبرى مركزية ، فأحيت هذه الحركة شعور الانتماء الدينى ، وتوطنت فى أجزاء متعددة من المملكة السعودية ، وأصبحت مستعمراتها فقط حماية للرعاة ، وهيأت لهم امكانية الاقامة الدائمة حيث جرى توعيتهم بطريقة منظمة وشاملة للقضاء على أفكارهم القبلية وغرس الشعور بالوحدة العربية فيهم على أساس دينى يتخذ هدفه عودة الدولة الاسلامية الأولى •

ان التطور التاريخى لا يسير فى خط مستقيم ، بل ينحنى ويعاود السير فى درب سبق له سلوكه ، وهذا ما يعبر عنه بأن التاريخ يعيد نفسه — أى أن أحداثا سابقة تعود الى الظهور متشحة نفس الثوب الذى ميزها عن غيرها فى العصور السالفة — نجد ذلك واضحا فى حركة الوهابيين ، فقد عادت معها مميزات من عصر النبى [ﷺ] حين نجح الاسلام فى أن يخضع الشعور القبلى العربى الذى يتسم بالعداوة واثارة الشحناء بين العرب يضرب بعضهم بعضا الى السير فى اطـــار الجماعة ، ويوجه ارادتهم القتالية من حالة الضرب ضد بعضهم الى حالة الضرب مع بعضهم ضد المعاصرين الذين عادوا الاسلام ورفعوا فى وجهه سيف المعارضة • أراد الوهابيون اعادة الأفكار — سواء أكان ذلك من وجهة النظر الدينية أو السياسية أو الاجتماعية — التى بنت الدولة الاسلامية فى عصر النبى [ ﷺ ] وأعطتها قوة الكفاح ، حيث حققت مركزا عالميا تطامنت دونه كل القوى المعاصرة • وعليه فلم تكن حركة الاخوان موجهة ضد المعاصرين من غير المسلمين ، بل محاولة النهوض بالأمة العربية التى تفككت أوصالها ، فهوت الى الحضيض • كانت محاولة من رجال ذوى بصيرة لاقامة نظام يوثق الصلة بين الأفراد ويعمق فيهم التعصب للبلاد العربية ، كى يرسوا قواعد الدولة الحديثة • وقد كشفت الثلاثين سنة الأولى من قرننا الحالى عن مدى رسوخ ودوام هذه القواعد ، وعن مدى نوع القوى الدافعة لفكرة تتخذ الدين أساساً لها ، فقد انتزع مؤسس حركة الاخوان — معتمداً على قوة المجاهدين فى سبيل العقيدة — السلطة فى الجزيرة العربية ، وواجه الارادة التركية والانجليزية ،

ثم واصل التوسع — متجنبا المواجهة المباشرة مع الاستعمار الغربى — حتى وصلت مملكة الوهابيين الجديدة شاطىء البحر الأحمر والحدود الفلسطينية وبلاد ما بين النهرين • ولأول مرة منذ العصر الاسلامى الأول يتحقق حكم الوحدة العربية نابعا من قوتها الذاتية ويصل الى هذا النجاح رغم ارادة البلاد الغربية •

*** 

لم تنطو الحركة الوهابية على نفسها داخل صحراء الجزيرة العربية ، وطن الاسلام الأول ، بل امتد تأثيرها فى شرق العالم وغربه ، وتكونت جماعات وهيئات تنادى بتطبيق مبادىء الاسلام فى المجتمع •

سمع العالم الاسلامى بحركة الوهابيين ، واحتك المسلمون بهم فى بداية القرن التاسع عشر ، عندما وصل زحفهم المدن المقدسة — مكة والمدينة — وأرادوا تحويل المقامات المقدسة فيهما الى أنقاض ، طبقا لتعاليمهم ، ووقف العالم الاسلامى الذى يرسل سنويا آلاف الحجاج الى مكة بين مؤيد ومعارض لهذه الأفكار المتزمتية •

كان الشيخ عثمان بن دانفوديو أحد الذين اعتنقوا تعاليم ابن عبد الوهاب وتعصب لها ، وأسس حركة تدعو الى الوهابية ، فقد التقى هذا الشيخ — الذى جاء من السودان الى مكة حاجا — بالوهابيين ، وأخذ عنهم تعاليمهم ، وبعد أن عاد من مكة الى وطنه ، التزم طريقة ابن عبد الوهاب فى حياته ، ودعا الى تعاليمه بين أفراد قبيلته وتطورت الأحداث معه كما تطورت فى شبه الجزيرة العربية مع الوهابيين ، ولكن على شكل أصغر ، فقد حاول عن طريق الاسلام التغلب على العداوة القبلية وأن يكون وحدة دينية بينهم ، ومن لم ينضم مختارا أجبره على ذلك بقوة السلاح رغم أن تعاليم النبى [ﷺ] لم تنتشر بالسيف ولا بالنار ، فقد نجح فى العمليات الحربية التى قام بها فى عام ١٨٠٢ وبعدها بسنتين سقطت مملكة جوبير — دولة هوسا على نهر النيجر — وتأسست مملكة وهابية جديدة فى افريقيا تقوم على أساس دينى • وكانت سوكوتو الواقعة قرب النيجر عاصمتها • وصمدت هذه الدولة

رغم مضايقات القوى الاستعمارية حتى عام ١٩٠٠ م وساعدت قـوة سلطانها وتماسكها الداخلى على انتشار الاسلام فى مناطق السـودان الغربية ويحمل خليفة عثمان دانفوديو — حتى يومنا هذا وفى عهـد الحماية الانجليزية — لقب ملك المسلمين •

* * *

انتشرت التعاليم الوهابية فى أجزاء من الهند الاسلامية ، وعلى وجه التحديد فى المناطق التى أصبح الاسلام فيها مهدداً — من وجهة النظر الاسلامية — عن طريق الاختلاط مع الهندوس ، لأن المسلمين تهاونوا بتعاليم القرآن بسبب هذا الاختلاط مما جعل الاحتياج الى « التطهير » ضرورة ملحة •

كان السيد أحمد المدرس الوهابى الداعى الى الوهابية فى الهند يتمتع بنفوذ كبير فى المناطق الاسلامية الواقعة على خليج بنجابى ، فقد كان ملكا على « Rai Pareli »واعتنق الاسـلام فى عام ١٨١٦ م • ثم ذهب الى مكة لأداء فريضة الحج وهناك التقى بالوهابيين وسمع منهم واقتنع بتعاليمهم ورأى ضرورة التبشير بها فى وطنه ، وعندما عاد الى بنجاب فى عام ١٨٢٠ قام بالدعوة الى مذهب الوهابية ، فبين لبنى وطنه المسلمين أنهم يعتنقون الاسلام اسما فقط ، لأن حياتهم لازالت تحمل الطابع الهندوسى ، والاحتفالات التى يقيمونها فى أعيادهم توجههـا معتقدات الهندوس ، وكذلك القانون الذى ينظم شئون حياتهم •

تعثر انتشار الوهابية فى الهند بسبب صعوبة تنفيذ تعاليمها ، فسلك الدعاة طريق الحرب ، اذ أقاموا مملكة فى بنجاب وأعلنوهـا حرباً ضد من يعارض هذا المذهب ، فقد دعوا الى الجهاد المقدس ضد « السيخ Sikhs » (١) الذين كانوا يتحينون مثل هذه الفرصة ،

(١) هم اتباع حركة اصلاح دينية فى الهند ( يبلغ عددهم الآن ٧ مليون ) فقد اراد مؤسس هذه الحركة « ناناك Nanak » — ولد عام ١٤٦٩ وتوفى ١٥٣٨ — أن يكون من الهندوس والمسلمين جماعة دينية واحدة على اساس الاعتقاد فى الوحدانية ، انتشر هذا المذهب فى بنجاب وتبوأ اتباعه مكانا سياسيا هاما بسبب حربهم ضد المغول ، فى عهد « سوبند سـنغ Sobind Singh » — ١٦٧٥ الى ١٧٠٨ أقام لهم تنظيما عسكريا وأطلق=

وعندما واتتهم ممثلة فى هذا الهجوم الاسلامى تفادوه ، ثم انقضوا على مملكة الوهابيين فخربوها • ثم سقطت مملكة المجاهدين فى سبيل الله أمام الغزو البريطانى فى ثلاثينيات القرن الماضى •

لم يتوقف السيد أحمد عن النشاط التبشيرى لهذا المذهب ، فرغم الهزيمة السياسية واصل الدعوة الى اعتناق الوهابية ، وبعد موته خلفه فى زعامة الطائفة ملاوى محمد اسماعيل الذى توارثها أبناؤه وأحفاده حتى اليوم • وقد بقيت الوهابية فى الهند تدعو اليها طوائف تختلف فيما بينها حول أبعاد التشدد فى تنفيذ التعاليم ، وأشهر هذه الطوائف « فرازيس Farazis » •

* * *

اذا واصلنا سيرنا نحو الشرق وجدنا أن الوهابية أخذت طريقها شرقا فانتشرت فى سومطرة ، فقد حمل الدعوة اليها هناك منذ عام ١٨٠٣ أحد المسلمين الذين عادوا من رحلة الحج الى مكة ، ثم تطورت الى قتال عندما حمل المجاهدون فى سبيل الله السلاح ضد جيرانهم ، الذين لم يعتنقوا الاسلام ، وقادوا معهم حربا ضارية مما اضطر رجال السلطة فى المستعمرات الهولندية أن يتدخلوا فى عام ١٨٢١ ضد اعتداء الوهابيين • ولم يستطع الهولنديون كسر شوكة الوهابيين قبل ستة عشر عاما من القتال فوق أرض سومطرة •

فى كل مكان ظهرت فيه الدعوة الى الوهابية — استمر ذلك حتى العصر الحديث حيث قضى تقدم البلاد الغربية فى الشرق على عصرهم الذهبى — يحاول الداعون تأسيس دولة الهية تتعصب لمبادىء الاسلام ،

---

= على كل فرد فى هذا التنظيم لفظ « أسد » وبعد موته فقدت الطائفة مركزها السياسى ، وعاشوا ضمن رعايا الملك «رانت شيد سنغ Rant Schid Singh» ١٧٨٠ الى ١٨٣٩ وفى عام ١٩٤٧ رحلوا عن منطقة البنجاب الواقعة فى باكستان وهم يعيشون الآن فى شرق بنجاب والمناطق الشمالية الأخرى فى الهند متفرقين بين الهندوس • ( م.ش ) •

وتحاول احياءها عن طريق استعمال القوة • وترفض بجانب هذا — اذا احتكت أو ساقتها الظروف لمقابلة الغرب — النفوذ الغربى ، وترد كل شىء يأتى من الغرب يكون فيه أدنى شك فى التأثير ، على حياة المجتمع الاسلامى التى يتخيلونها من خلال تعاليمهم ، ويذهبون فى ذلك الى أقصى حـدود التشـديد ، ويظهر ذلك واضحا فى العصر الحاضر فى مملكة ابن سعود « الالهية » ، اذ لا تزال بلدا يحرم على غير المسلم دخوله ، كما يظهر أيضا عند السنوسى فى شـمال افريقيا الذى يتزعم طائفة اسلامية ، كان للمذهب الوهابى أثر كبير فى ظهورها • قادت هذه الطائفة كفاحا مرا ومقاومة عنيفة على أرض ليبيا ضد الايطـاليين المستعمرين ، استمر حتى السنوات الأخيرة ويرجع الفضل فى ذلك الى الوهابية التى أثرت تأثيرا غير مباشر على التنظيمات السنوسية التى تعرف باسم « الاخوة » ، فعملت على عودة الاسلام الى شـمال افريقيا : عودته فى صفائه ونقائه ، وتربية المسلم تربية تشعره بالعزة وتكون فيه صفة اباء الضيم ، ومقاومة السيطرة الأجنبية •

* * *

ولد محمد على السنوسى مؤسس السنوسية فى الجزائر فى عام ١٨٨٧م ، وتربى فى مكة حيث شهد السنين التى ازدهرت فيها الوهابية هناك واتصلت بالعالم الاسلامى خارج حدود شبه الجزيرة العربية عن طريق الحجاج الوافدين الى مكة • وفى عام ١٨٤٠ رجع محمد على السنوسى الى وطنه الجزائر ، فى الوقت الذى كانت تحاول فيه فرنسا تثبيت أقدامها هناك لتحقيق أول رغبة استعمارية • أسس العائدون من مكة أول زاوية ، تطورت فيما بعد الى مركز للمقاومة ضد الاستعمار الفرنسى فى الجزائر ، وفى النصف الأول من أربعينات القرن التاسع عشر طاف محمد على السنوسى فى شمال افريقيا ، ثم عاد الى مكة فوجد أن حكم الوهابيين انكمش نتيجة الحملة التى قام بها محمد على الكبير ضدهم • لم يخف ميله للوهابيين فقام نزاع بينه وبين الحاكم الجديد فى مكة ، أدى

الى طرده فى عام ١٨٤٤ م من المدينة المقدسة • عاد الى طرابلس ، وهناك قام نزاع بينه وبين البقية التركية ، فرحل الى قلب الصحراء واستوطن واحة جغبوب خارج حدود السلطة التركية •

وفى هذه الواحة أسس الطائفة السنوسية ، وكون لها تنظيما حربيا له طابع الوهابية المتزمتة ، فأعضاؤه ملزمون بالطاعة لرئيس الجماعة ، ينفذون أوامره تنفيذاً أعمى دون اعتراض أو مناقشة • ثم انتشر الدعاة المؤمنون بالرسالة ايماناً راسخا فى شمال افريقيا ، وأسسوا مراكز أسهمت فى المجال الاقتصادى اسهاما بالغا ، ودفعت عجلة الاصلاح بارادة قوية ، وأنجزت مشروعات ناجحة ، فقدمت للسكان المجاورين عملا نموذجيا خاصاً بزراعة الأرض لتنمية اقتصاديات الواحات ، وأينما وليت وجهك فى شمال افريقيا رأيت أعداداً لا حصر لها من السنوسيين الذين يعيشون متفرقين فى البلاد عمالا يدويين ، وأصحاب حرف أتقنوا عملهم فصاروا قدوة لغيرهم من المسلمين • وأرسل الاخوان السنوسيون دعاتهم خارج شمال افريقيا ، للتبشير بتعاليم هـذه الطائفة • فساحوا فى البلاد الاسلامية ، حتى وصلوا الجزيرة العربية وشبه جزيرة الملايو • وفى كل مكان ينزلون فيه تقوم نقطة مركزية للمقاومة ضد المستعمرين الغربيين ومعارضة النفوذ الأجنبى ، الذى يندفع تياره باستمرار فى المناطق الاسلامية •

نال المبشرون السنوسيون نجاحاً كبيراً فى السودان ، اذ انتشرت تعاليمهم حتى وصلت شاطىء بحيرة تشاد • واتسمت تنظيماتهم بالاحكام المتقن ، فلها رتب مسلسلة كما هى فى سلطة الكهنوت المنسقة ، ويأتمر أعضاء الزاوية بامرة أحد الدعاة ، الذى بلغ مرتبة الرئاسة ، بعد أن اجتاز الطريق التدريجى اليها ، ويطلق عليه لقب « المقدم » •

تفادى السنوسيون المقاومة ضد سلطان القسطنطينية ، فلم يوجهوا مبشريهم الى طرابلس ، حيث يعتبر السلطان نفسه الحاكم عليها ، وبحثوا عن أماكن لا تقابلهم فيها مقاومة السلطة الحاكمة ، ووجدوا ذلك

فى الجنوب • وكان أحسن حقل نبتت فيه دعوتهم ، تلك المناطق الجنوبية ، حيث أخضعوا الواحات الليبية لمراقبتهم ، وبعد أن كبرت الطائفة وزاد عدد المنتمين اليها ، نقلوا مركز الرياسة من جغبوب الى واحة الكفرة • وقام السنوسيون بنشاط كبير فى النواحى الاجتماعية والاقتصـــادية ، اذ قضوا على العداوة القائمة بين القبائل ، واقتلعوا جذور النزاع الذى كان مستمراً بينهم ، فتوحدت تلك القبائل تحت ســلطان الاخــوان السنوسيين ، وعاشت مع بعضها ترفرف عليها أجنحة الســلم ويســود بينها الود والتعاطف ، أما فى الناحية الاقتصادية فقد ازدهرت التجــارة وانتشرت فى المنطقة الجنوبية الليبية وتطورت العلاقات التجارية • فانتقلت بضائع وسط افريقيا الى مدن الشاطىء فى الشمال •

مات مؤسس الجماعة فى عام ١٨٩٥ وخلفه فى القيادة ابنه محمد المهدى السنوسى الذى كان متصوفاً ، وقد أدى ورعه وزهده الى اعتقاد اتباعه فى ولايته ، وسرعان ما اشتهر بين الناس بأنه ولى من أولياء الله الصالحين ، لدرجة أن كثيراً من أتباعه اعتقدوا بعد موته فى عام ١٩٠٢ م أنه يحيا حياة غيبية وسوف يعود •

عندما غزت انجلترا السودان بقيادة كتشنر لاقت مقاومة عنيفة من المهدى فى السودان ، وقدم السنوسيون للمهدى مساعدات كبيرة وعضدوه ضد الغزو الأجنبى •

خلف محمد المهدى السنوسى ابن أخيه أحمد الشريف ، لأن ابنه محمد بن ادريس كان قاصراً آنذاك ، فغير موقف الطائفة من السلطان فى القسطنطينية فى عام ١٩١١ م عندما هاجمت ايطاليا طرابلس لأنهم وجدوا أن هذا الهجوم موجه ضدهم ، كما هو موجه ضد الباب العالى ، فانتصر الشعور بوحدة المصير ، وأصبح أعداء الأمس حلفاء اليوم ضــد هجوم البلاد الغربية • عقد السنوسيون معاهدة تحالف مع « أنور بك Enver Bey » مندوب الباب العالى فى ليبيــا ، وأقسم أعضــاء الاخوان على الكفاح ضد المسيحية الغربية ، طالمــا بقى الايطاليون على

الأرض الليبية ، فقادوا حملة للثورة ضد الحكم الايطالى ، وظلت هذه المقاومة تقلق الايطاليين وتسبب لهم متاعب حتى بعد أن عقد الاتفاق بين روما والباب العالى بمدة طويلة ، فقد كانوا وقود المقاومة — فكريا وقتاليا — ضد مطامع السلطة الايطالية ، واعتبروا أنفسهم — بعد أن تنازل السلطان عن حقه — أصحاب حق السيادة فى منطقة طرابلس وفى برقة ، وازاء موقف الباب العالى تباطأ السنوسيون عند اندلاع الحرب العالمية فى اعلان الدخول فيها بجانب القسطنطينية ضد انجلترا ، على أمل أن تعترف انجلترا بالاستقلال الذاتى لليبيا ، ولكن لم يحدث هذا ، وظل اعتراف بريطانيا بعيداً عن الواقع الملموس ، وعندما دخلت ايطاليا الحرب تأرجح خط الدفاع الاسلامى ، اذ فتح جبهتين فى مصر ضد انجلترا ، وفى طرابلس ضد ايطاليا . وكانت انجلترا مشغولة فى مصر لتفادى محاولة التشويش ، التى خلقها السنوسيون الى أن توصلت القيادة الانجليزية فى القاهرة فى عام ١٩١٦ م الى تفاهم معهم . فاتفقت انجلترا مع الليبيين على خطوط الحدود التى تطابق تقريبا الحدود بين مصر وليبيا حاليا .

اشتد ضغط السنوسيين من ذلك الوقت على الايطاليين الذين فقدوا كثيراً من المناطق فى ليبيا ، غير أن الهجوم على المدينة طرابلس فشل ، اذ صدته القوات الايطالية بعنف ، وظهر أن القوات السنوسية أقوى فى الدفاع منها فى الهجوم على منطقة خارجة كلية عن سلطانها ، كما هو الحال عند المقاتلين فى سبيل العقيدة لدى ابن سعود ، ورغم هذا فقد فقدت ايطاليا أثناء الحرب منطقة برقة كلها تقريباً .

وبعد الحرب هاجر الشيخ الكبير أحمد الشريف رئيس الطائفة الى تركيا ، فتولى مكانه سيدى محمد ادريس الذى قبل موقف التصالح وحاول التفاهم مع رجال السلطة الايطاليين ، فاعترفت روما بحقه فى السلطة على جنوب برقة .

ولكن التأثير الفكرى السنوسى تعدى هذه المنطقة ، وأصبح خطرا

على سلطة المستعمرين الغربيين ، اذ بدأ المسلمون فى أنحاء ليبيا يتقبلون الأفكار الثورية ويتحركون — فكريا — ببطء ضد الايطاليين ، الذين يملكون مستعمرات فى شمال افريقيا ، وبدأ الخطر يهدد المستعمرين ، لكن الفاشية التى أعادت التفكير فى انتهاج سياسة استعمارية نشطة تنبهت له ، وبدأت فى حسم النزاع مع الطائفة السنوسية ، فاشتبكت معها فى معارك خاضت بها القوات الايطالية حربا ضارية بقيادة « جرازيانى Graziani » فى الفترة من عام ١٩٣٠ الى ١٩٣٣ م وانتصر الايطاليون انتصارا ساحقا ، وفر الآلاف من أتباع السنوسى من السلاح الايطالى ، وعبروا الحدود وبدت البلاد خاوية بعد هـذه الحملة •

وتخضع المناطق السنوسية اليوم [١] للرقابة العسكرية الايطالية ، اذ لا تزال الطائفة تكن العداوة ، وليست مستعدة للتفاهم ، أو للصلح على الرغم من ندرة التعبير عن مثل هـذا الموقف من الجانب الايطالى • ويقترب عدد كبير من السنوسيين المبعدين — جزء كبير منهم على الأرض المصرية — فى محاولة لابقاء عدم التصالح ، وكونوا « المجلس الوطنى للدفاع عن طرابلس » كأسلوب سياسى للوصول الى تحقيق غاياتهم •

تكررت تعاليم السنوسية عند حركة الاخوان الدركوية Derkauije » التى تفرعت منها المندية • اتخذت هذه الطائفة المدينة الصغيرة «مصراته» مركزا رئيسيا لها ، ومن مبادئها التمسك بالزهد المبالغ فيه ، وطاعة الشيخ الكبير طاعة عمياء ، كما هو عند السنوسيين ، اذ أنه يجب على الاخوان أن يكونوا فى يد الشيخ كجثة فى يد المغســل ، لا ارادة فى أى أمر ولا اعتراض على شىء اطلاقا ، غير أنهم خالفوا السنوسيين بتأييدهم الدعوة الى الوحدة الاسلامية التى نادى بها السلطان عبد الحميد ، فقد كان شيخهم الكبير مستشارا سياسيا مقربا للباب العالى مدة طويلة • أما اليوم فقد ضعفت هـذه الطائفة ولم يعد لهم ذكر •

* * *

كما قام بين أهل السنة دعوات تدعو الى العودة بالاسلام الى رونقه

---

(١) كان ذلك حين صدرت الطبعة الأولى للكتاب بلغته الأصلية .

الأول — كالوهابيين وأمثالهم — كرد فعل ضد الغرب الذى اقتحم البلاد بقوة السلاح ، ظهر بين الشيعة أيضا مذاهب مماثلة ، حملت لواء حركة الاصلاح الدينى فى المجتمع الشيعى ، فدعت الى العودة بالدين الى صفائه الأول .

انفصل الفرع الشيعى الاسلامى — الذى يعد صغيرا من الناحية العددية — عن جماعة السنة فى عصر صدر الاسلام عند ما اندلع النزاع حول منصب خليفة النبى [ ﷺ ] ، فقد اغتصب الأمويون الخلافة بعد موت الخليفة الرابع على ، زوج بنت محمد [ عليه الصلاة والسلام ] ، وبعد أن قضوا على أولاده فى موقعة كربلاء ، ويعتبر تاريخ هذه المعركة حدا فاصلا يؤرخ به انقسام المسلمين الى شيعيين وسنيين .

ويعتقد الشيعيون اعتقادا دينيا أن الأئمة بعد على — الذى اغتيل أثناء الصلاة فى مكان غير بعيد عن النجف — اثنا عشر اماما على التوالى . وكان محمد المنتصر آخرهم ، تقلد الامامة بعد موت أبيه فى عام ٨٧٣ م ( ٢٦٠ هـ ) ولم يمض وقت طويل على تسلمه هذا المنصب الكبير حتى أشيع نبأ اختفائه ، ويتصل أتباعه به عن طريق واسطة يسمى الباب ، وفى ٩٤٠ أو ٩٤١ مات آخر هذه الأبواب ، الذى قام بمهمة الواسطة ، أو همزة الوصل بين هذا الامام الحى وبين أتباعه . ومن ذلك الحين انقطعت الصلة مع هذا الامام الثانى عشر ، الذى يعتقد الشيعة أنه لم يمت ، بل يحيا روحيا مختفيا فى مكان ما ، ، وسوف يعود يوما يبشر برسالته ، ويخلص أتباعه من الشقاء المضروب عليهم من سلطة الحكام .

وفى بداية القرن التاسع عشر انسابت — بتأثير من النجاح الذى وصل اليه الوهابيون فى شبه الجزيرة العربية — أول موجة للاصلاح الدينى فوق أرض ايران الشيعية ، التى كانت غارقة الى أم شعرها فى جمود شيعى تام . وظهرت على السطح كلمة « عودة الدين الى صفائه الذى كان له فى العصر الأول » ودارت دورتها .

فقد دعا الشيخ أحمد العاصى الذى توفى فى عام ١٨٢٦ الى أن الامام الثانى عشر الذى ينتظر عودته ، يجب أن يتصل بشعبه أثناء فترة

الانتظار عن طريق زعيم روحى مفكر ، فعاد التصور الذى مضى عليه قرون الى الظهور مرة أخرى ، واعتقد الشعب أن هـذا الشيخ وتلميذيه بعد موته ، هم رسل الامام الثانى عشر الغائب : ملأهم بروحه ، وأمدهم من فكره ، ولكن لم يسم أحد من هؤلاء الثلاثة نفسه بابا ، ولم يدع أحد الحق فى أن يرفع نفسه ليتصل شخصيا بالامام المختفى ، بل لم يذكر أحد منهم أنه شعر بالامام شعورا مباشرا •

غير أن الأرواح دفعت الى الحركة مرة ثانية ، فانطلقت محلقة فى الخيـال وعادت الفكرة الأولى الى الظهور ، فقد ادعى رجل فى عام ١٨٤٤ م ( ١٢٦٠ هـ ) بالضبط بعد ألف عام من موت آخر باب حيث اختفى الامام الثانى عشر اختفاء قاطعا — أنه على صلة مباشرة مع هذا الامام ، الذى اختفى قبل ألف عام • وأذاع هـذا الداعى الذى يسمى ميرزا على محمد أن عودة الامام منتظرة ، فهو يمهد له الطريق ، ولقب نفسه بالباب : « باب الله » — بالضبط كما لقب الوسطاء السابقون — وصدق الشعب قوله ، فاعتقد بقرب عودة الامام الثانى عشر ، وانطلقت حركة فى ايران سمت نفسها بالبابية ، وهى تشبه حركة قامت فى الغرب قبل ١٠٠٠ عام ، تهىء نفسها لاستقبال المسيح الذى سيعود قريبا •

كثر أتباع هذا الباب الجديد ، وتملكتهم العصبية الدينية ، واستولى عليهم شعور العقيدة المتوهج ، فأصبحوا خطرا على الفكر الدينى الشيعى ، كما كانوا خطرا على رجال السلطة الذين بدأوا فى تعقبهم وفى محاولة القضاء عليهم •

ربط الباب تعاليم الدين — بطريقة ملتوية — باتجاهات الحضارة الغربية فرفض مشروعية الجهاد — وهو الحرب المقدسة فى الاسلام — وعارض الحدود التى شرعها الاسلام ، وحرم الختان ( الطهارة ) ومنع المرأة من لبس الحجاب ، ودعا الى تحريم تعدد الزوجات ، وطالب بانشاء مدارس ، وحمل لواء الدعوة الى تحقيـق كثير من المطالب الثـورية غير ما ذكر •

تطورت أحداث هــذه الدعوة ، اذ وقعت عداوة شديدة بين البابيين والرجعية الحاكمة الذين استندوا فى الحملة ضد البابيين على حاشــية الشاه الدكتاتوريين ، فأخذ الصراع صبغة سياسية ، فأطراف الصراع يدافعون عن كيانهم وسلطتهم • اضطهد البابيون اضطهادا مرا ، وأخذوا بالريبة ، واشتد ضغط السلطة عليهم فتعقبتهم الشرطة فى كل مكان ، وأذاقوهم العذاب ، وفى هــذا الجو نمت العداوة بينهم وبين الأسرة المالكة ، وتبلورت عندهم فكرة القضاء عليها ، ليقيموا على أنقاضها مملكة دينية جديدة يكون على رأسها « الباب » ، الذى كلف من الامام المختفى بتمهيد الطريق لظهوره ، ومن هــذا يتبين أن الأهداف السياسية والدينية تشابكت مع بعضها وتقاربت تقاربا يشبه الالتحام ، كما كان الحال عند الوهابيين • وبذلك صارت الدعوة الى المبادىء الدينية وســيلة للوصول الى السلطة •

عندما اندلع الصراع بين البابيين والحكومة ألقى القبض على «الباب» وكان ذلك فى أوائل عام ١٨٥٠ ، وظل فى السجن بضعة أشهر ، ثم نفذ فيه الاعدام مع أحد تلاميذة المخلصين فى ٨ يوليو من هــذه السنة • ويروى أتباعه ومريدوه أساطير حول ما ظهرت من معجزات أثناء تنفيذ الاعدام ، فقد جاء فى احدى روايات هــذه الأساطير أنهم ربطوا الباب مع التلميذ بالحبال مع بعضهما ، بحيث وضع رأس التلميذ على صدر « الباب » ، ثم تلقى حراس أرمنيون الأمر باطلاق الرصاص عليهما ، فأطلقوا أول دفعة وعندما انقشع دخان بارودها رأى الحاضرون ، أن الباب والتلميذ واقفان بدون قيد ، وكانت معجزة ، اذ أن الرصاص أصاب القيد فقط ، الا أن الدفعة الثانية قضت عليهما •

هــذه المعجزة التى حدثت أثناء تنفيذ حكم الاعدام أوقدت فى أتباعه حماسا لا يوصف ، دفع بهم الى حب الاستشهاد فى سبيل دعوتهم ، فسيقت أعداد لا حصر لها الى ساحة الاعدام ، فقيدوا صفوفا على حائط المقصلة ، حيث أعدموا رميا بالرصاص بصورة جماعية ، أما زعماؤهم فكانوا يربطون على فوهة ماسورة الاطلاق •

عين « الباب » خليفته قبل أن يعدم ، فواصل هــذا الخليفة — وهو المسمى ميرزا يحيى — السير بالأتباع على الطريق التى سار فيها سلفه ، وحافظت الحركة تحت زعامته على قوتها فى الصراع القائم بينها وبين السلطة الحاكمة ، وفى عام ١٨٥٢ م دبرت محاولة لاغتيال الشاه ناصر الدين ، غير أنها باءت بالفشل ، وكانت فرصة تلقفتها الحكومة الرجعية وأصــحاب السلطة الدكتاتوريين ، فبطشــوا بالبابيين بغير رحمة وقادوا حركة اضطهاد ضدهم ، فاستمروا فى تعقبهم فى كل مكان ، ونكلوا بهم جماعات ، فأعدموا وسجنوا وطردوا •• ولم ينس تاريخ ايران هــذه الأحداث ، فقد ســجل بالدم أحد الأبواب المظلمة الذى كشف القناع عن استبداد القاجاريين •

اشتدت حملة البحث عن ميرزا يحيى — الباب الثانى — واقتفى رجال الشرطة أثره ، ولكنه استطاع أن يفلت من متعقبيه ، ويهرب الى خارج الدولة • رحل هو وأخوه غير الشقيق بهاء الله ، وجمع من أتباعه الى بغداد واتخذها منفى له •

مارس نشاطه من بغداد فوصل تأثيره الى داخل البلاد الايرانية — رغم أنه يعيش فى المنفى — عن طريق الايرانيين ، الذين يمرون على بغداد فى طريقهم الى أماكنهم المقدسة فى النجف جنوب بغداد • ففى كل عام يخرج من ايران أعداد لا حصر لها من الشيعيين قاصدين تلك الأماكن المقدسة ، فكان ميرزا يلتقى بهم فى بغداد ، وينشر دعوته بينهم فقويت الرابطة بينه وبين أتباعه فى ايران •

أقلق هذا الأمر الشاه ناصر الدين فبعث رسولا يشرح مخاوفه لــدى الباب العالى — فميرزا يحيى يعيش فى بلد تحت حماية الباب العالى — الذى أبدى تفهما واستعدادا لتنفيذ رغبات الشاه • أجاب السلطان رجاء الشاه ، فاستدعى ميرزا يحيى الى القسطنطينية ومن هناك أرســله الى « أدريانوبيل Adrianopel » فى الطرف الغربى من المملكة التركية •

حدث انقسام فى هــذا المنفى بين البابيين ، فقد أعلن الأخ غير

الشقيق لميرزا يحيى أن الامام الثانى عشر عاد فى شخصه ، أى أن روح الامام حلت فى جسمه ، فهو الامام نفسه ، وصدقه الناس فاتبعوه ، ووقعت بينهم وبين أتباع أخيه مشاحنات ، وأصبح اخوان العقيدة — الذين نفوا بسبب اشتراكهم فى أفكار وآراء رأت الدولة فيها خطرا على وجودها — أعداء ألداء ، وتطورت العداوة العقيدية الى صراع حقيقى ، أضطر رجال السلطة ازاءه للتدخل وحسم هذا النزاع ، فأرسلت ميرزا يحيى « الباب » الذى سمى نفسه « صبح أزل » — أعنى الفجر الخالد — هو وأتباعه الى جزيرة قبرص ، بينما رحل بهاء الله « الامام العائد » مع أتباعه الى فلسطين ، فاتخذ مدينة « عكا **Akkon** » منفى له .

يعتبر الصراع بين الاخوة غير الأشقاء حول الزعامة صفحة سوداء فى تاريخ هذه الطائفة المغامرة ، وقد فاقت العداوة بينهم كل وصف ، وتجاوزت كل حد ، اذ اعتبروا أنفسهم أعداء حتى بعد الموت ، ووضع كل فريق الآخر فى قائمة من يجب اغتيالهم . فالقتل عندهم فى هذه الحالة ليس جريمة ، بل من أعمال التقرب الى الله .

مات ميرزا يحيى الذى نفى الى قبرص صغير السن ، وتفرق أتباعه ، أما أخوه غير الشقيق — بهاء الله — فقد مكن لنفسه فى منفاه ، وظل معترفا به من أتباعه شيخا للطائفة ، رغم تحديد اقامته فى عكا مدة تقرب من ثلاثين عاما ، وفى عام ١٨٧٠ حصل على تصريح بمغادرة المكان المحدد اقامته فيه والانتقال الى ضيعة له فى ضواحى المدينة ، على أن يكون تحت رقابة رجال الشرطة ، وبقى فى هذه الضيعة الى أن وافته منيته فى عام ١٨٩٢ فدفن فى مقبرة هناك تحوطها حديقة فيحاء .

ظل بهاء الله طول حياته على اتصال بأتباعه فى ايران ، الذين كونوا أجهزة سرية تنخر تحت عرش المملكة القاجارية — قدر عددهم فى أوائل هذا القرن بحوالى مليون — وقد ظهرت ثمار هذا النشاط السرى فى ثورة عام ١٩٠٨ اذ قام البابيون بدور رئيسى فيها .

انقسم أتباع بهاء الله بعد موته اثر التنازع الذى قام بين ولديه

على الزعامة فى الطائفة ، وامتاز ولده الأكبر عبد البهاء باعتناقه مبادىء تحمل فى طياتها توسيع دائرة الاسلام فكريا وجغرافيا ، فدعا الى اعتبار الكتاب المقدس — كلا جزئيه : العهد القديم والعهد الجديد مصدر توجيه بجانب القرآن . وأسس طائفة انسانية عالمية تدعو الى التسامح بين الأديان الثلاثة ، ووجدت أتباعا لها فى أوروبا وشمال أمريكا ، وأقيمت مراكز للطائفة فى فرنسا وانجلترا وألمانيا . كسبت هذه الدعوة أصواتا كثيرة فى المجتمع الغربى ، وانضم اليها شخصيات بارزة آمنوا بمبادئها وبذلوا الكثير فى سبيل المحافظة عليها ، وأكبر دليل على تأثيرها فى المجتمع ما فعله مستر « برين Bryan » — كان وكيل وزارة فى الولايات المتحدة ، آمن بمذهب البهائية ، وزار قبر بهاء الله فى عكا أكثر من مرة — ترك منصبه الكبير أثناء الحرب لأنه اعتقد أن سياسة ويلسون لا تتمشى مع المبادىء الأساسية للطائفة .

كان للبابية أثر كبير فى ايران — كما كان للوهابية فى المنطقة العربية — ولم يكن فقط فى المجال الدينى بل تعداه الى السياسى والاجتماعى . فمعارضتها للحفنة الحاكمة حكما مطلقا هيأت الجو لظهور اتجاهات التحويل الذى أرادته البلاد الغربية بعد قضائها على الدولة القديمة ، وفى ظل هذا التحويل قربت القومية الاسلامية العالم الاسلامى من حقبة تاريخية جديدة .

* * *

# الباب الثالث

# القومية الإسلامية ووحدة المصير الإسلامي

# القومية الإسلامية ووحدة المصير الإسلامي

كانت الحرب العالمية حدا فاصلا للنزاع القائم بين دول الغرب الاستعمارية وبين تركيا ، اذ قذفت القوى الاستعمارية ما تبقى من دول العالم الاسلامي المستقلة استقلالا ذاتيا فى بوتقة التبعية الغربية ، وكان زحف القوات الأوروبية ، على فارس متمما لعملية اخضاع المارد الاسلامي ، وقضاء على حريته السياسية ، فتهاوى هذا التمثال العملاق ، وخفت صوته •

اعتقدت الدول الغربية أنها وضعت يدها على غنيمة خالصة لها ، لا ينازعها أحد فى التصرف فيها ، ولا يقف فى طريقها أدنى العقبات ، فقيادة شعوب المنطقة ستكون سهلة ، لأن القوى الوطنية ماتت ، أو فى طريقها ، واستغلالها مباح ، فلن يستطيع الموتى دفاعا ولا احتجاجا •••• ثم بدأت الدول الغربية توزع الغنائم ، وفى هذه اللحظة بدا فى الأفق : أن القيود التى كبلت الشرق عشرات السنين تمزقت ، نتيجة تفاعل قوى كامنة فى طبيعة هذه الشعوب ، لا يعرفها الا من درس عقائدها ، وأخلاقها ، وتاريخها ، وغاص فى مجتمعاتها ، بحثا عن منطلق هذا الاباء للهزيمة ، وهذا الرفض للسيطرة مهما كانت قوة المستعمر وجبروته •

ارتفع صوت هذه القوى فتساوت مع الدول الغربية المدعمة بالسلاح ، فى دعوتها ارث هذه المملكة التى تهاوت فى الحرب العالمية ، وتطاولت هذه القوة فانتزعت لنفسها حق المساواة مع القوى الاستعمارية فى امتلاك هذه التركة التى خلفتها الحرب العالمية •••• لقد خرج من أودية الأنقاض التى خلفتها الحرب العالمية فى منطقة العالم الاسلامى ، شبح تمطط ــ كما تقول الأسطورة : مات الطائر وحرق ••• ثم •• خرج من التراب الذى خلفته النار طائر أسرع من الذى مات ــ فى كل مكان

باذرا بذور الثورة ضد الأطماع الاستعمارية ، داعيا الى الاحتماء بالعقيدة، وتجميع المسلمين حول أيديولوجية اسلامية جديدة لمواجهة الخطر القادم من الغرب ، والقضاء على دعوى الدول الغربية ، بأن لها حقا فى ارث هـذه التركة التى خلفتها السلطنة الاسلامية فى تركيا ، ويمكن أن تحدد ملامح هـذه الأيديولوجية ، بكلمة القومية الاسلامية ، ولكن ما هى القومية الاسـلامية ؟

يحاول البعض أن يعقد مقارنة — من ناحية التطور التاريخى — بين القومية الاسـلامية والقومية الأوروبية . اذ يذهب الى أن القومية الاسلامية تسير فى خط يشـبه التطور التاريخى الذى وقع فى أوروبا ، فقد قامت اتجاهات فى أوروبا لتحقيق مبادىء الثورة الفرنسية ، فدعت الى فكرة الدولة القومية الأوروبية ، وكان لهذه الدعوة أثر فى ازدياد الشعور بالوحدة السياسية ، والثقافية لأوروبا .

كذلك الحال فى هذه الحقبة التاريخية التى يمر بها العالم الاسلامى ، تأخذ الأحداث نفس المجرى الذى سارت فيه فى أوروبا ، فتحتل القومية مكان الدين — حيث كان المصـدر للنظم الاجتماعية ، ومسـيطرا على المجتمع — لتشـكل حياة المجتمع فى نواحيها الثلاثة : الاجتماعيـة . والاقتصادية . والثقافية . وبهذه المقاومة سميت عملية البنـاء والتغيير التى تجرى فى الوقت الحاضر ، فى ربوع المنطقة الاسلامية ، المكنوبة ، « تأريب الشرق » : أى جعـله أوروبيا فى أفكاره ، وفى نظمـه ، وأسلوب حياته .

ولو كان الأمر على هـذا النحو ، لهان الأمر ، ولو اتبعت القومية الاسلامية طريق القومية الأوروبية ، ما كانت مشـكلة ، ولكنها اتخذت أسلوبا آخرا ، وهدفا مغايرا .

احتلت القومية الاسلامية مركزا وسطا ، بين قوتين نشأتا قبل الحرب العالمية فى الشرق الاسلامى نتيجة عودة المواجهة مع الغرب ، واتخذ نظامها الفكرى خط الاعتدال ، بين هاتين القوتين التى مالت احداهما الى

ناحية الغرب ، فاعتقدت أن نظمه نموذجا يحتذى ، وأسلوبه فى الحياة هدفا يرتجى ، فحاولت نقل الأشـــكال الغربية فى السياسة ، والاقتصاد ، والاجتماع الى المجتمع فى الشرق ، وهـــذه القوة تمثلت فى الحركة القومية ، أما الأخرى فهى الاتجاه الدينى الذى عادى الغرب ورفض كل ما هو غربى ، وكافحه وبذل كل جهوده للحيلولة دون وصـــول التقاليد الغربية الى المجتمع الشرقى •

خيم الجمود على العالم الاسلامى فى القرون الماضية ، فأصابه الوهن ، والضعف ، وســـيطرت عليـــه أفكار صدعت بنيانه ، وفككت أوصاله ، ولم يظهر ضعفه واضحا الا عندما اتصل بالغرب ، بعد أن نشطت حركة المواصلات ، فظهرت محاولات للنهوض به ، وتبلورت فى اتجاهين متمايزين : حركات التجديد الدينى ، والحركات القوميـــة ، واستمر نزاعهما حول أسلوب الاصلاح حتى الحرب العالمية • ولم يكن تأثيرهما فى القومية الاسلامية أقل من تأثير أوروبا لدى الحركات الوطنية فى الشرق ، فكلتا القوتين اللتين تصادمتا كثيرا فى زمن ما قبل الحرب بسبب اختلافهما حول أسلوب النهوض بالعالم الاسلامى ، انضمتا الى بعضهما ، ووحدتا جهودهما لمواجهة ضغط الهجوم الماثل أمام الأبصار ، الذى شنته القوى الغربية — أثناء الحرب — ضد العالم الاســـلامى ، فهما يمثلان الآن التيار الذى يتجه الى تجديد القوة العالمية للاســـلام • ويحاول صبغ التيارات الأجنبية بصبغة محلية ، فقضية « تأريب الشرق » — التى اعتقد المراقبون بدء تنفيذها فى زمن ما بعد الحرب — تحولت اليـــوم الى صبغ المبادىء الأوروبية بصبغة شرقية ، فهى لا تقبل النظم الغربية ، ولا التقاليد الأوروبية كما هى ، بل نضفى عليها ما يجعلها ملائمة للظروف الاجتماعية فى الشرق •

لا تمثل الحركات الوطنية باعتناقها الأيديولوجية الأوروبية مشكلة قومية ، فالنظريات والمذاهب العلميـــة ، وأسلوب الحيـــاة ، والمبادىء السياسية ، اقتحمت — وما زالت — الشرق الاسلامى ، حاملة الطابع الأوروبى ، الا أنها تتحول — وان كان هـــذا يسير ببطء — الى اسلامية

شرقية ، فقد غير الوطنيون شكلها — دون مساعدة من قوى خارجية — وبدلوا هيأتها ، فبدت مخالفة لما هى عليــه فى أوروبا • وعلى ســبيل المثال : تختلف الديمقراطية الاســلامية اختلافا كليا عن الديمقراطية الغربية ، وان تشابها فى الشكل ، ودعاة كلتا الديمقراطيتين مختلفون كل الاختلاف فى التفكير ، ومتفاوتون فى النظــرة الى الحيــاة ، وذلك أمر له أهميته فى توضيح الفرق بين عالمى الشرق ، والغرب •

اذا تطرق الحديث عن القوميين الاسلاميين فى الشرق ، فيجب أن يعرف القارىء أنهم : انتشروا فى المنطقة الاســلامية ، وهم يمثلون العناصر التى يقوم عليها البناء الجديد للدولة ، تعددت فرقهم ، وتمايز أسلوب حياتهم ، وتنوعت أساليب دعوتهم ، وتباينت مصالحهم الخاصة ، ولكنهم يعملون فى اطار واحد ، ويتجهون نحو هدف مشترك ، ويجاهدون لتحقيق مبدأ عام ، وهو تكوين دولة حديثة ، مصبوغة بصبغة اسلامية ، ولم يجمعهم على هذا الهدف الا شعورهم بوحدة المصير ، فهم شركاء فى المحن ، يكتوون بنارها ، وتثقل كواهلهم جميعا أيامها القاتمــة ، ولحظاتها الحرجة ، وآلامها التى تجد آثارها على ملامحهم ، وتســمع رنينها فى أصواتهم ، وتلحظ وهجها فى مآقيهم ، وتقرأ عن ذلك كله فى تاريخهم المشترك •

أيقظت الوحدة الفكرية للاسلام ، فى جماهير هــذه المنطقة الشعور بوحدة المصير ، فانبثقت تلك الحركات المتعددة ، تستهدف عودة القوة العالمية للاسلام ، وقد جمعها حول هــذا الهدف الموحد : العقيدة المشتركة التى جذبتهم — وما زالت — نحو غاية واحدة ، على الرغم من اختلاف أسلوبهم ، وتباين طرقهم للوصــول الى هــذه الغاية ، وقوى هــذا التقارب اشتراكهم فى معاداة الغرب ، وانتشار هــذه العداوة للقوى الاستعمارية فى كل مكان فى الشرق ، فأينما وليت وجهك ، قابلتك مظاهر البغض للدول الأوروبية ، ولمست أثر ذلك فى جميع نواحى الحيــاة الفردية ، وفى أسلوب الدعاية لدى جميع الهيئات السياسية والاجتماعية •

أضفت الحيوية التى أحست بها الجماهير نتيجة توحيد الأهداف الرامية الى احياء الاسلام — كواجهة للدولة الحديثة — ، قوة على الشعور بوحدة مصير المسلمين ، ولا نغالى اذا قلنا : انه كان أقوى من الميول الانفصالية التى لعبت دورا كبيرا فى انشـــاء الدول الحديثة فى العالم الاسلامى ، فقد قادت شعوب الشرق الاسلامى نضالا — انتشر على كل رقعة من بقاعه شرقا وغربا ، وشمالا ، وجنوبا — ، ضد الدول الاستعمارية كى تحافظ على وجودها ، وتحمى الشكل السياسى الذى اكتسبته بعد الحرب كدولة ينبغى أن تباشر سيادتها ، ساعد هذا النضال المشترك ضد قوى أجنبية اجتمعت على استغلال هذه المنطقة ، واستنفاد ثروتها على ظهور قوى قوية ، كان لها أثر فى التماسك الجماعى ، وكسر حدة الاحتكاك الذى يمكن أن يقود الى نزاع شعوبى .

لم يكن لهذا الترابط — الذى كان نتاج الوحدة الفكرية والثقافية لشعوب هـــذه المنطقة ، واستراتيجية حتمتها ظروف الدفاع عن الأوطان ، ضد عدو مشترك — علاقة بفكرة الوحدة الاسلامية التى دعا اليها سلطان تركيا فى فترة ما قبل الحرب العالمية ، فلم يقم على أساس خلق مملكة اسلامية كبرى ، تجمع شـــعوب العالم الاسلامى ، داخل حدود واحدة ، وتكتلهم كتلة واحدة فى مواجهة العالم الحديث ، كما بدا ذلك فى حركة الوحدة الاسلامية ، التى ظهرت قبل الحرب ، فقد اختفت هـــذه الدعوة الى الوحدة التى أريد لها أن تقوم على أسس سياسية ، دون أن يكون لها من الفروض الفكرية المسبقة التى تساعدها على بناء دولة اسلامية حية ، وسلم بعدم جديتها عندما أصبح دعاتها فى وضع لا يستطيعون فيه الامتناع عن مواجهة المسلم أخاه المسلم فى الميدان ، أشهروا السلاح فى وجوه بعضهم ، وأراق المسلم دم أخيه ، فقطع أوصال الاتحاد بينهم ، ومنع وصول شرايين الحيـــاة الى جسم الوحدة الاسلامية ، فقضى عليها ، وكان العرب أول من أجهز عليها عندما ثاروا ، وحاربوا ، فى صفوف الانجليز ضد تركيا المسلمة . كذلك المسلمون فى الهند الذين كانوا ضمن دعاة الوحدة الاسلامية منذ أمد بعيد ، دافعوا عنها بكل ما يملكون من

حماس دينى متوقد ، هؤلاء المسلمون فتر حماسهم وانصرفوا عن الميدان ، ووقفوا مكتوفى الأيدى ، لم يتحركوا عندما دعا الخليفة الى الحرب المقدسة •

بات من المستحيل تحقيق قيام دولة على أساس فكرة الوحدة الاسلامية بعد ما محا كمال باشا أتاتورك عرش السلطان ، وقضى على الخلافة فى تركيا ، كذلك باءت بالفشل محاولة ظهرت بعد الحرب فى مؤتمرات القدس ومكة لاحياء فكرة الوحدة الاسلامية التى نادى بها السلطان قبلا ، ولم يستطع المؤتمرون تجميع الدعاة لتلك الوحدة •

ولهذا كله ظهرت القومية الاسلامية واحتلت مكان الوحدة الاسلامية • وكان نظام الفكر — أيديولوجيته — عند دعاة القومية الاسلامية ، يرقى الى توحيد الاتجاهات الدينية مع الحركات الوطنية ، مع الذين ظهروا على مسرح الأحداث كخلفاء للقوى الاستعمارية فى هذه المنطقة ، يتسلمون السلطة من الاستعمار ، بعد أن يشد رحاله ، وهذه أمنية وحدت كلتا القوتين — القومية الوطنية والقومية الاسلامية — للتعجيل بانتقال الحكم الى أبناء البلاد • ولكن اختلفت درجة تقارب وامتزاج القومية الاسلامية بالقوى الأخرى التى ظهرت فى أقاليم العالم الاسلامى ، ففى تركيا ، وايران ، تغلب الطابع القومى الوطنى الذى يتجه الى التقليد الأوروبى ، وان اختلفت درجة هذا التقليد زمنا ومكانا ، وفى السعودية ، والأجزاء البعيدة فى شمال افريقيا كان الطابع الاسلامى أقوى من غيره ، ومهما كان أمر قوتها فهى تمثل فى كل مكان اتجاها لربط عناصر التوجيه فى المجتمع الاسلامى ، حتى فى تركيا حيث قامت حركة متطرفة تدعو الى التحرير من قيود الدين ، ويبدو للمراقبين عن قرب : أن هناك مقاومة سرية ذات ثقل تقاوم الاسراف فى الدعوة الى الحرية الدينية ، وتعارض من يعتمد على المبادىء القومية ، وينبذ الشعارات الدينية ، ومن الجائز أن تعلن هذه الحركة عن نفسها ، وتخرج سافرة لومات هذا الرجل — كمال أتاتورك — الذى يمسك زمام الجمهورية التركية الجديدة ويشد عليه بقبضة من حديد •

وفى القاهرة عاصمة البلد الذى قطع فيه تأثير النهضة الأوروبية شوطا أكثر من غيره من البلاد الاسلامية ، وانتشر فيه التطور السياسى — على ما يبدو — حسب النموذج الغربى للديمقراطية ، فى هذه العاصمة يقوم مسـجد بجانب البرلمان المصرى ، صمم بطريقة هندسية مطابقة لشكل البرلمان الهندسى ، ويبدو للناظر من أول وهلة اذا وقف وشاهد قبتيهما بجوار بعضهما ، أن هناك وحدة بينهما ، تربطهما برباط واحد ، هـذا التجاور والترابط رمز حى لترابط قوى القومية الاسلامية ، وكان يمكن أن يكون لهذا الرمز تأثير أعمق وترابط أقوى فى أى مكان آخر غير بلد النيل ، حيث قامت مملكة اسلامية — تحت الحماية الانجليزية — تبدو مسـتقلة ، ولكنه اسـتقلال ظاهرى فقط ، اذ هى تابعـة فى سياستها لانجلترا .

كان هـذا الاتحاد بين القوى — كما يرمز له تشابه بنـاء المسجد والبرلمان وتجاورهما — واضحا فى كل مكان فى أعقاب الحرب العالمية ، وهى الفترة التى اندفع فيها الكفاح ضد القوى الاستعمارية للوصول الى بناء جديد فى العالم الاسلامى .

ففى مصر اشترك الطلبة والمدرسون فى الجامعة الاسلامية « الأزهر » فى ثورة ١٩١٩ ، بل كانوا هم وقودها وقوادها ، خرجوا فى الشارع يتقدمون الجماهير احتجاجا على نفى زعيم القوميين سـعد زغلول باشا ، ألهبوا الشعب حماسا وحركوا الشباب ، فكانوا — أى الأزهريون — شعلة الغضب التى أثارت العـامة وحركتهم للثـورة ، فكان ذلك ربطـا للثـورة بالمسجد .

وعندما حاولت انجلترا تحقيق الوصاية على العراق — من الناحية العمليـة — بضم حقـول الزيت فى بلاد ما بين النهرين الى رقابتها ، كى تنشىء خطا متصلا ، يخضع لرقابتها بين البحر الأبيض المتوسط والخليج الفارسى ، وقف رجال الدين الشيعيين بجانب هؤلاء الذين كانوا ضباطا فى الجيش ، وساندوهم ، فاندلعت الثورة فى مايو ١٩٢٠ ، تلك

الثورة التى هددت سلطة انجلترا مدة ٦ أشهر • ونظرا لخروج انجلترا مرهقة من الحرب العالمية ، اضطرت أخيرا للخضوع أمام تلك القوى التى ساعد بعضها البعض للوقوف أمامها • كان تآزر القوى الدينية مع القوى القومية ذا أثر بالغ فى استسلام بريطانيا • وفى الفترة التى قاد العراق فيها كفاحا ضد انجلترا لرفع الوصاية ، وقفت القوى الفكرية الشيعية مواقف مماثلة مع الزعماء القوميين جنبا الى جنب ، حتى وصلوا الى الاتفاق مع انجلترا الذى خرج به العراق من وصايتها المباشرة ، وأصبح حرا ذا سـيادة على أرضه •

وفى الكفاح المرير الطويل الذى دار حول مسألة فلسطين كانت دوائر الفكر الاسلامى ظهيرا للشعب ، تسنده وتؤيده دون أن يوجه الفلسطينيون الى تلك الدوائر استغاثة أو رجاء • وقف المفكرون المسلمون ضد الدعوى الانجليزية واليهودية فى انشـاء وطن قومى لليهود فى فلسطين ، فدفعوا بذلك الشعب الى المعارضة ، فانتشرت بينه روح المقاومة ضد الدبلوماسية الانجليزية ، ودفعوه الى مناورة وقتال قوات انجلترا المرابطة فى فلسطين ، لأنها كانت تعمل على تسليمها لليهود — هكذا تصور العرب — ولم يكن أحد فى انجلترا يتصور أن القوميين الاسلاميين سيكون لهم هذا التأثير فى فلسطين •

أثبتت الأحداث فى فلسطين أن القومية الاسلامية استمدت قوتها من التعصب التقليدى للدين الاسلامى ، وأنها جمعت كل القوى تحت راية دينية ، ولا يخفى على المراقبين مدى تأثير تلك الراية على نفوس المناوئين للسياسة الغربية ، انها تدفع المسلم دفعا للتضحية فى سبيل مبادئه التى هى — كما يعتقد — جزء من حياته ، وتغرس فى نفسه : أن الموت فى سبيل تحقيقها شـهادة ، جزاؤها الجنـة ، وفى أى مكان فيها ؟ مع النبيين ، والصديقين ، والشـهداء ، والصالحين •

ان المحرك الأول للقلاقل العربيـة ، وثورات الشعب ضد المخطط الاستعمارى فى فلسطين هو الدين • ويبلغ الحماس الوطنى ذروته ،

ويصل الغضب الى درجة الغليان فى يوم الجمعة ، حيث يجتمع آلاف المصلين فى المســجد يستمعون الى خطبة الجمعة التى غالبا ما تكون موجهة الى اثارة العواطف الدينية فيهم ، فيخرجون غاضبين على أولئك الذين يتعاطفون مع الصهيونيين ، ويؤيدونهم فى اقامة وطن لهم على هــذه الأرض العربية ، وقد فهم الزعماء السياسيون هــذا الجانب ، فكرسوا جهدهم لايقاظ الشعور الدينى لدى المسلمين لخدمة الأهداف السياسية ، فاشترك علماء الدين فى الحركات الوطنية — وكان ذلك أحد الأسباب التى جعلت بريطانيا تفكر فى موقفها بالنسبة لانشــاء وطن قومى يهودى فى فلسطين ، فتحاول اظهار التعاطف مع الجماهير العربيــة — وكانوا قوادها ، فقد تزعم شيخ له مكانة فكرية ، وروحية فى المجتمع ، الحوادث التى وقعت فى سنة ١٩٣٦ م ، واستمد الفدائيون من هــذه الزعامة قوة دفعتهم الى التفانى فى سبيل قضيتهم ، وعدم المبالاة بما يصيبهم ، لأنهم يعتقدون : أن الموت فى سبيلها شــهادة يثاب عليها بالجنــة ، ولم تهن عزيمتهم ، ولم تخر قواهم فى أحلك الظروف ، وأدق المواقف ، ولم يفتروا لحظــة عن تذكر الله . والاتصال بعقيدتهم ، عن طريق أداء العبادات ، والاكثار من السنة ، وقراءة القرآن .

لقد روى أن أحد الفدائيين الذين حكم عليهم بالاعدام كان يقرأ القرآن عندما ذهب السجانون اليــه ليقتادوه الى المقصلة ، ووصفته الصحافة العربية ودور الاعلام فى العالم الاســلامى بأنه مجاهد فى سبيل الله ، وأنه نال الشــهادة التى يتطلع اليها كل مسلم فى سبيل الدفع عن دينه ووطنه **« ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون ، وعدا عليه حقــا فى التوراة والانجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله ، فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم »** (١) ، وبهذا الأسلوب ارتبطت القومية الاسلامية بالحركات الوطنية ، ارتباطا لم يحدث فى أى فترة من تاريخ الحركة الوطنية ، فقد تقاربت الأيديولوجية الوطنية ،

(١) التوبة : ١١١ .

بالأيديولوجية الدينية ، تقاربا شديدا ، وبدأ التئامهما فى فسلطين واضحا بشكل لم يسبق له مثيل فى العالم الاسلامى •

قامت فى أعقاب الحرب العالمية حركات وطنية فى العالم الاسلامى ، جاهدت فى سبيل استقلال البلاد ، وبناء الدول فى هـــذه المنطقة ، بناء حديثا ، وقد أدى ذلك الى مصادمات عديدة مع الاستعمار الغربى ، الذى بسط نفوذه على هـــذه البقعة من العالم وزاد التوتر وكثر ، حتى أطلق على هـــذه الفترة « فترة الكفاح فى سبيل الاستقلال » ، وقد أظهرت هـــذه الفترة أكثر من مرة أن الاسلام ليس عبادة جوفاء لا أمل فيها ، وأنه لم يعد تلك المبادىء التى تعادى التطور ، أو أنه الشكل البدائى للحيـــاة الانسانية البعيدة عن التأثير فى مجرى الأمور ، كما شاع ذلك فى فترة انحطاط الفكر الاسلامى ، بل انه أصبح عنصرا حيا يؤثر فى الأحداث ، عندما قرر علماء الاسلام تأييد الحركة الوطنية واضفاء صفة القدسية عليها ، ومنحوها رمز الدين ، فارتكزت على دعائم تمتد جذورها فى قلب كل فرد فى المجتمع ، وقد أدى ذلك الى اقامة علاقة خصبة وبناءة ، بين العناصر القومية والدينية ، وطغت هـــذه العلاقة على جميع الأحداث ، حتى أن تاريخ العالم الاسلامى فى زمن ما بعد الحرب لم يكن فى حد ذاته شيئا آخر ، غير تاريخ مسطر بين سجلاته أخبار ، تبادل ، وتقارب الأيديولوجيتين الدينية والقومية •

وتعتبر المنطقة العربية أهم المناطق التى بدت فيها ظاهرة العلاقة المتبادلة بين القوى الدينية والقوى الوطنيـــة وقوة تماسكهما ، لأن كلتا القوتين اللتين تجتمعان فى القومية الاسلامية متكافئتان ، ولأن : ما يجرى على الأرض العربية يحدث صدى فى كل أرجاء العالم الاسلامى ، فهذه المنطقة بالنسبة للمسلمين بمثابة القلب ، تتوقف على نوعية ضرباته حياة باقى الجســـد ، لذلك يتأثر المسلمون فى جميـــع أنحاء الكرة الأرضية بالأحداث الجارية على أرض هـــذه البقعة من وطنهم الاســـلامى ان مدا أو جزرا •

ان حركة القومية العربية التى ظهرت على أرض هذه المنطقة هيأت

لكل الحركات ذات الاتجاهات المختلفة ، أسلوبا للعمل جمعهم على طريق كفاحهم ، ووسع جبهة الالتقاء حتى وجدت كل حركة لها مكانا فى هـذا الاتجاه السياسى ، الذى يطلق عليـه اسم القومية العربية ... ذلك الاتجاه الذى جذب كل القوى الى قاعدة صلبة متينة تقوم على أسس ثابتة مشتركة — وهى الاشتراك فى اللغـة والثقافة ، والدين — ربطت كل الاتجاهات الوطنية فى جبهة واحدة ، ضد القوى الغربية ، ونفوذها . وبهذا مثلت القومية العربية دور القومية الاسلامية ، فهى عربية فى ظاهرها ، اسلامية فى مخبرها وأهدافها ، ويتجلى ذلك واضحا فى معارضتها الشديدة لأوروبا وللمسيحية . دعم زعماء الفكر هـذا الاتجاه فدعوا اليه ، وساندوه وأقاموا التنظيمات التى تمده بالحياة ، أقاموا فى القاهرة ، وكونوا جبهة الشباب المسلم ، هادفين من وراء تكوينها جمع الاتجاهات القومية التى ظهرت فى كل أرجاء العالم الاسلامى فى وحدة اسلامية ، بحيث يطغى صوت الشعور الاسلامى على أصداء القوميات المختلفة . وتعبأ كل الطاقات المبعثرة فى الحركات الاقليمية لخدمة الهدف العام المشترك وهـو :

١ — العودة الى القرآن كمصدر أساسى لتنظيم حياة الفرد والأمة .

٢ — اتخاذ الاجراءات اللازمة ضـد المبشرين المسيحيين ، لأنهم كانوا طلائع الاستعمار الغربى ، الذين مهدوا له الطريق للسيطرة على البلاد وامتلاك ثرواتها ، ومن هـذه الاجراءات مقاطعة مدارس التبشير .

٣ — الوقوف بجانب المسلمين فى كل مكان ، ومناصرة قضاياهم .

هذه هى أسس البرنامج العملى الذى التقى عليـه زعماء الفكر فى القاهرة ، ومنه يتضح أن قوة القرآن فى جمع شمل المسلمين لم يصبها الوهن ، ولم تنجح الأحداث التى مرت على المسلمين فى القرون الأخيرة فى زعزعة ثقتهم به كقوة روحية ، تستطيع أن تجمع التيارات المختلفة تحت راية واحدة ، فانظر كيف تقاربت القوميات المختلفة التى نادى بها رجال يعدون من الصفوف الأولى ، التى صارعت الاستعمار الغربى على الصعيد السياسى ، وكيف جذبت الأحداث الاسلامية الزعماء الى التكاتف

والتساند ضد الغرب • ان الروح الاسلامية مازالت تسيطر على تفكير القادة وعواطفهم ، وستظل كذلك مادامت هناك شـــعوب اسلامية ربطت مصيرها بتعاليم الاســـلام ، واعتقدت أن الرباط الجامع بين أجناسها المختلفة هو الاســـلام •

ان روح التعاطف والتواد بين المسلمين هو السبب فى تجميع القوى الوطنية على طريق القومية الاسلامية ، وقد ظهر ذلك واضحا وملموسا فى فترة النضال ضد الاستعمار الغربى ، وما زالت هذه الظاهرة موجودة — وتنمو باطراد — فى المناطق التى لازال فيها الصراع قائما مع القوى الغربية ، حيث يتخذ النزاع شكل المقاومة المسلحة ••• فى البلاد التى لم تجد فيها حرية الشرق موضعا لأقدامها ، فى البلاد التى لم تحصل بعد على الاستقلال الذاتى ، اذ أن كفاحها ضد القوى الاستعمارية الغربية مازال فى بداية الطريق ، وطموحها السياسى لم يتعد المرحلة الأولى • ان أوضح مثال لمزج التيار الدينى بالحركات الوطنية تجده فى فلسطين ، حيث يرى المراقبون ذلك مجسما أمامهم ، وليس أقل منه وضوحا ذلك الذى يحدث فى شمال افريقيا غرب الحدود المصرية ، حيث لا زالت القوى الاستعمارية تحتفظ بسلطانها وجبروتها لم تتزعزع بعد ، ولم تهن عزيمة المستعمرين ، فهنا أخذت كل الجهود السياسية الموجهة ضد الغرب طابعا دينيا ، ولبست كل انتفاضة قومية أو غضبة اقليمية ضد المستعمر ثوبها الاسلامى ، فدفع الجماهير الى الثورة ضد المستعمر يكون دائما باسم الدين ، لأن العربى فى الجزائر — على سبيل المثال — الذى لا يملك شيئا يقتات به حتى الخبز الجاف — فطعامه كل يوم حفنة من الزيتون — ليس لديه امكانية أخرى للتعبير عما يريده وما يرفضه فى المجـــال السياسى سوى السير وراء ما يعتقد أنه طبقاً لعقيدته الاسلامية ، ومن هنا كان استجابته لتوجيه العلماء الذين يأتون اليه من خريجى المدارس الاسلامية العليا فى القاهرة ودمشق وفزان • يلعب هؤلاء العلماء دوراً كبيراً فى اشعال الروح الدينية لدى الشعب ، وفى دفعهم من الناحية الدينية الى الثورة ضد المستعمرين •

يجد المكافح السياسى ، وزعيم العرب فى الجزائر ابن جلول — فهو عربى لحماً ودماً يشتغل بمهنة المحاماة — الأرض الخصبة لأفكاره السياسية فى المساجد ، حيث تلقى الخطب اليوم علنا ضد الأجنبى — أى ضد الفرنسيين فى تلك البلاد — وتعبأ مشاعر الشـــعب لكره الأوروبيين • ويجلس المحركون لتلك القلاقل والموجهون للثورات الشعبية — التى تندفع اليوم فى مستعمرات شمال افريقيا حيث يظن الأوروبيون أنها محمية من الهزات ، ومؤمنة ضد الانتفاضات الوطنية — فى القاهرة أو فى دمشق ، ويعتقدون عدم الفصل بين الدين والدولة ، فليس هناك حاجز بين الدين والوطنية ، اذ القومية قوة جديدة لها قيمة فى المجال السياسى ، وتلقى التشجيع من كل الفئات ، لأن المسلمين يأملون فى أن ينجح القوميون فى نزع الاعتراف بالمطالب الاسلامية من المستعمر ، وربما فى تطبيق القانون الاسلامى •

كذلك فى ايران — البلد الذى ينهج فى سياسته اليوم نهج تركيا فى محاولة التحرر من الدين — قام تحالف بين الاسلام ، والقوى القومية الثائرة ، التى تجمعت فى الفرق القوقازية تحت قيادة رضا خان الذى سمى فيما بعد رضا شاه ، وقام هذا التحالف — وكانت له آثار بالغة — فى أعقاب الحرب العالمية ، حيث وقع صدام مع الاستعمار الغربى • وعدل التقارير البريطانية التى تناولت أحداث الصراع ، على أن العلماء الشيعيين لم يكونوا أقل خطراً على السلطة الانجليزية من أولئكم الجنود الذين دفعتهم روح القومية لحمــل الســلاح والقتال ضد القــوات البريطانية ، لأنــه كــان من الممكن أن تســـيطر القوات الانجليزية على هذه القوة الثــائرة وتصبح بريطانيــا ســيدة الموقف بتفوقهــا على عتادهم الحربى ، لو لم يكن هناك هؤلاء الدعاة الذين يحمسون الشعب باسم الدين ضد القوات البريطانية •

ذهب رضا خان بنفسه الى رجال الدين الشيعيين وأقام معهم تحالفا قبيل وقوع معركته الحاسمة التى قادها بنفسه فى جنوب ايران ، ورمى من وراء هذا التحالف التمكن من ضرب القوات المنشقة ، وضمان سيطرة

القوى القومية على البلاد ، ونحا فى ذلك نحو ما حدث قبل الحرب العالمية ، فقد تعاقد القوميون الايرانيون آنذاك مع الملا على أن يساند رجال الدين الشيعيون الحركة القومية ، كى يحصل زعماؤها على مركز يمكنهم من التحدث باسم الشعب للحصول على الحقوق الوطنية ، ويضفى عليهم شرعية الوقوف فى وجه الشاه القاجارى • أراد رضا خان أن يلعب هذا الدور ، وسلك فى سبيل الوصول اليه شتى الطرق ، ففى نهاية عام ١٩٢٤ م قام الشاه بتلك الرحلة التى كان لها صدى بين عامة الشعب ، مما جعلها تحتل مكاناً مرموقاً بين أحداث الدولة التى لا تنسى ، ألا وهى رحلة الحج الى الأماكن المقدسة التى يحج اليهـا الشيعيون فى كربلاء والنجف ، وفى أثناء تلك الرحلة ساد التفاهم بين رجال الدين وبين رضا خان حاكم ايران المرتقب ، واستطاع على أثرها أن يقضى نهائياً على آخر صوت للمعارضة التى كانت توجه اليه من جانب الهيئات ذات المصالح الخاصة ، ومن جانب الاقطاعيين ، وبذلك خلا الطريق أمامه للوصول الى عرش ايران •

وفى أفغانستان عندما اعتقد أمان الله أنه يستطيع أن يهمل التقليد الذى حدث فى أقطار اسلامية عديدة ، ويبنى الدولة الحديثة دون النظر الى القوى التى ترتكز على الاسلام كتراث للوطن ••• عندما اعتقد ذلك تبين له الخطأ الشنيع لهذه السياسة ودفع الثمن غاليا ، فقد أطيح به واضطر الى الهرب خارج البلاد ، وأصبحت الحركة الوطنية فى أفغانستان — التى تتولى اليوم بناء الدولة الجديدة — وعاء يحوى كلتا القوتين اللتين تميزان القومية الاسلامية ، وتبرزان طابعها فى هذه الحقبة التاريخية ، فقد اتحد علماء الدين مع الجيش ووقفوا خلفه يساندونه باعتباره حامل فكرة القومية ، ومضى الجيش فى بناء الدولة مطمئنا ، لأنه يعتمد على ركيزة متينة تمتد عمدها الى كل فرد فى الأمة ، وبذلك ضاع حلم أمان الله وطواه النسيان ، ذلك الحلم الذى أوحى لأمان الله أنه يستطيع انشاء دولة قومية متحررة من الدين •

حتى القضاء على الخلافة فى تركيا لم يكن فى مبدأ أمره عملا

موجها ضد الاسلام ، فلم يقصد الوطنيون فى تركيا الذين أسسوا الجمهورية — بالغاء الخلافة الذى أعلنه كمال أتاتورك — العداء للاسلام ، ولم يخطر ببال أحد من الأوساط الوطنية أن ذلك معناه الالحاد أو محو الاسلام من تركيا ، بل هو أمر أملته الظروف وحاكه الدهاء السياسى .

فبعد ما حصـل الجيش التركى بقيـادة كمال أتاتوك — القائد المنتصر — على النصر الحاسم فى ميدان القتال ، وأمن بذلك استمرار قيام تركيا كدولة ، اعتقد القوميون الأتراك أن الأسرة العثمانية المـالكة التى مازالت تحكم البلاد لم يعد لها الحق فى البقاء على رأس الدولة الجديدة ، ولهذا حصلوا على قرار من البرلمـان التركى بفصل الخلافة عن السلطنة ، والغاء السلطنة بناء على فتوى صدرت من أعلى سلطة دينية فى البلاد ، وبهذا « التكتيك » تفادى الوطنيون صراعا مع القوى الدينية — فالقرار موافق لفتوى أفتى بها شيخ الاسـلام — وكذلك مع محمد السادس انتزعت منه السلطنة لأنه رضى بوضعه الجديد الذى يحفظ له الهيبة والشرف كخليفة ، ولم تحدث الخطوة الحاسمة الا عند ما عارض اتجاه القوميين وهرب — محمد السادس — الى معسكر الانجليز ، وأصبح بهذا العمل عدواً للوطنيين لانتمائه الى أعداء البلاد ، وخارجا عن الحدود الاسلامية ، لأنه مال الى صف غير المؤمنين « الكفار » وسرعان ما استصدر الزعماء فتوى أخرى بخلعه من الخلافة ، وولوا مكانه عبد المجيد ، وأنذروه ألا يتدخل فى شئون البلاد . فليس له الحق فى ابداء الرأى فى المسائل التى تتعلق بالشئون الداخلية للدولة ، فسلطة الخلافة تتعدى حدود تركيا الجديدة ، ولكن المؤتمر القومى التركى يرى من الضرورى جداً ، ومن المسائل التى لا تحتمل التأجيل : الوصول الى قرار حاسم للمشكلة المتعلقة بالدول التى تخلف تركيا فى المنطقة العربية ، وذلك محافظة على كيان الدولة التركية الجديدة ، وتأمينا لوجودها ، وكان اتجاه المؤتمر هذا نابعا من حرصه على عدم اثقال كاهل الدولة الفتية بالتورط فى مسائل عالمية .

ترتب على فصل السلطنة عن الخلافة ، فصل بين الدين والدولة ،

ويبدو أن الظروف حتمت هذا الاجراء ، فاتجهت اليه نية القائمين على السلطنة لأنهم رأوا أن ربط سلطة الخليفة — التى هى فوق الدولة — بشخص يملك فى يده زمام الحكم يمكن أن ينشأ عنه نزاع ومصادمات لا يعلم أحد مدى أثرها على الدولة ، كذلك كان الفصل محواً تاماً لسياسة عبد الحميد الرامية الى الوحدة الاسلامية التى لم تجد لها صدى حقيقيا ، لأنها كانت أقرب الى الأهداف السياســية وأطماع الســلطة منها الى الاسلام ، ورغم هــذا التغيير الذى أحدث فصل الخلافة عن السلطنة ، فقد كرر كمــال أتاتورك القول بأن تلك الخطوة لا يقصد بها العمــل ضد التعاليم الاسلامية ، وأكد مرارا حسن نية القائمين على الحــكم بالنسبة للأمور الدينية ، بدليل : أن قرار الفصل بينهما لم يتخذ الا بعد موافقة رجال الدين ، وأنه قد صدرت منهم فتوى دينية بذلك قبــل أن يوافق المؤتمر القومى • كان القضاء على الخلافة فى نوفمبر سنة ١٩٢٢ أمراً اقتضته الظروف ، كذلك فقد ثبت أن الأوساط السياسية الرجعية يرون فى شخص الخليفة أملا يراودهم فى عودة قيام المملكة العثمانية ، وربطوا امكانية رجوع سلطانهم بوجود الخليفة ، لذلك اشتمل قرار نفى الخليفة على طرد كل الرجال من أسرة العثمانيين ، مما يدل على أن هذا التحرك السياسى الذى اتخذته الحكومة رد على مؤامرة مع آل عثمان • وقع خلاف بين قادة الدولة ، ورجال الدين ، تطور بمرور الأعوام الى دعوة متطرفة ، للتحرر من الدين ، وصاحب تنفيذها عنف وقسوة ، ولم ينشب هذا الخلاف نتيجة القضاء على الخلافة، بل له أسباب أخرى :

١ — تعاقد فريق من العلماء — منذ قيام الجمهورية — سرا مع الأسرة المــالكة على مناوأة الجمهورية كوضع سياسى للدولة ، واستمر موقفهم هذا أعواما مما جعل بوادر المصادمة بينهم وبين القوميين تقترب يوما بعد يوم •

٢ — فى ١٥ يونيو سنة ١٩٢٦ م اكتشفت مؤامرة لاغتيال « كمال أتاتورك » واتهم فيها سياسيون من الأوساط الرجعية ، وعدد من رجال الدين غرر بهم •

وبعد اكتشاف هذه المؤامرة انفجر الصراع بين « كمال أتاتورك » ، وبين رجال الدين أى الداعين الى الاسلام ، ولم يذهب أثر هذا الصراع حتى اليوم .

وهكذا تطورت الأحداث فى تركيا متجهة وجهة غير اسلامية ، ودفعها الى ذلك عدد من المحاولات التى جانبها الحظ ، فتعثر قيام علاقة ودية بين القوى القومية ، والاتجاهات الدينية ، وفسد المناخ الذى يساعد على تبادل الآراء بينهما ، وأصبح التحالف مستحيلا فى وقت لعب فيه مثل هذا التحالف دورا حاسما فى العالم الاسلامى ، وبذلك انعزلت القومية التركية — أيضا لأن دعوتها الى التحرر من الدين كانت عنيفة — عن باقى الحركات الوطنية التى قامت فى العالم الاسلامى ، وأصبحت فريدة فى منهجها وسياستها ، فخرجت عن أن تكون مثالا لتلك القوى التى يتكون منها البناء الجديد للشرق الاسلامى . رغم هذا المنهج الذى سلكته الحكومة التركية ، فلا زال حتى اليوم فى تركيا مراكز قوى ذات ثقل لدى الشعب ، تهتم بالدعوة الى عودة الدين الى الحياة السياسية ، مما يدل على أن القومية لم يخل لها الجو بعد ، وما فتىء التطور التاريخى سائراً فى طريقه لم ينته من هذه الحقبة التاريخية، فالمعارضة الداخلية — ضد النظام الداعى الى التحرر من الدين — لم تزل أقوى مما قدر لها المراقبون ، وتتمتع الآن بقوة لم يتوقعها أحد .

اذا صرفنا النظر عن المثال التركى المنفرد ، فلا تمثل القومية الاسلامية بأى حال من الأحوال مشكلة قومية بالمفهوم الأوروبى ، اذ هى قوة ذات أثر فعال فى بناء وحدة المصير الاسلامى الذى يشعر الشعوب الاسلامية بأنهم جبهة واحدة على الصعيد السياسى ضد الاستعمار الغربى ، وفى مجال الدين ضد المسيحية [1] . وانعقد تحت لوائها — أى

(١) هذا فهم خاطىء من المؤلف فان الاسلام ليس معاديا للمسيحية ، بل ان المسلم لا يكون مسلما الا اذا اعترف برسالة المسيح عليه السلام ، وبأن امه مريم قد اصطفاها الله وطهرها واصطفاها على نساء العالمين حسب نص القرآن الكريم . ولكن القومية الاساسية تعادى الاستعمار سواء اكان غربيا مسيحيا أم شرقيا الحاديا . ( م . ش ) .

القومية الاسلامية — تحالف القوتين : الدينية والقومية ، وبدأ بهذا التحالف حقبة جديدة فى تاريخ الصراع بين الشرق والغرب حقبة يتخذ فيها الشرق مرة أخرى موقف المهاجم •

*** 

اتحدت القوى القومية مع الاتجاهات الدينية فى العالم الاسلامى ، وكان تأثير الروح الدينية عليها متفاوتا بين قطر وآخر ، قلة وكثرة ، غير أن الأقطار كلها يجمعها طابع واحد ، ألا وهو تجميع الاتجاهات الوطنية فى اطار القومية الاسلامية ، وهذا يتطلب مزيدا من التكاليف واستمرار العمل المشترك فى كل مجالات الحياة ، فهو التقاء يبعث الروح الجماعية بين الشعوب الاسلامية — من مراكش حتى حدود الهند والصين — ويحيى فيها الشعور بوحدة المصير الذى يحتم على المسلمين التجمع حول رباط شرقى اسلامى •

ويتلقى الشعور بوحدة المصير — الذى بعثته القومية الاسلامية فانتشر بين المسلمين انتشارا واسعا وسريعا — طاقته السحرية ، وقوته الجبارة من مكة ، من تلك المدينة التى أطلق عليها ذات يوم « قلب الاسلام » ، بينما عرفت القاهرة بأنها : رأسه ، والقسطنطينية بأنها : يـــده •

هنا فى مكة يجتمع المسلمون — من كل أرجاء العالم — مرة فى السنة أثناء الحج الأكبر ، يلتقون مع بعضهم ، بعد أن يطرحوا عنهم كل أثر أجنبى خارج المنطقة الحرام المضروبة حول مكة ، ينسون قومياتهم وأوطانهم ، ويتذكرون فقط حقيقة واحدة • أخوة فى الله ، تجمعهم عقيدة واحدة ، وكتاب واحد ، ليس للفوارق الاقليمية مكان بينهم ، وهم يد على من سواهم •

فمكة هى المحل الذى يشعل العاطفة الدينية فى المسلمين ، ويبعث فيهم روح تعاليم كتابهم المقدس ( القرآن ) ، وهى مركز الاشعاع الروحى والفكرى ، حوله تحوم أفكارهم ، ثم تنبعث قوة محركة لكل

الطاقات فى أرجاء العالم الاسلامى . — وليس من السهل على غير المسلم أن يفهم هذه الخاصية الفريدة من نوعها فى العالم ، رغم أنها موجودة ومشاهَدة فى كل جوانب الحياة — فتبعث الوعى والادراك بوحدة المصير فى هذا العالم الذى يعيش فيه أكثر من ٢٥٠ مليون نسـمة [١] .

ان أقل ما يجب على المسلم ازاء هذا المكان المقدس أن يقوم بزيارته مرة فى العمر ، ليؤدى فريضة الحج ، وتكليف المسلم بهذا الفرض ليس له طابع الاجبار ، فكل مسلم يتمنى أن تتيح له الظروف تحقيق هذا الأمل ، بل يستولى الحنين الملىء بالمشاعر الفياضة ، على أعداد لا حصر لها من المسلمين لتأدية هذه الفريضة ، ولا يهدأ له بال ، ولا يرتاح ضميره الا اذا قام بزيارة هذا البلد الحرام — مكة — هذا الحنين الى مكة والتدافع اليها — الذى ينساق اليه الانسان تحت تأثير نداء داخلى ويضحى فى سبيل الوصول الى اجابة هذا النداء بتضحيات جمة ، مالية وغير مالية وهذه الظاهرة موجودة لدى جميع مستويات الشعب — دليل على حيوية الاسلام وقدرته على تحريك أتباعه ... دليل على وحدة الروح التى تسرى فى العالم الاسلامى — الذى يعيش فيه مختلف الأجناس دون أن يكون هناك صراع بسبب اللون أو النسب — فتمسك وحدته برباط متين وتمده بالحياة ليصارع آفات الفناء التى تحوم حوله .

فى السنوات الأخيرة اندفعت موجة التجديد فى العالم الاسلامى ، وقابلها نمو أعداد الحجاج باستمرار ، اذ تدل الاحصائيات على أن عدد المسافرين الى مكة يزداد باضطراد ، وتأخذ هذه الأعداد الكبيرة طريقها الى مكة — فى شهر رمضان — لتقضى الأيام الدينية المباركة هناك حول الكعبة ... تلك الأيام — التى يجتمع فيها أناس من مختلف القارات فتسمو فيها روحهم وتصفو قلوبهم ويشعرون بالمشاركة الوجدانية — تزداد أهميتها عاما بعد عام فى احياء روح الاخوة بين المسلمين ، وتقديم

---

(١) بلغ عددهم الآن أكثر من ٤٠٠ مليون مسلم . (م . ش) .

فرص اللقاء لهم ليتشاوروا فيما بينهم حول ما يجب اتباعه فى أقطارهم حتى يلتقون على طريق واحد • وكان لقاء عام ١٩٣٧ ذا أهمية بالغة ، اذ اشتركت فيه دولة اسلامية تتمتع بمركز اقتصادى هام ، بعد أن انقطعت عنه سنين طويلة ، نتيجة النزاع مع ابن سعود ، تلك هى مصر التى أرسلت فى رمضان بحجاجها ، وبعثت العطاء والصدقات ، وعندما احتفل فى مكة بعودة العلاقات بين الدولة السعودية ومملكة النيل ذات الثراء الوفير ، ظهرت مصر بمظهر السخى بما دفعته من حصتها المفروضة عليها ، وأبدت روح التعاون والتآخى فاق ما يكتب على الورق من بنود الاتفاقات الدولية •

تحت سماء مكة — المدينة المحرم على غير المسلم دخولها — وحول الكعبة التى يقصدها المسلمون كل عام ، يتآمر ذلك العالم المنطوى على نفسه فى هذا المكان ، المتلهف على الوقت الذى يستعيد فيه عصره ••• يتآمر ضد أولئك الذين لا يجوز لهم دخول هذه المنطقة • ويمكن للمرء أن يتخيل أن فى هذه المدينة المغلقة أمراً يدبر وحيلا سياسية تحاك ، وقرارات ذات أهمية للعالم البعيد تتخذ ، وأن المجتمعين خلف الكواليس لا يتناولون فقط بحث المسائل الدينية فى العالم الاسلامى ، بل يناقشون مشاكلهم السياسية •

اذا لم تكن هذه هى الحقيقة فلم تنبعث من أرجاء مكة تيارات سياسية لها أثرها العميق فى العالم الاسلامى ، فلا أقل من أن تلعب هذه المدينة دورا غير مباشر فى توجيه الجو السياسى ، اذ الشعائر الدينية التى تقام فيها تطبع المسلمين بطابع خاص يدور فى جوهره حول التشدد فى عداء البلاد الغربية ، والوقوف فى وجه الاستعمار الأوروبى ، ولكن سيد الجزيرة الحالى — ابن سعود — ملك الحجاز الذى تدين له المدينة بأمنها ورجوع هيبتها ومكانتها اليها — أذكى وأكثر دهاء فى الدبلوماسية من أن يسمح بأن تتخذ المدينة مكانا لتدبير المؤامرات السياسية ، أو أن تحاك مؤتمرات عدائية داخل منطقة النفوذ الدينية ، لأن مثل هــذه

الأعمال يمكن فقط أن تضعف الوحدة الاسلامية ، أو تعكر صفو الجو الذى ينبغى أن تخلق فيه •

فمنذ انعقاد المؤتمر الاسلامى فى عام ١٩٢٦ الذى دعا اليه ابن سعود لمناقشة مسألة الخلافة ، فكر « ابن سعود » — فشل المؤتمر وخيب آماله — جديا أن يبعد الاجتماعات السياسية عن الأماكن الدينية — أى عن مكة — ، لأنها غالبا ما تطرق المسالك الوعرة ، وتضفى على الناحية الدينية ضبابا ، يحجب صفاء العلاقة الأخوية ، بين الحكومات الاسلامية ، وبهذا بعدت مكة ، وتغير طابعها كمنبع تخرج منه أيضـاً التيارات السياسية •

لم يمنع هذا الاجراء — الذى اتخذه ابن سعود بابعاد المؤتمرات السياسية عن مكة — حدوث اللقاءات السياسية بين قادة الشعوب الاسلامية فى حرم هذه المدينة ••بل زاد الشعور بضرورة اللقاءات الفردية بين زعماء المسلمين ، وشهدت دروب مكة ووديانها — مرارا وتكرارا — معالم التفاهم والتقارب بين أتباع الاسلام من جميع أنحاء العالم • ومن هذه اللقاءات وذلك التقارب نما على أرض مكة — أثناء موسم الحج — شعور بضرورة اقامة ترابط اسلامى بينهم ، يثبت وجوده بالعمل الجماعى على مسرح السياسة ، والتآزر ، والتكاتف فى المسائل الدولية ، حتى يستطيع العالم الاسلامى أن ينتزع لنفسه مركز القوة العالمية •

وعن طريق نمو هذا الشعور وزيادة وضوح الغد المرتقب أمام عين المسلم ، وانتقال هذا الأمل من اللاوعى الى الوعى ، خلقت الافتراضات الفكرية المسبقة ، وتبلورت فى الذهن الأفكار اللازمة لدفع الأمة الى بناء قوة عالمية ••• أفكار كان لها أثر كبير فى خلق التعاون بين الأقطار الاسلامية ، فى مجالات السياسة والاقتصاد ، فالدول الاسلامية — رغم أن بعضها لم يتمتع بعد بحرية كاملة — نظمت أمورها على أساس رسم خطط جماعية ، وتعضيد سياسى فيما بينها ، ويسير ذلك بعيدا عن مكة ، أى بعيدا عن المحيط الدينى الذى يبدو للعالم منترمتا ، ولكن فى مكة تحفر الشعائر الدينية — التى يؤدونها جماعة فى ساحة الحرم — فى ذهن

المسلمين — ومنهم القادة — أخاديد يخضعون لها فى أعمالهم ، وتوجههم الى الطريق الاسلامى المشترك فى أوطانهم . وبذلك تهيأ العقول للعمل الجماعى فى الأمور السياسية ، والاقتصادية ، وتوجه الى ميدان المصالح المشتركة ، وهنا يلتقى الدين بالدنيا ، وتصبغ التعاليم الاسلامية كل عمل فى الدولة — فتحول دون وقوع الثنائية فى التفكير التى ظهرت فى أوروبا حيث أقصيت المسيحية اقصاء تاما عن مجال التوجيه فى الدوائر الحكومية — عن الدولة .

ومن الطبيعى كذلك أن مكة مكان تلتقى فيه الشخصيات البارزة فى العالم الاسلامى ، ويحدث فيه التعارف بين القادة من كل الأقطار الاسلامية ، فيتناولون فى أحاديثهم شئونا سياسية ، ومسائل اقتصادية فتتضح لهم معالم الطريق ، وترسم أمامهم الخطط ، التى تأخذ طريقها الى التنفيذ فى المقابلات السياسية التى تعقد فى مكان آخر غير مكة ، وهكـذا تحمل لقاءات مكـة — التى هى فى أصـلها اجتمـاع دينى — ثماراً تمد العاملين فى مناطق الحكم والتوجيه ، بغذاء دينى يطبعهم بالطابع الاسلامى . لقد فقد وطن الاسلام الأول مركزه كنقطة تجمع سياسى ، ومكان لعقد المؤتمرات التى تعنى بشئون الحكم . ولكنه — رغم هذا — لم يزل مكانا تتفاعل فيه الأفكار فتنتج الوعى والادراك بتبعيتهم جميعا للاسلام ، فينصرفون الى أوطانهم عاقدين العزم على مساندة بعضهم فى جميع شئون الحياة ، ويرجع الفضل فى أن مكة تلعب هذا الدور اليوم ، الى ذلك الرجل الذى يشار اليه — أكثر من مرة — الى أنه أعظم رجل مسلم فى العصر الحاضر ، وهو « ابن سعود » وسيسجل التاريخ : أن من حسنات ذلك الرجل أنه أعاد الأمن للحرم ، وما حوله ، وشدد الحراسة على الأماكن المقدسة ، والطرق المؤدية اليها ، فخلق لكل المسلمين الجو للقاء آمن . الى أقصى ما يتصوره الانســان ، من متطلبات الأمن على النفس والمـال .

* * *

انصهرت فى مكة خطط ومشروعات ، ونبعت من الشعائر الدينية

التى تقام فى حرمها موجات سرت فى كل أرجاء العالم الاسلامى ، فهناك — فى مكة — دارت مناقشات حول اعادة الخلافة ، التى ألغاها البرلمـــان التركى فى عام ١٩٢٢ • ولكى نتعرف على أهمية مثل هذه الخطط التى خرجت من مكة ، وعلى مدى تأثيرها فى العالم الاسلامى ، يجب أن نلقى الضوء على وضع الخلافة فى العالم الاسلامى ، ونبين مدى القوة التى تتمتع بها فى نفوس المسلمين ، فكلمة خليفة ، معناها وكيل ، أو ممثل ، أو نائب ، فكان النبى [ ﷺ ] يولى من يخلفه على المدينة اذا خرج فى غزواته ، وكان هذا الوالى يقوم بمهام النبى [ ﷺ ] فى غيابه ، من امامة للصلاة ، ورعاية المسلمين فى مدينة النبى [ ﷺ ] ، وشبيه بهذا الظرف تعيين خليفة للنبى [ ﷺ ] بعد موته ليرعى أمور المسلمين : تأمينا لاستمرار نشر الدين ، وحفظ كيان الدولة السياسى ، وكان يشترط فى خليفة النبى [ ﷺ ] أن يكون متمتعا بصفات تمكنه من القيام بما كان يقوم به النبى [ ﷺ ] من تنظيم شئون الدولة ، ورعاية المسلمين • وبمعنى أوضح : تكون طبيعته أقرب الى طبيعة النبوة ، غير أنه لم يؤثر عن أحد من خلفاء النبى [ ﷺ ] أنه ادعى هذا الحق اطلاقا ، ولم يدعوا أنهم يملكون عبقرية النبوة ، وبالتالى لم يضع أحد من الخلفـــاء المتأخرين نفسه هذا الموضع ، بل لم يحاولوا من قريب أو بعيد أن يحملوا الناس على الاعتقاد بقدسيتهم ، أو بأن فيهم صفات نبوة ، فبعد انتقال النبى [ ﷺ ] الى الرفيق الأعلى قام الخليفة الأول : بعمل الأمور الواجبة التى كان يقوم بها من يوليه [ محمد ﷺ ] امارة المدينة ، عنـــدما كان يخرج الى الغزوات — وساس — هو ومن بعده — المجتمع الاسلامى اداريا • ولكنهم — كلهم — لم يستطيعوا — ولم يكن لهم الحق —اطلاقا أن يسنوا قوانين جديدة ، أو يبشروا برسالة خاصة بهم ، أو يدعوا أنهم يؤتون الوحى من السماء •

وهكذا انحصر عمل الخلفاء فى ادارة المجتمع الدينى ، وبناء عليه نستطيع أن نطلق عليهم كلمة « مديرو المجتمع الاسلامى » • اتسع هذا المجتمع ، وانتشر الاسلام شرقاً وغرباً ، فأصبح لزاما على الخلفاء أن

يباشروا سلطانهم على هذه الدولة المترامية الأطراف كحكام ، لأنهم اعتقدوا [١] أن محمداً [ ﷺ ] لم يؤسس ديناً فقط ، بل أسس دولة شملت كل ما يعرف للدولة من نظم :

١ — أقام جيشاً قوياً ، ودربه وسلحه وأعده اعداداً كاملا ، ليدافع عن الدين الجديد ، وليفتح به الأقطار ليتمكن من نشر دعوته فيها [٢] •

٢— كان محمد [ ﷺ ] حاكم هذ الدولة ، والمشرع لها [٣] •

٣ — رسم لأتباعها طريقهم فى الحياة الدنيوية الذى يوصلهم الى نجاح فى الحال ، وفلاح فى المـآل ، فهو يتمتع بالسلطة الروحية ، والدنيوية •

غير أن الخلفاء لم يكن لهم سوى السلطة الدنيوية ، فهم ينفذون ماشرعه النبى [ ﷺ ] ويضبطون أمور الدولة طبقاً للشريعة الاسلامية ، لم يمارسوا فيها سلطة فردية ( أوتوقراطية ) ، ولم يتمتعوا بمكانة روحية عند المسلمين كتلك التى يتمتع بها بابا الكنيسة الرومانية عند المسيحيين ، اذ يحتل البابا المركز الروحى الأول فى الكنيسة ، فقد طبقت الشريعة على الخليفة — حتى فى العصر الذهبى للخلافة — والمسلم الذى لا يحتل أى مركز اجتماعى سواء بسواء ، لا فرق بين عظيم وحقير ، ولابين غنى وفقير ، كذلك لم يكن للخليفة وحده حق التفسير والتأويل ، فالواقع أن معظم الخلفاء — ان لم يكن كلهم — التزموا بالأحكام المستنبطة

---

(١) لم يعتقدوا بأن محمدا صلى الله عليه وسلم أسس دينا بل عقيدتهم ان محمدا رسول الله أوحى اليه ربه برسالة من السماء وأمره بتبليغها **« يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك »** ( المائدة : ٦٧ ) ( م.ش ) .

(٢) لم ينتشر الاسلام بالسلاح ، وفتح الأقطار كما يدعى المؤلف . وانما انتشر بالدعوة الصادقة والحجة البالغة دون اكراه او اجبار **« ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة »** ( النحل : ١٢٥ ) .

**« ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتى هى أحسن »** ( العنكبوت : ٤٦ )

**« لا اكراه فى الدين ، قد تبين الرشد من الغى »** ( البقرة : ٢٥٦ ) .(م.ش).

(٣) المشرع هو الله . والنبى مبلغ لهذا التشريع **« شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا اليك »** ( الشورى : ١٣ ) . ( م . ش ).

من المصادر الدينية ( القرآن والحديث ) دون أن يكون لهم أدنى جهد فى استنباطها ، وبمعنى أوضح • خضع الخلفاء لأولئك الذين قضوا حياتهم كلها فى دراسة فروع الدين المختلفة ( شرحاً وتأويلا ، واستنباطا ) وهم علماء الدين ، وعلى رأسهم المفتى الأكبر [١] ، أو شيخ الاسلام الذى كان الساعد الأيمن للخليفة ، يستفتيه فى مسائل الدولة قبل أن يصدر أمره بالتنفيذ ، اذ كانت الدولة كلها تخضع لفتوى شيخ الاسلام ، حتى الخليفة — وهذا يدل على أن العلماء هم الذين كانوا يتمتعون « بالدكتاتورية الدينية » ( الأوتوقراطية ) لا الخلفاء — فكان لزاماً عليه أن ينفذ ما يستنتجه الفكر من قوانين الشريعة كلما كانت لديه السلطة لهذا التنفيذ •

اذن فعمل الخليفة دنيوى دائماً ، واذا تناول مسألة روحية ، فلا يكون الا من زاوية تنفيذها كمسئول ادارى عن المجتمع الاسلامى ، ولم يحتل — كما ذكر سابقاً — السلطة الروحية كبابا الكنيسة الرومانية — الذى كان له صلاحية السيطرة على العديد من الكنائس روحياً ، وفرض آرائه فى المسائل العقدية التى تتعدى سلطته كانسان ، فكثيرا ما ضرب البابا بآراء العديد من الكاتدرائيات عرض الحائط ، وألزمها « بما يوحى اليه » — ، فلم يحدث فى تاريخ الاسلام أن ارتبط مقام الخلافة بالسلطة المطلقة ، أو بسلطة احداث تشريع جديد ، كما ارتبط ذلك بالبابوية الرومانية •

ويحسن فى هذا المقام أن نورد ما قاله « المــاوردى » أحد علماء المسلمين فى القرن الحادى عشر الميلادى — أى فى عصر ازدهار الخلافة — عن واجبات الخليفة ، قال فى كتابه « الأحكام السلطانية » :

---

(١) لم يكن فى زمن الخلفاء احد يسمى بالمفتى الأكبر أو شيخ الاسلام ، ولم يكن لأحد الحق فى أن يكون رأيه ملزما فى فهم الدين واستنباط أحكــامه وانما يحدث الالزام حين يوجد الاجماع على فهم معين والا فهى اجتهادات فردية غير ملزمة وتصيب وتخطىء ، فليست هناك ديكتاتورية دينية لأحد كما يدعى المؤلف ( م • ش ) •

يجب على الخليفة :

١ — حفظ الدين على أصوله المستقرة ، وما أجمع عليه سلف الأمة ، فان نجم مبتدع أو زاغ ذو شبهة ، أوضح له الحجة ، وبين له الصواب ، وأخذه بما يلزمه ، من الحقوق والحدود ، ليكون الدين محروساً من خلل ، والأمة ممنوعة من زلل •

٢ — تنفيذ الأحكام بين المتشاجرين ، وقطع الخصام بين المتنازعين حتى تعمم النصفة فلا يتعدى ظالم ولا يضعف مظلوم •

٣ — حماية البيضة والذب عن الحريم ليتصرف الناس فى المعايش، وينتشروا فى الأسفار آمنين من تغرير بنفس أو مال •

٤ — اقامة الحدود لتصان محارم الله — تعالى — عن الانتهاك وتحفظ حقوق عباده من اتلاف واستهلاك •

٥ — تحصين الثغور بالعدة المانعة ، والقوة الدافعة ، حتى لا تظهر الأداء بقوة ينتهكون فيها محرماً ، أو يسفكون فيها لمسلم ، أو معاهد دماً •

٦ — جهاد من عاند الاسلام بعد الدعوة حتى يسلم ، أو يدخل فى الذمة ليقام بحق الله — تعالى — فى اظهاره على الدين كله •

٧ — جباية الفيء ، والصدقات على ما أوجبه الشرع نصاً واجتهاداً، من غير خوف ، ولا عسف •

٨ — تقدير العطايا ، وما يستحق فى بيت المال ، من غير سرف ، ولا تقتير ، ودفعه فى وقت لا تقديم فيه ولا تأخير •

٩ — استكفاء الأمناء ، وتقليد النصحاء فيما يفوضه اليهم من الأعمال ، ويكله اليهم من الأموال ، لتكون الأعمال بالكفاءة مضبوطة والأموال بالأمناء محفوظة •

١٠ — أن يباشر بنفسه مشارفة الأمور ، وتصفح الأحوال لينهض بسياسة الأمة وحراسة الملة ولا يعول على التفويض تشاغلا بلذة أو عبادة،

فقد يخون الأمين ، ويغش الناصح ، وقد قال الله تعالى : **« ياداوود انا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله »** (١) • فلم يقتصر الله سبحانه على التفويض دون المباشرة ولا عذره فى اتباع الهوى حتى وصـــفه بالضلال ، وهــذا وان كان مستحقا عليـــه بحكم الدين ومنصب الخلافة فهو من حقوق السياسة لكل مسترع ، قال النبى [ ﷺ ] « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » •

لم تكن مهمة الخلفاء دينية خالصة ، ولا اقتصرت سلطاتهم — حتى فى العصر الذهبى للخلافة — على الناحية الفكرية والروحية ، فالخلافة هى : الواجهة السياسية التى توضح نظرة الاسلام الى الحياة وموقفه من قضية الوجود ، ودعوته فى المجتمع العالمى •

قرر المجلس الوطنى فى تركيا فصل الخلافة عن السلطة ، فطبع بذلك الخلافة بطابع الروحانية وحصرها فى دائرة الســلطة الفكرية الخالصة ، فأصبح مجالها مقصورا على الناحية الروحية ومسائل العبادة ، وهــذه صورة لم تعرفها الخلافة من قبل ، ولم يعهدها المسلمون فى خليفة نبيهم محمد [ عليـــه الصلاة والســـلام ] ولم نقرأ عنهـــا فى تاريخ الاســـلام •

أراد الوطنيون ابعاد الخليفة عن المجال السياسى ، فكرسوا جهدهم لتحويل الخلافة الى فاتيكان « أرادوا فتكنة الخلافة » ولكن المحاولة باءت بالفشل ، لأن الخليفة الجديد — وهو ابن آخر سلطان لتركيا — « المعين » لم يقبل هـــذا التحديد للسلطة اطلاقا ، وعارض اتجاه القوميين الرامى الى عزل الخلافة عزلا كليا عن أمور الدولة السياسية ، وأدى هـــذا الصدام بينه وبينهم الى هروبه من البلاد • ومنذ ذلك الوقت تيتمت الخلافة لأول مرة فى تاريخ الاسلام ••• نعم تعاقبت على الخلافة العديد من الأسر ، وتولاها رجال ضعاف لم يلبثوا فيها طويلا ، اذ كان ينتزعها منهم من عنده القوة والاستعداد لتولى خلافة محمد [ ﷺ ]

---

(١) سورة ص : ٢٦ •

على الأمة الاسلامية ، ولم يكن هـذا المنصب شاغرا قط ••• الا عندما هرب الخليفة من تركيا والغاء الخلافة نهائيا فى نوفمبر عام ١٩٢٤ •

فجر هروب الخليفة موجة غضب فى جميع أنحاء العالم الاسلامى ، لأن المسـلمين اعتبروا هـذا العمل هجوما مباشرا ضد الاسـلام ، اذ لا يقوم بالغاء الخلافة وطرد الخليفة الا حكومة تنصلت من الاسلام ، وجعلت فى يدها سيف العداء للعقيدة الاسلامية ، ورسمت مخططها على أساس محو كل ما يقوم على أساس الدين ، ومحاربة الشخصيات التى تستمد منها الجماهير — ولو ظاهريا — شحنات عاطفية يكون لها تأثير فى المجال السياسى ، ولكن سرعان ما هدأ الغضب وخفتت الأصوات المحتجة على قرار الحكومة التركية ، وكان السبب فى ذلك فتوى خرجت من الأزهر — أكبر مدرسة للعلوم الدينية — تقول : ان ما قامت به الحكومة التركية انبثق من مبدأ لا يتعلق اطلاقا بالمسائل الدينية ، بل بأمر قومى يخص الدولة التركية وحدها •

تجاوز الأمر حـدود مفهوم هـذه الفتوى ، وانقطعت الخطوط الأخيرة التى كانت تصل المسلمين بالقسطنطينية فتنوسيت ، وانصرفت أنظار العالم الاسلامى عنها ، وذلك أن أصحاب الفكر ، ورجال القلم تولوا مهمة تغيير مفهوم الخلافة التركية فى عقول المسلمين ، ذاهبين الى أن سلاطين الدولة العثمانية كانوا — قبل كل شىء — أتراكا ، ولم يكن سلطانهم معترفا به فى كل أنحاء العالم الاسلامى •

خفف هـذا الفهم وطأة قرار الحكومة التركية على الشـعوب الاسلامية ، غير أن كل الدوائر الاسلامية المعتدلة كانت ترى أن الاسلام فقد — بمحو الخلافة من تركيا — رمزا ذا أثر قوى فى الوحدة الدينية والأدبية فى العالم الاسلامى ، ولذا اتجهت الآمال الى اعادة الخلافة بثوب مغاير للخلافة التركية ، وبصيغة غير خاضعة للاقليمية ، بحيث تكون فوق الارتباط بالمصـالح القومية ••• بحث هـذا الاتجـاه فى المؤتمرين اللذين عقدا فى مكة والقدس ولم يحققا نجاحا ، ذلك أن

المؤتمرين اختلفوا واضطرب تفكيرهم اضطرابا كاملا حول الشكل الجديد للخلافة ، وحول شخص الخليفة ، وقد أدىفشل هذين المؤتمرين الى طرح المسألة جانبا ، فأصابها ركود فى مجال الرأى العام فى العالم الاسلامى •

لم تنقطع المباحثات السرية بين الزعماء ، وامتد النقاش خلف الكواليس للوصول الى اتفاق حول عودة الخلافة الاسلامية • وكان ابن سعود من أنشط الشخصيات فى هذا المجال ، فهو — بالنسبة لكونه حاكم مكة — يرى أن واجبه الأول — مجاوزا سلطاته المدنية — العمل على أن يعود للاسلام مجده وللمسلمين مكانتهم ، كما كانوا فى عصر صدر الاسلام ، وذلك لا يتحقق الا بوحدة العالم الاسلامى حول رجل واحد ، أى حول خليفة •

ان من يسيطر على الأماكن المقدسة — مكة والمدينة — تراوده الآمال فى انشاء امبراطورية عربية ••• لا ••• بل خلافة اسلامية ، فقد أسس هنا الشريف حسين — والد الملك فيصل الذى يحكم بغداد الآن — والأمير عبد الله — أمير شرق الأردن ، أول دولة عربية مستقلة ، ألا وهى مملكة الحجاز ، وهو مدين فى قيام هذه الدولة لانجلترا ، فقد قدمت له مساعدات لا يستهان بها لاخراج هذه الدولة الى حيز الوجود ، كذلك اعترفت بها القوى الأوروبية ، فاكتسبت وضعا دوليا •

وانطلاقا من وضعه — كملك للحجاز حيث الأماكن المقدسة — أعلن حسين فى مارس ١٩٢٤ اطلاق لقب الخلافة على نفسه ، معتمدا على سيطرته التامة على اقليم حساس بالنسبة للعالم الاسلامى ، ومعتقدا أن سلطته المدنية على الأماكن المقدسة — وكذلك نسبه — تلعب دورا فى جمع المسلمين حوله ، وبذلك يتحقق حلمه ويصبح خليفة المسلمين المرتقب ، غير أن أبهة الخلافة لم تدم سوى نصف عام ، فقد اضطر « خليفة أوبريت الادارة الانجليزية » — كما سماه أحد المؤرخين الانجليز — أن يتقهقر أمام الهجوم الذى شنه ابن سعود على الحجاز ، فبدأت

بذلك نهاية الوضع الذى لم يعترف به أحد على الاطلاق خارج حدود منطقة الحجاز واختفى حسين من المسرح السياسى ، وتلاشى معه صدى ندائه الى « العالم المتحضر » ، وذهب احتجاجه ضد المجاهدين العرب — الذين آزروا ابن سعود — سدى ، ويفسر المراقبون خذلان العرب والمسلمين حسينا بأن وقوفه — أى حسين — مع الأوروبيين وقتاله فى صفوفهم ضد الباب العالى أحدث ردود فعل لدى الرأى العام فى العالم الاسلامى ، فاستنكره كثير من المسلمين ، وفسره البعض بأنه خروج عن الاسلام ، لأنه قتال فى صفوف الكفار ضد المسلمين •

بعد أن اختفى « حسين » انتقل لقب جلالته الى أكبر أبنائه على ، الذى تغاضى عن لقب الخلافة ، فلم يطلقه على نفسه أبداً مكتفياً بصاحب الجلالة ، الا أن مملكته تقوقعت فى المدينة الساحلية جدة • حاول على الاحتفاظ بجدة ، فنشط فى الدفاع عنها ضد هجمات الوهابيين ، غير أنه اضطر آخر الأمر الى ترك الميدان لابن سعود ، الذى مضى على سيطرته على مكة ما يزيد على عام واحد ، وبذلك استقل الوهابيون بالسيطرة على الحجاز •

راودت الآمال ابن سعود فى أن يبنى مملكة فى الحجاز ، ويسيطر على الأماكن المقدسة ، ليؤمنها ، فينال بذلك مكانة فى العالم الاسلامى ، لذا زحف من الصحراء وخاض قتالا للوصـــول الى تحقيق حلمه فى السيطرة على المراكز الدينية للمسلمين ، ولا يوجد أدنى شك فى أن ابن سعود فكر جديا آنذاك فى الأخذ بأسباب عودة الخلافة الاسلامية بتأسيس خلافة سعودية — لفت الانجليزى «أرمسترونج Armstrong » النظر الى الأهمية الجغرافية للمملكة العربية الكبيرة التى يطمح العرب فى تكوينها وحذر منها أكثر من مرة — الا أنه أدرك أن قيام مثل هذه الخلافة لايكون له معنى ، وليس له قيمة الا اذا لقى قبولا لدى الرأى العام فى العالم الاسلامى ، واعترفت بها مراكز النفوذ السياسى والروحى فى الأقاليم الاسلامية ، وبهذا لم يقع فى الخطأ الذى وقع فيه حسين من قبل حين

أعلن أنه خليفة المسلمين ، اذ أنه بعد سنتين من غزو مكة — أى فى صيف عام ١٩٢٦ م — دعا الى عقد مؤتمر فى العاصمة الدينية مكة — للتشاور مع قادة المسلمين فى طريقة حكم الأماكن المقدسة ، وكان يرمى من وراء ذلك الى انتزاع الاعتراف به حاكما على الحجاز ، وفى نفس الوقت يهيىء الجو لاستطلاع الآراء حول امكانية ترشيحه للخلافة •

فشل المؤتمر فشلا ذريعا ، اذ انفض دون أن يتفق المؤتمرون على رأى ، فبان الملك حجم المصاعب التى تقف فى طريق عودة الخلافة ، وأهمها أنه لا يوجد فى العالم الاسلامى كله شخصية لها من الشهرة والمكانة ما يحمل المسلمين على الاعتراف بها خليفة ••• حتى ابن سعود ، فقد تعرض لهجوم شديد من جانب مسلمى الهند بسبب موقفه هو وأصحابه الوهابيين من مسألة الأضرحة التى أزالوها من مكة والمدينة •

لم يثن المؤتمر سيد الجزيرة العربية — الذى أسس بحفنة من الرجال الأشداء مملكة عربية كبيرة ••• من لا شىء — عن عزمه ، ولم يبعده قيد أنملة عن مخططه الذى رسمه لنفسه للوصول الى مبتغاه ، فقد انتهج فى العشر سنين التالية سياسة دعمت سلطانه وقوت مركزه ، وأكسبته سمعة فى العالم الاسلامى — وان لم تبلغ الدرجة التى تمكنه من الوصول الى مركز الخلافة اذا فكر فى ترشيح نفسه — فانه لو طرحت مسألة الخلافة للمناقشة الجادة فلن يوجد أحد فى العالم الاسلامى ينافس ملك الوهابيين ابن سعود •

حدثت أزمة بين العربية السعودية ، ومصر اثر حادثة وقعت فى عام ١٩٢٦ م — أى فى العام الذى دعا فيه ابن سعود الى المؤتمر الاسلامى السالف الذكر — وظل التنافر والشقاق سنيناً طويلة بين الدولتين ، ذلك أن التعصب الدينى لدى الوهابيين أدى الى صدام بينهم وبين الجنود المصريين ، الذين رافقوا موكب الحج المزدان بمظاهر الأبهة والعظمة « يتوسطه المحمل » — وهو بمثابة هدية ذى قيمة مادية كبيرة تقدمها مصر رمزاً لتعظيم الكعبة — الذى تعلقت به قلوب الحجاج المصريين

وأبصارهم حباً فى الكعبة ، وشوقا الى رؤية الأماكن المقدسة موطن الاسلام ، ومسقط رأس [١] محمد [ ﷺ ] •

••• أريقت الدماء من الجانبين ، ووقعت ضحايا من كلا الطرفين ، وتطورت المسألة الى نزاع دبيلوماسى بين الدولتين ظل محتدما سنين طويلة ، ذلك أنه لم تفكر كلتا الحكومتين فى البحث عن المسئول عن وقوع هذه الأحداث ، ولم تحاول أى منهما التحقيق مع رجالها ومعاقبة من تسبب فى وقوع هذا الصـــدام • أدى هذا الموقف الى توقف تبادل السفراء — أى قطع العلاقات الدبيلوماسية — والاكتفاء بتعيين من يقوم على رعاية مصـــالح احداهما لدى الأخرى ، كذلك امتنعت مصر عن الاشتراك رسمياً فى موسم الحج •

وقف هذا النزاع مدة عشر سنوات حائلا دون التقارب السياسى بين كلتا الدولتين الاسلاميتين اللتين لهما وزنهما فى العالم الاسلامى ، وأقام العوائق على الطريق الذى يسلكه ابن سعود للوصـــول الى الخلافة ، فتعثرت الجهود الرامية الى عودة الخلافة ، وخفتت الأصوات المتحمسة لجمع المسلمين حول تأسيس « مملكة اسلامية » يقوم على رأسها خليفة •

فى أوائل عام ١٩٣٦ بدأت لأول مرة — بعد هذه الخلافات التـــى أدت الى ركود فى بحث مسألة الخلافة — مباحثات جدية بين السعودية ومصر لتنظيف الجو المتوتر بينهما ، ثم استكملت الاتصالات فى خريف نفس العام ، واختتمت بعقد صلح بين الدولتين ، بعد أن استمر نزاعهما عشر سنوات ، وكان لهذا الاتفاق آثار مادية وأخرى دينية ، أما الآثار المادية فقد نصت عليها بنود المعاهدة ، ذلك أن مصر استأنفت القيام بواجباتها ازاء الأماكن المقدسة ، فقد اشتركت رسمياً فى موكب الحج الى مكة ، والتزمت بدفع مبلغ من المـــال لادارة الحرمين : مكة والمدينة ، أما الناحية الدينية فلن يجدها القارىء مسطرة فى بنود المعاهدة ، أى أنه لم ينص عليها لفظا ، غير أن المهتمين بهذه المسائل يلمسونها بل يرونها

---

(١) مكان مولده .

رؤية ترفعها الى درجة اليقين ، اذ أن أثر هذه المعاهدة تعدى محتواها المـادى ، فوضع المعالم على طريق التقارب السياسى بين دولة اسلامية ذات كيان اقتصادى متقدم ، بالنسبة لأقطار العالم الاسلامى ، وبين دولة تملك فى يـدها زمـام الناحية الروحية ، وبذلك تقارب القلب والرأس — كما يقولون — القاهرة ومكة . . . وبتقاربهما أخذ أهم عضوين مكانهما فى هيكل وحدة المصير الاسلامى .

أحرز ابن سعود من وراء هذا الاتفاق مكاسب لا يستهان بها ، فقد دفعت به خطوات واسعة نحو هدف اقامة خلافة فى مكة ، وزاده اقترابا من هدفه أنه تصالح — نوعاً ما — مع أبناء الشريف حسين ، الذى كان عدواً له بالأمس القريب ، تصالح مع ابنيه اللذين يحكمان دولتين متاخمتين له من الشمال ، كذلك أعاد مسلمو الهند — وهم أشد المسلمين حرصـاً على عودة الخلافة الاسلامية ، وأعجلهم فى البحث عن حل لهذه المسألة — النظر فى موقفهم بالنسبة لابن سعود ، دفعهم الى ذلك ما قام به من جهود لاقت رضا وقبولا حسنا عندهم ، وما أحرزه من تقدم سياسى ، قوى مركزه ورفع منزلته ، لدرجة أن زعيم مسلمى الهند على شوكت ، الذى رفض فى مؤتمر الخلافة فى مكة ترشيح ابن سعود لها ، وافق فى عام ١٩٣٦ باسم ٧٠ مليون مسلم فى الهند على قيام خلافة سعودية فى مكة ، وجدير بالذكر فى هذا المقام أن أسلوب ابن سعود فى حكم الحجاز ، وجهوده فى تأمين الطريق الى مكة ، لعب دوراً كبيراً فى تكوين شخصيته لدى الرأى العام فى العالم الاسلامى ، مما جعل كثيراً من الدوائر الاسلامية خارج حدود سلطانه السياسى — أى خارج السعودية العربية — يتعاطفون معه ، ويميلون الى تأييده فى محاولة جمع شـمل الأقطار الاسلامية تأييدا يجعله المرشح الوحيد للخلافة التى ينتظرها المسلمون .

لو تتبعنا الصـحافة الاسـلامية لتبين لنا مدى عاطفة الشعوب الاسلامية نحو الخلافة ، وأنهم يعملون بدون كلل للوصول الى عودتها ، ولكن أى أمل يراودهم فى الخلافة ، وعلى أى صورة يريدونها ؟ يبدو

للمطلع على الفكر الاسلامى فى هذه الآونة ، أن المسلمين يرون فصل الخلافة عن السلطة الدنيوية ، اذ ينبغى أن تكون رمزاً — معترفاً به من الجميع — لوحدة العقيدة ، وعلما للمصير المشترك ، ومناراً تتوجه اليه أنظار كل المسلمين ، ونجما يتلألأ فيكشف بهاء الاسلام ورونقه فى جميع أرجاء العالم ، وينير للمسلمين الطريق لاستعادة مجدهم وسيادتهم على هذه المنطقة الحيوية من العالم ، ويزيد هذا المعنى وضوحاً ما قرأناه فى احـــدى الجرائد العربية — قبل أيام قليلة — من المقارنة بين الوضع الذى ينبغى أن يكون عليه الخلافة المقبلة ، وبين وضع ملك انجلترا ، فقد أوضح الكاتب ، أن الخليفة على رأس العالم الاسلامى يشبه الملك الانجليزى على رأس المملكة المتحدة ، اذ ينبغى أن يكون — أى الخليفة — ممثلا لوحدة تتكون من الدول ، التى تنضم مختارة الى وحدة اسلامية ، وتنظم سياستها مع غيرها من الدول الاسلامية على أساس اسلامى ، وتتحرك دوليا فى اطار دينى أخوى ، وبذلك يكون الخليفة قاعدة لقيام وحدة اسلامية ، أو بتعبير أدق : امبراطورية اسلامية ، وهذا الأسلوب من بناء مثل هذا الاتحاد لا يعرف اطلاقا لغة المعاهدات المكتوبة ، ذات النصوص المقيدة للأطراف المشتركة • اذ أن الشعور بوحدة المصير الذى خلقته الأحداث يستمد قوته فى جمع هذه الشعوب من الاشتراك فى العقيدة الدينية ، التى تصهر شعوب هذه المنطقة فى بوتقة الالتحام ، والتقارب ، والتماسك • وذلك أقوى من الرباط القانونى الدولى المعمول به بين دول العالم • نعم هو أقوى من كل بنود الوثائق المكتوبة والعهود المبرمة • • • وعلى ضوء هذه المقارنة — التى قرأناها فى احدى الجرائد العربية — وطبقاً لـــا يفهم منها ، يلاحظ المرء أن الخلافة سوف تصبح — لو قدر لها أن تعود ثانية — أسلوبا حديثاً لعالم اسلامى أعاد التفكير فى اعتباره الدولى •

* * *

غرست الوحدة الفكرية الاسلامية الشعور الجماعى بين شعوب هذهالمنطقة فنما وترعرع ، وتجاوزت آثاره مجال الحماس العاطفى ،

فظهرت على الصـــعيد السياسى والثقافى ، والاقتصـــادى ، اذ قامت محاولات الاستقلال والحرية ، التى اكتسبت عن طريق العمل الجماعى فى المجالات السياسية ، على درب الكفاح ضد الغرب المستعمر •

ففى عام ١٩٢١ أبرمت أول اتفاقية دولية بين دولتين اســلاميتين هما : أفغانستان ، وتركيا ، لعبت الحكومة الروسية دوراً ايجابياً فى التوصل الى هذه الاتفاقية • اذ بعد ما وقعت المعاهدة الروسية الأفغانية فى فبراير ١٩٢١ م اجتمع وفد المفاوضات الأفغانى فى موسكو مع وفد تركى ، أرسل الى العاصمة الروسية لهذا الغرض ، وأدت مباحثاتهما الى توقيع معاهــدة أفغانية تركية فى مارس من نفس العام ، وكان مقر التوقيع موسكو ، ومن بين ما تنص عليه هذه المعاهدة ما يلى :

١ — اتفق الطرفان على انتهاج سياسة واحدة بناءة ، بعيدة عن كل ارتباط بالبلاد الغربية ، غير واقعة تحت تأثير تياراتها السياسية •

٢ — يكون الطرفان تحالفا يلزم كلا منهما أن يقف بجانب الآخر فى حالة التهديد ، ويحمى بعضـــهما الآخر فى حالة هجوم أى قوة استعمارية غربية على احدى الدولتين المتعاقدتين •

وبهذا تعتبر أول اتفاقية داخل البلاد الاسلامية — جددت فيما بعد مرتين ثم اتفق على ديمومتها فى عام ١٩٢٨ م — أثرت تأثيرا كبيراً ، بدا فى اتجاه الدول الأخرى اتخاذها نموذجاً يحتذى ، وأثراً يقتفى ، ففى نفس العام — بعد الانتهاء من توقيع المعاهدة الروسية الايرانية — وقعت معاهدة مماثلة بين تركيا وايران — ولعبت روسيا نفس الدور الذى قامت به بين أفغانستان وتركيا — قامت بمقتضاها علاقة بينهما تشبه ما بين تركيا وأفغانستان ، وبعد سنتين التقت ايران وأفغانستان على درب التعاون طبقاً لروح كلتا المعاهدتين •

جددت هذه الاتفاقيات عدة مرات فأثرت تأثيراً مصيرياً على سياسة الدول الاسلامية ، وطبعت العلاقة بين تلك الدول بطابع الالتقاء الذاتى ، وحلت مسائل الخلاف فيما بينهم دون تدخل أجنبى ، وأعنى بها تلك

الدول التى مشت شوطاً كبيراً على صعيد التعاون السياسى فيما بينها ، اذ حلت مشاكل الحدود ، وسويت المنازعات القائمة بينها دون وساطة أوروبية ، وبعيداً عن عصبة الأمم ، فقد اشتركت لجنة تحكيم تركية فى بحث مسائل الحدود بين ايران وأفغانستان ، وكذلك بين ايران والعراق ، وكانت أراؤها مقبولة من الجميع •

توطدت العلاقة بين تركيا وايران منذ زيارة الشاه للعاصمة التركية فازداد حجم التعاون بينهما ، واقتربا تقارباً جعلهما يسيران فى خط سياسى موحد ويكونان مجموعة ذات قوة فى هذه المنطقة الآسيوية ، كذلك بعث تجديد المعاهدة بين كابول وأنقرة فى عام ١٩٢٨ م حياة وقوة فى العلاقة بينهما عادت على أفغانستان بفوائد جمة ، فقد أرسلت تركيا خبراء عسكريين للاسهام فى تنظيم الجيش الأفغانى ، كما وضعت كل ما تستطيع تقديمه تحت تصرف الحكومة الأفغانية لبناء النهضة فى جميع ميادين الحياة فى أفغانستان ، وبهذا ظهرت فى الأفق الدلائل الأولى لما هو أبعد من اتفاقية مشتركة معقودة بين البلدين ، وأكثر من المعاهدات المبرمة بين طرفين • • ألا وهو اتجاههما فى خط سياسى واحد ، يبدو للمراقب أنه اتفاق « وحدوى » ، والوصول الى مثل هذا الاتفاق أمل يراود شعوب وحكام هذه المنطقة ، فقد بدأت منذ عام ١٩٣٢ م جهود تركية ايرانية بعقد معاهدة « وحدوية » يدخل فيها العراق أيضاً ، الذى حصل على استقلاله حديثاً ، لكنها اصطدمت بحواجز عاقت سرعتها وحالت دون التوصل اليها سنوات ، تلك هى :

١ — مشاكل الحدود الايرانية — العراقية ، عند شط العرب • حيث يصب دجلة والفرات •

٢ — وضع بغداد السياسى ، اذ كان يتولى الحكم فيها حكومة موالية لانجلترا تسمع لها وتنفذ ما تشير به لندن ، وكانت مصالح الحكومة البريطانية تحتم عليها أن تبذل كل ما فى وسعها لمنع تقارب العراق من مجموعة الدول ، التى كونت جبهة اسلامية قوية فى الشمال ، ووجدت سنداً لها فى موسكو •

وفى عام ١٩٣٧ م زالت هذه العقبات التى حالت دون دخول بغداد فى حلف تلك الدول الواقعة فى شمال غربى آسيا ، اذ فى خريف عام ١٩٣٦ م وقع انقلاب فى العراق وتولى الحكم على أثره حكومة حاولت — أكثر من سابقتها — أن تحرر نفسها من الخضوع للأوامر البريطانية ، فتتحرك خارج الاطار الذى رسم لسياسة العراق بمقتضى الوصاية الانجليزية ، لذا خطت خطوة نحو التقرب من تركيا — وكانت على وعى مما تفعل — بغية خلق نوع من التوازن مع النفوذ الانجليزى .

وكان فى استطاعة لندن أن تقف أمام هذا التحرك ، ولكن دفعها الى السكوت دوافع أخرى ، لقد خلق لها النزاع الأثيوبى توتراً فى البحر الأبيض المتوسط فساءت العلاقات بين انجلترا وايطاليا سوءاً ، جعل انجلترا تتمنى أن تتمكن من اقامة علاقة صداقة مع تركيا ، ومع القوى المتحالفة معها ، كى تبعد أنقره من أن ترتبط مع روما ، لأنه لو فرض أن وقع هذا التحالف — تحالف أنقرة مع روما — لزادت قوة المعارضة لانجلترا فى النزاع الايطالى الانجليزى . ولهذا تركت انجلترا الحكومة الجديدة فى العراق تندفع نحو أنقرة دون مضايقة ، طالما كان الهدف من هذا الوصول الى قيام صداقة تركية عراقية .

أسفرت الجهود عن قيام صداقة بين تركيا والعراق ، وسرعان ما تطورت الى رباط قلبى متين ، وتعاون أخوى صادق ، فانخرط ضباط أتراك فى الجيش العراقى لتدريبه وتنظيم صفوفه ، وتلقى العراق مساعدة اقتصادية من تركيا ، وتقرر تكميل بناء خط بغداد الحديدى — أى من المنطقة التى لم تكمل ، وكانت واقعة فى وسط المسافة تقريباً — كى تربط تركيا بالعراق ، وابتدأ العمل فى وضع القضبان فى المسافة الخالية من الشمال والجنوب فى وقت واحد .

هيأ هذا الجو مناخا لميلاد المعاهدة التى يخطط لها منذ عام ١٩٣٢ م ( بين تركيا وايران والعراق وأفغانستان ) ، وخلقت الظروف الملائمة لعقد تلك المعاهدة « الوحدوية » ، بعد أن لعبت تركيا دور الوساطة فى

حل النزاع بين العراق وايران حول شط العرب ، اذ لم تمض أيام على تسوية هذا النزاع — تاريخها يونية ١٩٣٧ م — حتى وقعت فى طهران — فى ٩ يوليو من نفس العام — معاهدة بين هذه الدول الأربع ، تلك المعاهدة التى أطلق عليها « الحلف الآسيوى » وقد نص فيها على ما يلى :

١ — تحترم الأطراف الموقعة الحدود القائمة بينها ، فلا يجوز تغييرها •

٢ — تتخذ الدول الأربع موقفاً موحداً فى كل المسائل الدولية التى تمس المصالح المشتركة •

٣ — التنازل عن كل عمل هجومى أو الدخول فى أحلاف هجومية ، وعدم تقديم المساعدة للمعتدى أيا كان نوع هذه المساعدة •

٤ — لا يجوز السماح للتنظيمات التى تحتم عليها أيديولوجيتها التدخل فى الشئون الداخلية للدول الأخرى بممارسة نشاطها فى أى قطر من الأقطار الأربعة •

٥ — مدة المعاهدة خمس سنوات ، وتتجدد تلقائيا لخمس أخرى ، اذا لم تبلغ الدول المعنية رسمياً بالرغبة فى تجديدها قبل انتهاء المدة بستة أشهر •

ويدل البند الرابع على الرفض الواضح للاتجاه الماركسى ، اذ ينبغى — طبقاً لهذا البند — حظر قيام تنظيمات شيوعية فى مناطق هذه الدول الاسلامية •

وشبيه بهذا الذى حدث فى المنطقة الايرانية التركية — أى فى المنطقة الشمالية من العالم الاسلامى — حدث فى المنطقة العربية ، فقد شهدت هذه المنطقة صراعاً حاداً سنين طويلة ، وسمعت صدى الخلافات المرة ، تحملها الرياح عبر الحدود بين العربية السعودية ، وبين الدولتين المجاورتين لها من الشمال — العراق وشرق الأردن — حيث ارتقى العرش فيهما — بمساعدة انجلترا — أبناء حسين ، الذين طردهم ابن سعود من الحجاز أمس • ولعبت الدبلوماسية الانجليزية دور

المحرض فى هذا الصراع ، اذ كرست جهودها لتعميقه وتوسيعه ، كى تحافظ على مصالحها الخاصة فى المنطقة ، غير أن انجلترا غيرت موقفها فى الثلاثينات من هذا القرن ، اذ سعى السياسيون فى لندن الى تحقيق توازن من داخل البلاد العربية ، ونجحوا فى هذا ، ففى عام ١٩٣٦ م عقد تحالف على جانب كبير من الأهمية بين العربية السعودية وبين العراق ، وصف بأنه منارة تهدى البلاد العربية الى تكوين اتحاد فيدرالى عربى فى المستقبل ، وترك الباب مفتوحاً لمن يريد الانضمام اليه من الأقطار العربية ، فدخلت اليمن بعد سنة من اعلانه ، نتيجة جهود العراق فى هذا الصدد ، وبذلك تكونت كتلة عربية فى هذا الجزء من آسيا ، وأصبح للعراق مركز دبلوماسى هام ، فهو عضو فى التحالف العربى ، وشريك أيضاً فى مجموعة القوة الايرانية التركية ، وقد أملى عليه هذا الوضع أن يبذل الجهود — وساعدته فى ذلك انجلترا — لتقريب كلتا القوتين الاسلاميتين : مجموعة الدول الأربع المتحالفة فى الشمال : ايران ، تركيا ، أفغانســـتان ، العراق ، ومجموعة التحالف العربى : العراق ، السعودية ، اليمن ، ويعمل عملية التحام بينهما .

فى عام ١٩٣٦ م حصلت مصر على استقلالها بعد توقيع المعاهـــدة المصرية الانجليزية ، فحاولت الانضمام لهذا التحالف الذى سبقتها اليه دول اسلامية ، وشجعها على ذلك تصفية الجو بينها وبين السعودية — تحدثنا عن ذلك سابقاً — ومن الأحداث البالغة الأهمية فى هذا الصدد — بجانب الجهود التى بذلت للوصول الى مصالحة سعودية مصرية — تقارب مصر وتركيا ، ففى خريف عام ١٩٣٦ — بعد أن وقعت حكومة الوفد المعاهدة فى لندن ، وحصلت مصر على استقلالها وحريتها — كلفت مصر ممثلها فى أنقرة ببدء محادثات مع الحكومة التركية ، بغية الوصول الى تصفية الجو بين البلدين ، وتسوية المسائل المتنازع عليها منذ سنين عدة ، وسرعان ما تجاوزت تلك المحادثات الخطوط التى من أجلها استؤنفت ، ووصـــلت الى عقـــد معاهـــدة صـــداقة بين تركيا ومصر فى أوائل عام ١٩٣٧ م . وقبل أن يجف مدادها وصـــل الى القاهرة وفد تركى

لبحث امكانية عقد تحالف عسكرى بين مصر وتركيا ، غير أن هذه المحادثات لم تنجح لأن ظروف الجيش المصرى لم تسمح بمثل هذا التحالف ، اذ أنه كان فى حالة اعداد وتنظيم — ويحصل من أجل ذلك على مساعدة انجليزية — لا تمكنه من القيام بدور ايجابى فى اطار تحالف عسكرى ، ولهذا أجلت المحادثات التى ابتغى بها الوصول الى ترابط مصيرى بين أقوى دولتين اسلاميتين •

لم تحصل سوريا بعد وكذلك شرق الأردن وفلسطين — اللتان ما زالتا تحت الانتداب البريطانى — على هدفها الذى تكافح من أجله ضد الاستعمار الغربى ، ألا وهو الاستقلال غير المشروط بحيث تباشر حريتها السياسية مع المجتمع الدولى ، وعليه فقد ظلت بعيدة عن نظام التحالف والمعاهدات الاسلامية التى تهيىء لوجود وحدة سياسية متكاملة فى العالم الاسلامى ، وليس هناك أدنى شك فى أن هذه الدول — سوريا وفلسطين وشرق الأردن — لن تتوانى فى البحث عن طريق يوصلها الى الالتقاء مع جاراتها ، حتى تجد مستنداً لها بين مجموعتى القوى الاسلامية ، اللتين برزتا الى الوجود فى السنوات الأخيرة ، وسوف تسرع فى الانضمام اذا حطمت حريتها آخر القيود التى تكبلها ، وحقق التنظيم السياسى الجديد فى المنطقة السورية الفلسطينية ثباتا واستقرارا •

أوضحت نظم التحالف الاسلامية ، أن قيامها راجع أساساً الى عاملين هامين :

١ — اشتراك جميع الدول الاسلامية فى مناهضة الدول الأوروبية ، وان تفاوتت مواقفها بالنسبة لدول دون أخرى ، واختلفت نظرة العداء الى الحكومات الأوروبية ، التى تتنافس على توسيع نفوذها فى الشرق •

٢ — تزاحم الدول الغربية بعضها البعض فى الحصول على مكاسب استراتيجية فى هذه المنطقة ، فكل دولة ترسم سياستها على أساس الفوز بمغانم أكثر من غيرها •

فقد تلقت الوحدة الاسلامية ، والترابط السياسى بين الدول التى تدين بالاسلام رعاية من الجانب الروسى ، والانجليزى سواء بسواء ، ذلك أن كلا من روسيا ، وانجلترا كانت تأمل أن تكسب الدول الاسلامية — اذا هى باركت وحدتها ورعت آمالها فى الترابط السياسى — بجانبها ضد الأخرى ، المنافس الكبير لها على ساحة الشرق الاسلامى ، وهكذا أصبح الصراع القديم بين روسيا وانجلترا عاملا هاما فى عودة الارتقاء الاسلامى ، واتجاها حمل معه نفير الانتفاضة الاسلامية ، ولكنه أدى أيضاً فى الوقت نفسه الى ضياع المواد الخام ، الأمر الذى تألمت منه أوروبا على مسرح السياسة العالمية .

* * *

اذا تتبع المرء الصحافة الاسلامية باهتمام ، فسوف تقابله ظاهرة على جانب كبير من الأهمية ، تتمثل فى نشر مثل هذه الأخبار مرارا وتكرارا :

— وصل الى استانبول عميد كلية الطب الأفغانية فى كابول ، للتعاقد مع بعض الأساتذة على العمل فى كليته ، ومن استانبول يواصل العميد رحلته الى أنقرة ، ليشاهد منشآت وزارة التعليم التركية .

— طلب وزير التعليم العراقى من الحكومة المصرية أن ترسل مدرسين للتدريس فى مدارس العراق ، وتلبية لهذا الطلب أرسل ثلاثون مدرسا للعمل فى خدمة الدولة العراقية .

— عينت حكومة الحجاز — عن طريق ترشيح وزارة العمل فى القاهرة — مهندسين مصريين لرصف الطرق ، وسيشرفون على تنفيذ رصف الطريق — الذى وضع مشروعه قبلا — بين جدة والمدينة مارا بمكة .

ربما تبدو هذه الأخبار عادية ، لا تلفت النظر لمن لم يهتم بالتطورات فى هذه المنطقة ، أما الخبراء فيرون أنها — بكثرتها وانتشارها — تحمل طابعا خاصا يشير الى مدى التعاون بين الدول الاسلامية ، اختطته لنفسها

خارج المجال السياسى • وتظهر معالم هذا العمل الاسلامى المشترك فى المجالات الاقتصادية والثقافية ، فقد دأبت مصر وتركيا على ارسال الفائض من حاجتها فى قطاع الثقافة — مهندسين ، ميكانيكيين ، مدرسين ، أساتذة جامعات — الى تلك الدول التى لا زالت مفتقرة الى مثل هذه الأيدى العاملة ، فاستغنت عن الخبراء الأوروبيين الذين كانوا يدعون للقيام بهذه الأعمال •

طورت الدول الاسـلامية — التى قطعت شوطا كبيراً على طريق التقدم الحضارى ، بوأها مركز القيادة فى العالم الاسلامى — مدارسها ومعاهدها العليا ، وهيأت لطلابها مكانا للدراسة يضارع مثيله فى أوروبا ، بحيث انصرف الطلاب عن جامعات أوروبا ، واتجهوا الى اتمام دراستهم فى الجامعات الشرقية ، أو فى المدارس المهنية فى الدول الاسلامية • ان خريجى الجامعات الشرقية يتقدمون اليوم موكب الطلائع التى تمهد الطريق أمام وحدة اسلامية ، فهم يسهمون فى بناء الحضارة والتطور الاقتصـادى فى أوطانهم ، ويؤدون الأعمـال التى كانت وقفا على الأوروبيين • وفى المجال العسكرى تقدم الدول ذات الخبرة فى الشئون الحربية — وعلى الأخص تركيا — ضباطا ، أعدوا اعدادا فنيا للدول المجاورة المتخلفة فى هذه النواحى ، للمساهمة فى بناء جيوشها الحديثة ، وبذل هؤلاء الضـباط جهودا جبارة فى تدريب قوات طعمت بفلول العصابات التى كانت وقود الحروب الأهلية فى هذه المناطق ، وتنظيمها وادخال أحدث ما وصلت اليه التنظيمات العسكرية ضمن برامج تعليمها ، حدث هذا كله فى زمن قصـير نسـبيا ، فقبل ربع قرن كانت الدول الاسلامية — التى عندها اليوم فائض فى الخبراء الميكانيكيين والمثقفين — ميدان عمل الخبراء الأوروبيين والموظفين الأجانب ، ولم يكن لديها معاهد دراسية ، لذا كانت ترسل أبناءها الى المدارس الأوروبية للدراسـة والتثقيف •

ازداد التعاون الثقافى والعلمى بين البلاد الاسلامية ، ونشطت حركة تبادل الخبرات بينها ، فقوى الشعور بوحدة المصير ونمت الرغبة

فى تنسيق العمل فى جميع الميادين ، فالأطباء المسلمون يعقدون مؤتمراتهم الطبية فى عواصم الأقطار الاسلامية على التوالى ، وهو يعقد فى القاهرة الآن ، والمهندسون يجتمعون فى أنقرة . . . الخ . ولكى يدرك المرء مدى التعاون فى تطور المنطقة الاسلامية يكفى أن يلقى نظرة على المشروع الذى أعدته مصر ، فقد وضعت مشروعا للاحتفال بالعيد الألفى لعاصمتها ، نصت فيه على ضرورة اقامة معرض اسلامى كبير تعرض فيه المنجزات الاسلامية ، التى تبين للمسلمين مدى التقدم فى مختلف المجالات ، ويرمى واضعو المشروع من وراء ذلك أن يكون المعرض رمزا للتقارب والتعاون بين المسلمين ، وأسلوبا معبرا عن الشعور بوحدة المصير الذى ساد العالم الاسلامى فى الفترة الأخيرة .

أثر العمل المشترك فى المجالات الثقافية والعسكرية على المجال الاقتصادى ، اذ أصبح التعاون فيه هدفا يسعى اليه الجميع ، وظهر نتيجة لذلك روح اسلامية فى حركة التبادل التجارى ، يلمسها المراقبون فى محاولة رجال المال فى المناطق الاسلامية تسهيل المعاملات المالية عبر الحدود بينها عن طريق عقد معاهدات تتيح لبيوت المال فتح فروع لها خارج حدودها الاقليمية ، فتركيا ومصر — اللتان تعتبران أقوى البلاد الاسلامية اقتصاداً — تجاوزتا حدودهما الاقليمية فى انشاء فروع لبيوت الأموال الوطنية ، فالبنك التجارى التركى « Isch Bankassi » أسس فروعا له فى العراق وفى ايران ، والبنك المصرى « بنك مصر » ساهم فى بيوت المال فى سوريا ، وفتح فرعاً له فى السودان وآخر فى السعودية .

فى جميع الأماكن التى نزل فيها رأس المال الغربى — فيما مضى من الزمن — لتنشيط الحركة الاقتصادية ، وتطوير الامكانات التى تقوم عليها الدعائم الاقتصادية ، ينافسه اليوم — بطريقة واسعة وشاملة — رأس المال الشرقى . وكلما مهد الطريق لرأس المال الوطنى اشتد ساعده وقويت منافسته لرأس المال الأجنبى ، الذى يتكبد بسبب ذلك خسارة فادحة ، اذ تفضل الشركات الشرقية على الأوروبية للقيام

بالمشروعات التى تدر ربحاً وفيراً ، واذا ما اقتضت الظروف تكليف شركة أوروبية بعمل ما ، توضع لها شروط قاسية تمتص ما يدر عليها من أرباح •

فالعالم الاسلامى الذى وقف حتى وقت قريب موقفا ســلبيا من أحــداث العالم ، واتخــذ مكان المســتقبل فى حركة التجارة الدولية والمواصلات العالمية ، يستيقظ اليوم وينشط اقتصاديا ، ويعمل جاهداً على تلبية احتياجاته ذاتيا ، أى يســير على طريق الاكتفــاء الذاتى ، والاستغناء عن رأس المــال الأوروبى ، وعن الخبراء الغربيين أياً كان مجال تخصصهم • لا يستطيع الانسان أن يدرك هذا التغيير ، ولا يمكن أن يستبين له حجم هذا التقدم ، الا اذا نظر الى الوراء قليلا ، وقليلا جداً ، فعرف أنه قبل ربع قرن كان موظف البريد فى المملكة التركية القديمة أجنبيا ، وكان رأس المــال الأوروبى مســيطراً على مجال الاقتصاد فى جميع الأقطار الاسلامية ، تركع أمامه الهامات فى خضوع واستسلام ، وتقدم له الامتيازات فيلتهمها بهدوء ، آمنا من كل عوامل التنغيص ، حتى من النظرات التى ليس لها سوى البريق الذى لا يؤلم •

تنشر الصحف — التى خرجت من تيارات النهضة الجارية الآن فى الشرق — يومياً أخباراً وتحقيقات ، تلقى الضوء على ما يبذل من جهود على طريق التعاون بين الأقطار الاسلامية ، ويحلل المراسلون الأحداث الجارية فى الشرق الاسلامى بروح تشد الشعوب الى الأمل فى قيام وحدة اسلامية ، ولا يملون الكتابة فى شرح العناصر التى تربط بين الشعوب الاسلامية فى كل الميادين ، مما يجعل القارىء المسلم يؤمن بالمصير المشترك بينه وبين أخيه المسلم ، وان تباعدت أقطارهم وتباينت ألسنتهم • وبجانب الصحف تقوم الاذاعة — هذه الوسيلة الحديثة لنقل الأخبار — أيضاً بنصيبها فى تعبئة الرأى العام نحو الهدف المشترك ، فقد قامت لخدمة الشرق الاسلامى ، تجمع شتاته وتصل بين أطرافه لبعث الهمم نحو الهدف المرسوم ، وقد قطعت فيه شوطاً بعيداً تجاوز الحدود الاقليمية ، اذ ترسل الاذاعة التركية برامج يومية باللغة العربية ،

بغية مخاطبة تلك الشعوب بلغتها ، حتى تفهم الأحاسيس المشـــتركة بين الشعبين االذين تربطهما عقيدة واحدة .

بدأ شعار « آسيا للآسيويين » يتحقق فى كل الميادين ، ويمهـد طريق التطور والاستقلال الذاتى . وتحمل الدول الاسلامية هـذا الشعار ، وتتقدم نحو الأمام ، قوية معتمدة على نفسها اعتماداً كلياً ، قاطعة على الاستعمار الغربى كل سبيل ، متصدية لأولئك الغربيين أصحاب الشهوات الاستعمارية ، فى أى طريق سلكوه وأى بلد اغتصبوه .

* * *

# الباب الرابع

# أسس القوة النامية في العالم الإسلامي

# أسس القوة النامية في العالم الإسلامي

عادت الحياة الى طريق المواصلات العالمية القديمة ، فاتصل الشرق مرة أخرى بالتجارة العالمية ، واحتلت الطرق التى تخترق بلاده مركزاً مهماً وحساساً فى شبكة المواصلات العالمية ، ونتيجة لذلك التقى الشرق الاسلامى بالقوى الاستعمارية وجهاً لوجه ، اذ بدأت البلاد الأوروبية فى القرن الماضى تولى وجهها شطر الشرق لتأخذ من ثرواته ما تحتاجه صناعتها ، ولتحتكره سوقاً لالفائض عن حاجتها • وبجانب هذا الوضع الذى أكسب الشرق وضعاً استراتيجياً فى السياسة الدولية ، يوجد لديه عنصران آخران يؤثران تأثيرا كبيراً فى سياسة التعاون بين الأقطار الاسلامية ، الأمر الذى يؤدى به الى أن يصبح غداً قوة عالمية :

الزيادة المطردة فى عدد سكانه ، وما توصلت اليه الأبحاث من أن فى باطن أرضه ثروة من المواد الخام تكفى — كما يقول الخبراء — لقيام صناعة تضارع مثيلاتها فى أوروبا ، بل سيكون لدى الشرق فائضا من المواد الخام يجعله من أولى المناطق المصدرة لها فى العالم ، وهذا — أى الزيادة المطردة فى السكان ، والمواد الخام — هما مصدرا القوة النامية فى العالم الاسلامى •

تشير ظاهرة نمو السكان فى أقطار الشرق الاسلامى الى احتمال وقوع هزة فى ميزان القوى بين الشرق والغرب ، فقد دلت الدراسات على أن لدى سكان هذه المنطقة خصوبة بشرية تفوق نسبتها ما لدى الشعوب الأوروبية ، وسوف تمكن الزيادة فى الانتاج البشرى الشرق على نقل السلطة فى مدة لا تتجاوز بضعة عقود — أى عشرات قليلة من السنين — ، وسوف ينجح فى ذلك نجاحاً لا نرى من أبعاده اليوم الا النذر اليسير ؛ ولكى تتضح أهمية الزيادة فى السكان ، وخطر الخصوبة الطبيعية الكائنة لدى سكان هذه المنطقة ، نورد هنا مثالا يعطى القارىء صورة صادقة لاتجاهات مؤشر الاحصاء السكانى ، ذلك المثال هو مصر •

لأن مصر لديها أعلى نسبة مواليد بين كل شعوب العالم الاسلامى ، ولأن الجهاز الاحصائى فيها يستعمل طريقة ترتكز على أبحاث يمكن الاعتماد عليها فى تعداد السكان ، وهذا يخالف ما يستعمل فى كثير من دول العالم الاســلامى ، اذ يعتمد فيها على التقدير فقط ، وهو ليس صحيحاً دائما •

تقوم مصر بعمل احصاء للسكان كل عشر سنوات ، وقد بلغ تعداد مملكة النيل ( أى مصر ) فى عام ١٩٣٧م ١٥٫٩٠٤٫٥٢٥ نسمة • هــذا عدا سكان البدو الذين يعيشون فى الصحراء — فهم لم يدخلوا فى الاحصاء — ويقدرون بحوالى ٥٠٠٫٥٠٠ نسمة تقريبا • ويبين هذا التعداد أن عدد سكان مصر زاد حوالى ١٫٧ مليون نسمة فى الفترة من ١٩٢٧ م حتى ١٩٣٧ م • وكانت تقديرات الخبراء لهذه الزيادة — بناء على الزيادة التى وقعت فى الفترة من ١٩١٧ — حتى ١٩٢٧ م — ١٫٥ مليون نسمة فقط ، أى أن الفرق بين تقدير الخبراء والواقع هو زيادة ٢٠٠٫٠٠٠ ، ومن هذا يتضح أن عدد سرعة زيادة السكان فى مصر يعدو عدواً نحــو الارتفاع •

بلغت زيادة الســكان فى مصر فى العشر ســنوات من ١٨٨٧ حتى ١٨٩٧ م ســنويا ١٫٦٦٪ من مجموع الســكان ، وفى الفترة من ١٨٩٧ م حتى ١٩٠٧ م انخفضت هذه النسبة الى ١٫٥٢٪ ، ثم توالى الانخفاض فى الفترة التالية من ١٩٠٧ م حتى ١٩١٧ م فبلغت ١٫٣٢٪ ، ووصلت فى الفترة من ١٩١٧ م حتى ١٩٢٧ م ١٫٠٧٪ سنوياً ، ثم تبع ذلك تغيير مسار مؤشر التعداد ، وتحرك الى الارتفاع بعد أن ظل خمسين عاماً ينخفض شيئاً فشيئا ، ويشير احصاء ١٩٣٧ أن عدد السكان فى الفترة التى تلت ١٩٢٧ — حيث جرى آخر الاحصاءات التى كانت تبين انخفاض الزيادة عاما بعد عام — ارتفع بمعدل ١٫١٤٪ سنوياً من مجموع السكان •

بعد نشر احصائية عام ١٩٣٧ م علق سياسى مصرى ممن يهتمون بتعداد السكان على دراسة التقديرات ، التى يمكن أن يصل اليها عــدد

السكان فى مصر على ضوء هذه الاحصائية ، وأوضح نتائج دراسته بعملية حسابية لبنى وطنه ، لكنهم قابلوها بدهشة واستغراب . أفصحت عن خلو ذهنهم من هذا النوع من الدراسات ، وعندما طرح هذا الرجل بعض المشاكل المتعلقة بهذا الأمر ، مثل مشكلة التعليم — وهى من أعقد مشاكل زيادة السكان فى الشرق الاسلامى — نظر اليه الشعب مأخوذا ، كما لو كان الرجل يقف على خشبة مسرح ، ويقدم بالأعداد الرياضيـة ألعاباً سحرية ، ولو تدبر المرء الأمر لأدرك جدية هـذه الدراسات التى سوف تخلق جواً مقبضا ، عندما تجاوز هذه الأرقام الرياضية المجال النظرى ، ولن يكون ذلك مقصورا على مصر وحدها بل العالم الاسلامى كله .

بينما يعكف الباحثون فى أوروبا على دراسة الظواهر التى تشـير الى الانخفاض المستمر فى عدد السكان ، ويحاولون تبديد التشاؤم الذى سببته نتائج دراسة احصائيات تعداد السكان ، حيث تبين متى تختفى الأمة ، بينما الحال هكـذا فى أوروبا ينشر السياسى المصرى المهتم بالمشاكل السكانية أن تعداد مصر — اذا استمر معدل هذه الزيادة فى الاضطراد — سيبلغ بعد ٦٠ عاماً حوالى ٣٢ مليوناً ، أى أن العـدد سيكون ضعف العدد الحالى — حسب احصائية ١٩٣٧ م — ، وبعد مائة سنة سيزداد سكان وادى النيل — أى مصر — الى ٤٩٫٦ مليون نسمة ، وبعد ٣٠٠ سنة حوالى ٥٠٠ مليوناً ، وبعد ٤٢٥ سنة حوالى ٢ ملياردا ، أى أنه سيكون فى مصر أعداد من البشر تساوى ما هو موجود الآن على ظهر الأرض ، وسيصبح فى مصر فى مدى ٩٦٨ سنة — أى أقل من ألف عام بقليل — أمة تعدادها ٩٧٣ مليardا من البشر ، أى أنها سوف تنمو بشريا الى درجة لا تمكنها فقط من استعمار الكرة الأرضية ، بل من استعمار أعداد من الكواكب السيارة الأخرى .

ان لهذه الأرقام الرياضية — التى يسخر منها كثير من المصريين —دويا فى الرأس يسبب لأصحاب الرأى دواراً ، ويبعث فيهم القلق خوفاً من المسـتقبل ، رغم أنها لا تحمل مفهومـاً عملياً ، اذ هى — أى العملية

الرياضية السابقة — أبعدت القواعد الطبيعية للحياة ، فلم توضح برسم بيانى نسبة الزيادة والنقصان السكانى فى اطار القواعد الرياضية • ومهما كان الأمر فان الـ ٤٩ مليوناً من البشر المتوقع وجودها — طبقا لهذا الحساب — فى مصر عام ٢٠٣٧م — أى بعد مائة سنة — تدعو الى التفكير العميق والتخطيط البعيد المدى • أن الاضطراد فى زيادة عدد السكان يخلق مشاكل لا حصر لها ، ويبذر بذور القلق فى مسارات السياسة الدولية ••• ولا يقتصر ذلك على مصر وحدها ، بل سيوجد أيضا — مع اختلاف بسيط — فى الشرق الاسلامى كله • ويتوقع المراقبون أن تكون هذه الظاهرة احدى نقط انطلاق النزاع بين الشرق والغرب ، وهذا أمر على جانب كبير من الأهمية ، فمائة عام — وهو الزمن الذى قدر لبلوغ تعداد مصر ٤٩ مليونا — زمن قصير فى حياة الشعوب ، وفى سجل التاريخ •

تحتل الأمة المصرية المركز الأول بين الأمم بالنسبة للزيادة المطردة فى السكان ، والمركز الأول أيضا فى نسبة عدد الوفيات ، فقد أثبتت الدراسات التى أجريت فى الفترة من ١٩٢٧ م الى ١٩٣٧ م أن متوسط المواليد فى كل ١٠٠٠ نسمة فى البلاد الآتية ، كما يلى :

مصر ٤٥ مولوداً سنوياً •
الهند ٣٥ « « •
اليابان ٣١ « « ولا ينسى المرء انها تتقدم بخطى واسعة •
انجلترا ١٥ « « •

غير أن ارتفاع عدد المواليد فى مصر ، يقابله ارتفاع فى عـــدد الوفيات ارتفاعاً غير عادى ، لكن الباحثين يستدركون ذلك فيثبتون أن أرقام الوفيات آخذة فى الهبوط المستمر ، ويرجع الفضل فى ذلك الى تحسين الرقابة الصحية بين الأهالى مما نتج عنه اختفاء الأوبئة ، وعلى أســاس هذه الحقيقة سترتفع سرعة ازدياد السكان فى مصر ، حتى ولو قدر أن نسبة المواليد ستظل كما هى ، فلو نجحت الجهود فى خفض عدد الوفيات ، ليصل الى نسبة تساوى مثيلتها فى اليابان — وهى

ما زالت عالية اذا قورنت بأوروبا — وهو أمر يؤكده المراقبون ، بنـاء على التطور السريع فى الوسائل الصحية ... لو نجحت جهود مصر فى هذا ، لتضاعف عدد سكانها فى مدى ٤٩ عاما ، ولو بقيت نسبة المواليد كما هى عليه الآن .

تدل الأرقام على أن تركيا تضارع مصر ، وان لم تصل فى هـذا المجال الى درجة التساوى ، فقد صرح أحد السياسيين المهتمين بالمسائل السكانية أن مساحة تركيا تكفى لعدد يتراوح بين ٦٠ و٧٠ مليون نسمة دون أن يصيبهم فقر ، أو يشعرون بحرمان ( مساحة تركيا تعادل مساحة ألمـانيا وايطاليا معا ) . ودلت الاحصاءات أن عدد سكان تركيا فى عام ١٩٢١ م بلغ ١١٫٧ مليون نسمة ، ووصـل فى عام ١٩٢٧ الى ١٣٫٦ مليونا ، وفى عام ١٩٣٤ م ١٧ مليونا تقريبا . واعتمادا على الزيادة التى بينها الرقم الأخير ، والتى أوضحت مدى سرعة ارتفاع عدد السكان ، سيصبح تعداد تركيا فى عام ١٩٦٩ م . أكثر من ٣٢ مليون نسمة ، ويومئذ تصبح تركيا — من الناحية العددية — قوة عظمى ، تقف فى منطقة حساسة بين الشرق والغرب .

وتبرز الأعداد التى أعلنها قسم الاحصاء فى فلسطين مفاهيم لها أبعاد فى توجيه مستقبل هذه المنطقة الواقعة تحت الوصاية البريطانية ، فقد وضع بيانه الذى نشر فى صيف عام ١٩٣٧ م — معتمـدا على الاحصاء الذى تم فى ٣١ مارس ١٩٣٧ م — علامات استفهام أمام المشكلة القائمة بين العرب والصهيونية ، اذ دل هذا الاحصاء على أن مجموع سكان فلسطين ١٫٣١٦٫٠٠٠ نسمة ، فى حين أنه كان فى نفس التاريخ من عام ١٩٣٠ م كان ٩٣٢٫٠٠٠ نسمة ، ولا ترجع أسباب هذه الزيادة الى الخصوبة الطبيعية لدى سكان هذه المنطقة فحسب ، بل تعود أيضاً الى هجرة اليهود الى فلسطين . كان عدد سكان اليهود فى فلسـطين فى مارس ١٩٣٧ م . ثلث مجموع السكان تقريبا والثلثان كانوا عربا . زاد عدد مواليد اليهود فى الثلاثة أشهر الأولى من عام ١٩٣٧ م ٢٦٣٠ مولوداً . فى حين كانت زيادة مواليد العرب ضعف هذا العدد تقريبا —

أى نسبة زيادة مواليد العرب كانت أكثر من ضعف نسبة مواليد اليهود — ففى نفس الزمن بلغت مواليد العرب ما يقرب من ١٣٫٠٠٠ مولوداً • فالخصوبة البشرية لدى العرب أكبر من الخصوبة لدى اليهود بمرتين ونصف • فقد أشارت الاحصاءات السكانية التى جرت فى العام الماضى الى أن عدد المواليد اليهود انخفض بنسبة ١٠٪ فى حين أنها ارتفعت عند العرب بنسبة ٤٪ ، ويفهم المرء من هذه الأرقام سر تمسك اليهود بجعل باب هجرة اليهود الى فلسطين مفتوحا ، ويدرك نشاط الصهيونية المحموم لحمل اليهود على النزوح الى فلسطين ، فلو توقفت الهجرة لأصبحت الخصوبة البشرية بين السكان العرب عقبة كأداء على طريق آمال الصهيونية فى هذه المنطقة ، لأنها تستطيع التغلب على وضع اليهود — من الناحية العددية — فى فترة وجيزة نسبياً •

وفى الجزائر حيث يقطن العنصر الاسلامى بجانب الأوروبى مباشرة ، تظهر الدراسات أن نسبة الزيادة بينهما مختلفة اختلافا كبيراً ، اذ يفوق انتاج الخصوبة البشرية لدى المسلمين ما يقابله لدى الأوروبين أو ادى اليهود الذين يحملون الجنسية الفرنسية بأربع مرات تقريبا ، وفى تونس حيث يمثل الايطاليون غالبية العنصر الأوروبى — وهم أبناء أخصب الأمم الأوروبية — يزيد الانتاج العربى مرتين ونصف عن الأوروبى •

لو طبقنا ما توصلت اليه دراسة الاحصاءات السكانية فى مصر وتركيا على جميع مناطق العالم الاسلامى التى لا توجد فيها أنظمة حديثة لتعداد السكان — اذ يعتمد فى احصاء السكان فيها على التقدير ، ويمكن الاعتماد على نتائجه ، لأنه غالبا ما يوصل الى حقائق متشابهة — لظهرت لنا أبعاد مؤثرات القوى البشرية ، فهى تسهم الى حد بعيد فى بناء قوة عالمية • لقد دفع الصراع بين القوى الأوروبية العظمى وبين الشعوب الاسلامية — وهو صراع نتج عن اتجاه أوروبا الى التوسع الاستعمارى — الى ضرورة القيام بدراسات مقارنة فى المجال السكانى ، للوقوف على اتجاه ميزان القوى — من الناحية البشرية — بين الطرفين • وتوصل

الباحثون الى نتيجة تدعو الى التفكير والتأمل ، فقد أثبتوا — بناء على أرقام توصلوا اليها فى عام ١٩٣١ م — أن بين كل ٣ر١٣ من البالغين فى أوروبا ، يوجد شاب واحد تحت الخامسة عشرة ، أما فى مصر وتركيا وايران ، فقد أثبت الاحصاء الذى جرى فى نفس العام ، أن فيها شابا تحت الخامسة عشرة بين كل ١ر٣٨ من البالغين ، وطبقا لهذه النتيجة التى تبين اختلاف نسبة الأطفال الى البالغين بين أوروبا والعالم الاسلامى ، أمكن للمرء أن يتنبأ بأن تفوق الانتاج البشرى فى المنطقة الاسلامية ، سوف يؤثر تأثيراً بالغا على العلاقة بين الشرق والغرب فى عشرات السنين القادمة •

ازداد الاهتمام بقوة الانفجار السكانى فى العالم الاسلامى ، ويدل على ذلك تلك المناقشة الحادة حول فتوى صدرت من مفتى مصر ، فقد صرح بأنه يجوز للأسر ذات الدخل المنخفض الذى لا يكفى احتياجات عدد أطفالها الكثيرين أن تنظم النسل ، اذ هو مباح فى ظروف معينة وطبقا لشروط خاصة ، ودلل المفتى على فتواه هذه بأن تنظيم النسل لا يعارض نصاً قرآنياً ، ولا يخالف روح التشريع الاسلامى ، فهى مسألة تتعلق بوضع الأسرة الاجتماعى ، وتتحكم فيها مواردها المالية ••• فان ألحق ضرراً بالمرأة من الناحية الصحية ، فهو حرام •

أثارت هذه الفتوى — الصادرة من أعلى سلطة دينية فى مصر — اضطرابا بالغ الأثر ، لا فى مصر وحدها ، بل فى العالم الاسلامى كله ، اذ هزت الرأى العام لدى المسلمين ، فدارت مناقشات حادة كشفت الغطاء عن الاهتمام الواسع بهذه المشكلة ، أوضحت أن طبقات عريضة فى المجتمع الشرقى ، وهيئات عديدة فى العالم الاسلامى تهتم اهتماما كبيراً بمسائل السياسة السكانية ، وكانت ردود الفعل مختلفة ، فقد فجرت الفتوى لدى جماهير الشعب موجة استنكار ، وقوبلت بالرفض من جانب الهيئات الشعبية ، وعارضها قادة المسلمين وممثلوهم فى المجالس على جميع مستوياتها ، وجدير بالذكر أن الفتوى لم تجد معارضة

لدى الأوساط المتخلفة — وهو تعبير يطلق [1] على رجال الدين — فقط ، بل رفضت أيضا من بعض الأطباء ، ذلك أنهم انقسموا انقساما بيناً حول هذا الموضوع ، فوافق المفتى عدد كبير منهم ، فمن له قدرة على فهم خطر تزايد السكان المستمر ويتمتع بنظر ثاقب يصل به الى أعماق المشكلة أيد الفتوى ، لأنها تتفق مع الاتجاه الأوروبى •

وجدت الفتوى قبولا لدى الأوساط التى تحاكى أوروبا محاكاة مطلقة ، وتقلد الأوروبيين تقليدا أعمى دون النظر الى الاختلاف فى النواحى الاجتماعية والدينية ، فهم — كما قال أحد الساسة الانجليز — صورة رديئة للأصل الأوروبى ، لذلك لم تجد أصواتهم آذانا تصغى لها ، ولا صادفت آراؤهم قلوباً ترضى عنها ، لأن موجة معارضة الفتوى كانت شـــديدة ، يقودها عدد كبير من الزعماء السياسيين الذين يتمتعون بتأييد كبير من الشعب ، اما لأنهم يمثلون طبقة شعبية واســـعة ، أو وصلوا الى مراكز قيادية عن طريق اتجاههم القومى المتطرف وجهادهم المشترك فى المعارك المصيرية • ومن أهم مواقف هؤلاء الزعماء موقف رئيس جمعية الشبان المسلمين — وهى تنظيم له أهداف سياسية دينية ويتبعه فروع فى كل الدول الاسلامية — رفض هذا الرجل رأى المفتى من الزاوية السياسية ، اذ علل الرفض بأن « الثراء » فى المواليد دعامة المستقبل السياسى للشرق الاسلامى ، فالخصوبة فى الانتاج البشرى محمودة ، ويجب أن تشجع فيرسل لها العنان ، بل يقدم لها من الامكانات ما يمكنها من اعطاء كل ما لديها حتى يرتفع عدد السكان ، فيتمكن على المدى الطويل من التفوق على البلاد الغربية التى ينقص عدد سكانها باستمرار ، لأن مجتمعاتها لا تتمتع بالخصوبة البشرية التى توجد فى الشرق • وأشار سياسى آخر الى أن زيادة عدد المواليد تكون وحدها الضمان لمستقبل الشعب ، كما يظهر لنا ذلك فى الصين والهند ، ولكن نمو

---

(١) هذا التعبير يطلقه أعداء الاسلام محاولة منهم للتنفير من رجـــال الدين ، وابعادهم عن التأثير فى جماهير الشعب ، لأنهم يدركون خطـــورة هذا التأثير على وضعهم الاستعمارى • ( م • ش ) •

عدد السكان هو احدى الركائز المهمة بالنسبة لمثل هذا المستقبل ، وأساس لتهيئة جو يساعد على تكوين طبقات من الزعماء والمفكرين الذين يسهمون فى بناء الحضارة ، وهو أمر لا يقل أهمية — بالنسبة لمستقبل شعب — عن خصوبة الانتاج البشرى ، وعليه فلا تحديد لعدد السكان ، ولا تبذل الجهود لتخفيض نسبة المواليد أو الوقوف بها عند خط معين ، بل يجب أن تفجر الطاقات الكامنة وتوجه الجهود الى توسيع رقعة الأرض الزراعية ، وخلق فرص لتوفير امكان الحياة للزيادة المطردة .

يعبر هذا الموقف عن نظرة بعيدة المــدى فى التوجيه السياسى ، وتلقى هذه النظرة استحسانا فى عالم الاسلام ، بل ان الجماهير تؤيد من يمثلها وتسير وراءه آملين الوصول عن هذه الطريق الى أهدافهم السياسية .. ويذكر هذا النوع من التفكير المراقبين فى الشرق بنوعية الهدف الذى تسير نحوه الأحداث فى الشرق الاسلامى ، انه اســتعادة السلطة السياسية التى فقــدت منه ، والمجد الضــائع عبر القرون المــاضية .

لا يمكن أن يغيب عن المرء — اذا قارن أسباب القوة بين الشرق والغرب فى الوقت الحاضر — أنه سيتضاعف عدد السكان فى العالم الاسلامى فى مدى عشرات قليلة من السنين ، ولاينبغى أن ينسى أن الداعين الى الأخذ بأسباب نمو القوة البشرية — عن طريق تشجيع النسل ومحاربة الدعوة الداعية الى تحديده — يزيدون يوما بعد يوم ، وأن تفوق أوروبا فى التكنولوجيا على الشرق ينقص عاما بعد عام ، لأن الشعوب الاسلامية اتجهت الى تطوير نفسها وبناء حضارتها الحــديثة بالوسائل الهندسية الأوروبية ، وتكرس جهودها اليوم لزيادة انتاجها ، يساعدها فى ذلك وجود المواد الخام بكثرة فى بلادها ، فلو رتب المرء ما يملك الشرق من أسباب القوة ، لبدا له أن الخصوبة البشرية التى تسبب النمو السريع فى زيادة عدد السكان تأخذ مكانا لا يستطيع المرء اغفاله بسهولة ، فكثرة السكان لها آثارها البعيدة ، لأنها وان كانت لا ترى أبعادها بالعين المجردة فى الوقت الحاضر ، ستحدد بطريقــة

حاسمة المستقبل السياسى للعالم الاسلامى ، وستكون من أهم العوامل التى يرتكز عليها أمنه وسلامته •

* * *

والقطن والبترول من المواد الخام التى تدعم البناء الاقتصادى فى العالم الاسلامى ، فبهما ازداد وزنه ورجحت كفته فى ميزان التبادل التجارى ، واحتل مركزا دوليا هاماً — تتضح أهميته من عام لآخر — فى نظام التجارة العالمية • كذلك هيأ له موقعه الجغرافى — كحلقة اتصال فى شبكة المواصلات العالمية — أن يحتل المركز الأول لتوريد المواد الخام ، بل تجاوز هذا الى تصنيعها أيضا داخل بلاده •

شهد الشرق الاسـلامى هجوما أوروبياً ، اقتحمت عليه القوى الأوروبية دياره ، فخضع لها وأعطاها امتيازات ، فتحولت المنطقـة الاسلامية — التى كانت حتى ذلك الحين منطقة فقيرة اقتصـاديا ، وانحصرت أهميتها فى موقعها الجغرافى الذى يربط حركة المواصلات العالمية ، الى ساحة للبحث الشامل والمنظم للتوصل الى امكانية تطويرها واستخراج المواد الخام من أرضها ، لأن النهضة الصناعية فى أوروبا تفتقر اليها ، لذلك انطلق الأوروبيون يبحثون عن المواد الخام فى أرض الشرق الاسلامى ، ليغذوا بها مصانع أوروبا الجائعة • اتخذوا هذه المنطقة كلأ مباحا ، لأن المبادىء الأساسية فى الاقتصاد العالمى جوزت آنذاك أن تعطى البلاد المستعمرة — سواء أكان استعمارها كليا أم جزئياً ، والمنطقة الاسلامية موزعة بين هذين النوعين من الاستعمار — ما تملك من المواد الخام لدول وسط وغرب أوروبا التى قطعت شوطا كبيرا فى تصنيعها ، وتقوم هذه الدول بتصنيع ما يورد لها ، ثم تغمر به أسواق الكرة الأرضية •

احتل البترول المركز الأول فيما اكتشفته الأبحاث الشاملة لمنطقة الشرق الاسلامى ، فقد أحدث اكتشافه تطوراً سريعا فى الصناعة ، اذ أخذ مكان الفحم فى توليد الطاقة ، وتفرعت منه صناعات عديدة ، فتربع على مركز الصدارة فى اقتصاد الكرة الأرضية •

كانت منابع الزيت فى المدائن والعراق معروفة فى العصور القديمة ، واستعمل السكان الأنواع المتعددة للزيت — التى تستخرج اليوم من طبقات الأرض — فى الانارة والأغراض الطبية ، ولم تكن للبترول آنذاك أهمية فى السياسة الاقتصادية ، وفى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين بدأ اهتمام الاقتصاديين يتجه نحو البترول ، وخاصة بعد اختراع المحركات التى تعمل بالطاقة الحرارية ، ثم ما لبثت القوى الاقتصادية الكبرى أن ركزت تفكيرها ودراساتها على اكتشاف البترول فى الشرق الأدنى ، وبدأت تخوض مجالات الصراع للحصول على منابع البترول ، فالرغبة فى امتلاك آبار البترول فى العـالم الاسلامى فجرت حربا اقتصادية بين بيوت الأموال الغربية ، ولن يستفيد منها سوى الدول المنتجة له ، لأن المنافسة بين الشركات جعلتها تتنازل عن كثير من الامتيازات التى كان يمكن أن تحصل عليها لو لم يزاحمها أحـــد •

أصدر الســلطان عبد الحميد — صـاحب الدعوة الى الوحـدة الاسلامية — مرسوما فى عام ١٨٩٦ م ينطوى على لهجة عدائية ضـد المسيحيين ، فثارت مجموعة من المتعصبين واعتدوا على مقر احدى جاليات التبشـير الأمريكية فى شرق الأناضـول فخربوا ممتلكاتها ، فطلبت الحكومة الأمريكية دفع تعويض عن الخسارة التى لحقت بمقر الجالية • وعندما حاولت القسطنطينية تفادى مطالب واشنطون والتهرب منها أرسلت الحكومة الأمريكية الســفينة الحربية « كينتكى Kentucky » متخذة بذلك الطريقة التجريبية القديمة — الى القسطنطينية كوســيلة للضغط على الباب العالى ، كان على ظهر هذه السفينة القــائد الأمريكى « كولبى م • شيستر Colby M. Chester » وفى الوقت الذى كانت فيه السفينة راسية فى ميناء القسطنطينية تجاوز نشـاط القائد حدود مهمته الرسمية ، اذ قام باتصالات مع رجال الدولة بغية التقرب اليهم ، وانشاء علاقة ودية معهم ، ونتيجة لـما أسفرت عنه هذه المحاولة ، صفى القائد حسابه مع البحرية الأمريكية بعد انتهاء مهمته الرسمية ،

واتصل برجال الصناعة فى أمريكا المهتمين بالبترول ، وما لبث أن رجع الى تركيا ممثلا لشركات أمريكية تتعلق صناعاتها بالبترول • وبهذا بدأ صراع هنا فى الشرق حول منابع البترول •

بـــدأ « شيستر Chester » هـــذا محادثات مع الباب العالى حول التنقيب عن البترول وفى نفس الوقت كان المهندس الكندى — الذى يدعى « دى أرسى D. Arcy » — منخرطا فى سلك العاملين لدى الشاه الايرانى ، وقام بمسح شامل للجزء الجنوبى من ايران بحثا عن امكانية وجود بترول فيها ، فاكتشف فى عام ١٩٠٠ حقلا بتروليا فى « جبـــال بختيـــارى Bakhtiari - Bergen » ثم واصـــل تنقيبه مسترشدا بالنتائج العلمية التى حصل عليها ، والتى تؤكد أنه لا يمكن أن يكون وجود البترول فى جنوب ايران مقصورا فقط على حقل واحد ، ثم بدأ محادثات مع الشاه للحصول على امتيازات استمرت عاماً ، وانتهت فى مايو ١٩٠١ بالحصـــول على امتياز للشركة التى أسســـها باســـم « شركة دى أرسى للتنقيب D. Arcy Exploration Company » تعطيها حق احتكار التنقيب عن البترول فى جميع مناطق الدولة الايرانية ، ما عدا المديريات الخمس الشـــمالية وهى ( أزربيجـــان ، وجيـــلان ، وخراسان ، واستراباذ ، ومازندران ) • وبذلك شمل امتياز الكندين ٥/٦ مناطق الدولة الايرانية تقريبا ، وقد نص فى العقد :

١ — يحصل الشاه على تعويض مرة واحدة يبلغ قيمته ٤٠٫٠٠٠ دولار ، يدفع نصفه فقط نقدا •

٢ — يكون نصيبه من صافى أرباح حقول الزيت ١٦٪ •

٣ — مدة الامتياز ٦٠ عاما تنتهى فى مايو ١٩٦١ م •

مكن هذا العقد الذى نص على امتيازات وصفت بأنها أكثر من ممتازة — نسجت أساطير حول طريقة الوصول الى تحريره وانتزاع هذه الامتيازات من الحكومة الايرانية — المهندس « دى أرسى D. Arcy» من تأسيس « الشركة الأولى للتنقيب First Exploration Company » التى بـــدأت برأســـمال قدره ٦٠٠٫٠٠٠ جنيهـــا ، ثم بدأت هـــذه

الشركة فى عام ١٩٠٤ الحفر فى المناطق التى منحت حق الامتياز فيها بحثا عن البترول ، وعندما تعثرت أعمال التنقيب بسبب سخط الايرانيين ، وعدم رضاهم على شروط العقد ، مما جعل العلاقة حساسة بين الشركة وبينهم ، تنازلت الشركة لايران عن ٣٪ من أسهم رأس المال معتبرة هذا بمثابة « بقشيش » يمكن به تهدئة الجو ، كى لا تتعثر مصالحها فتخسر أكثر مما تنازلت عنه •

خلف « الشركة الأولى للتنقيب First Exploration Company » وقفت شركة « بورما للنفط Burmah Oil Company » التى نقلت بدورها ادارة أعمال حقول البترول المكتشفة الى « شركة انجلو فارس للنفط Anglo Persian Oil Company » • ارتفعت تكاليف الحفر أكثر مما كان مقدراً لها ، مما سبب لكلتا الشركتين « Burmah Oil » — « Anglo Persian » أزمة مالية حادة •
وفى هذه اللحظة قفزت الحكومة البريطانية على خشبة المسرح ، ووقف ونستون تشرشل — وكان له آنذاك بعد نظر بالنسبة لأهمية البترول للأسطول الانجليزى فى المستقبل — فى مجلس الوزراء الذى كان يرأسه « اسكويث Asquith » المعروف بحرصه الشديد •• وقف يبين الأهمية الاستراتيجية التى تحصل عليها بريطانيا ، اذا كلفت الحكومة الأدميرالية البريطانية « ديوان البحرية » بأن تأخذ معظم الأسهم فى « شركة انجلو فارس للنفط Anglo Persian Oil Company » ••
وبهذا انتزعت بريطانيا لنفسها حق الرقابة على حقول الزيت فى جنوب ايران ، فبدأت عهدا تطور فيه الصراع على البترول ، فأصبح حربا لا يخمد أوارها ، ومنافسة بين القوى العالمية ••• لا ، ولن تعرف الهدوء •

لم يستطع « شيستر Chester » الأمريكى أن يتحرك بسرعة كما فعل منافسه « دى أرسى D. Arcy » ، ولم يتمكن من « نقل جنوده بسرعة على طاولة الشطرنج » ، لأن السلطان عبد الحميد — الذى ملك الامتيازات فى تركيا يعطيها لمن يشاء — كان انسانا يشك ويرتاب

لأقصى درجات حدود الارتياب ، وهو محنك وعنده غريزة طبيعية للممارسة، ولديه تجارب طويلة غرست فى نفسه الصلابة والقدرة على أن يستجلب كثيراً من الراغبين فى المشاورات والمساومات — وهى صفة عرف بها فى المجال السياسى وفى المنازعات الاقتصادية — ليضرب بعضهم ببعض ، حتى يقدموا كل ما يمكن اعطاءه للدولة التى تمنحهم حق الامتياز .

اتخذ السلطان عبد الحميد بعض الاجراءات كى يكون حراً فى اتخاذ قرار فى مسألة منح حق الامتياز للتنقيب عن البترول ، فقد نقل فى عام ١٩٠٤ حقوق الزيت فى بلاد ما بين النهرين الى خزينته الخاصة ، وجر الى محادثات البترول طرفا آخر ينافس الأمريكى « شيستر Chester » ، هذا الطرف الآخر هو الشركة الألمانية « Deutsch-Anatolische Eisenbahngesellschaft » « شركة سكك حديد الأناضول الألمانية » ، وقد حصلت هذه الشركة فى عام ١٩٠٨ على حقوق امتياز التنقيب عن البترول فى المنطقة الواقعة بين بغداد والموصل على طول الخط الحديدى المزمع اقامته . ولم يكد يمضى وقت طويل على ابرام هذا العقد ، حتى ظهر فى ساحة الممارسة منافس ثالث،وهو «شركة دى أرسى للتنقيب D. Arcy Exploration Company» التى كلفت من « شركة انجلو فارس Anglo Persain » للدخول فى مشاورات مع الحكومة التركية حول التنقيب عن البترول . وهكذا اجتمعت ثلاث مجموعات — انجليزية وأمريكية وألمانية — فى حلبة السباق ، ينافس بعضها بعضاً فى الحصول على منابع البترول التركى .

وفى اللحظة التى أظهر فيها السلطان عبد الحميد موافقته على اعطاء المجموعة الانجليزية امتيازا بشروط سخية ، خلعته الثورة التركية من منصبه ، ثم رفضت الحكومة الجديدة الامتياز الذى حصلت عليه شركة « دى أرسى D. Arcy » وفسخت عقد الشركة الألمانية ، بحجة أنه قام على أساس أن حقوق البترول فيما بين النهرين تتبع خزينة

السلطان الخاصة ، وهو باطل وما ترتب على الباطل باطل ، اذن لم يكن العقد قانونيا من أول الأمر •

عندما فتح باب المحادثات حول البترول بين الحكومة التركية وبين القوى الثلاثة المتنافسة على أسس جديدة ، بدأ الأمريكان بالنزول أولا « الى ساحة الملعب » فانتزعت المناطق الشاسعة فى شرق الأناضول وبلاد ما بين النهرين لنفسها ، ويلحق بها أيضا جزء من ولاية الموصل على ضفتى دجلة ، اذ وافقت الحكومة التركية على مشروع عقد يعطى للمجموعة الأمريكية حق التنقيب عن البترول فى هذه المناطق — ادعت أمريكا بعد الحرب أن لها حقوقا فى مناطق غرب آسيا واستندت فى دعواها الى هذا العقد ، على الرغم من أن البرلمان التركى لم يوافق عليه ، لأن الحرب بين تركيا وايطاليا قامت بعد الاتفاق المبدئى مباشرة — وقبل أن يقدم هذا العقد بعد الحرب للبرلمان التركى للموافقة تفاهم المنافسان الآخران ، وهما شركه « سكك حديد الأناضول Anatolische Eisenbahngesellschaft » كممثلة للمصالح الألمانية وشركة « دى أرسى للتنقيب D. Arcy Exploration » كممثلة للمصالح الانجليزية ، وقدما الى الحكومة التركية عرضا يعطى للأتراك فوائد أكثر مما يعطيه مشروع العقد الأمريكى • وهكذا تلاقت المصالح الألمانية الانجليزية عند نقطة واحدة ، وتواكبت لندن مع برلين نحو هدف واحد ، وهو الحصول على امتيازات فى حقول الزيت الواقعة فى الشرق ، رغم ما كان باديا للعيان من تدهور العلاقة الدبلوماسية بينهما • التقت مصالحهما فاتفقا على توحيد الجهود بينهما ، وترتب على هذا الاتفاق تكوين شركة البترول التركية فى عام ١٩١٢ م • وقد ساهم فيها « الشركة الانجليزية الهولندية Royal Dutch Shell » والبنك الألمانى فى برلين « Deutstche Bank » والبنك التركى « Türkische National Bank » كما ساهم فيها أيضا « سير هنرى ديترولنج Sir Henry Deteroling » وقد ادعت هذه الشركة بأن لها حقاً فى التنقيب عن البترول ، مستندة الى

المعاهدة التى عقدت بين السلطان عبد الحميد وبين شركة سكك حديد الأناضول الألمانية « Deutsch Anatolische Eisenbahngesellschaft » ونالت ما أرادت عن طريق ضغط دبلوماسى ، مارسته الحكومة الانجليزية والألمانية فى القسطنطينية ، فقبل اندلاع الحرب بيوم واحد حصلت شركة البترول التركية — التى أصبحت نسبة الأسهم فيهما للهولندية الملكية « Royal Dutch » والبنك الألمانى « Deutsche Bank » كل بمقدار ٢٥٪ من مجموع أسهمها ، والباقى وهو ٥٠٪ ملك لشركة « انجلو فارس » « Anglo Persian » — على حق التنقيب فى الأجزاء المتبقية من ولاية الموصل وبغداد عن طريق وعد أعلنته الحكومة ، وقبل أن تنته اجراءات توقيع هذا العقد ، اندلعت الحرب • وعلى الساحة التى شهدت صراعاً اقتصادياً حول منابع البترول فى غرب آسيا ، وقعت معارك حربية أسفرت عن احتلال القوات الانجليزية مناطق البترول فى بلاد ما بين النهرين بعد أن انهارت تركيا عسكريا ، وبهذا انتزعت انجلترا لنفسها ما كانت ترغب الحصول عليه فى زمن ما قبل الحرب عن طريق المحادثات والمشاورات وابرام العقود والمعاهدات،وتحققتبعد الحربمطالب انجلترا فىالبترول فىهذه المنطقة•

أول من بسط مسألة توزيع الثروة البترولية بعد انتهاء الحرب على مائدة البحث فرنسا ، تلك الدولة التى لم تشترك قبل الحرب فى الصراع الاقتصادى حول حقول الزيت فى منطقة غرب آسيا ، وارتكزت مطالب فرنسا على المعاهدة المعروفة باسم « Seikes - Picot Abkommen » التى عقدت فى عام ١٩١٦ م ، اذ تنص هذه المعاهدة — رغم الوعود العريضة التى أعطيت للعرب — على تقسيم منطقة غرب آسيا الواقعة بين البحر الأبيض المتوسط والخليج الفارسى الى منطقتين ، احداهما تحت النفوذ الانجليزى والأخرى تحت النفوذ الفرنسى ، ويحق لكل من القوتين — الانجليزية والفرنسية — أن تتمتع بكل ما فى منطقتها من ثروات ومعادن ، وأن يكون لها الحرية المطلقة فى جميع شئونها ، غير أن فرنسا لم تستطع استعمال حقها الذى أعطته لها معاهدة « Seikes - Picot »

فى جـــزء كبير من حقول الزيت الواقعة فى بـــلاد مـــا بين النهرين ، اذ حـــال دون ذلك وجـــود القوات البريطانيـــة فى هـــذا الاقليم ، فقـــد احتلتـــه أثنـــاء الحرب ، وما زال تحت سيطرتهـــا ورقابتهـــا ، وعندما التقى الفرنســـيون بالانجليز فى لندن وطالبوا بسحب القوات الانجليزية ، رفض « لويد جورج Lloyd George » هـــذا الطلب رفضاً باتاً ، ثم عرض على باريس اقتراح يتضمن تنازل فرنسا لبريطانيا عن حقهـــا فى معاهدة « Seikes - Picot » فيما يتعلق بمنطقة البترول فى بلاد ما بين النهرين مقابل أن تطلق الحكومة البريطانية لفرنســـا حرية الحركة والتصرف فى الأناضول وأرمينية وألمـــانيا ، فلم يوافق « كليمنصو Clémencau » على هذا الاقتراح .

يستطيع المرء أن يفهم موقف الحكومة البريطانية مع باريس ، اذا علم أنها تعرضت لضغط من جانب أصحاب رؤوس الأموال ، وأن هذا الاتجاه مفروض عليهـــا من « اللجنة الســـياسية المـــلكية للبترول « Petroleum Imperial Policy Committee » ، التى أسست قبل الهـــدنة بقليل وهى معـــروفة تحت الاســـم المختصر « لجنة بى . آى . بى » « P.I.P. Committee » . فقـــد تجســـدت مصالح الامبراطورية البريطانية المتعلقة بالبترول فى هذه الشركة ، ترسم سياستها وتدافع عنها ، وعلى الحكومة أن تنفذ ما تراه الشركة لازماً لحماية الحق البريطانى فى هذا المجال ، لذلك عملت جاهدة — دون أن تلوى على أحد — على تمهيد الطريق لرأس المـــال الانجليزى كى يسيطر على عالم البترول — فمن يدرك أن البترول كان من العوامل الأساسية التى ساعدت انجلترا على أن تكسب الحرب ، يستطيع أن يقدر أهمية التحكم فى اقتصاديات البترول فى المستقبل — ونجحت فى ذلك ، فقد استطاع مندوبها « ســـير هارى ماك جوان Sir Harry Mc. Gowan » فى المباحثـــات التى أجـــراها مع « ســـير هنرى ديتردنج Sir Henry Daterding » مدير الشركة « الهولندية الملكيـــة Royal Dutch » — احـــدى شركتين كبريين للبترول فى

العالم — أن يضعف النفوذ الهولندى الذى كانت تتمتع به هولندا فى هذه الشركة أكثر من غيرها ، وبهذا وضعت الشركة « الهولندية الملكية Royal Dutch » تحت الرقابة الانجليزية ، فقويت بذلك الشركة الانجليزية بمقدار ما ضعفت الشركة الهولندية ، اعتمدت « لجنة بى • آى • بى P. I.P. Committee » على هذا النجاح فى املائها على الحكومة الانجليزية — دون أن تلقى معارضة — موقفها فى الصراع حول حقول البترول فى غرب آسيا ، فاليه يرجع النجاح الباهر الذى أحرزته انجلترا فى مشاوراتها مع فرنسا ، اذ نصت معاهدة ١٩٢٠ م على أن تأخذ انجلترا حقول البترول الواقعة فى المناطق التى أعطيت لفرنسا فى معاهدة « Seikes - Picot » فى مقابل أن تأخذ فرنسا نصيب ألمانيا فى شركة البترول التركية ، وبهذا تنازلت فرنسا عن حقوقها السياسية فى ولاية الموصل ، فمحيت تبعا لذلك بنود معاهدة « Seikes - Picot » التى تنص على اعطاء فرنسا حق استغلال البترول فى تلك المنطقة •

استيقظت واشنطون على دوى هذه المعاهدة ، ونظرت بارتياب الى ذلك التحول فى مجال البترول ، وأدهشها تنازل فرنسا عن حقها الاقتصادى — والسياسى أيضا — فى المنطقة لانجلترا ، وتساءل المراقبون عما اذا كانت انجلترا تطمع فى احتكار حقول البترول فى بلاد ما بين النهرين والسيطرة عليها ، وخشيت أمريكا أن تتغاضى لندن عن الامتيازات الأمريكية التى حصلت عليها قبل الحرب فى المنطقة بواسطة الجهود التى بذلها أمير البحر « شيستر Chester » وتفرض سلطانها عليها ، اذا أفصحت عن دعواها وحددت حقوقها ، لكن « لورد كورزون Lord Curzon » رفضها بتفويض من الحكومة البريطانية ، فتأزم الموقف ، وبدت فى الأفق علامات تشير الى احتمال وقوع صراع حاد بين انجلترا وأمريكا بسبب حقول البترول فى غرب آسيا ، وازداد التخوف عندما أعلن أن « ستاندارد للنفط Standard Oil » — وهى أكبر شركات البترول الأمريكية وأهمها — سوف تحصل على امتياز

التنقيب فى المناطق الخمس الشمالية فى ايران — التى نص على اخراجها من مناطق التنقيب فى العقد المبرم مع الشركة الانجليزية « دى أرسى للتنقيب D. Arcy Exploration Company » — اذا ما سمحت الحكومة الايرانية بالبحث عن البترول فيها ، لأن الانجليز حصلوا على امتياز مماثل ، فقبل زمن قصير باعت الحكومة الايرانية حـــق التنقيــــب لاحــــدى فروع شركـــة « انجــــلو فارس Anglo - Persian » .

وفى هذه اللحظة وصل الاحتكاك الى أقصى ذروته ، وتعمقت بذور الصراع ، وتباعدت أطرافه ، فتسابق العملاقان وتزاحما على حقول البترول فى غرب آسيا .

قطعت الحكــومة البريطــانية — وعلى وجــه التحديد قطعت « لجنـــة بـــى . آى . بـــى P.I.P. Committee » — محادثاتها مع الحكومة الأمريكية ، واتخذت أسلوبا آخر للوصول الى هدفها ، فقـــد بدأت تجس نبض الأمريكيين المهتمين بشئون البترول ، الذين يقفون خلف الحكومة الأمريكية ، لأن هؤلاء رسموا للحكومة الخطوط الرئيسية للمباحثات التى جرت من قبل ، ونجح الانجليز فى تفتيت وحدتهم عن طريق تقديم « رشوة كبيرة جداً » فنالت شركة « ســـتاندارد للنفط Standard Oil » — وهى أكبر شركة بترول فى أمريكا — جزءاً من التركة التى خلفتها شركة البترول التركية ، ووعدت بالحصول على ٥٠٪ من الامتيازات المتوقعة فى المناطق الخمس فى شمال ايران ، وبهذه « الرشوة » التى قدمت لـــ « ستاندارد للنفط Standard Oil » انهارت الجبهـــة البترولية الأمريكيـــة ، اذ خرجت أكبر شركـــة من ساحة الصراع ، ولم تكن الشركات الصغرى الأخرى فى موقف يساعدها على الاستمرار فى النزاع مع العدو الانجليزى القوى ، لأن الحكومة الأمريكية صرفت اهتمامها عن المسائل البترولية فى غرب آسيا ، وتباعدت واشنطون عن النزاع مع انجلترا بعد رضـــاء « ســـتاندارد للنفط »

رغـم احتجاج مجمـوعة « شيسـتر Chester » التى لم تكن مرتاحة لهذا الوضع .

منحت الحكومة العراقية تحت تأثير ضغط انجلترا — لأنها ألفت بمساعداتها فى ١٤ مارس سنة ١٩٢٥ م — شركة البترول التركية التى تديرها قيادة انجليزية — وتضم الآن أيضاً مصالح أمريكية وفرنسية — امتيازات التنقيب عن البترول واستغلاله لمدة ٧٥ عاماً ، ويشمل الحقول الواقعة شرق دجلة ، وبما أن شركة البترول العراقية خلفت الشركة التركية ، فقد آل اليها الامتياز فيما يسمى الآن بحقول كركوك ، التى هى مربوطة الآن بالبحر الأبيض المتوسط بواسـطة خطين للأنابيب « Pipelines » وسيلحقبهما قريباً خط ثالث .

حاولت انجلترا وأمريكا المحافظة على مبدأ « الباب المفتوح » الذى أقر فى المباحثات الانجليزية الأمريكية ، فمنحت فى عام ١٩٣٢ م شركة أخرى هى « شركة تطوير النفط البريطانية British Oil Development Company » حـق التنقيب عن البتـرول فى الحقـول الواقعـة على الضفة الغربية لدجلة . وهى التى تعرف بحقول الموصل ، وجدير بالذكر أن هذه الشركة كانت فى الأصل ذات طابع انجليزى صرف ، ثم تحولت الى تأليفة عالمية ، فقد اشترك فيها رأس مال انجليزى وايطالى وألمـانى وسويسرى وفرنسى وهولندى وعراقى ، لكن ضعف رأس مال هذه الشركة مكن فى عام ١٩٣٦ م لشركة بترول العراق أن تتولى — عن طريق شركة شقيقة لها أسست حديثاً — الرقابة على « شركة تطوير النفط البريطـانية « British Oil Development Company » وبهذا خضعت جميع حقول البترول فى بلاد ما بين النهرين بطريق غير مباشر لرقابة شركـة « أنجلو ايران Anglo - Iranian » الذى يملـك ديوان البحرية البريطانيـة معظم أسهمها .

أثبتت الأبحاث التى أجريت بعد اكتشاف البترول فى غرب آسيا أن وجوده لا ينحصر بأى حال من الأحوال على حقول جنوب ايران

وبلاد ما بين النهرين ، وأكدت وجود حزام عريض من البترول يمتد من الشاطىء العربى للبحر الأحمر حتى الخليج الفارسى ، ومنه عبر حقول الزيت فى جنوب ايران مجاوزاً شمال شرقى ايران — وكـذا شماله — الى أفغانستان ، وتشير الاحتمالات أنه لم يكتشف حتى الآن من هذا الحزام البترولى سوى جزء صغير جداً ، وعليه فلم تستوعب بعد الثروة البترولية فى العالم الاسلامى ، تلك الثروة التى تمده كما تمد دوله بأسباب القوة ، وبمقومات الاعتماد على النفس والتحرر من النفوذ الأجنبى ، وليس من السهل أن يدرك المرء فى الوقت الحالى ما يحدثه البترول من تغييرات سياسية واجتماعية فى هذه المنطقة من العالم .

نجح رأس المـال الانجليزى فى استعمار مناطق البترول والانفراد بها ، بعد أن أزاح بيوت المـال الأمريكية من طريقه ، الا أن الدول الاسلامية الحديثة لم تتركه يهنأ بهذا النجاح ، فقد لاحظ المراقبون باهتمام شديد الجهود التى تبذلها تلك الدول الاسلامية لاجتذاب منافس لرأس المـال الانجليزى فى منطقة غرب آسـيا ، وبمـا أن الدول الاسلامية الحديثة لا تملك قوة اقتصادية تمكنها من نقل هذه الثروة الى ملكيتها الخاصة ، فقد سهلت الطريق لمنافس أمريكى يقف فى الميدان ضد الشركات الانجليزية المتسلطة ، ليكسر حدة الاستعمار الانجليزى للبترول فى العالم الاسلامى ، فيحدث توازن فى المنطقة ، فلا تتعرض حرية الدول واستقلالها الذاتى لخطر الضغط من جانب انجلترا .

ففى عام ١٩٣٠ م منحت شركة « ستاندارد الكاليفورنية للنفط » « Standard Oil Company of California » امتيـازاً للتنقيب عن البترول فى جزيرة البحرين ، أى فى منطقة تخضع سياسياً للرقابة الانجليزية . استغلت هذه الشركة الحقول الغنية بالبترول غنى لا حدود له بواسطة شركة شقيقة لها ( أى أنها لا تحمل اسم الأولى وان كانت تابعة لها فى الادارة ورأس المـال ) ، هى شركة بتـرول البحرين . كذلك رخص ملك العربية السعودية « ابن سعود » — وان كانت علاقته بلندن طبيعية —

للأمريكيين التنقيب عند الشاطىء العربى للخليج أى فى منطقة الأحساء • وقد حصلت على هذا الامتياز الشركة « الكاليفورنية العربية للنفط » « **California Arabian Oil Company** » • وأخيراً أعطى رضا شـاه فى عـام ١٩٣٧ م لمجمـوعة أمريكيـة امتيازاً للتنقيب فى المديريات الخمس فى شـمال ايران دون الالتفات الى الحقوق التى حصلت عليها شركة « انجلو ايران » « **Anglo - Iranian** » وشقيقاتها ، معتمداً بذلك الحد من سيطرة الشركات الانجليزية وكسر شوكة رأس المـال الانجليزى فى ايران •

لقد وضعت شركة « أمير انين أويل أف ديليوير **Amiranian Oil Company of Delaware** » قدمهـا فى ايـران ، فاهتزت مواطـىء أقـدام مجمـوعة الشركات الانجليزية مـن جانب ، وملـكت دول البترول الاسلامية امكانية اللعب بالمصالح الانجليزية والأمريكية — أى بضرب بعضها ببعض — للحفاظ على مصالحها الخاصة من جانب آخر •

يقول بعض المهتمين بشئون الشرق الاسلامى :

تشـير سيطرة شركات البترول الكبرى وتسـلطها فى العالم الاسلامى على أن الاستقلال السياسى لهذه المنطقة لن يكون سـوى واجهة خداعة • وتدل الحقائق على أن منطقة الشرق الاسلامى لن تخرج خروجاً كلياً من دائرة الوصاية الأوروبية ، وأن ما يبدو فى المنطقة من ظواهر يعتقد البعض أنها مقدمات لقوة نامية ، ليس الا احتمالات لم تخرج الى الواقع بعد ، ويحتمل عدم وجودها ، ويستدلون على ذلك بأن اسـتعمار الدولار يحل — بسرعة متزايدة — محل اسـتعمار الأراضى ، وأن الرقابة السياسية استبدلت بالرقابة الاقتصادية ، وبذلك رسخت سيادة الغرب على الشرق ، وان تغيرت صورتها ، ولم تضعف ، ولم تهن وسوف تمتد زمناً طويلا •

ولكن يغيب عن هؤلاء — فى طريقة تأملهم وأسلوب تفكيرهم — أن « الاستعمار الدولارى » غير متفق الكلمة ولا موحد الهدف ، وأن بيوت

المـــال التى تملكه مستعدة فى كل وقت أن تضيق مناطق النفوذ ، وأن تتقاعس عن المنافســـة مقابل أى ثمن تحصــــل عليه ، أضف الى ذلك ما أظهره — وما زال حتى الآن — الصراع حول البترول فى غـــرب آسيا ، فقد اختيرت الشركات الغربية التى تدخل فى مشاورات ابرام الاتفاقيات الاقتصادية مع دعاة القومية الاسلامية على أساس خلق جو من المنافسة بينها ليضرب بعضها ببعض ، وتهيئة طريق لها تتدافع فيه بالمناكب ضد بعضها ، وسوف يتيح هذا الأسلوب للقومية الاسلامية قدرة تمكنها من جنى ثمار فى المجال الاقتصادى ، ان عاجلا أو آجلا — كما حدث ذلك فى المجال السياسى ، فقد ساعدت الخلافات بين القـــوى الأوروبية القومية الاسلامية فى احراز نجاح بعيد المدى على طريق الاستقلال السياسى — بل أثبتت الأحداث فعلا أن مد القومية الاسلامية يطوى فى طريقه مناطق نفوذ « الاستعمار الدولارى » ، فحيثما تضع مطالبها أمامه يتراجع هو تاركا وراءه خسارة فى المواد وفى الأرض بحجة الوصول الى تراض متبادل حول المصالح المشتركة ، وأوضح مثال على ذلك — أى على انحسار سيطرة رأس المـــال الغربى أمام هجمات القومية الاسلامية — ما حدث فى ايران ، فقد عرض الشاه — فى صورة انذار على شركة « أنجلو ايران Anglo - Iranian — شروطا جـــديدة لم تستطع الشركة الانجليزية رغم مساندة الحكومة البريطانية لها أن ترفضها ، فزاد نصيب الدولة الايرانية من ثروتها البترولية زيادة كبيرة .

كذلك لا ينبغى أن يغيب عن الذهن أن الامتيازات التى حصل عليها « الاستعمار الدولارى » فى هذه المنطقة ستنتهى مدته بعد عشرات قليلة من السنين ، وهو زمن يعتبر قصيرا جداً فى حياة الشعوب ... ثم ماذا ؟ ... سوف تؤول كل منشآت شركات البترول الى الدول التى على أرضها ، أقيمت دون دفع تعويض طبقاً لمـــا نص عليه فى غالبية عقود الامتياز ، أى أن الدول التى منحت الامتياز سوف تستولى على كل مبانى وآلات تشغيل حقول الزيت بعد انتهاء مدته القصيرة نسبياً ، أما كيف تفكر دوائر القومية الاسلامية فى هذا المستقبل القريب فيوضحه لنا عقد

الامتياز الذى أبرمته الحكومة الايرانية مع شركة « أميرانين أويل أف ديليوير Amiranian Oil Company of Delaware » فى أوائل عام ١٩٣٧ م اذ نص فى هذا العقد على الزام الشركة بتعيين مهندسين ايرانيين يتصاعد عددهم عاماً بعد آخر بنسبة تمكن الدولة الايرانية بعد انتهاء هذه الامتيازات من ادارة الشركة بهؤلاء المهندسين الوطنيين ، كما نص فيه على أن كل منشآت الشركة تؤول ملكيتها الى الدولة دون دفع تعويض ، ومن يراقب الأحداث يرى اتفاقيات مماثلة هنا وهناك ، فقد أبرم فى عام ١٩٣٦ اتفاق بنفس الشروط بين مصر وشركة قنال السويس التى تنتهى امتيازاتها عام ١٩٦٤ م [١] .

ان تصفية امتيازات البترول فى غرب آسـيا وانتقال تركـة « الاستعمار الدولارى » الى الدول الاسلامية تديرها ذاتياً لا تحتاج الى مساعدة أجنبية ، وتوجه انتاجها مستقلة دون أن تخضع لارادة خارجية ... سيحدث هذا فى الوقت الذى يصبح فيه — طبقاً لما أثبتته الأبحاث الدقيقة — مخزون البترول الأمريكى ضعيفاً ، ويوم يقل الانتاج الغزير لهذا البترول الذى يغزو أسواق العالم اليوم ، سيحتل البترول الاسلامى — حسب التقديرات المتحفظة جداً — بعد اكتشاف باقى حقول الحزام البترولى فى غرب آسيا مركزاً دولياً هاماً ، وسيصل انتاجه رقماً لم يعرف بعد ، ولا يستطيع الخبراء التكهن به ، لأنه قد يفوق كل تقدير ... يجب ألا نغفل عن دلالة هذا التغيير وتأثيره اقتصادياً فى مركز العالم الاسلامى على مسرح التبادل التجارى العالمى .

* * *

اذا كان البترول من المواد التى بعثت فى العالم الاسلامى حيوية اقتصـادية جعلته يحتل مركزاً دولياً فى عالم التجارة ، لأنه — أى البترول — من المواد الخام التى تؤسس عليها معظم — ان لم يكن كل — الصناعات الحديثة ، فان القطن يقف بجانبه فى دعم اقتصاد الدول

---

(١) كان المقرر أن ينتهى امتياز الشركة سنة ١٩٦٨ م لا سنة ١٩٦٤ كما قال المؤلف (م.ش) .

الاسلامية ، فقد أثبتت الأحداث فى مجال القطن ، كيف غيرت القومية الاسلامية — عن طريق تحقيق أهدافها الاقتصادية — هيكل الاقتصاد العالمى الذى رسمه رأس المـال الغربى فى القرن التاسع عشر وحدد معالمه ، اذ نص فى « القانون » الذى فرضته البلاد الأوروبية ، على أن تورد الدول الواقعة كلياً أو جزئياً تحت رقابة استعمارية ، موادها الخام الى البلاد التى تقدمت صناعيا ، وبعد تصنيع هذه المواد طبقـا لاحتياجات أسواق البلاد الموردة للمواد الخام ، تصدر اليها ( تأخـذ الدول المتقدمة المواد الخام من المنطقة الاسلامية بثمن بخس ، ثم تردها اليها بعد تصنيعها بأغلى الأسعار ) ولكن الوضع اليوم يتغير بأسرع ما يمكن فى العالم الاسلامى ، فقد رسمت قومية الاقتصاد الاسلامى سياستها على أساس تصنيع موادها الخام فى أوطانها حسب احتياجاتها ، كى تتخلص من التبعية للبلاد الصناعية الغربية ، وهى تمضى فى هـذا الطريق بأقصى ما يمكنها ، وتوفر — بنوع خاص — فرص العمـل للسكان الذين يتزايد عددهم زيادة مطردة .

كانت البضائع المصنوعة من القطن — منذ زمن بعيد — أهم أنواع البضائع التى تورد الى بلاد الشرق الاسلامى ، واحتلت انجلترا المركز الأول فى تغطية ما تحتاجه تلك البلاد من البضائع القطنية ، ففى المنطقة الواقعة خلف « ليفربول Liverpool » — وهى ميناء يقع فى جنوب اقطاعية ( منطقة ) « لانكشير Lancashire » ويمتاز باستراتيجيته بالنسبة لحركة الملاحة — نشأ أهم المراكز العالمية لصناعة القطن منذ نهاية القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ، وكانت مصـانع « لانكشير » تستورد قطنها الخام فى بدء عملها من غرب الهند ، ثم استوردته فيما بعد — أى فى منتصف القرن المـاضى تقريبا — من الولايات المتحدة ، أى أنها كانت معتمدة على المواد الخام التى تزرع وتحصد فى مناطق ليست تحت السلطة الانجليزية — فهى لا تقع تحت رقابة انجليزية مباشرة — وهـذا وضع سبب للصناعة فى « لانكشير » متاعب جمة فى ستينات القرن المـاضى ، عندما اندلعت نيران الحرب

الأهلية فى الولايات المتحدة ، وتأثرت زراعة القطن كما تأثر تصديره أيضاً تأثيرا بالغا ، جعل أهم فروع الصناعة الانجليزية تتوقف بسبب نقص المواد الخام ، وعاشت « لانكشير » أعواما صعبة ، عم فيها الجدب اقليمها ، وظهرت معالم الفقر والتعاسة على أهلها ، وبلغ الجوع بالعمال حد الموت •

تركت الأعوام القاسية التى نشأت عن الحرب الأهلية الأمريكية أثرا لم ينسه أحد فى انجلترا قط ، وكانت مصدرا لتوجيه دفة السياسة الانجليزية فى بعض مساراتها ، اذ حتمت على انجلترا العمل على انتاج المواد الخام اللازمة لصناعة « لانكشير » داخل المناطق التى تتمتع فيها انجلترا بالسيطرة والنفوذ ، وينبغى أن يحدد ذلك خطوط السياسة الانجليزية فى السنوات التالية ، ويكون مقياسا لتحركاتها ، بل صارت هذه الحتمية أكثر الحاحا عندما بدأت الولايات المتحدة الأمريكية بعد الحرب الأهلية تصنيع نفسها بخطوات سريعة كادت تستوعب القطن الأمريكى فى فترة قصيرة • رأى ساسة انجلترا وأصحاب مصانع الغزل والنسيج فيها أن منطقة الشرق الأدنى والأوسط ، هى المكان الذى ينبغى أن توجه اليه — بجانب الهند — الجهود ، ليمد المصانع فى « لانكشير » بالمواد الخام ، وهنا بدأ النفوذ الانجليزى تركيز سلطانه وبلغ باحتلاله مصر عام ١٨٨٢ م ذروة المرحلة الأولى فى مخططه الاستعمارى • ففى مصر — حيث كان « اللورد كرومر » حاكما مطلقا ، وسيدا « تطأطأ له الرؤوس » ، ومستشارا للامبراطورية البريطانية على ضفتى النيل — أجبر الفلاحون على التوسع فى زراعة القطن ، فتطورت زراعته — معتمدة على الأسس التى وضعها محمد على الكبير قبل ذلك بعشرات السنين — وصارت مصر أهم مركز للقطن فى الشرق الأدنى ، ويمتاز قطنها — حتى يومنا هذا — بأنه أجود أنواع القطن فى العالم كله ، غير أن السياسة المنشودة فى توسيع زراعة القطن ، كى تلبى حاجة مصانع انجلترا أدى بمصر الى أن تصبح بلداً ذا زراعة واحدة ، تغلبت على غيرها من أنواع الزراعة ، وبذلك لم تستطع مصر —

وهى بلد زراعى — أن تطعم سكانها ، ومما زاد فى تبعيتها وفقـدان استقلالها أن انجلترا كانت تراقب المداخل والممرات التى هى منافذ الدخول الوحيدة للمواد التموينية المستوردة •

أدى الطموح الانجليزى ورغبة أصحاب صناعة القطن فى انجلترا فى تطوير زراعة القطن خارج الولايات المتحدة الأمريكية الى انشاء « جمعيـة زراعـة القطن البريطـانية British Cotton Growing Association » فى عـام ١٩٠٢ م التى تحولت فى عـام ١٩٢٢ م الى امبراطورية للقطن تحت اسـم « نقابة زراعـة القطن Cotton Growing Corporation » فقد جمعت هذه الشركة كل ما يبذل لخدمة زراعة القطن فى تنظيم واحد تحت سـلطة انجلترا وداخـل النفوذ الانجليزى ، وبذلت مجهودات كبيرة فى تحرير صـناعة النسيج من الاعتمـاد على خام القطن الأمريكى ، والوصول بـ « لانكشير » الى الاستغناء عن الكمية التى لا زالت أمريكا توردها اليها حتى اليوم ، رغم النتائج التى توصلت اليها السياسة الانجليزية فى الشرقين الأدنى والأوسط وفى الهند • وعلى كل فقد نجح الطموح الانجليزى فى أن يكون ربع انتاج العالم فى عام ١٩١٤ م تحت رقابة انجلترا •

لم يقتصر مخطط سياسة انجلترا تجاه انتاج خام القطن على مصر والهند فحسب ، بل شمل كل البلاد التى كانت واقعة آنذاك تحت النفوذ الانجليزى ، اذ يرجع الفضل فى ادخال زراعة القطن وتطويرها فى بلاد ما بين النهرين وفى الأناضول وبنوع خاص فى السودان — بلد القطن فى المستقبل كما تصرح الدوائر الانجليزية مشيرة الى هـذه المستعمرة الانجليزية المصرية — الى حماس الانجليز المتدفق لقيـام هذه الزراعة ، ومساندتهم لها بالمـال والجهد • كذلك قامت فرنسـا بجهود مشابهة لتطوير زراعة القطن فى سوريا ، وفى الأعوام الأخـيرة حاولت ألمـانيا أن تروج توسيع زراعة القطن فى ايران ، وأن تطورها بالاشتراك مع الدولة الايرانية ، حتى تكون قاعدة لتوريد ما يحتاجه الألمـان من القطن •

تطورت زراعة القطن فى المنطقة الاسلامية بمساعدة الخبراء الأوروبيين ، واحتلت مركزاً اقتصاديا هاما فى مجال الصناعة بفضل رأس المال الغربى ، وأصبح انتاج القطن مهماً فى التجارة العالمية ، وانتزع القطن المصرى المركز الأول فى طول تيلته وجودة نوعيته •• بعد أن تحقق هذا كله واجه الغرب المتقدم صناعيا ، وعلى وجه التحديد واجهت صناعة القطن فى انجلترا حقائق جديدة فى مناطق انتاج القطن الخام أقضت مضجعها ، وبشرتها بمستقبل ملىء بالمصاعب ، فقد ظهرت القومية الاسلامية على الصعيد الاقتصادى ، وطالبت بأن تصنع مواردها الخام — بقدر الامكان — داخل حدود أوطانها ، أو على الأقل يصنع منه ما يفى بحاجتها ، وسرعان ما ابتدىء فى تنفيذ هذه السياسة ، حيث أنشئت مصانع الغزل والنسيج الأولى فى الدول الاسلامية •

اندفعت القومية الاسلامية فى اتجاهها الاقتصادى — الذى سبب قلقا للصناعة الغربية ، وأنذر بانهيار صناعة القطن فى انجلترا — نحو تحقيق الاستقلال الذاتى فى المجالات الاقتصادية ، ونستطيع أن نلخص أسباب هذا الاتجاه فيما يلى :

١ — تحرير البلاد الاسلامية من التبعية للبلاد الغربية المتقدمة فى الصناعة •

٢ — ضرورة خلق فرص للعمل ، وتهيئة جو اقتصادى يكفل الحياة للزيادة المطردة اطرادا كبيراً فى عدد السكان •

٣ — العمل على خفض أسعار السلع المنتجة ، وذلك بتصنيع المواد الخام فى مكان انتاجه ، لأنه فى هذه الحالة لا يتحمل مصاريف شحنه الى البلاد الصناعية — فى حالة تصنيعه فى الخارج — ، كذلك مما يساعد على خفض الأسعار رخص الأيدى العاملة ، وهذان أمران يؤثران تأثيرا كبيرا على أثمان البضائع المصنعة •

تسببت دعوة قومية الاقتصاد فى الشرق الاسلامى — التى تتفرع منها الرغبة فى تصنيع المواد الخام داخل أوطانه — فى خفض صادرات

القطن الى أوروبا ، ووضعت الصناعة فى «لانكشير» — أهم مراكز صناعة النسيج — فى مركز حرج ، اذ ألقت فى طريقها جملة من المصاعب ، تحمل القائمين عليها على التفكير طويلا وبعمق •

ركزت دوائر الانتاج فى البلاد الغربية نشاطها لتبخير تأثير قومية الاقتصاد الاسلامى ، فحاولت مرارا وتكرارا انشـــاء مصانع لها فى تلك المناطق ، التى كانت معرضة لتهديد النشاط الاقتصادى فى البلاد الشرقية ، آملة بذلك الاحتفاظ بالسيطرة الاقتصادية ، وتأمين مصالحها التجارية ، وقد استحسنت هذه المحاولة فى بادىء الأمر ، ثم ما لبثت أن اصطدمت بصخرة المعارضة الصلبة ، ويبين لنا مدى قوة مقاومة هــذه الفكرة ما حــدث فى مصر عام ١٩٣٧ م عندما أرادت شركة « بريدفـــورد ديرس Bredford Dyeres Association » بنـــاء مصنـــع لهـــا فى مصر لتصنيـــع القطن المصرى ، فقـــد أرادت دوائـــر الصناعة الانجليزية من وراء ذلك تخفيض أثمان بضاعتها المصـــنعة ، وسوف يساعدها على ذلك توفير مصاريف الشحن وتوافر الأيدى العاملة المصرية ورخصها لتستطيع منافسة البضاعة اليابانية • رفضت مصر رفضا باتا قيام مصانع أجنبية على أرضها ، وكان رفضها اجماعيا أى أن الشعب والحكومة وقفـــا جنبا الى جنب دون تحقيق مشروع شركـــة « بريدفـــورد ديرس Bred ford Dyeres Association » لأن المصريين خافـــوا منافســـة الشركة الانجليزيـــة لشركـــات الغـــزل والنســـيج المصرى على الأرض المصرية ، ففيها تهديد للصناعة الوطنية والاقتصاد القومى ، وهكذا أصبح قيام شركة أجنبية فى مصر غير مرغوب فيه ، ومرفوض كليا وجزئيا ، على أساس أن القصد منه محاربة سياســـة تصـــنيع البلاد • نعم يدرك المصريون أن الانتـــاج القومى لا يغطى احتياجات البلاد ، ولكنهم يأملون أن تسد الثغرات — المفتوحة الآن لاستقبال ما عجز انتاجهم عن تغطيته — فى المستقبل بعد تطوير وتوسيع صناعة الغزل والنسيج فى بلدهم •

تقدمت مصر العالم الاسلامى فى صناعة المنسوجات ، اذ يعمـــل

فيها ١٢٠٫٠٠٠ عامل تقريبا فى مختلف فروع هذه الصناعة ، وتجىء بعدها الدول الأخرى فى المنطقة الاسلامية ، تسير على دربها وتخطو خطاها ، وتنفذ برنامجا مشابها لها فى أسسه وغايته ، فهى موجـــة تصنيع تسرى فى أقاليم الشرق ، ولا تقتصر — بأى حال — على تصنيع خام القطن ، بل تبذل الجهود فى كل مكان لارساء قاعدة للصناعة تشمل كل ما يوجد فى المنطقة من المواد الخام •

يستمر نمو التصنيع فى كل بلاد منطقة المصير الاسلامى وتمتد جذوره ، فترسو قاعدته وتسلس قياده ، فينتشر فى كل مكان بالمساعدات المباشرة وغير المباشرة من الجهات الرسمية فى الدول ، اذ تدعمـــه الحكومات بالخطط المدروسة والعون المـــالى •

* * *

أدرك المسئولون فى تركيا أن التصنيع الذى يعتمد على المـــواد الخام المحلية قوة لها أثر بعيد المدى فى المجال السياسى ، فهى من الفروض الأولى والشروط الجوهرية لقيام الجمهورية والمحافظة على استقلالها ، لذلك نص قانون رعاية الصناعة الصادر فى عام ١٩٢٩ م على دفع معونة مالية كبيرة للقطاع الخاص ، تدرجها الدولة فى اطار المشروعات الحكومية ، فارتفع عدد الشركات الصناعية التى تمتعت بميزات هذا القانون فى الفترة من تاريخ صدوره حتى عام ١٩٣٦ م من ٣٤٢ الى ١٥٩٥ شركة •

كذلك قامت الحكومة بمسح شـــامل للأراضى التركية ، بحثاً عن الثروات المعدنية والمواد الخام — سار هذا العمل جنباً الى جنب مع ثورة تصنيع البلاد — لهذا أسس معهد حكومى للأبحاث الجيولوجية ، واستخراج المعادن ، ويرسل نتائج أبحاثه الى بنك « الدعم Eti Bank » الذى أنشىء لتمويل شركات البحث عن المعادن بجميع أنواعها ، كما اتخذت الحكومة عدة اجراءات حاسمة للحيلولة دون توجيه الثروة المعدنية وجهة لا تحقق الغرض المطلوب للدولة ، ومن بين هذه الاجراءات

اصدار قانون يقضى بخضوع المناطق التى تنقب فيها شركات القطاع الخاص للقواعد العامة التى رسمتها الدولة للتنقيب عن المعادن •

كان البحث عن المعادن فى الأراضى التركية مخيباً للآمال فى بعض المناطق ، غير أنه أتى بنتائج غير متوقعة فى مناطق أخـــرى ، وذلك عندما اكتشف فى عام ١٩٣٧ م عند « جبل الحديد Lemir Dogh » — سلسلة الجبال الشمالية الشرقية — خام الحديد ، اذ أثبتت الأبحاث أنه أغنى مناطق الحديد فى الكرة الأرضية ، فهو يحتوى على ٦٨٪ حديد خالص ، فى حين أنه يوجد فى العالم كله منطقتين فقط تحتوى المـــادة الخام المستخرجة منهما على ٦٥٪ حديد فقط •

يستمد التصنيع فى تركيا توجيهه من مشروعات عكفت على دراستها كل خبرات الدولة التى تجمعت لها حتى عام ١٩٣٤ م ، ووضعتها موضع التنفيذ فى اطار مشروع السنوات الخمس ، الذى نص على اقـــامة وتوسيع هذه الفروع : صناعة النسيج ، وصناعة التعدين ( الحديد ، الفحم ، الكوك ، النحاس ، الكبريت ) وصناعة « السليولوز » الخليات النباتية ( الورق ، الكرتون ، الحرير الصناعى ) وصـــناعة الزجاج ، والصناعات الكيماوية ، وقد روعى فى تنفيذ هذا المشروع أن تكون القوى العاملة فيه أتراكا ، لا يستعان بأيدى أجنبية الا فى حالة الضرورة التى تحتاج الى خبراء أجانب • وفى اطار الخطة الخمسية الثانية — التى وضعت على أساس انشاء وتطوير مناجم استخراج الفحم وتصنيع أنواع الفحومات المختلفة وتكرير البترول وصناعة المواد المحفوظة — أكملت المشروعات الصناعية بناء الهيكل الأول لصرح التصنيع • دعمت الخطة الخمسية مالياً بقرض روسى ، قدم فى صورة توريد الآلات اللازمة للمصانع ، تسدد قيمته بعد ٢٠ عاما ، كذلك دفعت الحكومة التركية قرضاً كبيراً ، وقد دفعت هذه المساعدات الى الاسراع فى تنفيذ مشروع تصنيع تركيا حسب ما جاء فى الخطتين الخمسيتين • اضطلع بتنفيذ التمويل البنك المسمى « سمر بنك Sumer Bank » الذى يخضع لرقابة الدولة ، ويحصل منها سنوياً على اعانة اضافية كبيرة ليقوم

بالواجبات الملقاةعليه ، فاذا صادفه النجاح ، وتم تنفيذ الخطتين الخمسيتين ستغطى نصف احتياجات تركيا من البضائع القطنية ، وستحصل على كل ما تحتاجه من الورق من الصناعة المحلية •

ان مما يسترعى الانتباه فى هذا المقام ، أن الخطة الخمسية الثانية تحمل فى طياتها أسس صناعة ثقيلة ، وأن هناك ما يشير الى أنها تسير نحو تحقيق هذا الهدف ، اذ يتجه الأتراك الى محاولة تلبية احتياجات الدولة فى حالة الحرب من الانتاج المحلى ، ولهذا ستنشأ أفران عالية ، يتجه التفكير الى تمويلها أولا بمواد خام مستوردة ، على أن يحاولوا فيما بعد تغذيتها بمواد خام محلية ، وقد عهد بتنفيذ هذا المشروع الهام الى اتحاد ممولين تحت قيادة « سمر بنك « Sumer Bank » » والشركة الألمانية « كروب » •

* * *

فى ايران تتعهد الدولة برعاية المشروعات الصناعية رعاية مباشرة ، فسلطة الحكومة ونفوذها فى حقل الصناعة أقوى وأشد مما فى تركيا ، وتمول الصناعة فى ايران من عائد البترول ، وتقوم على أساس المواد الخام الموجودة فى الوطن ، ومما يسترعى الانتباه أن تطور صناعة القطن والسكر تلقى اهتماماً كبيراً ، يبدو ذلك فى مشروعاتها التى تستهدف تغطية نصف الاحتياجات من السكر ، وتقارب تغطية الاحتياجات كلها من البضائع القطنية فى عام ١٩٣٧ م •

أسست الدولة الايرانية فى عام ١٩٣٣ م البنك الزراعى الصناعى لتنفيذ مشروعات التصنيع ، وتدخلت ، بطريقة تشبه تدخل تركيا فى « سمر بنك « Sumer Bank » عندما قدمت له المساعدات فى جميع فروعه الاقتصادية بالتوجيه والرقابة ، ولكى توسع أسس الصناعة الوطنية تبذل الدوائر الرسمية جهودا متواصلة ، لتوسيع رقعة الأرض المنزرعة لاستغلالها فى انتاج قصب السكر والقطن ، كذلك تهتم بالبحث عن المعادن واستخراجها ، وقد اكتشف أثناء المسح الشامل للجبال الايرانية معدن الحديد والنحاس ، وكانت نوعية النحاس المكتشف جيدة جداً ،

لدرجة أن التنقيب والاستخراج يعود على الدولة بفائدة اقتصادية كبرى • وكما حدث فى تركيا يقوم الايرانيون بانشاء أفران عالية لتصنيع المعادن المستخرجة من أرضهم ، وتساعدهم فى ذلك ألمانيا •

* * *

سبقت مصر كل أقطار المنطقة فى مجال الصناعة ، فالنجاح الذى تحرزه من عام لآخر يدعو الى الدهشة ، اذ أن حجم تشجيع الدولة للصناعة يشمل قطاعات كبيرة ، وأن هدف تصنيع البلاد لا ينحصر فقط فى انشاء صناعات وطنية تدعم استقلال الدولة ، بل يدفع الى التصنيع أيضا زيادة عدد السكان زيادة لا تستوعبها رقعة الأرض الصالحة للزراعة ، وقد وضعت الدولة نظاما لمساعدة المشروعات الصناعية اتسم بطابع خاص ، وتميز عن نظام المساعدات التى تقدمها حكومات المنطقة لتصنيع بلادها ، ففى مصر تفضل الصناعات الخفيفة ، ولا تقدم الدولة قروضا بطريق مباشر ، بل عن طريق بنك مصر الذى يستثمر رأس مال مصرى خالص ، ويشترط فى المقترض أن يكون قد درس فى مدرسة صناعية وطنية ، فالثقافة المهنية شرط أساسى لمن يريد أن يقيم مصنعا ، ويجب أن يضع المدين مصنعه تحت الرقابة المباشرة لوزارة التجارة والصناعة المصرية ، طالما لم يسدد الدين كله • ساعدت سياسة القروض هذه على قيام كثير من الصناعات الوطنية وانشاء الورش ومصانع الصناعات الخفيفة •

أسست مصر بنك الصناعة ، وعهدت اليه تمويل الصناعات الثقيلة ، كما سيطر على اتجاه الحكومة فى تطوير هذه الصناعة الشعور القومى ، الذى يدفع المختصين الى ارساء صرح الصناعة فى مصر ، لذلك وجهته الآراء الوطنية التى ترى ضرورة العمل على اكتفاء البلاد ذاتيا ، لذا اتخذت الحكومة بعض الاجراءات الجمركية كى تحمى المنتجات الوطنية وتهيىء لها جو الازدهار والتقدم ، ويجدر بنا فى هذا المقام أن نورد تصريحا على جانب كبير من الأهمية أدلى به وزير المالية المصرى فى أوائل عام ١٩٣٧ م أمام البرلمان حيث قال : ان الدولة

المصرية قررت انشاء مصانع تابعة للحكومة لتصنيع الأسلحة حتى تغطى احتياجات الجيش فى حالة الحرب ، وقد اتجهت النية الى الاستعانة — جزئيا — فى قيام هذه الصناعة بالشركة الانجليزية « صناعة الكيمياء الملكية Imperial Chemical Industry » •

انه لأمر بالغ الأهمية أن يبدأ فى مسح شامل للأرض تحت اشراف الدولة بحثاً عن المعادن — كما حدث فى تركيا — وتتولى ادارة خاصة تنفيذ عمليات التنقيب عن الثروات المعدنية ، بعد أن أثبتت الأبحاث أن مصر غنية بالمعادن المختلفة ، فعلى شاطىء البحر الأحمر تأكد الخبراء من وجود بترول بكميات هائلة ، واستخرج جزء منه فعلا ، ومن سيناء يجرى استخراج الزنك والمنجنيز ، واكتشف عند شاطىء البحر الأحمر ، وعند السخنة عرق ذهب — ويبدو أن المستخرج منه عالى القيمة بوجه عام — كذلك تأكد الخبراء — الذين كلفتهم الحكومة بالتنقيب — من وجود الذهب فى مكان آخر ، غير أن الحكومة منعت نشر الخبر واحتفظت به سراً لديها • وعليه فلن يمضى غير وقت قصير حتى تقام هنا قاعدة لتصنيع المعادن ، اذ أن العناصر اللازمة لقيام هذه المصانع موجودة فى الأرض ، غير أنها — أى المصانع — تفتقد الفحم •

وقد وضعت الحكومة مبادىء وتعليمات قاسية لتنظيم عملية التنقيب عن المعادن ، وسنت لها قانوناً يستشف المرء منه ومن الجو العام لسياسة وزارة المالية ، أن الحكومة المصرية تفكر فى نقل عملية التنقيب الى ملكية الدولة وتجعلها احتكارا حكوميا •

تفتقد الصناعة فى مصر — كما ذكرنا — الفحم ، ولكى يعوض هذا النقص قرر خبراء الصناعة استخدام تيار النيل لتوليد الطاقة بدلا من الفحم ، ففى عام ١٩٣٧ م وضعت الحكومة مشروعا لبناء سدين ، عند أسوان وأسيوط ، كى تستخدم مساقط المياه فيهما فى توليد طاقة كهربائية تخدم حركة التصنيع فى البلاد ، وتدفعها الى الاقتراب من هدفها ، فلو نفذ هذا المشروع كله لأصبح لدى مصر مولدات للطاقة تغطى احتياجاتها تغطية كاملة ••• لا ، بل سيكون لديها فائض كبير •

**الى أى مدى وصلت حركة التصنيع فى مصر وأين تقف ؟**

نستطيع أن ندرك الجواب لو وضعنا أمامنا احصائية عن الأيدى العاملة فى مصر ، نشرها مكتب العمل المصرى ، تقول الاحصائية ان سكان مصر يبلغون ١٦ مليونا تقريبا ، يعمل ٣٫٥٢٥٫٠٠٠ فى حقـــل الصناعة ، وفيما يتصل به •

* * *

نشطت حركة التصنيع أيضاً فى الدول الاسلامية الصغيرة ، فمثلا فى العراق ينتشر المـــد الصناعى — وان كان بطيئا فى سيره — يحدوه طموح الوطنيين فى أن تصل الدولة الى وضع يمكنها من تصنيع موادها الخام محليا بقوة تكفى لتغطية احتياجاتها المحلية • ويرجع السبب فى بطء التحول والتغيير فى البنـــاء الاقتصـــادى — أعنى التحول الى الصناعة — الى أن رأس المـــال السائل موجود فى أيـــدى الدوائر التجارية التى تبدى تحفظا ، بل تتراجع جاذبة أموالها بعيدا عن وضعه فى منشآت صناعية ، لأنها لم تتعود تثبيت الأموال على هذه الصورة ، لذا قامت الدولة بتغطية القسط الأكبر من الودائع الصناعية من ميزانية الدولة ، وباشرت تنفيذ المشروعات بنفسها • ورغم هذا فقد فتحت قوانين حماية الصناعة ثغرة ينفذ منها رأس المـــال الخاص ، كى يستخدم تدريجياً فى التصنيع • يسير تطوير الصـــناعة فى العراق طبقا لتخطيط وضعته الدوائر الرسمية وتموله الحكومة من عائد البترول كما هو الحال فى ايران •

وأكتفى بهذه الأمثلة فى تصوير موجة التصنيع فى بلاد العالم الاسلامى ، وقبل أن أترك هذا الباب : أضع أمام القارىء خبرا لا يقل أهمية عما سبق : لقد أصدر البنك الوطنى الذى أسس فى أفغانستان عام ١٩٣٤ م لأول مـــرة أوراق « بنكنوت » ، ويقوم — بتكليف من الحكومة — بتمويل المشروعات الصناعية •• هذا فى أفغانستان التى تقع فى الطرف البعيد من المنطقة الاسلامية •

* * *

## الباب الخامس

# الإسلام والقوى العظمى

# الإسلام والقوى العظمى

كانت روسيا أول قوة أوروبية عظمى تغير موقفها تغييراً كلياً تجاه العالم الاسلامى الذى يجتاحه اليوم تغيير فكرى ، وتخترق أجواءه حركات وطنية تدعو الى الحرية والاستقلال ، ويجرى فى أوطانه تشييد نظم سياسية جديدة ، فما يجرى فى العالم الاسلامى اليوم — سواء أكان ذلك على الصعيد السياسى أو ما يتعلق بالتجديد الدينى ، أو ما يتصل بالنهضة الصناعية التى تؤثر تأثيراً كبيراً على وضع المنطقة الاقتصادى — يحتم على الأوروبيين البدء فى مراجعة العلاقة بين الشرق الاسلامى والدول الأوروبية الاستعمارية مراجعة دقيقة وشاملة ، فقد أثر تغيير الموقف الروسى — والموقف الثورى أيضاً — على الرباط القائم بين الاسلام وبين البلاد الغربية غير الروسية .

فى ٢٤ نوفمبر ١٩١٧ م — أى بعد انقضاء ستة أسابيع بقليل على وقوع الانقلاب الذى جاء بالبلشفيين فى روسيا الى الحكم — وجهت الحكومة السوفييتية الجديدة نداءها الرسمى الأول — الى كل المسلمين العاملين — الذى أزاح اللثام عن الخطوط السياسية العريضة فى موقف البلشفيين تجاه الشرق ، فقد أخذت موسكو شعارات القومية الشرقية التى انتشرت آنذاك فى المنطقة الاسلامية بعد انهيار تركيا القديمة ، ووجهتها نداءات للتحريض ضد الدخلاء الأجانب والاستعمار الغربى فى العالم الاسلامى . وبأسلوب ماهر بارع وضعت هذه الشعارات أمام الوعد الذى التزمت به انجلترا أمام شعوب المنطقة ، ألا وهو اعطاء مزيد من الحرية ، وتهيئة الشعوب تدريجياً الحكم الذاتى ، ولكن تحت وصاية أوروبا المتحضرة . جاء فى نداء الحكومة السوفييتية : « لقد سقطت ممالك المغتصبين والقراصنة الرأسماليين ، وان الأرض تغلى تحت أقدام المعتدين الاستعماريين ، يامسلمو روسيا يا من

حربت مساجدكم وهدمت بيوت عبادتكم نعلن لكم : أن عقائدكم الدينية وشعائركم ومنشآتكم الحضارية والقومية ستصبح ابتداء من اليوم مصونة لن تمتد اليها يد آثمة . أقيموا حياتكم القومية فى جو الحرية دون أن يعوقها عائق ، فلكم الحق فى ذلك » .

لم يزل النداء موجهاً فقط الى العشرين مليون مسلم الذين يعيشون داخل حدود الدولة الروسية . ولكن فيما بعد اتجه نداء السوفييت الى المسلمين خارج روسيا ، وأعلن : « يا مسلمو الشرق : يا ايرانيون ، يا أتراك ، يا عرب ، يا من مارس المغتصبون الاستعماريون القادمون من أوروبا التجارة قروناً بأرواحكم ، وأموالكم وحرياتكم ، وأوطانكم ، يا من قسم دياركم هؤلاء النهاب الذين أشعلوا الحرب العالمية ، نعلن لكم :

— أن معاهدات القيصر المخلوع السرية التى نص فيها على السماح له بغزو القسطنطينية بالقوة قد مزقت ومحيت من الوجود ، فالجمهورية الروسية وحكومتها ترفض الغزو المسلح لأراضى دولة أجنبية .

— أن معاهدة تقسيم ايران قد مزقت وأزيلت من الوجود ، فبعد أن تنتهى العمليات الحربية ستسحب القوات الروسية مباشرة من ايران ، وستكفل الحرية للشعب الايرانى ليقرر مصيره السياسى عن طريق استفتاء شعبى حر .

— أن معاهدة تقسيم تركيا واغتصاب أرمينية قد مزقت ومحيت من الوجود . وبعد أن تنتهى العمليات الحربية ستكفل الحرية أيضاً لشعب أرمينية ليقرر مصيره السياسى عن طريق استفتاء شعبى حر » .

حددت الكلمات التى احتواها بيان البلشفيين الى العالم الاسلامى أسس الاتجاه السياسى ، التى أراد السوفييت الالتزام بها تجاه الاسلام ، حيث تنتشر الثورة من أتباعه للتخلص من الاستعمار الغربى ، وقد أرادوا بذلك عقد تحالف بينهم وبين المسلمين لمقاومة الاستعمار الرأسمالى ، ويتبين المرء من نغمته — أى بيان البلشفيين — أن السوفييت بدأوا وكأنهم يمسكون بأيديهم مقرعة يدفعون بها القوميين المسلمين للثورة ضد المغتصبين الاستعماريين ، وقد ساعدتهم الظروف — كما

ساعدهم أيضا خطتهم المحكمة فى رسم توقيت الدعاية — على التوغل فى نفوس كثير من الشرقيين — ولا يستطيع أحد أن يتنبأ بالآثار التى سوف تترتب على هذا فى المستقبل — لتحريضهم ضد القوى العظمى الغربية •

نشرت جريدة « أزفستيا » فى ١٠ ديسمبر ١٩١٧ م — أى بعد فترة وجيزة من نشر بيان البلشفيين الأول — برنامجاً محدداً لسياسة الحكومة السوفييتية تجاه فارس ، وعزز هذا البرنامج بخطاب من « تروتسكى » الى السفير الفارسى فى بطرسبورج • ومما ذكره « تروتسكى » فى هذا الخطاب : التأكيد مرة أخرى على تنازل روسيا عن حقها فى المعاهدة الانجليزية الروسية التى عقدت فى ١٨ أغسطس ١٩٠٧ م والتى نص فيها على تقسيم فارس الى منطقة نفوذ انجليزية وأخرى روسية •

تجاوبت أصداء البيان الروسى فى العالم الاسلامى ، وأحدث رجع الصوت دوياً فى أرجاء المنطقة ، فتزايدت الأصوات — فى تركيا وفارس — التى هللت للبيان السوفييتى الصادر فى ٢٤ نوفمبر ١٩١٧ م ، ووصفته بأنه وثيقة الحرية الكبرى — لو تحقق ما جاء فيه — ، وهكذا بدا أن المبادىء الأساسية لعمل مشترك بين روسيا الحرة وبين الـ ٢٥٠ مليون مسلم الذين يئنون تحت وطأة المغتصبين الأجانب ويشربون كأس عبودية الاستعمار الغربى قد وضحت ، وأن الظروف أصبحت ملائمة لتوحيد الجهود ضد المستعمر •

أثر النداء الروسى فى الفكر الاسلامى تأثيراً كبيراً ، اذ اختط قنوات وعبد طرقا ، فظهرت معالمه فى كثير من أوجه النشاط الفكرية والسياسية ، ونلمح أثر ذلك فى الخطط التى وضعها الايرانيون لقيام اتحاد بين المسلمين الفارسيين واخوانهم الأتراك ، يعمل على انشاء رباط ثورى بين كل المسلمين ، سواء أكانوا يعيشون فى مستعمرات انجليزية أو فرنسية أو ايطالية أو ألمانية أو هولندية أو غيرها •

فى يناير سنة ١٩١٨ م كونت موسكو « لجنة اسلامية » ( مجلس

أعلى للشئون الاسلامية ) أولتها الحكومة الســوفييتية رعاية خاصة ، فمنحتها الحماية ودعمتها ماليا • حصرت هذه اللجنة مهمتها فى بادىء الأمر فى شئون المسلمين داخل حدود الاتحاد السوفييتى ، ولكن سمح لها فيما بعد بتوسيع دائرة اختصاصها لتشمل المسلمين فى أرمينية ، فأصبحت أو شعرت أنها مسئولة عن تيسير شئون الدين الاسلامى فى هذه المنطقة ، وبهذا تدخلت هيئة سوفييتية لأول مرة دون مواراة أو مداراة فى مسائل تتعلق بشئون اقليم يقع خارج حــدود الاتحــاد السوفييتى •

وقد دعت هذه اللجنة المركزية الاســلامية الى عقد مؤتمر فى ديسمبر سنة ١٩١٨ م ، وكان الهدف الأساسى من وراء عقده أن تتوصل الدعاية الســوفييتية الى انشــاء تنظيمات « خلايا » لها فى العالم الاسلامى ، ففى أثناء انعقاد المؤتمر تكونت « رابطة تحرير الشرق » ، وصيغ برنامج عملها فى مذكرات تحت عنوان « الشرق والثورة » •

ويشير الحديث فى هذه المذكرة الى توضيح منهجى للسياسة السوفييتية فى الهند وفارس والصين، وفيه أيضاً فقرة قرظت الوحدة الاسلامية التى انتكست أثناء الحرب انتكاساً مريراً ، وقضى عليهــا نهائياً بهزيمة الدولة التركية الكبرى ، فالفقرة غنية فى أسلوبها وكلماتها بالتعبير عن الموقف الروسى تجاه العالم الاسلامى ، اذ جــاء فيها : « كانت الوحدة الاسلامية فى جوهرها حركة دينية وطنية فالاسلام دين سياسى ، كان له دور لا يستهان به فى توجيه أجهزة الدولة السياسية ، فقد كانت حياة المسلمين الدينية ايجابية فى المجتمع تخللها الفكر المناضل السياسى • ولهذا تستطيع الوحدة الاسلامية أن تقوم بنشاطها مــرة أخرى كحركة دينية استعادت هيئتها وهيبتها ، وتقف للنضال ضــد الاستعمار الغربى فتعقد تحالفاً بناء مع روسيا الجديدة التى تناضــل فى نفس الميدان » •

ودب النشاط فى « رابطة تحرير الشرق » ، فأسست فى عــام ١٩٢٠ م مدرسة عليا فى طشقند — لتدريب القادة — لتخريج الطلائع

الثورية في الشرق • ففي هذه المدرســـة يدرب حملة سياسة البلشفيين ويتعلمون كل لغات الشرق ، ثم يرسلون الى كل اتجاهات ومـــراكز المناطق الغربية لآسيا ، كي يضعوا أسس ترابط السوفييت مع الشعوب التي دبت فيها حركة الثورة •

* * *

انقضت مرحلة الوعود وتبعتها مرحلة التنفيذ ، ففي أوائل خريف عام ١٩٢٠ م دعت الحكومة السوفييتية الى عقد مؤتمر عالمي لشعوب الشرق في باكو ووجهت الدعوة الى أكثر من ٢٥٠٠ عضواً من كل بلاد العالم الاسلامي ، ولبى الدعوة أكثر من ١٨٠٠ عضوا •

ولكن أدركت لندن — بعد برهة — خطر سياسة البلشفيين تجاه الشرق فبذلت كل ما في وسعها ، واتخذت كل الاجراءات لمنع المدعوين من بـــلاد الشرقين الأدنى والأوســـط ، وكذلك المدعوين من الهند من حضور مؤتمر باكو ، فقد ألقى القبض عليهم في الهند وفي الميـــناء الفارسي « Enseli » ووضعت قنابل في السفينة التي سيســـافر عليها الوفد الفارسي ليمنعوها من مواصلة السير ، وفي بلاد ما بين النهرين رفضت السلطات اعطاء تأشيرات خروج لهم ، ومثل العراق في المؤتمر أعضاء « رابطة العراق » ، التي تتخذ مقرها في دمشق خارج حدود منطقة النفوذ البريطاني •

ظهر في المؤتمر — لأول مرة — ضعف سياســـة البلشفيين تجـــاه الشرق ، فقد انقسم الشرقيون الى مجموعتين ، تواجه احداهما الأخرى : مجموعة شيوعية ترى أن التمهيد للثورات الوطنية في الشرق الاسلامي يمثل مرحلة على الطريق الى الثورة الاشتراكية ، أما المجموعة الثانية فترحب باعتراف السوفييت بالثورات الوطنية وتأييدهم لحركات التحرير في الشرق ، وفيما عدا هذا يجب أن تبتعد عن الأفكار الثورية الاشتراكية التي تطبقها روسيا داخل أقاليمها • وليس الصديق الروسي الكبـــير بالنسبة لهؤلاء أكثر من صديق كفء ضد القوى الاستعمارية الأوروبية ، وضد جيوشها الجاثمة على أنفاس شعوب المنطقة ، ويعترفون بالسياسة

التى تساعدهم على الدفاع عن الحرية والاستقلال ، أو الحصـــول عليها .

تضاربت الآراء وتصارعت فى المؤتمر ، فذهب أنور باشـا الذى مثل تركيا فى المؤتمر الى أن الأتراك يعتبرون كل من يقف ضـد انجلترا بلشـفيا ، ورفضت فكرة المقارنة بين الاسلام والاشتراكية التى أعلنها الشيوعيون فى موسكو على المؤتمر : « كما أن الاســلام يدعو الى المساواة بين أتباعه ، ويؤاخى بينهم ، كذلك يضم رباط أخوى كل الذين يؤمنون بالنظام الاشتراكى البلشفى الذى يدعو الى المساواة ، فهو يشبه النظام الاسلامى » . كان لرفض المسلمين المشتركين فى المؤتمر لهذا التحليل رفضاً باتاً أثر على السياسة البلشفية تجاه الشرق على مدى سنوات طويلة ، اذ جمدها وأعاقها عن الوصول الى أهدافها الأصلية ، التى أرادها الشيوعيون يوم ولوا وجوههم شطر الشرق لاشعال الثورة فيه ضد القوى الأوروبية ، الا أنها — أى السياسة البلشفية — تسببت فى حدوث تغييرات فى الشرق الاســلامى ، ودفعت القوى العظمى الغربية الى تعديل سياستها ، كما كانت عاملا مهما للنمو السياسى فى العالم الاسلامى .

لم تكن هناك الافتراضـات الاجتماعية الســابقة لقيام الثورة الاشتراكية التى أرادت موسكو التمهيد لها ، كى تضرب الغرب فى هذا الميدان ضربة قاضية ، فلم يجد السوفييت فى هذه المنطقة شيئا آخر غير بلاد زراعية متخلفة ليس فيها الجماهير الشعبية التى تتجاوب مع المبادىء الثورية الاشتراكية ، ويضاف الى ذلك أن قادة الثوار الوطنيين الذين يصولون ويجولون فى العالم الاسلامى ويلقون الدعم من الاتحـاد السوفييتى كانوا أبعد عن الثورية الاشتراكية الروسية من العامة ، الذين تتحكم فيهم العادات والتقاليد المحافظة ، ويقعون تحت تأثير قوى لتعاليم الدين الاسلامى .

ان ما يبحث عنه الوطنيون الشرقيون لدى روسيا هو السلاح ، والمساعدات العسكرية ، والموقف الدبلوماسى ضد القوى الغربية ،

وتظهر موسكو استعدادا لتقديم هذا كله ، لأن النضال الوطنى الـــذى تقوده شعوب الاسلام ، هو ثورى فى رأى السوفييت ، فقد مزق أوصال الاستعمار الغربى الذى هو العدو الرئيسى لموسكو وأضاع هيبته • قال ستالين ذات مرة — « انه يعتبر النضال العالمى الذى تقوده المجموعة الشيوعية الثانية [1] كفاحا رجعيا ، بينما يرى أن كفاح الوطنيين المسلمين ثوريا » • ولم يلتفت الى الحقيقة الماثلة أمام المراقبين ، وهى أن معظم زعماء الحركات الوطنية فى العالم الاسلامى من الأوســـاط المحافظة ومن الطبقات الشعبية ، فهم يمثلون العناصر التقليدية فى المجتمع الشرقى ، لكنه اعتقد أن كفاح الاستقلال الوطنى الذى اندلع فى العالم الاسلامى وانتشر على جبهة عريضــــة يشترك مع النضــــال الثورى الاشتراكى — الذى تقوده موسكو — فى مواجهة الاستعمار الغربى •

* * *

ظهرت آثار مســـاعدة موســـكو الايجابية بادىء ذى بـــدء فى أفغانستان ، وأحدثت هناك حرجا كبيرا لانجلترا ، لأن أفغانستان تخضع كلية للتبعية الانجليزية • فقد هزت الدعاية البلشـــفية موقف الأمـــير حبيب الله صديق انجلترا المخلص ، اذ طعنته بأنه آلة فى يد الساســـة البريطانيين ، اشتروه بثمن بخس وبمساعدة روسيا المـــادية ، وعن طريق العملاء الشيوعيين أسست « حركة الاستقلال الوطنى الأفغانية » وظهر على رأسها أخو الأمير • ولم يمض وقت طويل على هـــذا حتى اغتيل الأمير ، صديق انجلترا ، فملك أصدقاء الروس زمام الأمور ، وتدفقت الأسحلة الروسية الى داخل البلد ، وفى صيف عام ١٩١٩ م

---

(١) كانت الدعوة العالمية الأولى بقيادة «ماركس» وانفصلت عنها المجموعة الثانية بسبب الخلافات بينه وبين « Bakunin » وفى عام ١٨٨٩م أسست العالمية الثانية بايعاز من الاشتراكيين الديمقراطيين فى المانيا واتخذت باريس مقرا لها ، ثم انهارت فى الحرب العالمية الأولى ، واعيد تكوينهـــا فى عام ١٩٢٣ م واتخذت بروكسل مقرا لها واستمرت فى نشاطها حتى عام ١٩٤٠ م ( انظر : DTV - Lexikon تحت كلمة : Internationale ) ( م.ش ) •

بدأ النزاع على الحدود الأفغانية الهندية ، ولقى الجيش الانجليزى الذى أنهكته الحروب ، وقضت الأوبئة والأمراض على كثير من أفراد .. لقى هذا الجيش صفعة قاسية فيما تلا ذلك من نضال ، مما اضطرت معه الحكومة الانجليزية الى قبول صلح « روالبندى » الذى وقع فى ٨ أغسطس من نفس العام ، وصبرت انجلترا — مكرهة غير راضية — على أول هزيمة دبلوماسية بعد الحرب فى الشرق الاسـلامى ، فى حين انتصرت المساعدة الروسية ، ذلك أن انجلترا تنازلت عن تمثيل أفغانستان فى السياسة الخارجية ، وسمحت — ناقضة بذلك المعاهدات السابقة — بدخول الأسلحة والذخيرة الى أفغانستان ، ووافقت على قيام المملكة الأفغانية المستقلة فى أمورها الداخلية والخارجية ، فلها الحرية الكاملة فى اتخاذ ما تراه فى المسائل الوطنية والدولية .وتتمة لهذه المعاهدات وقعت فى نوفمبر سنة ١٩٢١ م معاهدة أفغانية انجليزية فى كابول ، نصت على انهاء الوصاية الانجليزية على أفغانستان كاملا .

تبع هذا التسليم المنتزع من انجلترا مباشرة بيان روسى جـاء فيه أن مجلس مـديرى ادارات الشعب [1] يعلن : أن حكـومة العمال والفلاحين بكل هيئاتها تعترف باستقلال أفغانستان ، وأن على أفغانستان المستقلة — ابتداء من الآن — واجب التحالف مع روسيا ، لمسـاعدة شعوب الشرق الاسلامى التى لا زالت ترزح تحت نير العبودية لتنال حريتها الوطنية والاجتماعية ، وهكذا تعود مرة أخرى فى البيان نغمة الثورة الاشتراكية التى تتخذها موسكو نموذجا يحتذى .

توطدت الصداقة الروسية الأفغانية وازدادت التحاما عاما بعد عام ، وتحقق التحالف الذى طالبت به حكومة العمال والفلاحـين فى المعاهدة الروسية الأفغانية التى وقعت فى فبراير عام ١٩٢١ م

وقد نص فيها : على أن الطرفين المتعاقدين التزما بألا يعقد أحدهما

---

(١) هو اسم أطلق على المجلس التنفيذى فى الدولة من ١٩١٧ حتى ١٩٤٦م ثم تغير الاسم الـى مجلس الوزراء ( انظـر : DTV - Lexikon ) تحت كلمة : Rat der Volkskommissare ) ( م . ش ) .

مع قوة ثالثة معاهدة تضر بمصالح الطرف الآخر ، ويدعم التمثيل الدبلوماسى بين الدولتين تدعيما كبيراً ، فتحصل روسيا على حق اقامة خمس قنصليات فى أفغانستان بجانب سفارتها فى كابول — أريد بهـذا العـدد من القنصليات تطوير وتركيز النفوذ السوفييتى — ومن ناحية أخرى تتعهد موسكو بتقديم مساعدة مالية لأفغانستان ،يبلغ قيمتها مليون روبل من الذهب سنويا ، وهو يوازى ما كانت تدفعه انجلترا للأمير قبل وأثناء الحرب ، وامتنعت عن دفعه منذ توقيع صلح « روالبندى » •

وفيما يتعلق بمسائل الحدود الروسية الأفغانية ، أبدت روسـيا سعة أفق ورحابة صدر ، فأعلنت استعدادها للتنازل عن مناطق الحدود التى ضمت فى عهد القيصر الى بخارى وروسيا واعطائها لأفغانستان • وفى مقابل هذا التزمت أفغانستان أن توجه حركة مواصلاتها نحـو الشمال ، فلم تبحث عن وصل خطوطها بشبكة الخطوط العالمية عبر الهند بل عبر روسيا •

لم تصل روسيا الى هدفها الحقيقى رغم توقيع هذه المعاهدة التى قوت مركزها فى أفغانستان وعمقته ، بقدر ما أضعفت مركز انجلترا هناك ••• لم تحقق روسيا هدفها الحقيقى ، ألا وهو قيام الثورة الاشتراكية ، لكن بدون شك أصبحت كابول — بتأثير المعاهدة الأفغانيـة الروسية — مركزا للدعاية الشيوعية ، غير أنها لم تجد لها طريقا فى الأقاليم الأفغانية بسبب معارضة الحكومة ويقظتها ، لذا لم تستطع الدعاية البلشفية اختراق المناطق الأفغانية ، بل تعدتها الى خارج الحدود ••• الى الهند ، ويتلقى حملة الدعاية الشيوعية فى الهند الأوامر من كابول ، فأصبحوا دمى يحركهم البلشفيون من داخل أفغانستان ، وهكذا بدا واضحا أن انجلترا لم تخسر مناطق فقط بتنازلها عن أفغانستان ، بل مكنت البلشفيين من اقامة مركز لهم فى هذا البلد تنطلق منه سموم دعاية شيوعية أقضت مضجع انجلترا فى الهند ، وتهددها بالخطر حتى اليوم •

*** 

كان التزام روسيا بمساعدة الحكومة الوطنية فى فارس على تثبيت مركزها وتمكين سلطانها أهم وأبعد أثراً مما حدث فى أفغانستان ، اذ يعتبر السوفييت المنطقة الفارسية ذات أهمية بالغة باعتبارها — من الناحية الجغرافية — مركز العالم الاسلامى فى غرب آسيا ، فهى تهم روسيا بنوع خاص ، نظراً لأن حدودها مع روسيا تمتد مسافة كبيرة ، ولأن وراءها تقع مناطق النفوذ الانجليزية فى الهند وفى العراق .

ففى بداية العلاقة الروسية الفارسية الجديدة حاولت روسيا — بد أن بلشفت منطقة بخارى — أن تطوى فارس أيضا بمساعدة الجيش الأحمر ، وقد قوبل دخول الجيش الأحمر فارس بالترحيب فى بادىء الأمر ، لأنهم اعتبروه مساعدا لهم ضد انجلترا ، وفهموا أنه صديق وحليف يقف معهم فى مواجهة الاستعمار الانجليزى ، ولكن عندما لاح فى الأفق أن هذه القوة المسلحة تحاول اشعال نار الثورة الاشتراكية ، أى بلشفة شمال فارس ، انتشرت معارضة هذا الاتجاه وتمت مقاومته ، وتحتم على روسيا أن تعى درسا مرةأخرى يبصرها بأن البلد الزراعى المتخلف الذى يتحكم فيه جمود الفكر الدينى [1] ، لا يمكن أن يكون حقلا لمثل هذه الأيديولوجية « العلمية » وقد سلم بهذه الحقيقة فـــورا ففى عام ١٩٢٠ م — أى فى الوقت الذى لم يزل فيه الجيش الأحمر مرابطا فى شمال فارس — كتبت صحيفة أزفستيا :

« ان من الضلال أن نعتقد أن الثوار الفارسيين شيوعيون ، وأنهم النموذج الذى يلتزم بقواعد ثورتنا الاشتراكية ، فليس فى فارس عمال مصانع بل بلد زراعى متخلف ، ولا ينبغى أن نحاول هناك القيام بثورة لم توجد بعد الافتراضات المقدرة لقيامها ، ولم يهيأ الجو لمثل هذا العمل ، فنحن نحتاج الى صداقة فارس ، لأن وراء هذا البلد تمتد مناطق نفوذ انجلترا ، وازدياد النفوذ الروسى طبقا لهذا المفهوم يعنى بالنسبة لرأس المـــال الانجليزى اجباره على مسالمتنا » .

---

(١) هذا تعبير الشيوعية الملحدة عن أصالة الفكر الدينى ( م.ش ) .

بعد أن فشلت محاولة اشعال نار الثورة الاشتراكية في فارس — يرجع فشلها الى وجود الظروف غير الملائمة ، والى مقاومة الفرق القوقازية بقيادة رضا خان الذى أصبح الشاه فيما بعد — اكتفت موسكو بتقديم المساعدات الدبلوماسية والأدبية والاقتصادية للثوار الفارسيين ليناضلوا ضد انجلترا التى تبسط سلطانها الاستعمارى على المنطقة ، وهكذا أصبحت موسكو فى فارس — كما فى تركيا وأفغانستان — السند القوى للدولة الجديدة التى أسسها رضا خان وجنوده القوقازيون بعد الانقلاب الذى قاموا به فى ٢١ فبراير سنة ١٩٢١ م .

وعلى درب هذا الاتجاه الجديد لروسيا قررت موسكو بعد مضى وقت قصير من وقوع الانقلاب — وبالذات فى نفس الشهر فبراير سنة ١٩٢١ م — عقد معاهدة مع فارس تضمن للدولة الجديدة أسسا جوهرية يرتكز عليها بناؤها الحديث ، اذ تنازلت فيها الحكومة الروسية — كما جاء فى البيان الرسمى الروسى الذى صدر من قبل موضحا أسس السياسة الروسية تجاه الشرق — عن جميع المخططات السابقة لغزو فارس ، وأعلنت الغاء كل المعاهدات التى عقدتها حكومة القيصر مع هذا البلد ، كما تنازلت عن الحق الذى أعطتها اياه المعاهدات الانجليزية الروسية المعقودة فى عام ١٩٠٧ م ، والتى قسمت فارس الى منطقة نفوذ انجليزية وأخرى روسية ، وتجاوزت التنازلات هذا الحد ، فوهبت موسكو فارس ما عليها من ديون لروسيا ، وتنازلت عن كل الحقوق الخاصة لمواطنى الدولة الروسية فى فارس ، اذا ألغت كل الاجراءات التى تعطى للمواطنين الروس الذين يعيشون هناك امتيازات أجنبية ، كما تنازلت عن الحقوق الأخرى التى اكتسبتها بموجب تسليم فارس فى الحرب ، وطالبت الحكام الجدد بالعمل على الغاء الامتيازات الأجنبية بالنسبة لرعايا القوى الغربية دون الالتفات الى معارضتهم أو الاستماع الى رغباتهم ، فلهم — أى حكام فارس الجدد — السلطة التامة والسيادة الكاملة فى دولتهم .

وآلت كل طرق المواصلات التى أنشأتها روسيا القيصرية فى شمال

فارس ، بناء على تصريح من الحكومة الفارسية ... آلت الى الدولة الفارسية ، فأصبح لها الحق فى بناء أسطول فى بحر قزوين ، وزيادة على هذا ، فقد التزمت روسيا بتقديم المساعدات العسكرية لفارس ، اذا غادر جيش القوة الأجنبية فارس — المقصـــود بالقوة الأجنبية هنا انجلترا — ووعدت موسكو بسحب قواتها التى أرسلت للمساعدة ، اذا زال الخطر الذى يهدد الدولة الجديدة . وكان أكثر بنود المعاهدة شأنا وأبعدها اثارة تلك التى وجهت — بشـــكل واضح — ضـــد القوى الاستعمارية ، وكذلك التى تعبر عن صداقة روسيا للعالم الاسلامى ، وتدعو الى خلق جبهة واحدة للعمل المشترك ضد الاستعمار الغربى ، ومما جاء فيها : « تنبذ الحكومة السوفييتية سياسة حكومة القيصر وتمقتها ، تلك السياسة التى أدت الى عقد معاهدات مع القوى الأوروبية لتسلب الشعوب الشرقية حريتها وتقضى على استقلالها ، وتستهدف فى الوقت نفسه تقوية البلاد التى كانت أطراف تلك المعاهدات ، فالسياسة الاجرامية التى بواسطتها أصبحت أمم الشرق غنيمة لارواء غليل شهوة الأمم الأوروبية المستغلة التى لا تشبع ، هـــذه السياســـة تمجها الحكومـــة السوفييتية وتنبذها ... واتفاقا مع هذا تعلن الحكومة السوفييتية رفضها الشكلى للمشاركة فى أى عمل يهدف الى ضعف فارس أو يؤثر على حريتها الوطنية » .

اعتمدت فارس على السند الروسى الذى أبدته موسكو فى صياغة المعاهدة ، فأنذرت الحكومة الوطنية فى فارس — بعد توقيع المعاهدة الفارسية الروسية مباشرة — بالغاء المعاهدة الفارسية الانجليزية التى عقدت فى ١٩١٩ م والتى استهدفت انجلترا من ورائها ممارسة الرقابة الكاملة على بلد القاجاريين .

ان المعاهدة الروسية الفارسية وثيقة ذات طابع خاص ، اذ كانت من أوضح الأدلة على سعة أفق الشيوعيين ورحابة صدورهم فى توجيه السياسة البلشفية تجاه الشرق ، فقد دلت هنا دلالة واضحة على هدف أسلوب التنازل الحر — بدون ضغط الحركات الوطنية — وغاية الالتزام

بتقديم مساعدات من تلقاء أنفسهم ، اذ كان الغرض من ذلك تقوية الميل الى الاكتفاء الذاتي ، ودعم الوعى الوطنى لدى الشعوب الاسلامية والمناورة بهذا فى جبهة روسية ضد القوى الغربية الاستعمارية ، التى لا زالت حتى اليوم تسعى — وتجد فى السعى — الى تحقيق أهداف استعمارية فى المنطقة الاسلامية • وفى نفس الوقت أملت موسكو فى قيام حزام من الدول الصديقة التى تتفق معها فى الآراء حول المسائل الدولية على الحدود الروسية — لتحميها — التى تتصل بمناطق السلطة الانجليزية • وقد حققت السياسة الروسية هذا الهدف فى فارس ، ولكنها لم تصل الى تحقيق قيام الثورة الاشتراكية هناك على الرغم من أن موسكو حاولت — ولا زالت — بعد عقد المعاهدة أن تتجاوز موقف المساعد فى المسائل السياسية والعسكرية ، وكان أداة هذه المحاولة رئيس الوزراء ضياء الدين — الذى عين بعد الانقلاب العسكرى — فقد أثبت للسوفييت أنه الرجل الاشتراكى المتطرف ، وأنه يعمل على نقل ملكية الاقطاعيات الكبيرة الى الدولة ، حين أمر باعتقال عدد من الأرستقراطيين والاقطاعيين ، كى يجبرهم على الموافقة على تأميم أملاكهم ، ولكن المقاومة ضد هذه الأفكار التى خرجت من مدرسة موسكو نمت بسرعة واشتدت ، فأظهرت أن قائد الانقلاب ، رضا خان ، قد نفر من العلمانيين أصحاب المبادىء الثورية الاشتراكية واعتبرهم خطراً على تحقيق الآمال الوطنية ، لذلك عزل رئيس وزرائه واتخذ اجراءات ضده فهرب — أى رئيس الوزراء المعزول — خارج البلاد • ومنذ ذلك الوقت يتعقب رضا خان — حتى فيما بعد ، عندما أصبح ملكا على فارس — كل المحاولات اليسارية التى تساعد أصدقاء البلشفيين على قيام ثورة اشتراكية بأسلوب لا هوادة فيه رغم صداقته لروسيا ، وبات من الواضح لكل أحد أن الدولة الفارسية — وكذلك تركيا — تعتبر الشيوعيين أعداء الدولة ، وأن الدولة جادة فى تعقبهم وكبح جماحهم •

***

تراءت السياسة السوفييتية فى سعيها لتوطيد العلاقة مع تركيا أنها

تسير نحو هدف مماثل — كما فى ايران — فقد قربت علاقة الصداقة الأولى المساغة بين تركيا وروسيا ، وظلت هى الفيصل — ولا شيء غيرها — فى توجيه كلتا الدولتين نحو بعضهما ، ففى صيف عام ١٩٢٠ م زار أنور باشا موسكو للتفاوض مع الشيوعيين هناك بشأن تقديم مساعدة روسية لدولة تركيا الحديثة ، التى تقف فى الميدان ضد انجلترا وفرنسا وحلفائهما ، ثم كتب عن نجاح هذه الرحلة التى أطلق عليها بعضهم رحلة الحج الى موسكو ما يلى : « لقد توجت الرحلة الى موسكو بنجاح لم ننتظره ، اذ تعمقت جذور الصداقة بيننا وبين روسيا ، فالمدافع قد عبئت بالذخيرة وتوشك أن تنطلق من تلقاء نفسها ، ومعنى هذا نهاية سلطة الاستعمار الانجليزى فى آسيا وفى مصر • وحق للعالم الاسلامى أن يرفع رأسه — معتمداً على روسيا — كى يتخلص من العبودية الانجليزية ، وربما يحتاج الوصول الى هذا الهدف الى خمس عشرة سنة ، ولكن هذا الزمن يعتبر فى حساب التاريخ مدة قصيرة لا تلبث أن تنتهى بسرعة •••• »• وبعد مدة قصيرة — وبالضبط بعد مرور خمسة عشر عاما على تنبؤ أنور باشا بهذه النبوءة — اضطرت انجلترا أن تطرق باب أنقرة ، لتبحث هناك عن حليف لها ضد أعدائها من الدول الغربية الذين يهددون مصالحها •

وصلت الصداقة السوفيتية التركية فى عام ١٩٢٠ م الى الحد الذى عرضت فيه موسكو على كمال أتاتورك — وكان يحارب آنذاك فى جبهات متعددة لتأمين قيام تركيا الحديثة — أن ترسل له قوات روسية لمساعدته ، ولكنه — لحرصه الشديد — رفض هذا العرض • ورغم هذا أثر العطف الروسى على تركيا ومساندتها بالأسلحة والذخيرة تأثيراً جوهرياً فى انتصار الوطنيين الأتراك على أعدائهم الاستعماريين • وأثناء تعقب الأرمينيين كانت القوات الروسية والتركية تحارب فى جبهة مشتركة ، وزاد الاتصال بين الدولتين ، وتعمقت صلة الترابط بينهما بواسطة المعاهدة التى عقدت فى ١٦ مارس سنة ١٩٢١ ، والتى قررت مصير أرمينية بتقسيمها بين تركيا وروسيا •

هناك وجه شبه بين هذه المعاهدة وبين المعاهدة الروسية الفارسية التى عقدت فى فبراير سنة ١٩٢١ م ، اذ يطالع المرء حرفياً فى نصوص هذه المعاهدة : « تقر الدولتان المتعاقدتان بأن النضال الوطنى من أجل الحرية يتفق — فى أهدافه — مع نضال الطبقة العاملة فى روسيا من أجل النظام الاشتراكى ، ويعلنان تأكيد حق الشعوب الاسلامية فى الحرية والاستقلال ، وفى اتباع نظام الحكم الذى يحقق رغباتهم » ، ثم تناولت الوثيقة حديثا عن تنازلات روسيا — بالضبط كما جاء فى المعاهدة الروسية الفارسية — : الغاء حقوق الدولة الروسية التى آلت اليها فى عهد القيصر ، والتنازل عنها لتركيا مع الاحتفاظ بحق حل مسائل المرور فى المضايق المائية فى مؤتمر دولى • ولعبت روسيا هنا — كما فى ايران — دوراً كبيراً عندما هدد الأعداء من الداخل والخارج دولة تركيا الحديثة ، واضطرت الحكومة الى خوض معركة مصيرية ضدهم ، اذ وقفت موسكو خلفها . فساندتها مادياً وأدبياً مساندة جوهرية أدت الى نصر تركيا — الذى هو فى الوقت نفسه نصر للشرق — على القوى الغربية •

لم تنقطع الصداقة الروسية التركية التى نشأت فى أول عهد تركيا الحديثة ، ولم يعتريها الوهن رغم موقف الحكومة من الحزب الشيوعى التركى ، ففى بداية عهد هذه الصداقة حاولت روسيا — رغم قيام معاهدة مارس سنة ١٩٢١ م — اضرام نار الحركة الشيوعية داخل تركيا ، اذ كلفت عملاءها بتأسيس الحزب الشيوعى التركى ، وقدمت لهم موسكو مساعدات مالية كبيرة • غير أن الحقيقة تراءت لعيونهم بسرعة ، وعلمتهم التجربة أن الفلاحين الأتراك محافظون يتمسكون بالتقاليد تمسكا لا يسمح لهم بالتجاوب مع شعارات الثورة الاشتراكية القادمة من موسكو ، وأبعد منهم عن التأثر بهذه الشعارات ، وأقل تجاوبا معها هؤلاء الرجال الذين قامت على أكتافهم تركيا الحديثة ، وناضلوا فى سبيلها نضالا مميتا ، فهم — كما قال زعيمهم مصطفى كمال — ضباط ينحدر معظمهم من أوساط شعبية ، اذا يتجه تفكيرهم كله نحو تدعيم

الطاقات الوطنية التى يقوم عليها بناء القومية التركية ، فى حين يشكون كثيرا فى علمانية الثورة الاشتراكية ، ويرونها خطرا على الدولة • زاد هذا الموقف حدة العداوة ضد الشيوعيين — رغم الصداقة المتينة مع موسكو — ودفع الحكومة الى تعقبهم ، كلما لاح نشاطهم فى الأفق داخل حدود الدولة التركية ، فالشيوعى هو عدو الدولة اللدود •

ولكن لم يمنع هـذا الموقف — موقف الحكـومة التركيـة مع الشيوعيين — من أن تظل روسيا — بواسطة الصداقة الروسية التركية المتينة — السند الاقتصادى القوى المقدم على غيره ، وأن تقدم الخبرات العلمية والمدربين والسلاح للجيش التركى • وما فتئت تدافع عن المصالح التركية فى مناورات النزاع العالمى ، وأوضح دليل على ذلك ما قامت به روسيا فى « مونترو » أيام انعقاد مؤتمر المضايق المـائية ، اذ استطاعت تركيا — بفضل مسـاعدة روسيا — أن تستعيد حق ممارسة سيادتها على مضيقى الدردنيل والبوسفور ، كذلك لم يهتز الترابط الروسى التركى أيضا ، ولم يفتر بسبب التقارب التركى الانجليزى ، الذى حتمه التوسع الايطالى فى منطقة البحر الأبيض المتوسط ، اذ لا زالت تقف تركيا حتى الآن — كما كانت تقف من قبل — فى الميدان الذى خلقته موسكو فى الشرق الاسلامى ضد الاستعمار الغربى •

* * *

لعبت موسكو دورا مهما فى سوق حركات التحرر الوطنى فى أجزاء بعيدة عن حدودها فى الشرق الاسلامى ، اذ يمثل تأثيرها دور من يمسك المبسوط أو المقرعة ليسوق بها قطيعه الى الهدف الذى يريده — وذلك حيث بدا للقوى الاستعمارية الأوروبية بعد نهاية الحرب أنها قاربت بلوغ تحقيق أهدافها فى بناء مستعمرات لا تخرج منها أبدا — فقد ألقت موسكو بثقلها فى هذه المناطق ، كى تزحزح أقدام المستعمرين عن الأرض ، التى تمكن فيها سلطانهم ، وأباح لهم استعباد رقاب أهلها واستنزاف ثرواتها وطمس ماضيها القديم بحضارته وتاريخه ، والحيلولة دون التطلع الى المستقبل واختيار النظم التى تضمن لهم سيادة لا يشوبها

استعباد أو فقر وحرمان .. ولا زالت موسكو تلعب هذا الدور فى أجزاء العالم الاسلامى الذى لم تصل فيها قضية الحرية الوطنية الى نهايتها ، فلم تزل معاركها دائرة فى تلك البلاد الواقعة تحت الانتداب الأجنبى فى غرب آسيا : فلسطين وسوريا وفى غرب افريقيا حيث مناطق النفوذ الفرنسى والانجليزى .

فى هذه المناطق .. فى جبهات النضال ، حيث لم يزل النزاع بين الشرق والغرب يتخذ طابع الكفاح المسلح ، يستطيع المرء أن يلاحظ بالضبط ، كيف يتعرف البلشفيون على الجبهة المعادية للغرب التى تجتاح الشرق متجاوزة حدود منطقة المصير الاسلامى ، وكيف تسعى موسكو سعيا حثيثا الى اقامة ترابط بين حركات التجديد والاصلاح الوطنية وبين الحركات الاشتراكية ، ودائما حيث تضطر السياسة الرسمية للاتحاد السوفييتى الى التحفظ — فانه مهما كان الأمر فارتباط الاتحاد السوفييتى بتلك القوى الذى يعمل على اضعاف مركزها فى الشرق برباط صداقة أو برباط تحالف ، — يجوز « لعملائه الشيوعيين غير الروسيين » أن يتحركوا ، بحرية ، ودون توقف ، فليسوا مكلفين بمراعاة حساسية الموقف بين موسكو والدول الأخرى ، وهم وان كانوا يتحركون طبقاً لأوامر روسيا وبمساعدتها فلا تحدث أعمالهم خطرا مباشرا على علاقات موســكو الدولية ، ويتصرف هؤلاء حسب الطريقة القديمة : يحاول المرء عن طريق المشاجرة مع الاستعمار أن يهز أرض الشعوب الاسلامية ويلينها ويحدث بها شقوقا ، وفى هذه الشقوق توضع بذور الثورة الاشتراكية .

اتخذت موسكو هذه الطريقة أسلوب عمل لها فى شمال افريقيا ، ونجحت نجاحاً له وزنه وقيمته ، ليس فقط فى المجال السياسى ، بل تقدمت أيضاً خطوات واسعة فى ارساء مقدمات الغليان الاشتراكى ، ففى الوقت الذى كانت فيه حكومة الجبهة الوطنية [1] تقود الأمور

---

(١) حكومة ائتلافية الفها «Leon Blum» من الاشتراكيين المتطرفين والشيوعيين فى فرنسا ٣٥ — ١٩٣٦ وعرفت تحت اســم Frcnf lolulaiie ( م . ش ) .

بتكاسل وتراخ فى باريس ، استطاع عملاء السوفييت فى الجزائر وتونس أن ينظموا فرقهم وخلاياهم دون أن يعوقهم شىء ، وسهل لهم ذلك سوء الحالة الاقتصادية ، اذ فى مثل هذه الظروف — مضافا اليها قلة التشريعات الاجتماعية — نال رسل الشيوعية العالمية نجاحا لا بأس به ، وحاول الشيوعيون أن يتجاوبوا مع الجو المحيط بهم — كى لا يظهر كنغمة شاذة — فمارسوا نشاطهم كقوميين عرب ، وسهل لهم مساعدوهم الفرنسيون ( ربما كان المقصود بهم الشيوعيون الذين اشتركوا فى حكومة الجبهة الوطنية فى فرنسا ) قيام حركة « الاستقلال عن فرنسا » ، ليس على أساس تحقيق هدف سياسى ، بل استجابة لخدمة أهداف خاصة ، لأنهم — أى الشيوعيين فى شمال افريقيا — يعلمون أن المرء يستطيع بهذه الطريقة — وهى الدعوة الى الاستقلال عن فرنسا باسم القومية — أن يخاطب العربى الوطنى — الذى تتحكم فيه هنا بالذات، روح الاسلام ويتعصب لتعاليمه تعصبا لا يعرف المرونة ولا يميل الى المهادنة مع أعدائه — بأسلوب يؤثر فيه لأنه ينظر الى الشيوعى الملحد على أنه رجس ودنس ، ويحول الموقف الاسلامى المتزمت بين مجرد التقارب بين العرب وبين الشيوعيين ، فالعرب ينبذون الشيوعية المطبوعة فى موسكو لأنها تنكر وجود الله ، وتعمل على تخريب بناء الأسرة والقضاء على السيادة الأبوية المطلقة ، وهكذا يبدو عند الملاحظة الدقيقة أن صفوف الشيوعيين لا تضم سوى نسبة ضئيلة جداً من العرب المسلمين أو من البربر ، ففى تونس على سبيل المثال يمثل اليهود ما يقرب من نصف الشيوعيين ، ويتكون النصف الآخر من الفرنسيين والأسبان ، والباقى من المجدودين وهم العرب المنبوذون أى العاطلون الذين لا عمل لهم ولا يملكون شروى نقير .

لا تختلف الأوضاع — عن مثيلاتها فى شمال افريقيا — فى فلسطين ، اذ يبدو هذا البلد للسوفييت أيضاً مكانا مناسباً للقفز منه على البلاد الاسلامية المجاورة ، وليس هذا راجعاً فقط الى أن هذا البلد يخضع منذ نهاية الحرب لاجراءات المعاهدة السياسية ، التى جرت

عليه القلاقل وغمرته بموجات التوتر المتلاحقة ، بل أضيف الى هذا أن موسكو بخبرتها القديمة ، رأت فى اليهود الشرقيين الذين هاجروا الى فلسطين خامة بشرية تصلح لتلقى الأفكار الشيوعية ، فلديهم من الصفات ما لا يتعارض مع اعتناقها ونشر تعاليمها بين سكان هذه المنطقة •

أثرت الناحية الاقتصادية على تصعيد أعمال العنف بين العرب واليهود ، فطالمـــا كان الجانب اليهودى ضعيفاً اقتصادياً ، ظل التوتر بينهم فاترا لم تظهر آثاره بشكل ملموس ، ولكن تغير هـــذا الوضع بهجرة اليهود الرأســـماليين ، اذ انضم الى النزاع العنصرى نزاع اقتصادى ، وبهذا اشتعلت التناقضات العربية اليهودية ، وأصبحت مرئية للعالم كله ، ومنذ هذه اللحظة حاولت موسكو أن تكسب أيضـــاً أتباعا فى صفوف العرب،ولكن تصدت لها المشكلات القديمة••نعم بدا لها كما لو كان الفلاح العربى الفقير حقلا مناسباً لبذر بذور الاشتراكية أو انسانا يتصور اقتناعه بتعاليم الشيوعية ، لم يكن هذا سوى تخيلات فقط فالواقع أن عملاء موسكو لم يصادفوا آذانا صاغية ، اللهم الا حفنة قليلة لا وزن لها ••• لأن العرب يميلون الى التمسك بالدين ، سواء أكان ذلك ناشئاً من اليأس والقنوط المخيم عليهم فيلجأون الى الدين ، أو كان نتيجة فقرهم ؟ أو كلاهما — اليأس والفقر — يدفع من اللاشعور الى التمسك بالدين [1] وهذا الرباط المتين بتعاليم الاسلام — التى يوجهها ويشرحهـــا التفكير اللاهـــوتى المتزمت — يتصـــدى لكل اغراءات موسكو ، فهو الرادع لها ، وعلى صخرته تتحطم محاولات الشيوعيين للنفوذ الى المجتمع الاسلامى •

وعندما زادت حدة النزاع بين العرب واليهود فى العشرين عاماً الأخيرة ، بدا لموسكو أن الوقت قد حان لتنظيم أتباعها فى فلسطين فى جناحين متباعدين : أحدهما يتخذ طريقه بين الطائفة اليهودية ، والآخر

---

(١) ان التمسك بالدين أساسا يقضى على اليأس والفقر ، واليائسون والفقراء الذين لا يعملون للقضاء على فقرهم ليسوا من المتدينين **« ولا تيأسوا من روح الله ، انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون »** ( يوسف : ٨٧ ) **« فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله »** ( الجمعة : ١٠ ) ( م.ش) .

بين العرب ، وكلفت موسكو اليهودى الذى يــدعى « **Schelesnik** » بتأسيس الحزب الشيوعى الفلسطينى ، وسار النشاط فى هذا الحزب فى فرعين منفصلين فصلا تاما — الفرع اليهودى والفرع العربى — وبشعارات مختلفة ، فعند اليهود كانت الشعارات الاشتراكية ، وعند العرب شعارات التحرر الوطنى .

لم يكن الحزب الشيوعى الفلسطينى ذا وزن من ناحية العدد ، ولكن أتباعه كانوا شعلة نشاط ، وكانت يد موسكو هى المحرك الأول فى فرعى الحزب اليهودى والعربى ، وانضمت التنظيمات السورية الى الحزب الفلسطينى ، تلك التنظيمات التى قامت وتطورت دون عائق فى فترة تحالف الاشتراكيين مع الشيوعيين فى باريس — حينما كونوا الجبهة الوطنية — ، وظلت قوى الانتداب — انجلترا وفرنســا — مدة طويلة تنظر الى تحركات الشيوعيين فى مناطق الانتداب فى غرب آسيا دون أن تتخذ شــيئا ضــدهم ، ولم تتحرك الا فى شــتاء ٣٦ — ١٩٣٧ م عندما اقتنعت لندن بخطر السوس الشيوعى الذى ينخر فى عظام شواطىء البحر الأبيض المتوسط ، واتفقت مع ادارة الانتداب الفرنسى فى سوريا على التعاون فى اتخاذ اجراءات دفاعية ضد الشيوعيين .

*** * ***

خططت موسكو سياسة ربط الثورة الوطنية بالثورة الاشتراكية ، وعاقت أملا كبيراً على التقاء الوطنيين بالشيوعيين فى العالم الاسلامى ، واعتبرت ذلك نهاية سعيدة وخطيرة لسياستها تجاه الشرق ، ولكن لم يتحقق هذا الهدف فى أى جزء من أجزاء العالم الاسلامى ، فقد ظل توجيه العلاقات السياسية بين الحكومات الوطنية فى الشرق الاسلامى — بعد فترة العواصف والاثارة فى سنى ما بعد الحرب — يتقرر فى جو من التروى والتبصر طبقا للأهداف السياسة المعتدلة . وتتابع عقد المعاهدات — معاهدات الصداقة ، والحياد ، وعدم الاعتداء ، وهيئات التحكيم والتحالف — ينقطع مفعوله — ويتكرر ذلك مرارا — عند صخرة تبــادل النفوذ فى المسائل الداخلية للمتعاقدين ، ففى كل من

تركيا وايران تستغل المعاهدات المعقودة مع روسيا استغلالا وفيرا ، وتستخدم مفاهيمها على نطاق واسع ، ومع ذلك تعتبر الشيوعية حركة معادية للدولة ، اذ تحرمها قوانينها وتعاقب كل من يزاول نشاطها ، فمن يعتنق المبدأ الشيوعى ، ويعمل على نشره داخل الدولة ويدافع عنه نزل به عقاب صارم لا هوادة فيه ولا مسامحة • ويبدو أن هذا الموقف قائم على أسس معقولة ، وله ظروف ساعدت على تدعيمه وضمنت استمراره ، فالدعاية الشيوعية التى صادفت فى سنى ما بعد الحرب فراغا فى العالم الاسلامى — يرجع الفضل فى ذلك الى طبيعة تكوين النظم الاجتماعية لدى شعوب الشرق — سوف تطفو على السطح ويعظم خطرها كلما قطع الشرق مراحل أكثر على طريق التصنيع ، فاذا لاح للشيوعية أن الفرصة قد هيئت — وتهيئتها يكون بوجود طبقة عمالية — انطلقت الحناجر تردد المطالب الاشتراكية فتسرى المبادىء والشعارات الثورية الشيوعية فى القنوات التى كانت قبل مغلقة ويتلقفها الجيل التالى لمن رفضها • • •

أما اليوم فتكتفى روسيا بعقد معاهداتها مع زعماء الاقطاع والأمراء ومن ظهروا على مسرح السياسة مع الثوريين الوطنيين ، لتخفى وجهها الحقيقى فهذه الطبقة ترفض مبادىء الثورة الشيوعية رفضا باتا ، وتحاربها محاربة عنيفة لأنها تعتبر الرأسمالية الأوروبية نموذجا يجب اتباعه فى النواحى الاقتصادية والاجتماعية ، ولم يأخذ تغيير الشرق طريقه من النظام الاقطاعى الى النظام الشيوعى اطلاقا ، بل الى نظام الاقتصاد الرأسمالى ذى الطابع الغربى ، فوضع الشرق الاسلامى فى مركز مواجهة لروسيا ، ولكنه بعيد عنها ، وان لم تزل الصداقة متينة بينهما ، تلك الصداقة التى قامت أساسا لتخدم أهدافا سياسية معتدلة • • • وليست أيديولوجية •

***

هناك عامل آخر وضع على عاتق صداقة موسكو للشرق الاسلامى حملا ثقيلا ، لا يمكن الاستهانة به أو التخفيف من شأنه ويكمن ذلك

فى موقف البلشفيين من الدين • نعم فهم البلشفيين منذ البداية أن ينافقوا بسماحتهم مع الأديان ، ويظهروا بمظهر من لا يحمل عداوة للدين — فهم ليسوا ملحدين — أمام من وراء حدود الدولة الروسية ، أى فى العالم الاسلامى أيضا • ولكن الأنباء تؤكد أن موسكو تلعب دورا ذا وجهين ، اذ تعلن أنها — أى موسكو — تتصرف مع المسلمين الذين يعيشون تحت سلطانها تصرفا مغايرا تماما لما تظهر به أمام الشعوب الاسلامية ، وقد استقر هذا فى وعى المسلمين فى آسيا وافريقيا ، وحفظته ذاكرتهم فاستولى عليهم الشك والارتياب فى كل ما تصدره موسكو ، من أقوال وأفعال •

تحت الحكم الروسى يعيش ما يقرب من عشرين مليون مسلم ، تمتعوا فى بادىء الأمر باعتدال سياسة البلشفيين تجاههم ، اذ تصرف حكام روسيا معهم بتحفظ حتى لا تنسف مجهودات السياسة الروسية فى الشرق الاسلامى من داخل الاتحاد السوفييتى ، فحاولوا تفسير موقف محمد [ ﷺ ] ورسالته بأسلوب شيوعى ، وتركت منشـآت الاسلام الفكرية والروحية دون أن تمس ، وبقى زعيم المسلمين الروحى — مفتى المسلمين فى الاتحاد السوفييتى رضا الدين فخر الدين — فى منصبه ، غير أنهم سلبوه امكانية التأثير على أتباعه المؤمنين ، ولكن تغير هذا الوضع عند ما لم يتخذ المفتى — فى المؤتمر الاسلامى العالمى الأول فى مكة — موقفا يتفق مع خطط موسكو ، نعم لم تجرؤ الحكومة السوفييتية على عزله من منصبه ، ولكنها سلبته الموارد المالية ، ووضعته تحت رقابة مشددة ، فعاش هذا الرجل على الصدقات الطفيفة التى كان يقدمها له أصدقاؤه • ومات فى ابريل عام ١٩٣٦ م فمنعت الرقابة نشر نبأ موته داخل الاتحاد السوفييتى ، ومنذ ذلك الحين ظل المنصب شاغرا لم يعين فيه أحد •

منذ عام ١٩٢٧ م تقريباً ، أى منذ لم يستطع فى موسكو الاستمرار فى كتمان فشل السياسة الروسية فى الشرق الاسلامى ، اذ تحطمت جهودها فى تقريب الثورة الوطنية من الاتجاه الثورى الاشتراكى •••

منذ ذلك الحين تغيرت سياسة الحكومة السوفييتية تجاه المسلمين الروس تغييراً جذرياً ، وسقطت أقنعة التسامح الدينى ، فأغلق عدد كبير من المساجد وجمعيات تحفيظ القرآن ، بلغ عددها حتى عام ١٩٣٣ ما يقرب من ٨٠٪ من العدد الكلى للمساجد ، ولم تهدم أبنيتها بل تحولت الى مدارس علمانية ومسارح ودور للخيالة — سينما ونواد — وتحول مبنى المدرسة الاسلامية العليا فى سمرقند — فى « Ulugh Beg Tin » — الى متحف للالحاديين — أى من ينكرون وجود الله — ، وطبقا للتقديرات المتحفظة ، فقد بقى للمسلمين فى بخارى عام ١٩٣٣ عشرة فى المائة فقط من مساجدهم التى كان عددها أربعمائة مسجد •

وقد حاولت « جمعية الملحدين المناضلين Verband der Kämpfenden Gottlosen » أن تنشر تعاليمها فى المناطق الاسلامية فى روسيا ، واستماتت فى نشاطها للحصول على أتباع من المسلمين ، ولكن المسلمين بدوا محصنين ضد دعاية هذه الجمعية ، ومما هو مؤكد أن أعضاءها مارسوا معهم كل الأساليب حتى استعمال القوة ، ومع هذا فنجاح هذه الجمعية ظل ضئيلا جداً ليس له وزن • ومن الجدير بالذكر أن « مبشرى » جمعية الملحدين لاقوا من المسلمين عنتاً أكبر ، ومقاومة أعنف مما لاقوه من المسيحيين •

اتسم موقف السوفييت على الطرف الآخر من الحدود الروسية تجاه الدين الاسلامى بطابع التأرجح ، اذ يحاول الشيوعيون شرح البلشفية على أنها صورة حقيقية للاسلام فى عهده الأول ، اذ أنها تتفق معه فى الدعوة الى الاشتراكية التى تضمن للفرد حق الحياة فى المجتمع •••

ولكن الحقيقة خلاف ذلك ، فتقول الأنباء الواردة من داخل الاتحاد السوفييتى — رغم الرقابة الشديدة التى تحاول منع تسرب هذه الأنباء — أن آلافا من علماء المسلمين يعيشون فى المنفى ••• وحين تتسرب هذه الأنباء بين المسلمين — الذين يلتزمون الخط الاسلامى — تقوى شكوكهم فى أخبار موسكو ، ويزيد من تحفظهم تجاه كل ما يأتى —

ومن يأتى — من موسكو • تجاه تلك المحاولات المتكررة فى بلاد العالم الاسلامى لنشر دعاية واتجاهات ومبادىء حركة الملحدين ، ويدل على ذلك ما حدث فى العربية السعودية ، اذ أن السوفييتى المدعو « ناصر جورجا كولوف Nasir Jurjakulow » — قيل انه مسلم وكان يمثل الاتحاد السوفييتى فى بلاط ابن سعود حتى نهاية عام ١٩٣٥ — استغل منصبه فوزع فى مكة — المدينة الاسلامية المقدسة — كتيبات دينية ومنشورات ثورية باللغة العربية ، كانت قد نشرتها من قبل جمعية الملحدين المناضلين ، فغضب الرأى العام فى العالم الاسلامى • واجتاحت موجة الاستنكار شعوب المنطقة الاسلامية ، ولما بلغت الفضيحة ذروتها وفاحت رائحتها فى أجواء الشرق الاسلامى تبرأت الحكومة السوفييتية مما فعله ممثلها واستدعته •

❊ ❊ ❊

لم تتحقق أغراض روسيا فى العالم الاسلامى على الوجه الذى أرادته ، ولم ينضج ما غرسته من بذور الاشتراكية كما أرادت لها وتوقعت منها ، ومع ذلك فقد أحدثت مقابلة روسيا الثورية مع الاسلام تقلبات فى علاقة العالم الاسلامى مع دول أوروبا الغربية ، اذ نجحت فى تصعيد وتقوية التيارات السياسية التى تنادى بالمساواة التامة بين شعوب المنطقة وبين القوى الاستعمارية تحت مبدأ حق الشعوب فى تقرير مصيرها الوطنى • وفى هذه المقابلة — روسيا مع الشرق — أسر الى الشرق الاسلامى بمطالب هى الآن موضع مناقشة مع القوى الغربية وبالذات مع انجلترا • وهكذا كانت نتيجة المقابلة مع شعوب الشرق الاسلامى فشل كل المخططات الاستعمارية — الانجليزية والفرنسية — فى المنطقة الاسلامية ، وحتمت — بمرور السنين — تغييرا جذريا فى سياسة أوروبا تجاه الشرق • وعن طريق التقاء روسيا بالشرق ، مهد الاسلام — وهو ثورى فى مبادئه واشتهر أتباعه بالنضال ومقاومة الأجنبى عبر التاريخ — وعبئت القوى الوطنية لطرد أوروبا — بطريقة منظمة وشاملة — من المجال الاقتصادى واجبارها على التقهقر فى

الميدان السياسى • وبهذا سوف تهيأ الظروف للعالم الاسلامى أن يحتل مكانا بين القوى العالمية •

سبقت انجلترا غيرها فى ادراك ضرورة تغيير عقائدها السياسية فى مشاورات تسوية النزاع مع الشرق الاسلامى ، فقد دفعت بادىء ذى بدء الى الحرب فى العراق وفلسطين بدافع حب الغزو والسيطرة الاستعمارية ، لأنها أرادت وضع الخط البرى بين البحر الأبيض المتوسط والخليج الفارسى — وهو أقرب طريق الى الهند — تحت سيطرتها المباشرة ، أما الوعود التى بدت متعارضة مع تحقيق هذا الهدف — من هذه الوعود ما أعطته انجلترا للعرب بالاستقلال الذاتى ، وانشاء دولة عربية مستقلة — فقد أملت الظروف على انجلترا التصريح بها ، حتى تستطيع المضى قدما فى الوصول الى أهدافها ، وتمكنها فى اللحظة المناسبة من التنصل منها وانكارها — كما فعلت بعد ذلك — ومما يثبت هذا الاتجاه لدى بريطانيا أن هناك معاهدات سرية — وقعت أثناء وبعد الحرب — ارتكزت على محور سياسة ضم المناطق ، كما كان معتاداً فى القرن التاسع عشر ، كذلك أظهرت معاهدة « Seikes - Picot » — التى عقدت عام ١٩١٦ م بين انجلترا وفرنسا وقسمت تركيا القديمة بينهما — فى بنودها اتجاها استعمارياً صارخا يرجع بالذهن الى القرن التاسع عشر ، حيث كان هذا الاتجاه سائدا ، بل كان الأسلوب الذى بنيت به الامبراطورية الاستعمارية الكبرى •

ولكن فترة ما بعد الحرب — حيث حدث تغيير فى مناطق وحدة المصير الاسلامى ، فقامت دول جديدة فى الجزء العربى ، وانطلقت انتفاضات ثورية فى الأجزاء الأخرى — بدأت القوى الاستعمارية تتراجع عن مخططاتها القديمة ، وكلما اشتد الضغط عليها أسرعت فى تقهقرها ، فتنازلت عن آمالها الاستعمارية ، وعدلت فى عقائدها السياسية التى اعتنقتها قبل وأثناء زمن الحرب وكانت توشك — أو هكذا خيل لها — على الوصول الى هدفها فى هذه المنطقة • وهكذا لم يسر التطور التاريخى اطلاقا طبقا لقانون المخططات الاستعمارى الغربى •

بل تحكمت فى سيره سياسة التقارب بين الرغبات الأوروبية ومطالب القومية الاسلامية • تلك القومية التى ازداد اندفاعها يوما بعد يوم وانطلقت بخطى واسعة نحو تحقيق مبادئها ، فى حين انحصرت دعاوى الدول الاستعمارية الأوروبية وتواضعت آمالها فى الشرق •

اتسم طابع الاستعمار الانجليزى بالهدوء — نسبيا — والاتزان فى تنفيذ مخططه ، فلم يكن متشددا ولا متصــلباً أمام استفزازت الوطنيين ، كما كان الاستعمار الفرنسى — فقد كانت فرنسا الدولة التى اعتمدت فقط على الســلاح فى تثبيت مركزها وفرض ســلطانها فى مستعمراتها — اذ كان التاجر الانجليزى يمهد الطريق أمام الاتســاع الاستعمارى — أى كان طليعة انتشار الاستعمار الانجليزى — ويأتى السلاح وراءه بحجة حماية مصالح التجارة البريطانية فيستقر فيمــا « فتح سلمياً » ، أى تحتل الجيوش البريطانية المناطق التى تستطيع بريطانيا أن تبرر غزوها العسكرى لها بما يبدو « منطقيا ومعقولا » ، ثم رسمت بريطانيا خط التطور السياسى فى تلك البلاد — الواقعة تحت سلطانها — على أساس تهيئتها للحكم الذاتى تحت التاج البريطانى — وبذلك تحقق ما أرادته من أطماع استعمارية — بحيث يتحكم فيها نظام الفكر الانجليزى • وعليه فلم يظهر سلاح الجنود الانجليز الا نادرا ، بل ترك المجال للمستشارين الانجليز ليلعبوا الدور الرئيسى ، وقابلت مراحل الانفصال عن الوطن الأم — التى صاحبت الاتجاه الى الاستقلال الذاتى خطوة خطوة — بخطوات تدعم ازدياد المصالح المتشابكة التى تؤدى الى ارتباط طبيعىمن نوع جديد بالجزر البريطانية •

كذلك تتجه السياسة الانجليزية فى المستعمرات — على العكس أيضا من السياسة الفرنسية — الى عدم اســتغلال المســتعمرات واستنزافها استنزافا كلياً ، ويرجع ذلك بنوع خاص الى نية بريطانيا فى تطوير تلك المستعمرات ، وربما يكون القصد من ذلك أيضا جعلها أسواقا جديدة لمنتجات الوطن الأم •

غير أن هذا الاســتعمار الانجليزى المرن ، لم يلبث أن أحس

بالتيارات المقابلة ، فكان عليه أن يدرك بسرعة وبدون تلكؤ التغيرات التى طرأت على الفكر فى الشرق الاسلامى أثناء المقابلة مع روسيا الثورية ، وكيف أصبحت القومية الاسلامية صعبة المراس فى مطالبها ، شديدة الحساسية فيما يتعلق بكبريائها وهيبتها ، فقد كان الرجل الأبيض — وهو السيد الانجليزى — حتى هذه المقابلة — مع روسيا — نموذجا يحتذى به الشرق الاسلامى ، وكان وطن السادة الانجليز المثل الأعلى للديمقراطية التى ينشدها ويسعى لتطبيقها فى نظم حكم بلاده • ولكن تغيرت هذه النظرة تغييراً جذريا بعد المقابلة مع موسكو ، فقد تبينت القومية الاسلامية « قيمتها الذاتية » وتبدلت نظرتها ، فلم تعد تتجه فقط نحو الغرب لتأخذ منه أساليب الحكم ونظم الديمقراطية لتنسج على منوالها هيئاتها الدستورية ، اذ تحول الفكر فى الشرق الاسلامى عن نماذج الديمقراطية فى الغرب الى المبادىء الثورية — التى صدرتها روسيا اليه — ، فحدد بها اتجاهاته ، وعبد عليها طريقه للوصول الى الاستقلال ، وتولى مقاليد السلطة فى بلاده • ففقدت الوصـــاية الانجليزية — التى عرفت كيف تتجاوب تجاوبا مرنا مع تقاليد الشعوب وعاداتها الطبيعية ، وتعمل على تهيئتها لحكم نفسها Self government — مركزهـــا ، ولم تعـــد بأى حـــال من الأحـــوال المثـــل الأعلـــى للشعوب الشرقية • ازدادت القومية الاسلامية قوة ، وتحركت فى الميدان تحرك بالغ رشيد مدرك ، نفض الوصاية عن عاتقه ، ورفض أن يعيش مقيد الحركة ، مسلوب الارادة ، تابعا لمن يرسم له طريق حياته وأسلوب نظامه ، فاضطرت السياسة الانجليزية أن تتبع أسلوبا آخر فى حسم النزاع مع دعاة القومية الاسلامية ، فاتجهت نيتها الى ارساء قواعد جديدة كل الجدة لبناء علاقتها مع الشرق ، لذا وجب على انجلترا أن تتوصل الى صيغة تتساوى فيها مصالحها الخاصة مع الكبرياء الوطنى الذى ازدادت درجة حساسيته فى مناطق الشرق ، ولا تصطدم بظاهرة حب الاستعلاء التى اجتاحت الدول الاسلامية ، وانتشرت بين الشعوب — حتى بين الأفراد — لتطرد الشعور بأنها أقل كفاءة من غيرها فى القدرة

على تولى زمام سلطتها بنفسها ، وعلى أن تبنى مجتمعا قادراً على خلق الحضارة ونشر المدنية الحديثة •

بدأت انجلترا أثناء مشاورات تسوية النزاع الأفغانى تدرك أثر الشعارات الروسية — وكذلك المساعدات الأدبية والمادية — فى الشرق الاسلامى اذ أجبرت على التنازل — رغم أنفها ودون أن تنم ببنت شفة — عن أفغانستان وترك تلك المنطقة التى زاولت فيها أساليب الحماية الأجنبية • ففى معاهدة السلام التى عقدت فى « روالبندى » اعترفت انجلترا اعترافا صريحا — لا شك فيه — بأول انتصار أحرزته القومية الاسلامية — بمساعدة روسيا — على الامبراطورية البريطانية ، عندما سلمت « للمملكة الأفغانية المستقلة » بحريتها واستقلالها فى تصريف شئونها الداخلية والخارجية ، وظلت انجلترا سنين طويلة تحاول — عن طريق المشاورات والاتصالات الدبلوماسية — استرجاع هذه الأرض المفقودة ، ولكن جهودها باءت بالفشل فاضطرت انجلترا على الاستمرار — والتأكيد من جديد — فى الاعتراف بما أعطته وسلمت به فى معاهدة « روالبندى » ، وجاء ذلك فى المعاهدة الأفغانية البريطانية التى عقدت فى ٢٢ نوفمبر سنة ١٩٢١ فى كابول ، اذ حددت معالم العلاقات الانجليزية الأفغانية ، وثبتت معالم الحدود بين الهند وأفغانستان تثبيتا نهائيا •

* * *

أثرت المكاسب الوطنية التى حصلت عليها أفغانستان على موقف بريطانيا فى تسوية نزاعها مع القوميين الأتراك ، التى ابتدأت المشاورات فيها بعد أسابيع قليلة من التوصل الى اتفاق بريطانيا وأفغانستان • فقد كانت انجلترا القوة الأولى التى سحبت جيوشها من النزاع حول المناطق الجوهرية فى الأناضول ، فى حين حاول — هناك — اليونانيون والفرنسيون والايطاليون تأكيد حقهم فى معاهدات التقسيم المختلفة ، فاصطدموا بمقاومة الوطنيين الأتراك التى اشتعلت فجأة وبدون مقدمات تحت قيادة « كمال باشا » الذى وجد فى روسيا خير عون له

على التصدى لهؤلاء المستعمرين ، وأقوى صديق يسنده فى هذا الكفاح ضد القوى الطامعة فى بلاده • سلمت لندن — لأنها لم ترد اطلاقا تحقيق أطماع سياسية استعمارية فى الأناضول أمام مقاومة الوطنيين الأتراك — فسحبت قواتها — التى كانت قد تحركت من بحر مرمرة على طول الخط الحديدى الأناضولى الى داخل منطقة الأناضول — الى الشاطىء ، ثم تركت الشاطىء أيضاً أثناء فترة صيف عام ١٩٢٠ م ، لأن الدبيلوماسية الانجليزية أحست بأن قوى وطنية انفجرت فى المنطقة ، ولا يجوز التصـــدى لها ، أو اعتراض طريقها ، أياً كان نوع هـــذا الاعتراض ، اذا أرادت انجلترا أن تقيم علاقات ودية ومثمرة معها •

* * *

سارت الأحداث فى جنوب فارس سيراً مماثلا ، فعندما رأت انجلترا نفســـها — قبل الثورة الروســـية — أمام تحقيق أهدافهـــا الاستعمارية ، وأصبحت قاب قوسين أو أدنى ، اضطرتها الأحداث التى اجتاحت المنطقة فيما بعد الثورة الروسية الى اعادة النظر بشكل جدى فى القبض على زمام الأمور هناك ، فقد نظم سير « برسى كوكس Sir Percy Cox » فى عام ١٩١٦ جيشـــا انجليزيا فارســـيا — أطلق عليه آنذاك اسم « دفاع جنوب ايران South Persia Rifles » • راودت الآمال انجلترا فى استخدامه لتنفيذ مخططها الاســـتعمارى وأطماعها فى مناطق البترول وجنوب شرقى فارس حيث الحدود مع بلوخســـتان • وبعد عام واحـــد انضمت اليه قـــوات « الجندارمة » ( الشرطة ) التى كونها ودربها ضباط سويديون بتكليف من الشـــاه — أى ضمت قوات الشرطة الى القوات الحربية الانجليزية —وبهذا الجيش بدأ الانجليز بعد الهزيمة الروسية الزحف على شمال فارس ، ولكنهـــا سرعان ما أدركت فى طريقها الى الشمال اثر الثورة الروسية فى فارس ، فقد جمع المتطوعون الفارسيون أنفسهم حول شعارات موسكو الثورية المناهضة للاستعمار — التى نشرها هناك كوتشك خان — وتصدوا للزحف الانجليزى ، ولكن جيش انجلترا أثبت أنه أقوى منهم ، فلم يتوقف زحفه ، وواصل سيره نحو الشمال • وفى صيف عام ١٩١٩ م أوقف

سير « برسى كوكس Sir Percy Cox » — **باعتباره ممثل بريطانيا** العظمى — الزحف على طهران فأكد استمرار تركة المملكة القاجارية تحت سيطرة انجلترا الفعلية ، عن طريق عقد معاهدة انجليزية فارسية ، وضعت الجيش الفارسى والادارات الفارسية تحت الرقابة الانجليزية ، فصارت بذلك دولة القاجاريين محمية بريطانية .

وتصور هذه المعاهدة — التى لم يقرها برلمان فارس — ذروة النفوذ البريطانى فى فارس ، غير أن السلطة البريطانية أخذت بعد توقيعها مباشرة فى الانحسار والتراجع المستمر ، اذ بدأت انجلترا مراجعة مستمرة — وان كانت بطيئة — للمبادىء السياسة التى مارسها الاستعمار البريطانى فى فارس .

رفض البرلمان الفارسى الموافقة على المعاهدة الانجليزية الفارسية ، وتأثر بالنداء الروسى — الذى أذاعته موسكو قبل وقت قصير — الى العالم الاسلامى ، فسقطت الحكومة الفارسية — بسبب المعاهدة التى وقعتها مع سير « برسى كوكس **Sir Percy Cox** » — وكانت برئاسة صديق انجلترا الحميم « **Wessugh el Dawlah** » **الذى** حصل على رشوة مقابل الضغط على وزرائه للموافقة على المعاهدة — ولم تجرؤ الحكومات التى جاءت بعدها على اخراج المعاهدة من أدراج المكاتب لعمل نسخة جديدة منها ، فالمقاومة الوطنية التى أشعلتها موسكو فى مواقع الجبهات ، وغرستها فى شعور الجماهير ضد انجلترا ازدادت قوة وصلابة ، ونجحت فرق القوقازيين بزعامة رضا خان — الذى صار الشاه فيما بعد — فى السيطرة على الموقف ، وتولت زمام الأمور ، ثم قامت فى فبراير بالزحف على طهران ، وفى ٢١ من ذلك الشهر قادت الانقلاب الذى تولى فى حكومته رضا خان منصب وزير الحربية ، غير أنه فى واقع الأمر أصبح الرجل الذى استطاع أن يجد فى قواته دعامة تحميه وتقف وراءه ، ولذلك تمتعت حكومته بمرور السنين بسلطة مطلقة وسيادة حتمية .

عقدت موسكو اتفاقية مع رضا خان بعد وقوع الانقلاب بستة

أيام ، تنازلت له فيها عن كل امتيازاتها فى فارس ، وقدمت له معونة عسكرية — أعطته السلاح — ضد انجلترا ، وبعد توقيعها بيومين أعلن رضا خان بطلان المعاهدة الفارسية الانجليزية ، التى عقدت فى عــام ١٩١٩ م ، وبهذا أجبرت انجلترا على التقهقر الى موقف الدفاع •
ودرست لندن الموقف ، فتبين لها مــدى قوة الدفاع التى يتمتع بها الوطنيون الايرانيون ، ثم توصلت من ذلك الى ضرورة تغيير مبادئها السياسية — التى اعتنقتها حتى ذلك الحين وسارت على أساسها فى تحقيق أطماعها الاستعمارية فى فارس — تغييرا جذريا ، فسحبت قواتها فى مايو سنة ١٩٢١ م — أى بعد ثلاثة أشهر من توقيع الاتفاقية الروسية الفارسية — من شمال ايران ، كى تتفادى صداما دمويا مع القوميين ، وبذلك هربت من طريق تسوية النزاع بالعنف ، وفى مقابل ذلك — أى سحب القوات البريطانية — انسحب الجنود الروس شمالا الى باكو •

أيقظت الحوادث — التى جرت فى أفغانستان وفارس — انجلترا ، وبينت لها خطر السياسة الروسية فى غرب ووسط آسيا ، فحاولت التوصل الى كيفية تضمن لها تبادل المعايشة السلمية مع روسيا كى تتفادى وقوع نزاع مباشر مع موسكو فى منطقة الشرق الاسلامى المتوترة ، وتحقق هــذا فى معاهدة تجارية روسية انجليزية لا تكمن أهميتها اطلاقا فى الاتفاق على السياسة التجارية ، بل كانت واضحة وضوحا لا غموض فيه فى الفقرة الأولى من المعاهدة حيث تقول :

— يجب على كل طرف فى المعاهدة أن يبتعد عن كل موقف عدائى ضد الطرف الآخر •

— لا يجوز أن تمارس دعاية رسمية خارج حدودهما — عن طريق مباشر أو غير مباشر — ضد مصالح المملكة البريطانية أو الجمهوريــة السوفييتية •

— يجب وقف كل محاولة يكون القصد منها التحريض على القيام بأعمال عدائية ضــد مصالح المملكة البريطانية فى الهند وفى غرب آسيا •

عرفت انجلترا نوع وأسلوب الخطر الذى جذبته موسكو الى الميدان فى غرب آسيا ضد الاستعمار الأوروبى ، وعلى الأخص ضـــد الانجليزى ، فحاولت — عن طريق هذا الرباط المنصوص عليه فى المعاهدة التجارية والذى ألزمت به انجلترا موسكو — تضييق آثاره ومحاصرتها بهذا الأسلوب ، ثم بان لانجلترا مدى ضآلة التزام موسكو لمثل هـــذه القيود التى جاءت فى المعاهدة ، وثبت لها ذلك مراراً وتكراراً ، اذ أن الحكومة السوفييتية نسبت كل مخالفة لمـــا جاء فى هذه المعاهدة الى حركة الشيوعية العالمية التى أسست فى عام ١٩١٩ م ، وأعلنت أنها غير مسئولة عن أعمال هذه المجموعة اطلاقا ، فلا تخضع قراراتها — هكذا دعت حكومة موسكو — لرقابتها .

رغم المعاهدة المعقودة بين انجلترا وروسيا — والتى بواسطتها علقت بريطانيا الأمل على وقف نفوذ موسكو العدائى فى ساحة النضال الفارسية — فقد استمرت تصفية السلطة الانجليزية بسرعة ، اذ أن البرلمـــان الفارسى الرابع الذى بدأ دورته فى يونيو ١٩٢١ قرر رسميا مرة أخرى بطلان المعاهدة الانجليزية الفارسية ، ولم يكد يمضى وقت طويل على هذا القرار حتى طالب بحل قوات « دفاع جنوب ايران » « South Persia Rifles » وتسريحها ووافقت انجلترا على هـــذا الطلب . وبعد اختفاء قوات السلطة الانجليزية من فارس تركت الرقابة الانجليزية للادارة الفارسية دون استثناء ، وبهذا طويت صفحة النفوذ البريطانى نهائياً .

لم تضـــطر انجلترا الى نبذ اســـتعمال القوة فى حل نزاعها مع القومية الاسلامية فيما يتعلق بالأمور السياسية فقط ، بل أصبح الطريق الوحيد — وهو عدم استعمال القوة والالتجاء الى المباحثات — أمامها فى المجالات الأخرى ، اذ لم يكد يمضى وقت طويل على تراجع انجلترا العسكرى — ويتضمن معه أيضاً تراجعاً سياسيا — حتى أجبرت على التقهقر فى المجال الاقتصادى ، فبعد عشر سنوات فقط تلقت بريطانيا الضربة الثانية فى ميدان البترول ، فمنذ عام ١٩١٩ تقوم الشركـــة

الانجليــزية — التـــى كانت آنذاك تعــرف باســم « انجــلو فارس Anglo - Persian » وتعرف اليوم باسم « شركة انجلو ايران للنفط Anglo - Iranian Oil Company » — برعاية المصالح الانجليزية فى حقول الزيت فى جنوب فارس — والمعروف أن الأدميرالية البحرية البريطانية تملك معظم أسهم هذه الشركة — وفى عام ١٩١٩ م — حينما بدت فارس وكأنها سلمت كلية للسلطة الانجليزية — مدت الشركة مناطق امتيازاتها — التى كانت محددة فى الاتفاقية بحقول الزيت فى جنوب فارس — الى شمال فارس أيضاً ، الا أن البرلمـــان الفارسى رفض هذا التوسع الذى تعمدته شركة البترول الانجليزية ، وجاء هذا الرفض فى نفس الوقت الذى أعلن فيه بطلان المعاهدة الفارسية الانجليزية ، فسلمت انجلترا بهذا الرفض ، واضطرت لندن مرة أخرى أن تتراجع فى الميدان الاقتصادى أمام قوة دفاع القومية الايرانية المباغتة .

اندلع الصراع فى نهاية عام ١٩٣٢ م — أى بعد أحد عشر عاماً من رفض البرلمـــان الفارسى — حول حقوق امتيازات « شركة انجلو ايران للنفط Anglo - Iranian Oil Company » » ، وأظهر مرة أخرى مدى الضعف الذى آل اليه موقف انجلترا ، وكذلك موقف الاستعمار الاقتصادى الأوروبى معه فى ايران ، ومدى القوة التى تكمن فى الصمود الداخلى للقومية الاسلامية — فى طابعها الايرانى — فى حسم النزاع مع القوى الاقتصادية الغربية ، نعم ترك رضا شاه عقد امتياز « شركة انجلو ايران للنفط Anglo - Iranian Oil Company » — عندما حيل بينها وبين التنقيب فى شمال فارس — قائما لم يمس ، رغم أنه عقد فى عهد ضعف الدولة الفارسية ، ويحتوى على شروط يسهل على الفكر تبيان اجحافها بالنسبة للدولة الايرانية ، الا أنه ترك فى مطلع عام ١٩٣٢ الصحافة الايرانية تشن أول هجوم على شروط امتيازات شركة انجلو ايـــران للنفط Anglo - Iranian Oil Company » — عندما حيل واستندت فى هجومها على ناحية أدبية ، وهى أن أى دولة مستقلة لا تكونملزمة بتنفيذ اتفاقيات عقدت فى عهد ملكية بائدة ، ونظام سرى

فى أوصاله السوس وانبعثت منه رائحة التعفن ، فحيث لم يكن قادراً على الدفاع عن مصلحة الشعب ، فما تركه من معاهدات واتفاقيات يجب بطلانه فوراً • كان هذا الهجوم بمثابة مقدمة لنضال قاده الرأى العام الايرانـى بصـلابة ، ودون أن يصيبه كلال أو ملل ، مطالباً بتعديل عقود امتيازات شركة البترول الانجليزية ، واستندوا أيضاً فى هذا — أى تعديل العقود — الى أن كل اتفاقيات الامتيازات التى عقدت فيما بعد — ويقصدون بذلك الاتفاقيات العراقية — أعطت الدولة صاحبة حقول الزيت مكاسب تفوق بكثير ما نص عليه فى الاتفاقيات الايرانية . وتحت ضغط الرأى العام الذى لم ينقطع ولم يهدأ ، وافقت ادارة « شركة انجلو ايـران للنفط Anglo - Iranian Oil Company » فى المباحثات على مبادىء جديدة يلتزم بها فى عقود الامتيازات ، ومع هذا لم يصلوا الى اتفاق فقد أظهرت المباحثات بين وكلاء الشركة وبين الحكومة الايرانية أن كل طرف نفخ أوداجه ، واستجمع قوته للحصول على مكاسب أكثر ، قبل أن يبدى اسـتعداده للموافقة على الأسس العريضة لها ، وكل منهما دخلها عاقدا العزم على توجيهها نحو هـدفه هو ، وليس للوصول الى حل وسط بين الاتجاهين •

ترك رضا شاه المسألة تنحدر الى حيث يستعرض عضلات قوته من جديد ، اذ بعثت الحكومة الايرانية خطابا فى ٥ ديسمبر سنة ١٩٣٢ الى وكيل « شركة انجلو ايران للنفط Anglo - Iranian Oil Company » فى طهران تبلغه فيه الغاء امتيازات البترول ، مشيرة الى أن الحكومة تعتبر حقول الزيت الايرانى ملكا للشعب الايرانى • فأيقظ هذا الهجوم ضد الشركة الانجليزية — وهى صاحبة جبروت ، اذ تقف خلفهـا الأدميرالية البحرية للامبراطورية العالمية — لدى الايرانيين عاصفة من الاستحسان والاعجاب ، وفجرت أمواجاً هادرة من العواطف المشوبة بالفرح والابتهال ، فزينت المدن الايرانية فى هـذا اليوم التاريخى وانقشع ظلام ليلها من كثرة ما علق على واجهات أبنيتها ومحلاتها من المصابيح الكهربائية ابتهاجاً بهذا الحدث العظيم • • • وما قيمة هـذا

الحدث ؟ انه التعبير لاستعادة الشعب قوته الوطنية مرة أخرى ، لـذا أصبح عيداً وطنياً شارك فيه الشعب كله بأساليب مختلفة ، وأعرب عن اعجابه للحكومة ، اذ انهالت عليها — أى الحكومة — فى طهران برقيات التأييد من كل أجزاء المملكة الايرانية ، يعرب فيهـا مرسـلوها عن استعدادهم لبذل الروح والمـال لمساندتها فى هذه القضية .

أطلقت انجلترا العنان للصحافة — بل دفعتها وشجعتها — لتعلن حرباً اعلامية ضد الشاه ، فانفجرت حملة شملت كل وسائل الاعلام ، وجهت للشاه وحكومته ودفعت كل ما لديها من ثقل فى هـذا الميدان ، علها تستطيع النيل منه والتأثير عليه ، فتتوصل الحكومة البريطانية — التى لم تستعمل قوتها للرد على هذا الاستفزاز ، بل رأت أن تحل المشكلة عن طريق المباحثات — الى حل يرضيها . وبعد أن عبئت الصحافة فى لندن فبلغت ذروتها فى الهجوم ، عادت ودعت الى التفاهم ، فتجاوبت الحكومة الايرانية مع هذه النغمة ، وأبدت اسـتعدادها للمباحثات البناءة ، ثم أعلنت أنها توافق على عقد اتفاقية امتيازات جديدة مع « شركة انجلو ايران « Anglo - Persian » » بشرط أن ينص فيهـا على اعطاء الشعب الايرانى حصة كبيرة من الأرباح .

وصل الطرفان الى اتفاق بعد أربعة أشهر من المباحثات ، فوقع العقد الجديد فى مايو ١٩٣٣ م ، وافقت فيه الشركة على أن تحصل ايران من انتاج « شركة انجلو ايران Anglo - Iranian » على نسبة كبيرة . ولم يكن تحسين موقف ايران فى الاتفاق مع أكبر شركات البترول البريطانية ذات السـيطرة العالمية ، هو النتيجة الجوهرية لمظاهـرة استعراض العضلات التى قادتها الحكومة الايرانية ، بل تراجـع بريطانيا — وهو أمر مؤكد لا شك فيه — دون نضال أمام مناورة القومية الاسلامية ، وتنازلها عن الحقوق الثابتة والواضحة وضوح الشمس ، والتى لا يحق لأحد أن يمسها أو ينكرها .. لو حدث هذا قبل ثلاثين عاماً لكفى ظهور الأسطول البحرى الانجليزى فى الخليج الايرانى — مجرد الظهور فقط — فى اخضاع مثل هؤلاء الذين يستعرضون عضلاتهم

اليوم للتأثير بها على نيل مكاسب أكثر من الشركات الأجنبية ، فتغير الظروف منع انجلترا من محاولة القيام بالتظاهر الحربى ، وأجبرها على أن تتخذ الطريق السلمى لحل هذه المشكلة •

* * *

كانت الأحداث فى المنطقة العربية أبعد أثراً — على السياسة الانجليزية فى تغيير مسارها عن الخط الذى رسم لها قبل الحرب — مما فعلته القوى التى استيقظت فى شمال العالم الاسلامى ، فبينما ساعدت روسيا القوى الوطنية فى الشمال على الوقوف ضد انجلترا ، مما جعلها تتراجع عن سياستها الاستعمارية ، اذ بالقوى التى انفجرت فى المنطقة العربية ، تضع أمام أعين انجلترا حتمية تغيير أسس سياستها التى خرجت بها من الجزر البريطانية قبل الحرب — وهى سياسة الغزو الاستعمارى — وضرورة تعديل كيفية الوصول الى تحقيق الأطماع الاستعمارية •

فقد وصلت انجلترا الى المنطقة العربية لتحقيق هدف كان أحـد الأسباب الرئيسية التى دفعتها الى ميدان الحرب ضد تركيا ، ألا وهو اخضاع المنطقة الواقعة بين البحر المتوسط والخليج الفارسى للسيادة البريطانية ، لتكون طريقاً برياً — خاضعا للرقابة الانجليزية — الى الهند ، وهو ما كانت تحلم بـه قبل الحرب ، وتراودها الآمـال فى الحصول عليه •

ظلت السلطنة التركية العظمى تحافظ على سيادتها على الشاطىء الشرقى للبحر الأبيض المتوسط — على الرغم من سريان الضعف فى أوصـالها وتهالكها الذى عم جميع أجزائها — عن طريق محاورات ماهرة ، ومداروات ماكرة أمام الطامعين الغربيين ، وغرس الوقيعة بين القوى الأوروبية التى تسعى للحصول على مكاسب من تركيا ، وتتحفز للانقضاض على تركة السلطنة المتهالكة ، وبينما كان الصراع — بين تركيا المتهالكة والقوى الاستعمارية الأوروبية — دائراً ، وقفت انجلترا تنتظر وترقب — وهى قابعة على ضفاف النيل — اللحظة التى تستطيع

فيها التحرك لتحقيق أمانيها الاستعمارية فى الحصول على طريق برى الى الهند بجانب الطريق البحرى الذى تفرض سلطانها عليه ، فسنحت لها عندما دخلت السلطنة التركية الحرب العظمى فى جانب دول المحور •

حاصر الجيش الانجليزى تركيا من جانبين — من سيناء ، ومن العراق — ولم تكن فى وضـــع يمكنها من الصـــمود أمـــام جيش الامبراطورية ، لأن أعراض الشيخوخة ظهرت عليها ، فأسسها منهارة ، وبناؤها متهالك وآيل للسقوط ، هزته الثورة العربية فقطعت ما تبقى من أوصاله ، وأحدثت فيه شقوقا سهلت على بريطانيا المروق منها الى حيث تريد ، ففى نهاية العام الثالث للحرب كان نصف المنطقة العربيـــة الشمالية فى غرب آسيا — وهى المنطقة الواصلة بين البحر المتوسط والمحيط الهندى — تحت سيطرة القوات الانجليزية ، وفى احـــدى معاهدات التقسيم مع فرنسا وأعنى معاهدة « Seikes - Picot » — اعترف الطرف الفرنسى بسيادة بريطانيا على المناطق التى طمعت فيها لندن ، وحددت المعاهدة النصيب الفرنسى — أساســا — فى المنطقة المعروفة اليوم بسوريا • وحلت الادارة العسكرية الانجليزية محل الادارة التركية القديمة فى فلسطين وبلاد ما بين النهرين ، فبدا لانجلترا أنها قد حققت أحلامها ، ووصلت أهدافها التى كانت تراودها الآمـــال فى الوصول اليها ، ولا تحتاج الآن سوى اعتراف عالمى بواسطة عقـــد معاهدات سلام ، والحصول على شرعية وجودها فى هذه المناطق من هيئة قانونية دولية ، فاقترح تكوين عصبة الأمم لتمثيل هذا الدور •

أخفت بريطانيا وجهها الاستعمارى ، فتنازلت عن الضم السافر لمنطقة وصل البحر الأبيض المتوسط بالخليج الفارسى العربية ، واختارت دور الانتداب ، لتتحرك خلف الكواليس ، ولكن بان لها أن هذه الطريقة ليست مأمونة فى تنفيذ مبادئها الســـياسية التى ميزت معالم خطتها الاستعمارية فى عصور ما قبل الحرب ، وأظهرت أن السياسيين فى لندن بدأوا يدركون ، كم أضاعوا من الوقت والجهد فى تطبيق طريقة

فى العالم الاســـلامى اتبعوها قروناً طويلة فى حمـــاية مصـــالح الامبراطورية العالمية .

لقد كانت الطريقة التى اختارتها بريطانيا — وهى الانتداب الذى حصلت على « شرعيته » من عصبة الأمم ونص عليه فى معاهـــدات السلام — لتضمن سيطرة الامبراطورية سيطرة نهائية على منطقة العبور الواقعة بين البحر الأبيض المتوسط والخليج الايرانى ، أسلوبا استعماريا توصلت اليه لندن حتى تستطيع — خلف كواليس الشكل الجديد لحكومة « شرعية » فى هذه البلاد — أن تمارس عمليا ضم هذه المناطق الى امبراطوريتها . وظنت انجلترا أنها سوف تتخلص من شبح القوميـــة الاسلامية عن طريق اقامة شكل ظاهرى لحكومات وطنية ، تبدو — ظاهريا فقط — أنها تتمتع بحقوق الحكم الذاتى فى أوطانها . واعتقدت أنها تستطيع اشباع رغبة تلك القومية — التى استنفرت أثنـــاء الحرب لتثور ضد الباب العالى — بهذه الأشكال الظاهرية للحكومات الوطنية .

تم تقدير مصائر هذه الشعوب على هذا النحو — كما حدث أيضاً فى المنطقة الايرانية والأفغانية — دون أن تعلم القوى الوطنية شيئاً عما دبر لأوطانها وأدركت القومية العربية — التى حاربت فى صفوف الجيش البريطانى أثناء الحرب لتقضى على سلطان الباب العالى وتحرر المنطقة العربية منه — أنها خدعت — فى اللحظة التى اعتقد فيها العرب أنهم على وشك تحقيق أمانيهم — فقد غرر بها حلفاؤها البريطانيون ، وعدوا العرب أثناء الحرب باستقلالهم الذاتى ، ثم هم الآن يتنكرون لهذا الوعد ، فتغير وجه نضال القومية العربية ، فمن كان بالأمس يحمل سلاحه ويناضل ضد تركيا ، فقد بدأ اليوم يكافح ضد القوى الغربية التى أرادت الاستيلاء على التركة التركية فى المنطقة العربية ، ثارت القومية العربية فى كل مكان : فى سوريا ضد الفرنسيين ، وفى فلسطين والعراق ضد انجلترا ، وظهر أنها لا تقبل اطلاقا الاقتناع بأسلوب القوى الأوروبية ، فترضى باستقلال ذاتى لا يتعدى أثره

المظهر الخارجى فقط ، اذ لا ترى فيه اشباع رغباتها الوطنية ، ولا يحقق آمالها القومية •

فتاريخ العراق أثناء فترة الانتداب البريطانى ، وكذلك ابـان حكم الملك فيصل يلقى ضوءا ساطعاً على قصة التنازلات الانجليزية عن أهـداف الحرب الاسـتعمارية فى غرب آسـيا • فقد باشرت الدبلوماسية الانجليزية — ابان هذه الفترة — تجربة جديدة لتعوض ما عجزت عن تحقيقه بواسطة الجبروت الاستعمارى اذ اتجهت الى توحيد المصالح بين انجلترا والعراق ، كى يربط الاستقلال الوطنى للدولة الاسلامية الحديثة بالامبراطورية ، والى ارساء أسس التنسيق بين الطرفين فى جميع المجالات حتى تستطيع انجلترا حماية مصالحها فى تلك المنطقة •

أصبح العراق الواقع تحت الانتداب البريطانى — وهو الذى كان فى نظر الاستعمار البريطانى امتداداً لمناطق نفوذ انجلترا — مملكة عربية مستقلة ، تنحصر فيها مصالح انجلترا الاقتصادية ، وشئونها التى تتعلق بطرق المواصلات فى اطار ضيق بحيث لا تلقى فى سبيل المحافظة عليها سوى مقاومة تافهة ، ولكن مصالح المملكة العراقية ارتبطت على طول الخط بعجلة امبراطورية انجلترا العالمية ، وهكذا وجدت القومية العراقية — التى حملت لواء النضال سنين طويلة ضد الانتداب البريطانى فى سبيل تحقيق آمالها ومطالبها ولتحطيم سلاسل لندن التى كبلت بها الحرية فى العراق فسلبته استقلاله الذاتى — أسلوب حياتها تحت المظـلة الواقيـة — السـلم البريطـانى « Pax Britannica » .

عندما اعتلى الملك فيصل — بمساعدة انجلترا ، فقد كان عصا فى يد بريطانيا فى بغداد — عرش المملكة العراقية الجديدة ، أجبر على أن يشير فى خطاب العرش أمام البرلـمان ، أن المندوب البريطانى هو أعلى سلطة فى الدولة ، ولم تكن السياسة الانجليزية آنذاك قد أدركت بعد ، مدى القوة التى تتمتع بها القومية الاسلامية أيضاً فى العراق ، فلم تفطن اليها انجلترا ، وتتفادى الصدام معها الا بعد مضى ما يقرب من عشر سنوات • ففى معاهدة ٣٠ يونيو سنة ١٩٣٠ — التى خضعت فيها

انجلترا نهائيا لهجوم القومية العراقية الذى استمر سنين طويلة ، فخلصت العراق من الانتداب البريطانى — توصلت السياسة الانجليزية الى صيغة مرنة ، تستطيع بها حماية المصالح الانجليزية فى اطار التنازل الكامل عن المطامع الاستعمارية فى هذه المنطقة العربية ، فأبقت الارتباطات العراقية بلندن مسترخية ومحددة بزمن ، وأعطت انجلترا حق استعمال قواعد فى العراق للسلاح الجوى البريطانى ، وحق استعمال الطريق الجوى الى الهند ، كما منحتها حق مراقبة السياسة الخارجية للعراق فى اطار عدم تصادمها مع مخططات المصالح الانجليزية •

لا زالت هذه العلاقة — بين انجلترا والعراق — سارية المفعول حتى اليوم ، على الرغم من أن صداقة الحكومات التى تعاقبت بعد انقلاب خريف ١٩٣٦ م ، لانجلترا قد اهتزت ، بل شوهت أحياناً تشويهاً مدمراً ، اذ تولت السلطة عقب الانقلاب حكومة لم تخف عداونها لانجلترا ، فحاولت جاهدة أن تتحرر — الى أقصى درجة تستطيع الوصول اليها — من التبعية لانجلترا ، وتتقرب من تركيا ونظرت الى النظام الأوتوقراطى الذى طبقه كمال أتاتورك فى تركيا على أنه مثال يحتذى ، وتحمس له رجال الحكم الجدد فى بغداد ، فحاولوا الاقتداء به والسير على دربه ، كى ينهض العراق — حسب فهمهم — ويحقق نجاحا على طريق الاستقلال والتخلص من التبعية الأجنبية كما حدث فى تركيا •

ولكن فى هذه اللحظة التى بدأت فيها السياسة فى بغداد تتخذ طريقها نحو الاستقلال الذاتى بمحاولة التخلص كلية من لندن والاتجاه نحو تركيا ، تقاربت انجلترا وتركيا تحت ضغط التوسع الايطالى فى منطقة البحر الأبيض المتوسط • وعليه فقد صبت أمواج السياسة الهادرة التى تفجرت من براكين بغداد — الثائرة ضد انجلترا — مياهها ثانية فى قنوات انجليزية فى العاصمة التركية ، وبهذا استعادت المصالح البريطانية شرعيتها من جديد ، وتظهر هذه السياسة — التى تلف فى محيط دائرى — بوضوح لا لبس فيه نوع المرونة ، التى تتحلى بها لندن لتتمشى مع التيارات والاتجاهات الجديدة فى الشرق الاسلامى ،

ذلك أمر فطنت اليه لندن وغيرت سياستها القديمة ، عندما أدركت أن العصر الذى حققت فيه أهدافها عن طريق ضم الأراضى ، أو التلميح بالقوة السياسية والعسكرية قد انتهى بظهور القومية الاسلامية •

قام «بكر صدقى» بانقلاب فى بغداد فى خريف ١٩٣٦م،كى يخلص العراق من تبعيته لمصالح الامبراطورية ، وبذل جهداً كبيراً لينهج سياسة عراقية مستقلة — كما كان يعتقد — نابعة من ذات الدولة وليست مفروضة عليها من الخارج ، فاصطدم هذا الموقف السياسى بوجود قاعـدة دبيلوماسية انجليزية : « المصالح المشتركة » واعتبرته لندن أحـد أعداء السياسـة الانجليزية فى المنطقة الاسـلامية ، يجب ملاحظته ومراقبته •• •• وقد دل موته المفاجىء فى صيف عام ١٩٣٧ — سقط عند الموصل بيد مغتال — على أنه يوجد دائما بجانب القوى الدبيلوماسية الرسمية فى ميدان حسم النزاع قوى أخرى يمكن الاستعانة بها ، اذا لم يستطع قيادة الخصم بالطرق الدبيلوماسية واخضاعه على اتباع الخط المرسوم له •

كان «بكر صدقى» عدوا لانجلترا ومعارضا للسياسة البريطانية فى غرب آسيا ، فيعتبر موته بالنسبة لموقف انجلترا فى العراق تخلصا من عبء ثقيل ، وازالة لعقبة من العقبات التى توضع فى طريق المصالح البريطانية • من دفع القاتل — وهو عسكرى كردى عادى — الى ارتكاب جريمته ؟ سؤال لم يجد الجواب حتى اليوم ، فلم يتوصل الى أول خيوط الجريمة •

* * *

اتجهت أحـداث النزاع بين انجلترا والقومية الاسـلامية فى فلسطين اتجاها يغاير ما حدث فى العراق ، ويخالف أيضاً تقاليد السياسة الانجليزية التى تحاول بقدر الامكان أن تتفادى الصدام السـافر مع القوى الوطنية بسلوكها أقل الطرق احتكاكا بها •

ففى وقت مبكر — وبالضبط أثناء الحرب — جاءت بريطانيا بحليف لها ضد العرب ، فعندما ظهرت القومية الاسلامية فى طابعها الجديد

أثناء ثورة العرب بقيادة « لورانس » وفيصــل ، وأصبحت قــوة لا يستهان بها ، استدعت بريطانيا الى الشاطىء الاستراتيجى المهم — وهو الجناح الشرقى الذى يحمى قناة السويس — حليفا يقف بجانبها ويســاعدها ضد القومية الاسلامية التى أصبحت لها أخاديد فى المنطقة تثبت فيها ركائزها حين تقف فى وجه القوى الأجنبية ، وما أشــدها صلابة وأصعبها مراسا حين تضع مطالبها الوطنية التى ليس لها حدود أمــام زحف النفوذ الأجنبى فتوقفه ، وتحاول حمله على التراجع والرجوع الى حيث أتى ، استدعت بريطانيا حليفا الى ميدان النزاع ، فقد وجه وعد « بلفور » اليهودية العالمية فى طابعها الصهيونى الى حماية المصالح الانجليزية فى شرق قناة السويس ، والى الدفاع عن المطامع البريطانية ضد القومية العربية ، اذ أن وعد بلفور كان نــداء لليهود لمساعدة الامبراطورية البريطانية فى هذه المنطقة ضد الثوار العرب ، فقد عرفت انجلترا القيمة الاستراتيجية لفلسطين ، فعندمــا شنت القوات التركية الألمــانية هجومها على قناة السويس أدركت بريطانيا مدى الأخطار التى تهدد هذه المنطقة الهامة — فهى الطريق البحرى الى الهند — فى وقت الحرب ، اذا وقع الجانب الشرقى لقناة السويس فى حوزة — أو تحت رقابة — قوة أجنبية • وقبل أن تحتل بريطانيا هذا الشاطىء الاستراتيجى عسكريا لاح فى الأفق أن لندن قررت الدفاع عنه بعد غزوه بكل ما أوتيت من قوة ، وعزمت على تنفيذ مخططها الاستعمارى هناك دون أن تحيد عند قيد أنملة ، فلن تلجأ فى هذه المنطقة الى اتفاق يكون فيه تنازل من جانبها ، ولن تمارس هناك سياسة الطريق الوسط • فقد اقترح فى معاهدة « Seikes - Picot » تدويل فلسطين — وبذلك أقصيت المصالح الفرنسية عنها ، وانحصرت فى سوريا وينبغى أن تراقب انجلترا هذا التدويل — هكذا فهم من تفسيرات رجال الدولة فى انجلترا لمعاهدة « Seikes - Picot » •

كان دخول اليهودية العالمية الصراع الدائر فى فلســطين قوة وضعت بــين مطالب القومية الاســلامية ومصــالح الامبراطــورية

البريطانية — يعنى أنها حجزت شدة ضغط القومية الاسلامية عن القوات الانجليزية — قوة أمسكت السياسة الانجليزية بعنانها ، فلم تتركها تجمح أو تشتط ، بل تركت لها حرية الحركة بقدر ما تنمو القومية العربية فى فلسطين ، فقد كانت لندن حريصة على وجود توازن بين القوتين • ففى السنين الأولى — التى وقع فيها الصراع مع القومية العربية — كانت الهجرة اليهودية الى فلسطين قليلة جداً ، وكان القسم الـــذى حدده الحلفاء لليهود لانشاء وطن قومى — تحقيقا لمـــا جاء فى الوعد — صغيراً ، فحتى عام ١٩٣٠ لم يكن متوسط المهاجرين اليهود الى فلسطين أكثر من ٧٠٠٠ يهودى سنوياً ومن ناحية أخرى أصبح — ابتداء من عام ١٩٣٠ — استعداد القوميين الشرقيين فى بلاد ما بين النهرين وفى وادى النيل للدخول فى المعركة الدائرة فى فلسطين واضحاً ، فانطلقت التيارات المؤيدة للعرب فى فلسطين تهدر فى قنوات هذين البلدين لتعبىء الجماهير ضد انجلترا ، التى حاولت أن تجد طريقاً يحميها من هجمات القوميين ، فتفادت الصدام المباشر معهم • ومنذ ذلك الوقت — منذ عام ١٩٣٢ م تقريباً — تغيرت سياسة الهجرة اليهودية — التى انتهجتها بريطانيا — الى فلسطين تغييراً جذرياً ، ومالت لندن الى المحافظة على هذه المنطقة الاستراتيجية الهامة فى المنطقة العربية بعد ما فشلت خططها لتأمين الجزء الواقع بين البحر الأبيض المتوســـط والخليج الفارسى ، ففى عام ١٩٣٢ م بلغ عدد المهاجرين ٩٥٠٠ يهوديا ، وفى عام ١٩٣٣ م ، ٣٢٠٠٠ ، وفى عام ١٩٣٤ م أكثر من ٤٢٠٠٠ ، وفى عام ١٩٣٥ م ، ٦٢٠٠٠ يهودياً ، ثم بدأ انخفاض عدد المهاجرين فى عام ١٩٣٦ م ، اذ بلغ فى هذه السنة ٤٠٠٠٠ يهودياً ، ثم انخفضت أرقام عدد المهاجرين فى عام ١٩٣٧ م أكثر من هذا •

حقق نزوح اليهود الى فلسطين الأهداف التى أرادتها السياســـة الانجليزية ، فقد اقتطع جزء من المنطقة العربية بالقوة •• •• جزء لم يعد القوميون العرب يستطيعون أن يمارسوا نشاطهم فيه ، فالمستوطنون فيه من جنس غير عربى • ذلك أن السياسة الانجليزية مهدت الطريق —

باعلان وعد بلفور بانشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين — لاستيطان ما يقرب من نصف مليون فرد من جنسيات أجنبية فى منطقة يجب أن تبقى فيها — على أى الأحوال ، هكذا ترى لندن — مصالح بريطانيا الاســـتراتيجية ، وتمارس غزواً اســـتعمارياً فى المناطق العربية بأى صيغة من الصيغ ، تحقق الهدف المرجو دون أن تحيد قيد أنملة ، وهكذا أدت السياسة الانجليزية — فى اتجاهها لانشاء وطن قومى لليهود — وظيفتها ، فحيث ألقت مصالح بريطانيا الاســـتراتيجية المرســـاة فى شرقى البحر الأبيض المتوسط ، يعيش اليوم شعب يحاول اثبات وجوده أمام ووسط تزاحم القومية الاسلامية ودفاعها عن حقها فى الحياة وعن وطنها ، ولذا يحتاج الى صداقة انجلترا التى أتت به الى هذا المكان ، ليكون حليفها وصديقها ضد العرب • وقد أمن هـــذا الوضع رقابة انجلترا السياسية وسيطرتها العسكرية على هذه المنطقة الاستراتيجية — التى تعتبر مفتاح الشرق — فى شرقى البحر الأبيض المتوسط •

رسخت هذه الأوضاع — التى لم تقم بطريق مفاجىء ، بل امتد الاهتمام بها وخلقها سنوات طويلة — فى فلسطين وأصبح من الصعب تغييرها • • • ثم أبدت انجلترا استعدادها بمنح الجزء العربى — أى الذى ظل عربياً لم يدخل فيه اليهود — فى فلسطين حق تقرير المصـــير والحكم الذاتى • كذلك مالت الى التفاهم مع القومية الاسلامية حتى تحصر القوى المعارضة لها فى اطار ضيق ، ففى صيف عام ١٩٣٧ م وضعت الحكومة الانجليزية خططا تهدف الى تقسيم فلسطين الى دولة عربية وأخرى يهودية ، وعرضت تسهيل امكان تطوير الدولة العربية — التى يتحتم اتحادها مع منطقة شرق الأردن الواقعة تحت الانتداب البريطانى — بانشاء علاقة معها مماثلة لمـــا طبق مع العراق : تحت مظلة الســـلم البريطانى « **Pax Britannica** » ، أما الـــدولة اليهودية فسوف تبحث فى اطار هذا الحل عن توطيد الصداقة مع انجلترا ، فهى واقعة تحت تهديد العرب المحيطين بها ، ولذلك فهى مضطرة الى أن تدنو — مجاوزة بذلك العلاقات التعاقدية — من القوة البريطانية ، وان

يكون تقاربا تبيحه معاهدات بينهما ، بل أشد من ذلك ، اذ تفرضه حاجة الدولة الى الوجود واستمرار بقائها — فلو تحقق هذا لاعترفت الدولة اليهودية لبريطانيا بمركز يخول لها حق السيادة على الشاطىء الفلسطينى لتأمين مصالحها الاستراتيجية فى المنطقة •

رفض مشروع تقسيم فلسطين من كل الأطراف ، فتعالت أصوات الاحتجاج ضده فى الدوائر اليهودية والعربية ، أما ديوان الحربيـــة الانجليزية فقد رفضه دون أن يرفع صوتاً ، وكان رفضه رغم هـــدوئه حداً فاصــــلا فى عدم تنفيذه ، فقد استند الى أن ديوان البحرية يعتقد أن التقسيم المقترح لن يكون كافياً لتأمين المصـــالح البريطانية ، فاضطرت الحكومة الانجليزية أن توحى بالتصويت ضد المشروع عندما عرض على البرلمـــان ، ويرجع الفضل فى تدارك الأزمة فى اللحظة المناسبة الى توقيت رفض المشروع من جانب الحربية البريطانية ، الى أنه صـــدر قبل التصويت عليه فى البرلمـــان ، وهكذا ظلت المشكلة الفلسطينية بدون حل حتى اليوم ، وتبدو مطالب أطرافها متعارضة غير قابلة للتوفيق ، مما يجعل حل المشكلة صعباً ، بل يكاد يشبه المستحيل •

ان من الحقائق المؤكدة والمسلم بها اليوم دون خلاف ، أن فلسطين هى المنطقة التى اضطرت فيها القومية الاسلامية أن تصبر على هزيمتها الوحيدة — وان كانت هزيمة حاسمة حقيقة — فى نزاعها مع القوى الاستعمارية الأوروبية ، فقد أجبرت هنا على التضحية بمناطق تعيش فيها ، لأن مصالح الاستعمار الانجليزى استدعت ذلك ، وقامت بتنفيذه قوة وسلطان الامبراطورية العالمية ، ولكن السهم الذى استقر هنا فى الجسم الشرقى فجر دماء ، وأحدث آلاما ، وتسبب فى أن القومية الاسلامية التهبت — بسبب جرح هذا السهم — خارج حدود فلسطين ، ويزيد التهابها ويتكرر ، طالمـــا ظل هذا السهم فى جسمها • وظهر هذا فى الرفض الجماعى الذى أثاره اقتراح التقسيم الانجليزى لهـــذا البلد فى جميع أنحاء العالم الاسلامى ، فقد اتفق المسلمون فى جميع الأقطار الاسلامية — اتفاقا يندر وجوده فى التاريخ — على معارضة

مشروع التقسيم ومناوأة السياسة الانجليزية فى فلسطين ، وبهـذا بدا للمراقبين السياسيين أن نصر الامبراطورية فى فلسطين — حسب التقديرات البعيدة المدى — أصبح أمراً مشكوكا فيه ، فلن يضمن مستقبلا مبشرا للمصالح البريطانية فى المنطقة •

* * *

ان أروع مثل للسياسة البريطانية — التى تؤثر تفادى السير فى الطريق المؤدية الى صدام مباشر مع القوميين ، وتميل الى الدفاع عن مصالحها بأقل صورة من صور الاحتكاك المباشر — هو تحركاتها على مسرح الأحداث فى مصر ، فهى تسترعى الانتباه بنوع خاص ، لأن أوتاد السلطة الانجليزية ثبتت فى مكان يعتبر — منـذ افتتاح قناة السويس وما أعقبه من الاحتلال البريطانى لمصر — بالنسبة لمنطقـة البحر الأبيض المتوسط وما وراءها نقطة استراتيجية هامة للدفاع عن الامبراطورية البريطانية كلها • ولهذا ألقى على عاتق السياسة الانجليزية واجب ثقيل ، فهى ملزمة بتفادى مطالب القومية الاسلامية مع الاحتفاظ بمبادئها الاستعمارية التى ترسم لها ، وتخطط منذ عشرات السـنين ، ولا يكون ذلك الا اذا وجدت صيغة جديدة يتفق عليها ، تعطى الوطنيين المصريين الحرية التى يطالبون بها ، وفى الوقت نفسه تؤمن مصـالح الامبراطورية العالمية •

ظلت الدبلوماسية البريطانية سنين طويلة — امتدت الى عشرات السنوات — تبحث عن هذه الصيغة ، فلم تتوصل اليها ، الا عند ما لم يعد ضغط التوسع الايطالى — أثناء النزاع الأثيوبى على منابع النيل — أقل خطراً على مصر — وبنوع خاص على مصر المستقلة — وتهديـداً لها منه على انجلترا التى رأت أن ايطاليا الفاشية تهدد أمن طريقها الى الهند ، هذا الاشتراك — بين انجلترا ومصر — فى الوقوع تحت تهديد قوة ثالثة هيأ الجو — بسرعة وبصورة مباغتة — لتوجيه اهتمام لندن والقاهرة الى ناحية مشتركة • وجدت صيغة التفاهم — بعد ما استمر البحث عنه سنين طويلة دون فائدة — والعمل المشترك بين انجلترا

ومصر ، وتبلورت فى حلف « دفاعى » تحصل فيه مصر على حريتها الوطنية بجانب بريطانيا العظمى ، وكذلك أيضاً أمنها وسلامتها — وذلك ما تفتق عنه ذهن الدبلوماسية البريطانية ، وأوهم مصر بضرورة العمل سويا من أجله — ضد الاستعمار الفاشستى الذى يهدد القومية المصرية فى الغرب والجنوب .

أصبحت القومية الاسلامية لأول مرة بعد الحرب قوة لها وزنها فى سير الأحداث السياسية فى مصر ، ولم يخف تكامل قوتها على أحد من المراقبين السياسيين . ويتضح ذلك عندما نلقى نظرة على سير الأحداث فى وادى النيل — بعد ما أعلنت انجلترا فى بداية الحرب الحماية على مصر — وبهذا أعطى للوجود الواقعى الموجود منذ مدة طويلة الصيغة القانونية — بدا كما لو كان الاستعمار الانجليزى قد ثبت أقدامه الى ما لا نهاية على ضفاف النيل ، وكما لو كانت مصر — وهى البلد الذى يتمتع بمركز هام فى الشرق — قد ضمت دون معارضة وبقرار لا يمكن الرجوع فيه الى أملاك الامبراطورية العالمية باعتبارها قطعة أصلية فى بناء الامبراطورية لا يمكن الاستغناء عنها .

أخرج اعلان الحماية البريطانية فى ١٤ ديسمبر سنة ١٩١٤ مصر من التبعية لتركيا ، كما جاء ذلك حرفياً فى وثيقة الحماية . وأعلنت حكومة جلالة ملك بريطانيا ، أنها ستتخذ كل الاجراءات للدفاع عن مصر ولحماية شعبها . وباعلان الحماية على مصر مالت لندن فى البلد الواقعة على ضفاف النيل — لآخر مرة — الى سياسة ضم الأراضى بالقوة ، مستوحية فكرتها من المبادىء الاستعمارية التى وضحت أمام الشعوب . وصلت مصر الى الضعف المتناهى الذى يسبب الاغماء ... ثم انقلبت عقارب أحداث النزاع الى الناحية الأخرى ، فقد اضطرت مصر أن تتذرع بالصبر أثناء الحرب وهى تئن تحت السلطة البريطانية — التى فرضت نتيجة اعلان الحماية — وتشرب الذل كئوساً بدون انقطاع ، وتحمل المصريون ضغطاً — لا يحتمل — من السلطة الانجليزية ، ثم انفجرت مقاومة مصرية عنيفة أخرجت المخزون لديها طوال سنين

الحرب من الحقد والكراهية لانجلترا ، واندلعت فيه غريزة حب البقاء لدى الانسان المصرى الذى شعر أن حياته مهددة بالفناء . كانت هذه المقاومة هى ثورة سنة ١٩١٩ بقيادة الزعيم الوطنى سعد زغلول .

ساق الانجليز الفلاحين المصريين أثناء الحرب — فى بادىء الأمر اقتصر على المتطوعين ، ثم امتدت يد السلطة فأخذت من هم فى سن الجندية عنوة — الى معسكرات العمل خلف خطوط الجنود البريطانية فى الحرب العالمية ، وكانوا يعاملون بقسوة شديدة ، اذ أنهم كانوا يساقون الى ميدان العمل كما تساق العبيد ، أرسل الفلاحون — الذين يفلحون الأرض على ضفاف النيل — الى أعمال السخرة فى فلسطين وبلاد ما بين النهرين وفى منطقة القتال فى تسالونيكى ، وكذلك أيضاً الى مؤخرة جبهات القتال الفرنسية . وبلغت سرية العمال المصريين فى نهاية الحرب أكثر من ٢٠٠٫٠٠٠ فرد ، كان مستوى معيشتهم لا يزيد عن مستوى معيشة العبيد ان لم يكن أقل . وقد حدث هذا كله فى وقت أعلن فيه أن حق الشعوب فى تقرير مصيرها مبدأ أساسى ، لاقرار السلم فى العالم .

اشتد الضغط الانجليزى وبلغت قسوته الذروة ، عندما احتاجت قيادة القوات المحاربة الى حيوانات للركوب وحمل المؤن العسكرية ، وبدأت تستولى على حيوانات الفلاحين المصريين ، دون اعتبار للاحتياجات الاقتصادية وحالة العوز التى شملت مصر ، وبعد الاستيلاء على الحيوان قامت السلطات الانجليزية بمصادرة المواد التموينية وجمعها من الشعب بالقوة ، مما جر المواطنين الى حافة مجاعة شاملة ، كذلك أجبرت الادارة البريطانية المسلمين على دفع صدقات ، على صورة مساعدات تقدم للصليب الأحمر .. .. عندما وصل الأمر الى هذا الحد ، هيئت الظروف وتجمعت الأسباب — المادية والفكرية — لظهور رد فعل مصرى ضد الانجليز ، الذين بلغوا بأعمالهم أقصى حدود استغلال واذلال الشعب المصرى ، فالجو مشحون بالتوتر ، ويمكن أن ينفجر بسهولة فى أى لحظة .

غير أن بيان « ولسون » الذى أعلن فيه اعتراف حق الشعوب فى تقرير مصيرها ، وكذلك ما جاء — بعد ذلك بقليل — فى الصيغة الفرنسية الانجليزية — التى اعترف فيها أيضاً بحق الشعوب فى تقرير مصيرها — من أن مبادىء « ولسون » يمكن تطبيقها فى الشرق ، أعطى الوطنيين المصريين الاشارة بامكانية بدء المفاوضات .

فى ١٣ نوفمبر سنة ١٩١٨ اتخذت الخطوات الأساسية التى مهـدت للثورة المصرية — التى أصبحت مثالا يحتذى فى الشرق كله ، اذا اقتفى أثرها النضال الاسلامى ضد القوى الغربية — ، فقد أسس الوفد مجموعة من الرجال عقدوا العزم على قيادة الشعب الى طريق الحرية بعد أن يخلصوه من الوصاية الانجليزية .

اتجه سعد زغلول باشا مع اثنين من زملائه أعضاء الوفـد الى المندوب السامى البريطـانى « سير ريجنـالد وينجت Sir Reginald Wingate » ليطالبوه بحرية مصر . وكان زغلول مستعداً فى بادىء الأمر أن يقبل بعض القيود على حرية مصر واستقلالها لضمان سلامة وأمن قناة السويس طبقاً لمفهوم انجلترا ، فاستقبل المندوب السامى سعد زغلول ومرافقيه ، وبهذا خطت انجلترا الخطوة الأولى الى الوراء أمام المواطنـين المصريين ، لأن اسـتقبال « وينجت Wingate » المندوب السامى فى ذلك الوقت للرجل الثورى سعد زغلول اعتراف رسمى من انجلترا بأن هناك بجانب الحكومة المصرية — التى تقف على قدميها برحمة ورضوان من لندن — قوة جديدة ظهرت فى مصر لتحـدد مستقبل الشعب على أساس ارادته الذاتية وقوته الوطنية ، وكانت هذه القوة الجديدة تتمتع بتأييد شعبى كبير ، بدا ذلك فيما قامت به الجماهير أثناء محادثات سعد وصحبه مع المندوب السامى الانجليزى ، اذ كتبت عريضة بأنهم — أى سعد وصحبه — هم القادة الحقيقيون للشعب ، فوضتهم الأمة للمطالبة بحقها ، ووقع عليها فى الساعة الأولى عشرة آلاف مصرى .

تشددت بريطانيا — آنذاك — فى موقفها أمام مطـالب الوفـد

المصرى ، فتأكدت لندن من عداوة القومية الاسلامية واعتبرتها منافساً خطيراً لها فى مصر أيضاً ، وتبينت انجلترا خطورة هذا العدو فى اللحظة التى أرادت فيها أن تعيد « الهــدوء الى ضفاف النيل » بنفى زعيم الوطنيين سعد زغلول وأصحابه جميعاً الى خارج البلاد •

ففى ١٨ مارس سنة ١٩١٩ اعتقل سعد زغلول ، وفى نفس اليوم اندلعت المظاهرات فى القاهرة ، وفى غضون أربع وعشرين ساعة عمت الثورة جميع أنحاء القطر المصرى ، وانفجر غضب الجماهير ضـــد انجلترا ، ادرجة أن جميع القوات الانجليزية المرابطة فى مصر استدعيت للمحافظة على سيادة انجلترا على الموقف ، غير أنها لم تستطع اخمــاد نار الثورة الا بعد ثلاثة أسابيع من العمل العسكرى المتواصل •

ثم عــين الجنــرال « أللنبى Allenby » — الذى كان قائدا للعمليات العسكرية فى فلسطين أثناء الحرب — ليمثل السلطة الانجليزية فى مصر ، فجاء تعيينه تعبيراً عن موقف لندن الذى لم يزل يســيطر عليه العقل الاستعمارى الذى يقدم على كسر ما يتعسر عليه تليينه وانطواؤه • لكن فكر مصر الحديثة لم يعد قابــلا للكسر ، وصلابــة زعمائها المناضلين من أجل حريتها تسندها جبهة شعبية عريضة لا تلين ، ولن تهدأ اذا ما أقدمت انجلترا على استعمال أى نوع من أنواع القوة ضد المطالبين بحرية الشعب المصرى ، والمناضلين من أجل الاستقلال ، فقد أعقب ثورة ١٩١٩ اضراب عام شل حركة الادارة كلها ، وأعطى الجنرال « أللنبــى Allenby » — وهو الرجل العسكرى — دليلا واضحا على أنه من الضرورى جدا التفاهم مع هذه القوى الوطنية ، التى ظهرت على مسرح السياسة فى مصر ، ويجب أن يؤخذ فى الحسبان أن اثارتها تعتبر خطورة على موقف انجلترا واستراتيجيتها على ضفاف النيل ، ولهذا طلب « أللنبى Allenby » من لندن قرارا حاسما يعترف فيه « بمبدأ حرية مصر » ، وقبلت الحكومة فى لندن نصــيحة ممثلها فى مصر بعد معارضة عنيفة استمرت وقتاً طويلا ، وبهذا خطت لندن خطوة أخرى الى الوراء ، وفى ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ ســلم

« أللنبـــى Allenby » للسلطان المصرى مذكرة يعترف فيهـــا باستقلال مصر مبدئيا ، مع أربع تحفظات — ولكن لم يكن هـــذا الاعتراف المبدئى عمليا ، اذ أنه لم يتعد الناحية الشكلية لصورة الدولة الرسمية — أوضحت مكامن خوف انجلترا وهى :

١ — تأمين طرق اتصال الامبراطورية البريطانية ٠
٢ — الدفاع عن مصر ضد الهجوم المباشر وغير المباشر ٠
٣ — حماية الأجانب والأقليات فى مصر ٠
٤ — مسألة السودان ٠

وبناء على هذه التحفظات تستطيع لندن أن تتدخل فى كل شـــئون مصر الداخلية والخارجية ، فقد تركت لها الباب مفتوحا تدخل من أى جانب شاءت اذا أرادت التأثير على مصر فى تحديد مسار سياستها فى الداخل والخارج ، وبقى المجال الذى ترك للوطنيين المصريين ليتحركوا فيه ضعيفا جداً ، لدرجة أنهم اضطروا الى الاصطدام بالحواجز الذى حددته وحجزتهم عن ممارسة سلطاتهم فيما وراءه ٠ اعتقـــدت انجلترا أن الحل الوسط لمسألة الاستقلال أنقذها من ضرورة الاعتراف الواضح بمصر وبمطالب شعبها فى الحرية والاستقلال ، وتوقعت لندن نتيجة مماثلة لما حـــدث فى العراق ، أى أن الوطنيين فى مصر يقنعون بمظهـــر الحرية ، ولكن لم يتحقق هذا ، فقد ساعد الحل الوسط على افلات الزمام ، ولم يعد التحكم فى مجرى الحوادث فى يد لندن ٠ فتصميم الشعب كان موجها الى المسألة برمتها ، والى طلب الجواب عن هذا السؤال : من سيد مصر ؟

لم تعط اتفاقية عام ١٩٢٢ حلا ، بل خلقت أساســـا جـــديدا لاستمرار النضال بين قوى الغرب وقـــوى الشرق ، بين الاســـتعمار الانجليزى والوطنية المصرية ، ثم انتهى هذا النضال بتراجع انجلترا النهائى فى مسألة استقلال مصر ٠ فالصيغة التى وجدت أخيراً لانهاء الصراع الانجليزى المصرى تحمل — مرة أخرى — الطابع الخاص لموقف بريطانيا العظمى السياسى فى الشرق الاسلامى عموماً ، اذ احتوت

على نفس المبادىء التى ميزت اتجــاه الديبلوماسية الانجليزية فى أفغانستان وايران والعراق :

١ — التفاهم مع القوى الوطنية بحيث تحصر مقاومتها فى أضــيق الطرق •

٢ — التنازل عن المطامع الاستعمارية التى تحكمت ، ووجهت سياسة بريطانيا فى القرون المــاضية فى ضم المناطق المستولى عليها الى المستعمرات البريطانية •

٣ — تحديد المطالب الانجليزية بتأمين مصـــالحها الاقتصــادية وتأمين خطوط مواصلات الامبراطورية العالمية •

أرغمت الأطراف المتنازعة — الانجليز والقوى الوطنية فى مصر — على التوصل الى تفاهم يكون مرضيا للجميع ، لأن زحف الاســتعمار الفاشستى فى الشرق يهدد آمال القومية الاسلامية وجهادها للحصول على حرية المنطقة واستقلالها ، كما يهدد طرق المواصلات الانجليزية الى الهند • فتحت ضغط هذا الخطر — الذى جد فى المنطقة ، وهدد المتنازعين — تحول الأعداء على ضفاف النيل الى متحالفين ، فحلت المعاهدة الانجليزية المصرية — التى عقدت فى عام ١٩٣٦م — محــل اتفاقية عام ١٩٢٢ م التى قيدت بالتحفظات الأربع ، ونالت مصر بهذه المعاهدة الجديدة اعترافا كاملا — غير مشروط — بحريتها •

حــدث هذا تحت ظلال الحرب الأثيوبية وانتصــار ايطاليا على « نيجــوس Negus » — لقب امبراطور أثيوبيا — اذ اعتبر المصريون هذه الأحداث انذار خطر يهدد سلامة أمن بلادهم •

تعتبر هذه المعاهدة — من ناحية ما احتوته من بنود — اتفاقا خضعت له النزعات الطبيعية والتقاليد الموروثة لكلا الجانبين ، فهى تحرر مصر من كل ارتباط أو وصاية مباشرة ، وتضع الدولة الاسلامية الحديثة — وهى مصر — فى حلف أبــدى مع انجلترا التى احتفظت بحق مرابطة قواتها على طول قناة السويس لحمايتها — حددت مدة وجود القوات

البريطانية بخمس وعشرين سنة — حتى تبنى مصر جيشها ويكون فى حالة تمكنه — كحليف لانجلترا — من الدفاع عنهـا وعن حـرية مصر أيضا •

حصل استقلال مصر — الذى اعترفت به انجلترا — على اعتراف دولى فى مؤتمر « مونترو Montreux » الذى قرر فيـه — باتفـاق عالمى — الغاء الامتيازات القانونية والادارية — التى تمتعت بها القوى الأوروبية فى مصر — بعد مضى فترة انتقال محددة • أصبحت قرارات هذا المؤتمر ، وكذلك قبول مصر عضواً فى عصبة الأمم رمزاً للتراجع الذى اضطرت اليه القوى الأوروبية فى الشرق الاسلامى منذ نهايـة الحرب ، فأمام ممثل الدول الاسلامية تنازل سفراء كل القوى الغربية — مختارين تعلو البسمة وجوههم — عن الامتيازات التى أخذوها ، عندما غزت أوروبا الشرق واقتحمت عليه دياره ، والتى ظلوا يتمتعـون بها ويدافعون عنها زمناً طويلا ، فقد رفض رسمياً مبدأ تفوق الجنس الأوروبى على الشرق الاسـلامى فى مؤتمر « مونترو Montreux » وفى قاعات عصبة الأمم فى جنيف ، وأعلن مبدأ التعاون والعمل المشترك بديلا له ، وعمل مشترك مع تساو فى الحقوق •

* * *

**الى متى سيظل مبدأ العمل المشترك — المشـار اليه — معترفـا به فى الشرق ؟**

والى متى سيظل خط دفاع الدول الغربية تجاه الشرق الزاحف مركزاً اهتمامه على أساس هذا العمل المشترك ؟

قام فى شبه الجزيرة العربية — منبع الاسلام ووطنه الأول وفيها الأماكن الاسلامية المقدسة — دولة عربية كبرى ، أطلق عليهـا المملكة العربية السعودية أسسها ابن سعود — بعد نضال دام عشرات السنين — الذى يعتبر اليوم ممثل الاسلام وزعيم القـوة العالميـة الاسلامية فى المستقبل •

تصرفت انجلترا تجاه هذه المملكة العربية الكبرى ، طبقاً لمبدئها فى المحافظة على مصالحها عن طريق حصر مقاومة الوطنيين — أو معارضة من بيدهم مقاليد السلطة الوطنية — فى اطار ضيق ، والاقلاع عن كل الأطماع الاستعمارية التى تستهدف ضم مزيد من المناطق الى خريطة المستعمرات البريطانية ، لهذا انحصرت علاقة لندن ومطالبها لدى ابن سعود على تأمين طرق مواصلات الامبراطورية ، ولما كانت مصالح البلدين — العربية السعودية وبريطانيا — هنا متوازية ، فقد دب الحماس فى كل من لندن والرياض لقبول مبدأ المحافظة على عدم تمكين أى قوة أوروبية من فرض سيطرتها على الشاطىء الشرقى للبحر الأحمر .

التزمت انجلترا بهذا المبدأ ، فلا ترتكب اليوم — بعد تنازلها عن كل الأطماع الاستعمارية ، ونبذها فكرة اقامة مستعمرات بريطانية — عملا يصطدم مع هذا المبدأ ، باستثناء تصرفاتها فى الهند — فى أى مكان فى العالم الاسلامى ، فهى لا تطلب سوى اتخاذ الاجراءات الضرورية لتأمين طرق المواصلات العالمية للامبراطورية وحماية المصالح الاقتصادية ، ولما كانت الدول الاسلامية الحديثة خلواً من الرغبات الخاصة فيما يتعلق بالملاحة ، وليس لديها خطط تعارض بها مصالح الامبراطورية البريطانية فى شئون المواصلات البحرية ، فعلاقة لندن بالعالم الاسلامى محتملة ، ان لم نقل انها علاقة صداقة ، وحيث تستمر انجلترا فى ممارسة السياسة الاستعمارية — كما فى السودان مثلا — تشرك معها — بطريقة ماكرة — القومية الاسلامية ، فلم يحدث فى مشكلة السودان أن اصطدمت القومية الاسلامية ، بالاستعمار الانجليزى ، اذ نزلت هنا الوطنية المصرية ساحة الغزو الاستعمارى وتزاحمت — بقصد استعمارى — مع الامبراطورية البريطانية .

صفت انجلترا فى كل مكان فى العالم الاسلامى — باستثناء فلسطين — حسابها ، فقد شهدت العشرون سنة التالية للحرب عملية تقلص النفوذ البريطانى الذى كافحت الدبلوماسية البريطانية قبل الحرب فى بسطه

على المنطقة ، وساندتها فى ذلك قواتها المسلحة ، فنبذت فكرة ضم الأراضى بالقوة ، وطرحت جانباً سياسة الانتداب والوصاية على الشعوب ، وحل محلها التفاهم المتبادل والمصالح المشتركة ، والتعاون فى مجالات العمل المختلفة ، وتبذل الآن جهود جبارة فى هذه النواحى تتسم بالادراك الحكيم ، وفهم وتقدير قوى الثورة الاسلامية لتفادى أى نوع من الصدام معها ، ولتجنب مقاطعة القوة العالمية الاسلامية ، التى يزداد نموها يوماً بعد يوم ، فهناك حرص شديد على الاتصال بنشاطها للتعرف على اتجاهاتها وخططها .

* * *

لم تكن السياسة الفرنسية مرنة فى أسلوبها مرونة السياسة الانجليزية ، ولم تقبل فكرة تغيير الخط الاستعمارى — الذى انتهجته القوى الأوروبية فى القرون الماضية — ولا التعديل فى مبادئه الأساسية كما فعلت السياسة الانجليزية بعد الحرب ، فقد ظلت فرنسا متصلبة فى آرائها ومتشددة فى موقفها مع القوى الثائرة فى المناطق التى بسطت نفوذها فيها ، واصطدمت مع القوى الاسلامية صداماً دموياً عنيفاً .

وقع أول صدام مع فرنسا نتيجة النزاع مع القوميين الأتراك ، فقد استندت فرنسا الى معاهدات التقسيم — وهى متعددة — فادعت — بعد انهيار السلطنة التركية الكبرى — حق الاستيلاء — بجانب ما أعطته لها معاهدة « Seikes - Picot » من المناطق العربية — على :

١ — لبنان .

٢ — الشريط الساحلى فى شمال سوريا .

٣ — المنطقة المسماة « Zilizien » — الواقعة بين المنحنى الشمالى الشرقى للبحر الأبيض المتوسط وبين طوروس — بأقاليمها المهمة : آطنة ومرسين .

٤ — جزء من وسط الأناضول يضم ولايات سيواس و « خربوط Kharput »[1] وديار بكر .

---

(١) ليست « خربوط » اسم الولاية بل عاصمتها ، واسم الولاية هو : « معمورة العزيز » ( م . ش ) .

ثم حاولت تنفيذ دعواها بالقوة المسلحة ، فتلقت القوات الفرنسية المعادية عدداً من الضربات العنيفة فى مايو ١٩٢١ ، ونزلت بها هزيمة نكراء ، أجبرت القادة الفرنسيين — حين رأوا بأعينهم الدماء التى سالت دون فائدة ، وفقدان الروح المعنوية فى صفوف قواتهم ، وعدم اهتمام الجنود بفائدة الحرب التى يقودونها ضد الأتراك — على الموافقة على عقد اتفاقية الهدنة التى وقعت فى أنقرة فى ٣٠ مايو سنة ١٩٢٠ ، ثم استكملت — بل استبدلت — بمعاهدة ٢٠ أكتوبر سنة ١٩٢١ م ، التى أخرجت الفرنسيين نهائياً من ساحة النزاع مع الوطنيين الأتراك . فانسحبت القوات الفرنسية من مناطق الأناضول التى كانت تحتلها ، ورجعت الى خط بغداد الحديدى فى القسم الواقع بين الاسكندرونة — حلب — نصيبين . وضعت معاهدة أنقرة — التى عقدت فى ٢٠ أكتوبر ١٩٢٠ — الأسس التى ارتكزت عليها مباحثات تنظيم الحدود بين تركيا وسوريا الواقعة تحت الانتداب الفرنسى . وتنازلت فيها أيضاً عن كل الأطماع الاستعمارية فى المنطقة الوسطى من اقليم الأناضول .

قرر مؤتمر « سان ريمو San Remo » فى ٢٥ ابريل سنة ١٩٢٠ م اسناد الوصاية ( الانتداب ) على سوريا لفرنسا وتفويضها تفويضاً نهائيا فى شئون المنطقة السورية ، فقام نزاع دموى بالغ الحدة مع القومية الاسلامية ، لأن الفرنسيين حاولوا هنا — حيث يعيش شعب متحضر قطع شوطا على طريق الحضارة ويعى الأحداث الدولية بفهم وتجاوب — أن يطبقوا ذلك الأسلوب الادارى الذى استعملوه فى مستعمرات شمال ووسط افريقيا قبل عشرات السنين ، فوقعت مصادمات عنيفة بين قوى الانتداب الأوروبية وبين القومية العربية .

بدأ القتال حول سوريا بحملة ضد الملك فيصل الذى زحف الى دمشق ، بغية تأسيس المملكة العربية المستقلة التى وعدته بها — وبتعبير أدق وعدت أباه حسينا — انجلترا فى المنطقة السورية . حققت الحملة نجاحا ساحقا — فى القضاء على فيصل وآماله — لأن التفوق العسكرى للقوات الفرنسية على كتائب المتطوعين العرب — التى نظمت تنظيما

سيئا ، وحاربت بأسلحة بدائية — حدد مصير المعركة ، وضمن لفرنسا نصراً مؤكداً ضد فيصل .

وعندما بدأت فرنسا — بعد طرد فيصل — تهيىء نفسها للاستقرار فى سوريا اتجه طموحها — فى اتجاه مضاد لما ينبغى أن تقوم به كدولة تباشر سلطة الانتداب على منطقة أجنبية عنها — الى تحطيم القوى السورية التى اهتمت ببث الروح الوطنية بين أفراد الشعب وتهيئته للحكم الذاتى ، وكان عليها أن تشجعها وترعاها ، ففرنسا لم تعتبر واجبها فى سوريا على أنه أمانة وضعت فى عنقها وهى تهيئة الشعب لحكم نفسه بنفسه ، بل نظرت الى سوريا على أنها مستعمرة فرنسية يجب أن تذوب فى تقاليد تلك المستعمرات . استندت السلطة الفرنسية على السلاح ، واعتمدت على القوة العسكرية فى الضغط على سوريا والنزول بها الى مستوى مستعمراتها ، وهكذا توقعت فرنسا أن تصبح سوريا جزءاً لا ينفصل عن امبراطورية المستعمرات الفرنسية ، وطبقا لهذه السياسة حلت أوصال الوحدة الادارية للبلد ، على أمل أن تحطم بهذا — فى نفس الوقت — القوى المناهضة للأطماع الفرنسية وتضعفها ، بحيث لا تستطيع الثورة ضد ما تخطط له الدبلوماسية الفرنسية . ولكن الضغط يقابل دائماً بضغط مضاد ، يتخذ صورة مقاومة ، تشتد أحيانا وتتحول الى صدام مسلح ، فبقدر ما كان الجبروت العسكرى الفرنسى يجثم على صدر البلد ، ويزداد صلفا وعتواً كانت تنمو — كرد فعل — القوى الوطنية السورية ، التى اندلعت نيرانها بركانا يهدر فى ثورة عام ١٩٢٥ م . ابتدأت الثورة أولا بين الدروز ، ثم امتدت الى دمشق ، وسرعان ما عمت جميع الأقاليم السورية كلها .

سحبت فرنسا قوات من مراكش ومن السنغال ، وأرسلتها الى سوريا ، فألقت بها فى النار التى أشعلها الوطنيون . استمرت القوات الفرنسية تقاتل شهوراً ضد الثوار حتى أخمدت نار الفتنة وأعادت الهدوء مرة أخرى الى البلاد . لكنه كان هدوءاً أقرب الى السكون الذى يخيم على القبور منه استقراراً وأمناً .

بعد ما ظهر — ظهوراً جلياً — فشل محـاولة تطبيق الأسـلوب الاستعمارى الفرنسى فى سوريا ، خطت فرنسا — عقب القضاء على ثورة الدروز فى عام ١٩٢٥ م — خطوات حـذرة وبطيئة نحو تغيير الادارة العسكرية القاسية والسلطة الصارمة ، فقد وصل الى دمشق حاكم مـدنى هو « هنـرى دى جوفينال Henry de Jouvenal » وتبين بسرعة الأخطاء الأساسية للسياسـة الفرنسـية ، وحاول أن يستخلص من هذه الاستنتاجات التى ترشده الى رسم سياسته المقبلة ، فبذل جهدا كبيراً لتخليص السياسة الفرنسية فى سوريا من اتجاهاتها الاستعمارية ، وتحريرها من تسلط أفكار الغزو والبطش التى قادتها الى الصدام الدموى مع الوطنيين ، ثم تخطيط ورسم مسارها فى اطـار واجهات الانتداب التى اضطلعت به فرنسا ، وأراد بذلك وضع الأسس وخلق الظروف التى تهىء البلد لحكم ذاتى فى المستقبل ، وتحويـل فرنسا الى صديق لسوريا صداقة عميقة تمتد الى ما بعد زمن الانتداب . فاتخذ السياسة التى انتهجتها انجلترا فى العراق نموذجا له يحاول تطبيقه فى سوريا ، ولهذا وضع مشروع معاهدة تنظيم العلاقة السورية الفرنسية فى اطارها ، تتمتع سـوريا ببعض الحرية تحت الاشراف الفرنسى . غير أن باريس رفضت مشروعه لأنه موجه « ضد مبادىء السياسة الفرنسية فى المستعمرات » فاضطر « دى جوفينال de Jouvenal » أن يترك منصبه . تخبطت فرنسا فـى ظلمـات ، فلم تتضح أمامهـا صورة الزحف الوطنى الذى عم سوريا ، كما كان فى كل أجزاء العالم الاسلامى ، بل هو أعنف وأقوى فى المنطقة السورية منه فى الأقطار الأخرى فى الشرق الاسلامى .

كلفت باريس « بونست Ponset » — الذى خلف « دى جوفينال de Jouvenal » — أن ينهج سياسة معارضة لسـياسة سـلطة « الليبرالية » فنتج عن ذلك بقاء سوريا — بعد فشل محاولة التفاهم غير الناضجة مع الوطنيين السوريين — ثلاثة عشر عاما تحت الانتـداب الفرنسى ، دون أن يـكون لها دسـتور ، ودون ابرام معاهـدة تنظم

الشئون الوطنية — بما فيها العلاقات الدولية — مع سلطة الانتداب ، وظلت البلد عند مستوى المستعمرات الفرنسية • وفى عام ١٩٣٦ م تسبب الضغط الفرنسى — الذى لا يطاق — فى هذا البلد الجريح فى قيام القوى الوطنية السورية باشعال نار الثورة الثانية ضد الحكم الفرنسى، فتكررت المأساة الدموية لعام ١٩٢٥ م • بدأت الثورة فى دمشق ، ثم تدفق تيارها بسرعة البرق عبر الأقاليم ، فأصبحت سوريا فى غضون أيام قليلة شعلة من النار ، فحشدت فرنسا ثلاثة آلاف جندى ماون من قوات المستعمرات ضد الشعب الثائر ، ونزلت الدبابات والعربات المصفحة الى المدن والقرى لاخماد نار الثورة ، ومرة أخرى أحرز تفوق السلاح الفرنسى النصر ولكنه ظاهرى فقط ، انكسرت حدة الثورة ، ولكن لم يقض على ارادة المقاومة — ضد القوات الفرنسية الاستعمارية — التى أخذت أسلوب الاضراب العام ميدانا جديداً لمناهضة السلطة الفرنسية ، فهزت مركز البلد الاقتصادى ، كما أصابت مركز الحكومة فى باريس بطعنة فى أهداف سياستها فى سوريا •

أبدت فرنسا — فى أوائل ١٩٣٦ م — استعدادها للتفاوض فأعلنت أنها تريد عقد معاهدة مع سوريا على غرار المعاهدة الانجليزية العراقية ، وبهذا الاتجاه تغير الموقف الفرنسى تجاه الوطنيين السوريين تغييرا جذريا ، وسلمت باريس بتوقيع المعاهدة — فى سبتمبر ١٩٣٦ م بعد وقت طويل من المباحثات — التى أخرجت سوريا من دائرة الانتداب ، وان كانت لم تمنحها اطلاقا الحرية التى سالت من أجلها الدماء ، وراح ضحية المطالبة بها أرواح عديدة من الوطنيين ، الا أنها سهلت الطريق الموصل الى تلك الحرية ، وبهذا المعنى نالت المعاهدة أيضاً موافقة الوطنيين السوريين • فقد قال رئيس الوفد السورى فى المباحثات « حكيم بك الأتاسى » معقباً على المعاهدة : « لم تكن المعاهدة التى عقدناها مع فرنسا تحقيقاً لآخر أهدافنا الوطنية ، ولكنها وسيلة لتحقيق آمالنا • انها تفتح أمامنا طريقاً طالما بحثنا عنه للوصول الى استقلال كامل ،

استقلال غير مشروط وغير مشوب بالتحفظات ، وهو الذى كافحنا من أجله منذ خمسة عشر عاماً .. فاذا قاوم بعض اخواننا الوطنيين المعاهدة بعنف شديد ، ووصفوها بأنها خيانة للمسألة السورية ، فقد غفلوا عن الحقيقة وعن الظروف الصعبة التى أجبرتنا على المباحثات .

ان المعاهدة التى توصلنا اليها تتيح لنا امكانية أن نشبع رغباتنا الوطنية وآمالنا القومية الى أبعد الحدود ، وسنسير فى الطريق على قدر ما لنا من قوة لمواجهة المصاعب ، فلم نحصل على استقلالنا بهذه المعاهدة ، ولكن سوف نصل الى هدفنا الأخير بالمشاورات — التى عبأت لها المعاهدة — والخطط ، سوف نصل الى الهدف الذى كنا — ولا زلنا — مستعدين للكفاح من أجله حتى الرمق الأخير ، وهو حرية سورية » .
ففى هذا التفسير للمعاهدة السورية الفرنسية تنعكس الصلابة والتشدد اللذين أجابت بهما القومية الاسلامية عند تحديد مركزها تجاه الاستعمار الغربى ، اذ هو — أى التفسير — يعيد الى الأذهان أنه لا يوجد أحــد فى المنطقة الاسلامية يرضى بأى حال من الأحوال بمظهر الحرية ، ويحاول الاكتفاء بهذا المظهر عن الحرية الحقيقية ، فالدعوة الاسلامية الى الحرية لا تعرف الحلول الوسط ولا تقبل شيئاً مقيداً بشروط ، والداعون اليها مستعدون للكفاح والنضال الى أن تتحقق ... حرية كاملة غير مقيدة ولا مكبلة بشروط ، أياً كان نوع هذه الشروط .

اعترفت باريس — بعد توقيع المعاهدة السورية الفرنسية ببضعة أسابيع — للبنان بحق ابرام معاهدة مماثلة ، وهكذا حدد الوقت هنا أيضاً للاستعمار الفرنسى ، وتقلص مركز السلطة الفرنسية تقلصــاً شديداً ان لم يكن قد انكسر وأخذ طريقه نحو الزوال ، فى حين حصلت القومية الاسلامية — بعد سنين طويلة من الصراع الدموى — على نصر مبين لا يقل أهمية عن نصرها فى مصر وفى العراق .

* * *

سوف تكون عاقبة الأحداث التى تجرى اليوم فى المستعمرات الفرنسية فى شمال افريقيا — تونس والجزائر ومراكش — أشد صرامة

وأقوى عنفاً تجـاه مركز القوى الأوروبيـة من التراجع الفرنسى فى سوريا ولبنان الذى لما تظهر نتائجه ولم تعرف آثاره بعد ، اذ يبدو هنا — فى شمال افريقيا — أن شعوب المستعمرات التى ظن أنهـا أصبحت فى حوزة الأوروبيين ، ولن تنفصل عن سلطانهم أبدا ، بدأت تتحرك ضد الاستعمار الفرنسى ، فيطالب زعماؤها فرنسا بمنح هذه الشعوب حقوقاً ، لو أعطتها فرنسا لهم لكان معنى ذلك ضياع السيطرة الاستعمارية فى شـمال افريقيا وخروج هـذه المنطقة من النفوذ الفرنسى •

ففى الفترة التى كانت مراكش غير خاضعة فيها خضـوعا كليا للسيطرة الفرنسية — وذلك فى أيام الثورة التى نشبت فى الشـمال الغربى من مراكش فى عام ١٩٢٦/٢٥ — ظهرت فى الجزائر الحركـة الأولى ضد السلطة الفرنسـية ، فقد كانت الجزائر حتى ذلك الحين المنطقة الاسلامية التى تعيش تحت حكم المستعمر الأوروبى فى هدوء وسلام ، لا تعكره حركات الوطنيين ، لأن المهاجرين الأوروبين — الذين يمثلون ١٥٪ من مجموع السكان — ساندوا سلطة فرنسا ، وحموها من السكان الأصليين البالغ عددهم خمسة ملايين نسمة ، خاصة وأن طبقاتهم قد جردت من الزعماء ، وأقفرت من العناصر القيادية ، لدرجـة أنه أصبح من غير الممكن قيام هذا الشعب بثورة ضد المسـتعمر الأوروبى • نعم ! وعدت فرنسا العرب فى الجزائر أثناء الحرب باصـلاحات سياسية ، ولكن لم تفكر باريس فى فرحة النصر أن تفى بهذا الوعد ، وظن رجال السلطة الفرنسية فى فرسای أن العـرب لن يجـرأوا على مجرد تذكر الوعد الذى التزمت به فرنسا أمامهم قبل الحرب •

عاد الجنود الجزائريون من جبهات القتال فى شمال فرنسا الى بلادهم ، وهم يحملون أفكار « ولسون » ومبادئه التى اعترفت بحق الشعوب فى تقرير مصيرها بنفسها ، وقربت المسافة بين الرجل الأبيض والملون • ولكن كانت تساورهم الشكوك فى أخذها مأخـذ الجد ، ويعتريهم شعور داخلى بأن أثرها لن يتعدى ما خط على الورق ، وبث

على موجات الأثير • غير أنه لم يظهر أثر مباشر لهذا التفاعل الداخلى بعد الحرب ، لأن البلد كانت تمر بفترة انتعاش اقتصادى قائم على أساس غير سليم ، فلم تزل فرنسا مخربة مدمرة ، وتصدر اليها الجزائر منتجاتها الزراعية ، وتحاول جاهدة أن تزيد من الانتاج لأن السوق الفرنسية تطلب المزيد ، فاتجه الجزائريون الى استعمال الآلات التى شـاهدوها فى أوروبا أثناء الحرب لزيادة الانتاج ، فارتفع ربحهم وتحسنت أحوالهم المعيشية •• ثم تسبب هذا التحول المفاجىء فى الوضع الاقتصادى فى احداث مضـاعفات خطيرة دفعت الى ظهور الحركة السالفة الذكر فى شتاء ١٩٢٦/٢٥ م •

كان السبب الظاهرى لهذه القلاقل التى ظهرت فى « جذع شجرة المستعمرات » الفرنسية ، هو المسألة الاقتصادية وسياسة فرنسـا التجارية تجاه الجزائر ، فأثناء الفترة التى تضاعفت فيها واردات فرنسا من شمال افريقيا ، ودفعت فى المنتجات الزراعية أسعارا عالية اقترضت الجزائر وتونس — واقتصادهما يعتمد على الزراعة — قروضا كبيرة ، اشترت بها آلات ميكانيكية لتطور بها أسلوب الزراعة حتى تفى بتلبية الطلبات المستمرة للوطن الأم فرنسا ، وفى اللحظة التى استكمل فيها اعادة زراعة الأراضى فى شمال فرنسا ، وأصبح الفلاحون الفرنسيون وأصحاب مزارع الكروم فى وضع يمكنهم من توريد المحاصيل الزراعية وثمار العنب ، طالبوا بتخفيض الواردات الزراعية من شمال افريقيا ، فأجيب طلبهم فأدى هذا التخفيض الى انهيار اقتصادى فى شـمال افريقيا ، والى كارثة مضاعفة ، فالالتزامات — التى فرضـها التحول المفاجىء فى الوضع الاقتصادى — لم يعد فى الامكان الوفاء بها ، فاضطر كثير من الناس الى رهن ممتلكاتهم ، وزاد عدد المزادات العلنية التى تباع فيها هذه الممتلكات وفاء لحق الديون زيادة كبيرة أفزعت الجماهير والسلطات ، فاضطرت الحكومة الى اتخاذ قرارا بقيام الدولة بدفع مساعدات مالية مع تأجيل الأقساط المستحقة الدفع الى أجـل طويل •

انهار الاقتصاد الوطنى ، فتحرك أول احتجاج سافر ضد سلطات الحكم الفرنسى ، ففهم المراقبون السياسيون فى باريس — وكذلك أصحاب السلطة فيها — أن السبب الأول والأخير هو الأزمة الاقتصادية وقيموها تقييما خاطئاً ، وغاب عنهم أن الأزمة الاقتصادية كانت فقط سبباً ظاهريا — انطلقت منه الثورة — اختفت وراءه المشكلة الكبرى البعيدة الأفق التى هى مشكلة كل المستعمرات فى الشرق الاسلامى •

تكشفت الأمور ، وبان الوجه الحقيقى لها فى طيات تسلســل الأحداث ، اذ ظهرت مطالب سياسية للثوار — وكثيراً ما تعقبتهم السلطات بحشد المزيد من القوات العسكرية والعتاد الحربى — بعيدة كل البعد عن الأزمة الاقتصادية بل لا صلة لها بهذا المجال اطلاقا •

كان خطيب الثورة والمتحدث بلســانها ، هــو الطبيب الدكتور بن جلول • ولد عام ١٨٩٥ — أى أنه طبيب ينحدر من جيل عصر الحرب — درس الطب فى الجزائر ، ثم فتح عيادة له فى القســطنطينية ، وسرعان ما اكتسب هناك شهرة بين بنى وطنه العرب ، دفعته الى أن يغلق عيادته الطبية ويمارس نشاطه فى ميدان الكفاح السياسى ، فهيأت له قدرته الفائقة فى الخطابة والتحدث الى الجماهير كسب كثــير من المستمعين والأتباع ، ثم اتجه الى جمع الجهود الوطنية فى مركز واحد ، فأسس « Fédération des élus Musulmans » الجبهة الاسلامية ، ورشح نفســه مع مجموعة من أعضــاء الجبهة فى الانتخــابات ، فغزا الدكتور بن جلول وأصحابه بسرعة فائقة المقاعد والوظائف القليلة المخصصة للجزائرين العرب ، فأتاحوا بذلك فرصة جديدة للجبهــة العربية الواسعة ، تمكنهم من مواصلة السير فى طريق الكفاح السياسى الذى كانت الأزمة الاقتصادية طلقة الانطلاق فيه • ففى عام ١٩٣٣ م سافر الدكتور بن جلول الى باريس وطلب مقابلة وزير الداخلية آنذاك « Chautemps » فرفض طلبه ، وبهذا تضــاعفت حــدة الأزمة ، وازدادت العلاقة سوءاً بين الحكومة الفرنسية وبين الجبهة الوطنيــة الجزائرية ، اذ عندما عــاد بن جلول الى وطنه ، أعلن مطالبه على

الجماهير ، ونشر ما كان يريد أن يقوله فى المكتب الرسمى لوزير الداخلية الفرنسى ، فقد طالب بمنح الجزائريين الحقوق السياسية والمدنية التى يتمتع بها المواطن الفرنسى ، واستند فى هذا الى سابقة حدثت بعد حرب ٧٠/١٨٧١ م مباشرة فقد سمحت فرنســا آنذاك لليهود المقيمين فى الجزائر « en bloc » بممارسة الحقوق السياسية والمدنية التى للمواطن الفرنسى ، معللة ذلك بقبول اليهود اللغة الفرنسية لغة تخاطب بينهم ، وأنهم اندمجوا اندماجا كلياً فى المجتمــع الفرنسى ، فعــدلوا عاداتهم وتقاليدهم تبعا لذلك ، وليس فى دينهم شىء يتعارض اطلاقا مع المدنية الفرنسية ، ولهذا فهم قابلون للذوبان فى المجتمع الفرنسى .

استنادا الى هذا الذى حدث قبل أكثر من خمسين عاما ، طالب بن جلول بمنح الحقوق السياسية والمدنية — التى يتمتع بها المواطن الفرنسى — للمناطق الآهلة بالسكان العرب ، التى تمثل الأغلبيــــة الساحقة فى الجزائر ، غير أن الجزء الأكبر من المناطق العربية يعيش عيشة بدائية ، اذ لا يملك ذرة من معالم الحضارة ، ومستوى المعيشــة فيه لا يختلف عن مستوى المعيشة فى المستعمرات الفرنسية التى تمارس فيها سياسة باريس الاستغلال والاستنزاف الاستعمارى ، ولا تعنى اطلاقا بتربية الشعب وتثقيفه .

فجرت مطالب بن جلول المشكلة على أوســع نطاق ، وتحــاول الحكومة الفرنسية من ناحيتها الابقاء على الوضع كما هو ، فلن تسمح باعطاء الحقوق السياسية والمدنية للشعب العربى الذى يبلغ تعداده بضعة ملايين ، لأن معنى ذلك — أى نيله هذا الحق — تفوقه من الناحيــة العددية على المهاجرين الفرنسيين واليهود الجزائريين معا ، فيقضى على كل نفوذ فرنسى فى الادارة الجزائرية . نعم ! كان هناك موظفون جزائريون من الجنس العربى فى الوظائف الادارية المحلية ، ولكنهم لم يصلوا الى مراكزهم عن طريق الانتخاب ، بل كان يختارهم الحاكم الفرنسى ، لذلك اضطر هؤلاء الموظفون — وكذلك عدد قليل من العرب تولوا القيادة فى المراكز المتوسطة والعالية فى السلم الوظيفى — الى

أن يتفرنسوا — أى يـذوبوا فى المجتمع الفرنسى — أمـا غيرهم من المواطنين الجزائريين فقد استحال عليهم التمتع بالحقوق السياسـية والمدنية • عارض بن جلول هذا الوضع ، وطالب بالحقوق الطبيعية للعرب « en bloc » أسوة بما حصل عليه اليهود قبل خمسين عاما •

رفض السياسيون المتطرفون — من الجناح اليسارى — فى فرنسا هذه المطالب بعد اعلانها مباشرة ، لأن الموافقـة عليهـا يتلوها عواقب ليست مرئية اليوم ، فنقل السلطة السياسية فى الجزائر ينذر بالخطر ، وينبىء بحدوث تعقيدات لا حل لها ، اذ يجب على المرء أن يسلم بأن يمارس رعايا فرنسـا تعـدد الزوجـات ، وأن يقبل تطبيق التشريع الاسلامى — المستنبط من القرآن — على رعايا الدولة الفرنسية ، فقد جعلت هذه الأمثلة وما شابهها من التعقيدات المتشـابكة فى مجال التشريع — حيث يصطدم القانون الفرنسى مع التشريع الاسلامى — تنفيذ مطالب بن جلول مستحيلة •

على الرغم من أن بن جلول دلل على أحقية الشعب العربى فى الجزائر فى الحصول على هذه الحقوق ، بأن الشعوب المـلونة فى المستعمرات وسط افريقيا تتمتع بالحقوق السياسية الفرنسية ، وأن أعضاء من الزنوج يجلسون فى البرلمـان الفرنسى ، فلم تجد أدلتـه طريقاً الى اقناع الجناح اليسارى فى باريس بوجاهة مطالبه وعدالتها •

كلما اشتد موقف باريس فى رفض هذه المطالب ازداد بن جلول وأصدقاؤه اصراراً وتصميما على وجوب اعطائها للشعب العربى فى الجزائر ، ولن يستطيع المرء فهم السر الكامن وراء هـذا الاصرار والتصميم ، الا فى ضوء الحالة العامة فى العالم الاسلامى ، حيث عبدت القومية الاسلامية طريقها ، واستعادت مناطق من الاستعمار الغربى ، فلماذا لا يكون هذا ممكناً أيضاً فى الشمال الافريقى ، الذى ظل مائة عام تحت الحكم الفرنسى ؟ تجاوزت ثورة بن جلول حـدود الجزائر ، وتجاوبت أصداؤها فى أرجاء تونس ، فأضافت قوة جديدة الى الحركة القومية التى لم تتأثر من قبل بتيارات خارجية ، ولم يستطع

الاستعمار الأوروبى أن يقضى عليها قضاء نهائيا — وان كان قد وجه اليها ضربات عنيفة — رغم قيامها منذ اعلان الحماية الفرنسية فى عام ١٨٨١ م ففى جو الأزمة الاقتصادية هنا — فى تونس — التف حول الزعماء السياسيين — الذين أعلنوا أن شعارهم وبرنامج كفاحهم يتركز حول : فلتسقط فرنسا وليسقط الحاكم العسكرى الفرنسى — بسرعة فائقة جمهور شعبى كبير ، استمع اليهم وسار خلفهم يؤيدهم ويناصرهم ، وحمل لواء الحركة التى كرست جهودها ضد فرنسا طبقة صغيرة العدد ، غير أن لها قدرات عقلية واسعة وغزيرة ، فقد كانت كلها — تقريبا بلا استثناء — من المثقفين الذين تخرجوا فى الجامعات والمعاهد العليا ، نالوا درجاتهم الجامعية — وهى متعددة ومتنوعة — فى الجامعات الشرقية ثم طالبوا — بناء على ما يتمتعون به من قدرات علمية — بالمناصب القيادية التى يسيطر عليها فى تونس الموظفون الفرنسيون • نظمت هذه الحركة نفسها ، فكونت حزبا أطلق عليه اسم : « الدستور » ، وكثيرا ما صدرت الأوامر العسكرية بحظر نشاطه وتعقب أعضائه ، فكان يعاود الظهور مرات عديدة فى أشكال جديدة وتنظيمات مغايرة ، لا يفتر عزمه ولا يكل سعيه ، فأعضاؤه فى نشاط دائم مستمر ، مصرون اصرارا أكيدا على بلوغ هدفهم ، ويدور كفاحهم حول حركة قومية تونسية ، تألق نجمها فى البلاد ، فأرشدت المواطنين الى تجميع قواهم تحت رايتها للمطالبة بالاستقلال التام فى الشئون الداخلية ، وأن يتولى الوطنيون التونسيون تمثيل بلادهم فى المحافل الدولية • اشترك العلماء مع الوطنيين فى تحريك الشعب ودفعه نحو تحقيق هذا الهدف ، فأضرموها نارا حامية ، تخرج من المسجد قاذفات لهب ، يقذف بها الشعور الدينى فى وجه المستعمر الأوروبى ، وكم لاقت السلطة الفرنسية فى الأعوام الأخيرة من ضربات خرجت من المسجد مدفوعة بما يعبئه هذا الدين فى نفوس أتباعه من حقد على الاستعمار الأوروبى ، وما أكثر ما تسبب العلماء فى مصادمات عنيفة مع الحكام المستعمرين فى الآونة الأخيرة •

تطابق اتجاه الوطنيين فى مراكش — حيث فرضت فرنسا ( أيام حكم البلاد حكما عسكريا ) قيودا كثيرة ( لا زالت حتى اليــوم ) على ممارسة الشعب لحقوقه السياسية — مع محاولة بن جلول فى الجزائر وحزب الدستور فى تونس ، اذ كونت لجنة كفاح مراكش « Comite d'action Merocain » بقيادة « محمد العصانى » ، فقد انضم لهذه اللجنة القادة العرب الذين تخرجوا فى الجامعات والمعاهد العليا الشرقية كما هو الحال فى تونس ، واحتوت لجنة كفاح مراكش قادة حركة ذاتية ، بعثت من داخل الوطن ولم تتأثر بأى عوامل خارجية ، كانت تمارس نشاطاً سرياً قويا لا ينقطع ولا يهدأ ، وقد قوى عزمها ودفعها الى مواصلة الكفاح ما جرى فى المنطقة المراكشية — الأسبانية — حيث وعد الجنرال « فرانكو » باعطاء المواطنين هناك حقوقهم السياسية بسبب مساعدتهم له فى الحرب الأهلية الأسبانية . تعاونت هذه الحركة — يداً بيد — مع الجناح المراكشى فى جمعية الشبان المسلمين التى لها مركز فى القاهرة ، ولهذا كان لها طابع دينى خاص ، تغلب على العوامــل الجانبية الأخرى ، حتى أصبح السمة المميزة لها ، فأثرت تأثيراً كبيرا فى مخاطبة الشعب المغربى ، اذ كان ينظر اليها على أنها تجسيد للتيار الاسلامى ضد المستعمر الغاصب ، وتعبير لمــا كمن فى نفوس الجماهير من عاطفة دينية ، تدفع المسلم الى مواجهة القوى الغربية .

انه لطابع خاص ألا يعلن قادة هذه الحركة رسمياً أن التحرر من السلطة الفرنسية والانفصال عن فرنسا هدف من أهدافهم ، قد يكون المــانع من هذا ذكاء سياسى ، لأن كل اشــارة أو تلميح رســمى بالانفصال يوصف بالخيانة ويزج بصاحبه فى السجن ، ويجوز من ناحية أخرى أن تكون معرفة عدم النضوج السياسى واللامبالاة بين طبقات عربية عريضة حتمت اتخاذ هذا الموقف المعتدل . جرت محاولات للقضاء على السلبية الدينية ، عن طريق احياء التعصب الدينى لدى الجماهير واثارة العاطفة الاسلامية عندهم ، ومن الجدير بالذكر التأكد بأن كل القلاقل — تقريباً — التى حدثت فى تونس فجرها سرعة الانفعال

الدينى — وخاصة عندما كانت تمس قدسية الاسلام بما يرونه انتهاكا لحرمته — ثم يستغل هذا فى المجال السياسى ، لأن التمسك بالدين وعدم التفريط فى أحكام الاسلام والالتزام الشديد بتعاليم القرآن فى كل شئون الحياة ، كان السبب الذى منع فرنسا من تسوية المسلمين فى المستعمرات الفرنسية فى شمال افريقيا باليهود وبـ « اللادينيين » فى ممارسة الحقوق السياسية التى يتمتع بها المواطن الفرنسى • وعليه فقد ذكرت العامة مراراً وتكراراً بقوله تعالى فى سورة المائدة :

**« لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا »**[1] •

وكذلك بالآية الموضحة لهذا المعنى فى سورة النساء :

**« وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل ، وأعتدنا للكافرين منهم عذابا أليما »**[2] •

وتبدو هذه الآيات كما لو كانت تعبيراً عما يجرى فى شمال افريقيا ، فهى تطابقها كل المطابقة ، اذ أن ثلث رجال الشرطة فى الجزائر وتونس من اليهود ، وكانت سياسة القروض — التى أتعبت الفلاح وأنهكته ، خصوصاً وأنها صادفت وجود الأزمة المالية العالمية — تخضع للنفوذ اليهودى ، فقد راقب اليهود — سواء أكانوا وسطاء أو مقرضين معتمدين على بيوت المال اليهودية الكبرى فى فرنسا — شئون المال وقضايا القروض فى شمال افريقيا الفرنسى مراقبة تامة •

وهكذا أصبح واضحاً أن كل الثورات والقلاقل العامة فى شمال افريقيا — وان كان سببها المباشر أزمة اقتصادية تهدد بقحط عام — تحمل طابعاً دينياً على نحو ما ، وآخر وطنيا ، فالدين والوطنية هنا أقوى منهما فى المناطق الأخرى من العالم الاسلامى وهما متحدان لا ينفصلان أبدا •

اتخذ الزعماء العرب الدين والوطنية قوتين دافعتين لحركات التحرر فى شمال افريقيا ، فهيئا لهم سنداً قوياً بين الجماهير المتمسكة بتعاليم الاسلام تمسكا يبلغ درجة التعصب الشديد جعلهم — وعلى الأخص

---

(١) المائدة : ٨٢ (٢) النساء : ١٦١ •

حزب الدستور واللجنة الوطنية المراكشية — ينهجون سياسة ترمى الى اعتبار مبدأ الحماية الأجنبية كأنه أسلوب ونوع علاقة شئون دولتهم الوطنية التى انحدرت فقط الى ارتباط مؤقت مع فرنسا ، ولكنها سوف تتحلل تلقائياً من هذا الرباط ، وتنال حريتها بتطور العرب وتقدمهم خطوات واسعة على سلم الحضارة الدينية ليطالبوا بالاستقلال التام • وعليه فقد ناضل حزب الدستور للحصول على الاعتراف بحق الشعب فى ممارسة الانتخابات — سواء أكان ترشيحا أو ادلاء بالأصوات — لأن ذاك يؤمن الاستقلال فى الشئون الداخلية ، كذلك طالب — أى حزب الدستور — بعقد معاهدة مع فرنسا على نمط المعاهدة السورية الفرنسية ، تضيف الى الحقوق التى اكتسبت فى مجال الشئون الداخلية مكاسب فى مجال السياسة الخارجية • اتجه الرأى الى الوثوق من حماية فرنسا تجاه التوسع الايطالى ، فاتخذ النموذج المصرى فى هذا المجال ، هدفا لهم ، وهو الذى وافقت انجلترا فيه على حماية الوطنيين المصريين من نفس الخطر — وهو التوسع الايطالى — اذ يستوى الأمران هنا وهناك ، والذئب القانع — أى الشبعان — فى الحظيرة يفضل عن الذئب الجائع الذى يحوم خارج السور • كشف زعيم حزب الدستور عن هذا الاتجاه — الذى يطمح اليه حزبه — فى تنسيق العلاقة مع فرنسا بقوله : « ان التفسير الفرنسى للعلاقة التونسية الفرنسية بأنها « Kon-Souveränität » [1] ليس صحيحا فال « Kon — Souveränität » تتعلق فقط بمسائل السياسة الخارجية ، أما الفصل فى الشئون الداخلية فهو مسألة الشعب التونسى وحده » •

اقترب حزب الدستور من بلوغ أهدافه السياسية : عندما ظهرت

---

(١) تتكون كلمة « Kon — Souveränität » من مقطعين ، فاذا وصفت دولة بالمقطع الثانى دل على أنها تتمتع باستقلال تام فى شئونها الداخلية والخارجية •
أما المقطع الأول وهو « Kon » فيدل على الاشتراك والمعية ، فان وصف وضع الدولة الدستورى بالمقطعين معادل على أنها مستقلة فى شئونها الداخلية فقط ، أما فى الشئون الخارجية فترتبط مع دولة أخرى وهو ما يفهم من النص ( م • ش ) •

أصوات فى فرنسا ، رغبت فى بدء مباحثات مع الوطنيين التونسيين ، ووضحت الحقيقة البدهية فى باريس ، ألا وهى أنه لا يجوز حرمان تونس مما حصلت عليه سوريا •

حققت مساعى بن جلول فى أثناء ذلك تنفيذ جزء من أهـداف الحركة الوطنية فى الجزائر ، ففى عام ١٩٣٣ م رفض فى باريس التماس قدمه زعيم العرب فى الجزائر لمقابلة وزير الداخلية الفرنسى ، وفى عام ١٩٣٥ م استقبل الزعيم الجزائرى نفس الوزير فى الجزائر بعد أن أبدى — أى الوزير — رغبته فى الاجتماع به • أراد رجل الدولة الفرنسى أن يزور بن جلول ، كى يتباحث معه فى مطالبه الوطنية ويرجوه الاعتدال فيها • كانت هذه الزيارة تعبيراً عن التحول الذى طرأ على الموقف الفرنسى ، ذلك التحول الذى لاح جزئيا فى أفق باريس ، اذ تلاها قرار اتخذه مؤتمر الحزب الاشتراكى الفرنسى فى ١ يونية سنة ١٩٣٦ م الذى كان يرأسه « سالنجرو » « Salengro » وزير الداخلية الفرنسى آنذاك ، طالبوا فيه بالسماح للعرب فى الجزائر بما يطالبون به من اصلاحات سياسية • وقصد بهـذه الاصلاحات : حريـة الصحافة والاجتماع ، وسن التشريع الاجتماعى والتعليم الاجبارى ، وممارسة الحقوق السياسية العامة • وبهـذا تجاوبت فرنسـا تجاوباً كبيراً مع مطالب بن جلول ، وخاصة فيما يتعلق بالحقوق السياسية العامة ، التى ترتبط ارتباطاً وثيقاً بحقوق مواطنى الدولة الفرنسية • ومما يزيد من أهمية هذا القرار ، أنه اتخذ من حزب يملك فى دوائر الحكومة — آنذاك — فى باريس تأثيراً قويا ، وسلطة تلعب دوراً حاسماً فى توجيه سياسة الدولة •

حول مجلس الوزراء الفرنسى فى خريف عام ١٩٣٦ الى البرلمان مشروع قانون يعترف فيـه مبدئيا اعترافا صريحا وواضـحا بمطالب بن جلول ، فهو يرى السماح بالحقوق التى يتمتع بها مواطنو الدولة الفرنسـية لمجموعة تبلغ ٢٠٫٠٠٠ عربى تقـريباً ، وهم يتكونون من النخبة العربية — أى طبقات الأعيان — الذين هم صفوة المجتمع

العربى : الضباط ، ومساعدو الضباط ، ومن يحملون أوسمة أو نياشين فرنسية أو أنواطا ( ميداليات ) عسكرية أو بحرية •

لا ينبغى أن تمس الحقوق الدستورية الجديدة — التى منحت لرعايا فرنسا فى الجزائر — النظام الاجتماعى للفرد الذى يراد ادماجه — عن طريق منحه الحقوق المدنية السياسية الفرنسية — فى المجتمع الفرنسى ، فسيكون للمواطن الفرنسى الجديد — كما لبقية الفرنسيين المسلمين الذين يعيشون فى الهند الصينية الفرنسية وفى السنغال — الحق فى أن يعيش طبقاً لتعاليم القرآن بالنسبة لتعدد الزوجات وعليه ، فيمكن أن يحدث نظريا أن يقدم وكيل نيابة فرنسى — ينتمى الى طائفة المواطنين الفرنسيين — فرنسيا للمحاكمة بتهمة تعدد الزوجات — وهو أمر يحرمه القانون الفرنسى على المواطنين غير المسلمين — فى حين أنه هو نفسه متزوج بأكثر من امرأة •

أثار اعداد هذا المشروع وتقديمه للبرلمان عاصفة من السخط لدى الرأى العام فى فرنسا وبين الفرنسيين فى المستعمرات الفرنسية ، وقد أشارت الدوائر السياسية الى الأخطار التى سوف تنتج من جراء تطبيقه ، وخاصة أنه سيهيىء للمتطرفين الثوريين فى الجزائر ، الذين ينادون — ويكافحون — بالانفصال عن فرنسا وتأسيس دولة الجزائر ، جواً يساعدهم على تحقيق آمالهم • بقيت حكومة « بلوم Blum » — وهى التى وضعت مشروع التجنس ( أى تجنيس الجزائر بالفرنسية نتيجة منح الجزائريين حقوق المواطن الفرنسى ) وأظهر أعضاؤها تضامنهم فى تحمل المسئولية — أمام كل التصورات على قرارها ، مصممة على رأيها الذى صاغته فى القرار ، اذ بنته على أمل أن يظل حكم فرنسا فى المستقبل ثابتا وراسخا بواسطة تغيير الجنس العربى وادماجه فى المجتمع الفرنسى •

هل سيتحقق هذا الأمل ، فتحدث عملية اندماج شمال افريقيا مع فرنسا وتظهر قوى جديدة تنقذ النفوذ الفرنسى من الضياع والهوان ، وتضمن للحكم الفرنسى هناك الدوام الأبدى ؟ سيخبرنا بذلك المستقبل ،

وان كانت الظواهر المعاصرة تجعل المرء يميل الى الشك فى تحقيق هذا الأمل ، أو على الأقل تقلل من قيمته ، فلا يسلم المرء به حقيقة مؤكدة فالسكان المسلمون فى الجزائر — وقد أصابتهم عدوى استقلال الشعوب العربية فى غرب آسيا بميكروباتها — يطمحون بدون شك الى الاستقلال والانحياز الى المعسكر الاسلامى ، ويرفض الشعب — كما يظهر ذلك فى تصريحات عديدة لزعماء جزائريين — الاندماج والذوبان فى الحضارة الفرنسية رفضاً باتاً ، فهو معتز بنفسه كشعب عربى مسلم ، ويحاول فى مناسبات عديدة اظهار تمسكه بالجزائر عربية اسلامية • فحركة التجديد والاصلاح ، التى يحمل لواءها الوطنيون الجزائريون ، ليس لديها اطلاقا رغبة فى أن تصبح فرنسية ، فقد أسست على ركائز العداوة والكره للاستعمار الأوروبى ، الذى اقتحم هذه الأوطان ، وبسط سلطانه عليها بقوة البطش والجبروت ، واذا تسير فى خط مضاد له على أمل أن تقذف به الى شاطىء البحر الأبيض المتوسط المقابل •

ان أهمية المعنى الذى يرمى اليه منح الحقوق التى يتمتع بها المواطن الفرنسى لـ ٢٠ر٠٠٠ جزائرى مسلم ، يكمن فى موقف الوطنيين الجزائريين الملتفين حول بن جلول ، فقد رأوا فيها مثالا ينبغى أن تتبعه أمثلة كثيرة ، لأن الوطنيين يعتقدون أن المسلمين الجزائريين الذين يمثلون الغالبية العظمى للسكان ، وان لم يتمتعوا اليوم بممارسة الحقوق السياسة ، فسوف تكون لهم فى المستقبل الأغلبية السياسية التى تمكنهم من الوصول الى السلطة ، وفى ذلك الوقت ستبقى خطوة واحدة على بلوغ الهدف ، ألا وهى نهاية النفوذ الفرنسى فى الجزائر ، وبالتالى نهايته فى شمال افريقيا كله •

نفذت مطالب بن جلول — تلك المطالب التى لو نودى بها بعد الحرب مباشرة ، لأصبح من ينادى بها أضحوكة يتندر به ، لأنه يتكلم كما لو كان يحلم أحلام يقظة — فأصبح واضحاً أى منطقة فقدها الأوروبيون ، انهم على وشك الطرد من مستعمرة الاستعمار كانت تعد من أقوى المستعمرات الأوروبية ثباتا تحت النفوذ الغربى ، لقد غاصت

الأرض تحت أقدامهم فى شمال افريقيا ، فاهتز سلطانهم ، وبات يهيىء نفسه للرحيل ، ان بن جلول يستطيع اليوم أن يقف فى قاعة برلمان باريس ، ويتحدث فى محفل الدولة الرسمى بلغة لو تحدث بها أمس — وطالب بما يطالب اليوم — لتعقبته الدولة تعقب من ارتكب الخيانة العظمى ضد نظمها المقدسة الثابتة ، ولأنزلت به أشد العقاب دون هوادة ولا رحمة •

* * *

واجه العالم الاسلامى — وهو ينفض عنه غبار النوم محاولا تمزيق القيود التى كبلته ردحا من الزمن : قيود التأخر الفكرى والتخلف الاجتماعى ، وقيود الاستعمار العسكرى الذى انقض عليه فسلبه ما يملك من حرية وثروة — صنوفا من الاستعمار الغربى الأوروبى ، وكانت ايطاليا الفاشية احداها ، الا أنها احتلت موقعا متأخرا فى ميدان النزاع الفكرى والسياسى مع الشرق الاسلامى • ولهذا كانت أقل القوى الاستعمارية صداما مع تيارات القومية الاسلامية •

انتهجت ايطاليا قبل الحكم الفاشستى سياسة استعمارية ، فحاولت غزو واستعمار مناطق معظمها فى الأقطار الاسلامية ، غير أنها لم تنجح نجاحاً كبيراً فى هذا المجال ، فلم يكن لديها طالع السعد فى السيطرة على المستعمرات ، ولا الطموح الاستعمارى المنظم الذى يدفع — بنوع خاص — الى التخطيط الاستعمارى السليم المحكم ، فبعد الهزيمة عند «العدوة» فى شمال الحبشة — التى أودت فى فترة ما بعد الحرب بنشاط ايطاليا الاستعمارى وقذفت به الى غرفة الاعدام — لم تصادف جهود روما فى أرتيريا والصومال نجاحاً يذكر سوى شريط ساحلى ، أما ليبيا فتعتبر ثمرة الحرب الايطالية التركية ، سقطت — سقوطا دون مجهود مماثل لما حدث فى المناطق الأخرى — فى حجر روما ، ولهذا بقيت السلطة الايطالية فى ليبيا عشرات السنين صورية فقط ، وانحصرت فى المناطق الساحلية ، وكان حجم الاحتكاك مع الاسلام — الذى قاد فيه السنوسى الصراع ضد ايطاليا بمجموعة من الرجال ، هيئوا فكريا

بمبادىء الاسلام التقليدية المحافظة ، فهم متمسكون بتقاليد الاسلام ومبادىء القرآن ، لا يحيدون عن ذلك قيد أنملة — ضئيلا ، فظلت مواجهة الاسلام هنا مع القوى الأوروبية غير ذى أهمية خاصة وأن السنوسى كان يهرب من هذه المواجهة بدل أن يبحث عنها ، ويهيىء الظروف لها لتتاح له فرصة ضرب القوى الاستعمارية فى معقلها ، كما كان يحدث فى المناطق الاسلامية الأخرى •

خسرت ايطاليا — كما خسرت فرنسا — فى لقائها الأول بعد الحرب مع القومية الاسلامية نصيبها ، الذى وعدت به فى معاهدات التقسيم الاستعمارى بين الدول الأوروبية ، وجاءت هذه الخسارة نتيجة صدام مع الوطنيين الأتراك بقيادة «مصطفى كمال» ، الذى قاد البلاد فى فترة تحديد مصير تركيا ، وهى ما بين عامى ١٩١٩/١٩٢٠ على نحـو أجبر القوى المنتصرة على التنازل عن أطماعها الاستعمارية ، والكف عن التوغل فى منطقة الأناضول ، فاضطرت الى الوقوف عند أطراف هذه المنطقة ، فقد وعدت ايطاليا فى معاهدات التقسيم المختلفة التى وزعت فيها تركة الباب العالى بولايتى قونية وأنطاكية المواجهتين لـ « جزر دوديكانز » « Dodekanes Isles » وعندما أرادت بسط سلطانها على هاتين الولايتين أحست بمقاومة عنيفة لا تقل عن المقاومة التى تصدت لانجلترا وفرنسا واليونان من جانب الوطنيين الأتراك ، ففضلت التنازل على نزاع دموى قد يحدث اذا ما استمرت فى تنفيذ مخططها الاستعمارى ، وسحبت قواتها — دون قتال — التى كانت ترابط منذ عام ١٩١٨ م فى كلتا الولايتين ، متبعة فى ذلك ما فعلته انجلترا •

لم تفكر ايطاليا تفكيرا جديا فى تحقيق الهدف الاستعمارى — سواء أكان ذلك فى المجال السياسى أو الفكرى — فى المناطق الواقعة فى الطرف الآخر من البحر الأبيض المتوسط الا فى عهد موسولينى ، فقد تصاعدت الرغبة فى التوسع ، وارتفعت حرارة حمى الأطماع الاستعمارية بقدر ما أحست ايطاليا آنذاك بصغر رقعة الأرض التى تبسط سلطانها عليها ، واتجهت النية أولا الى استغلال الامكانات الموجودة لدى ايطاليا ،

فتركزت فى تحويل المستعمرات الموجودة بالفعل تحت النفوذ الايطالى الى وضع يخدم هذه النزعة الاستعمارية التى استيقظت فى رومـا الفاشية ، فأقنعت رجال الحكم بضرورة التوسع الاستعمارى للوصول الى مركز القوى العظمى التى ناضلت ايطاليا فى عهد موسولينى فى سبيل الحصول عليه بجانب القوى العظمى الأخرى فى أوروبا ، وبهذا أصبحت مواجهة ايطاليا للعالم الاسلامى على جانب كبير من الأهمية ، لأن تطبيق هذه السياسة الاستعمارية سيجرى فى مناطق اسلامية أو معظم سكانها مسلمون • الأمر الذى حتم على ايطاليا بذل جهود مضنية لايجاد صيغة للمواجهة مع الاسلام ، تهيىء امكانية التوسع السياسى والثقافى ، دون أن تثار مقاومة — من جانب الوطنيين — لا داعى لها •

كانت هذه مهمة صعبة ، لم تدرك الفاشية مدى صعوبتها الا فى الفترة من عام ١٩٢٨ حتى ١٩٣٢ م عندما بدأت تتخذ اجراءات مشددة فى طرابلس وبرقة ، وتستبدل السلطة الصورية — التى كانت موجودة حتى ذلك الحين — بأخرى استعمارية عنيفة ، فثارت القبائل ضدها ، فاستخدمت ايطاليا القوة العسكرية فى اخماد الثورة وفرض نفوذها بقوة السلاح • ازدادت المقاومة عنفا وخاصة تلك التى كـان يديرها السنوسى من واحة الكفرة ، مقر تجمع السنوسيين الشهير ، فلم تستطع ايطاليا بسط نفوذها الا بعد أعوام كثيرة ، شن فيها السنوسيون حرب العصابات على القوات الايطالية ، وقامت فيها تلك القوات بحملات ومعارك حربية بقيـادة الجنرال « جرازيانى Graziani » ولـم تتمكن روما من فرض سلطانها هنا فى ليبيا ، الا بعد ما ساقت الجزء الأكبر من الشعب الى معسكرات الاعتقال ، وأصبحت برقـة خاليـة تقريبا من السكان • أظهر نضال السنوسيين قوة العقيدة الاسـلامية فى تحريك الثورة ضد القوات الأجنبية ، كذلك أوضحت المعارك مدى تأثير العقيدة فى العالم الاسلامى فى تحريك المؤمن بالاسلام الى التفانى فى خدمة وطنه — لأنه وطن الاسلام — فى الميدان ، وكيف تهيئه لتقديم روحه فداء له ، بل هو يؤثر الموت على الحياة أثناء المعارك المصـيرية • يستطيع المرء أن يلمس هذا فى المشهد الذى رواه الجنرال « جرازيانى »

« Graziani » فى تقريره عن المعركة ضد السنوسى فى كتاب بعنوان : « هدوء سيرانايكا » « Cirenaica Pocificata » ، فيروى الجنرال : كيف حوصرت آخر مجموعة من السنوسيين — الذين كانوا يقاومون تحت قيادة الشيخ الكبير عمر المختار — ووقعوا فى الأسر ، ثم اقتيد الشيخ الكبير الى الجنرال ، ويمضى التقرير فيقول : سأل الجنرال الشـــيخ عمر المختار : لمـــاذا تصر على الكفاح ضد ايطاليا ؟ فكان الجواب : لأنه واجب العقيدة المقدس • فسأله الجنرال سؤالا آخر : هل كان عندك أمل فى طردنا من سيرانايكا [برقة] بمعركة تحارب فيها بهذا العدد القليل من الرجال وبتلك المعدات البسيطة ؟ فأجاب الشيخ : لا ، لم أعتقد هذا • فقال الجنرال : ماذا أردت اذن ؟ فجاءت الاجابة المدهشة : لا شىء ، أنا أجاهد فى سبيل عقيدتى وهذا كاف ، أما الباقى فيتكفل به الله عز وجل •

علمت روما أثناء معارك « برقة » لأول مرة بالتضامن النضـــالى لجميع العالم الاسلامى تجاه كل الأطماع الاستعمارية للقوى الغربية ، حتى ولو كان القتال — كما هو الحال فى «برقة» — يدور فقط لتعزيز نفوذ اعترف به دولياً على مدى زمن طويل ، فالصحافة الاســـلامية — من القاهرة حتى كابول — هاجمت ايطاليا الفاشـــية ، وأثارت الرأى العام الاسلامى ضدها ، فعبأت الجماهير الاسلامية بالغضب والسخط على الأعمال التى ترتكبها القوات الايطالية فى ليبيا ضد القوات السنوسية ، وانبرت الأقلام تروى باسهاب الفظاعة والوحشية الايطالية فى برقـــة للرأى العام ، لتحريض العالم الاسلامى لاتخاذ موقف مضـــاد تجاه ايطاليا الفاشية •

أراد موسولينى أن يوقف هـــذا الهجوم المفاجىء ، فأومـــأ الى اســـتعداده التفاهم مع القوميين الاســـلاميين فى ليبيا ، وأعلن فى عام ١٩٢٨ م أن ايطاليا صديق حميم للعالم الاسلامى ، كذلك شرح الموقف الايطالى تجاه العالم الاسلامى فى الكتاب المنهجى « مسلمون ايطاليون L'Italia Musulmana » بطريقة مماثلة ، كما لو كان

صديقاً ومحامياً له ، ولكن عندما دعا الدوق — ليثبت النيــة الطيبــة تجاه العالم الاسلامى — الى عقد مؤتمر للطلاب العرب فى روما ، ودعا اليه عدداً من البلاد العربية ، كى يخفف مرحلة الموقف المتأزم بين ايطاليا والمسلمين ، كتبت احدى جرائد القاهرة تقول : هل يمثل هؤلاء القلة الذين لبوا الدعوة الايطالية الطلبة العرب ؟ وهل يعتقدون أنهم طلبــة عرب ، أى خزى يعلو وجوههم ، وأى عار يدنس تاريخهم !!

حاولت ايطاليا أثناء سـير المعارك فى « برقة » أن تخطو خطوة ثانية على طريق تحقيق أطماعها الاستعمارية لتكسب مناطق جديدة تضم الى ماهو تحت سلطانها منذ زمن ما قبل الحرب ، ففى هذا اليوم حيث كانت المعـارك تدور فى « برقة » ، حاول امام اليمن — حاكم تلك المنطقة الخصبة فى الزاوية الجنوبية لشبه الجزيرة العربية « ملك اليمن السعيد » — الركون الى ايطاليا ، لأن اليمن رأى نفسه مهدداً من ابن سعود — الطامح الى التوسع ، وتساعده انجلترا على ذلك خفية — ومن محاربيه الوهابيين ، الذين احتلوا منطقة العسير المتطرفة فى شمال اليمن ، وتجاوبت ايطاليا مع رغبة اليمن ، فأظهرت استعدادها فى تلبية حاجته الى المساعدة ضد من يهدده ، لأن أصحاب السلطة فى ايطاليا اعتقدوا أن التقرب الى اليمن يخلق امكانية تحقيق طموح ايطاليا فى التوسع الاستعمارى ، وأكثر من هذا ، فقد أدركوا فى رومـا أهمية الشاطىء اليمنى الاستراتيجية فى مد المخططات الاستعمارية الكبرى ، التى اتجهوا نحوها لأول مرة فى هذه الأعوام — أى فى عهد الفاشية — اذ هم يأملون — عن طريق الدنو من اليمن — فى السيطرة على المركز الاسـتراتيجى عند باب المندب الذى يعتبر مفتاح البحر الأحمر من الجنوب ، فهو — أى البحر الأحمر — ليس شيئاً آخر طبقاً للتصــور الايطالى — سوى أنه جزء من منطقة البحر الأبيض المتوسط التى ينبغى أن يبسط فيها النسر الرومانى جناحه .

أدى هذا الموقف الى توقيع معاهدة صداقة بين اليمن وايطاليا فى أكتوبر عام ١٩٢٦ م ، ولم يكد يمضى عام كامل على توقيع هذه المعاهدة

حتى كملت بملاحق لها • نعم ! اعترفت ايطاليا فى اطار هذه المعاهدة بالاستقلال التام — غير المشروط ولا المحدد — للامام الذى وصف فى نصها بأنه الملك ، ولكنها فى نفس الوقت ألزمت روما بارسال خبراء الى اليمن للعمل فى جميع المجالات الادارية ، وعلقت السياسة الايطالية آمالها على هؤلاء فى فتح الطريق للزحف الايطالى الى اليمن • كذلك أخذت روما على عاتقها اعطاء اليمن آلات ومعدات هندسية لتطوير البلد ومساعدته فى الدفاع عن نفسه ، وأعلن الامام — فى مقابل هذا — استعداده تفضيل روما فى المجال الاقتصادى على القوى الأخرى • كان توريد الأسلحة والذخيرة بنداً أساسيا فى معاهدة الصداقة اليمنية الايطالية ، اذ بموجبها قامت جبهة مشتركة توجه دفاعها فى ناحيتين : الأولى ضد الاستعمار الانجليزى فى عدن ، والثانية ضد أيديولوجية العربية السعودية التى طوقت حدود اليمن وحاصرته بعد أن استولى ابن سعود على منطقة العسير الواقعة فى شماله •

لم تكن هذه هى المرة الأولى التى انضمت فيها ايطاليا الى جبهة ضد الاستعمار الانجليزى ، اذ سبقتها تحركات ايطاليا فى ايران ضد انجلترا ، فالسفن الحربية — التى حصل عليها شاه ايران ، واستعملها فى مظاهرة حربية ضد انجلترا ليظهر لها قوته ، وليبين لهم عضلاته الدفاعية — كانت من صنع « الترسانة » الايطالية ، خرجت الى الحياة من أحواض سفن روما « ودشنت » فى المياه الايطالية والقوات التى كانت على ظهر هذه السفن دربوا عسكريا وفنيا على ظهر سفن روما الحربية •

انزلقت ايطاليا فى اليمن الى ساحة الاحتكاك مع قوى القومية الاسلامية ، التى وجدت بالطبع حماية ظهورها لدى انجلترا ، فاضطرت ايطاليا الى بدء طريق العودة من حيث أتت ، فقد رأى ابن سعود فى التقارب اليمنى — تحت زعامة الامام — الى روما ضربة موجهة ضد سياسة السعودية العربية ، التى تسعى بكل ما أوتيت من قوة لابعاد

النفوذ اللااسلامى — أى نفوذ القوى الأوروبية — عن شبه الجزيرة العربية ، فمعاهدة الصداقة اليمنية الايطالية تفتح للقوى الاستعمارية الغربية بابا فى الجزيرة ، لا ، بل بوابة واسعة ضخمة ، ولذا ساءت العلاقة بينه وبين اليمن من اليوم الذى وقعت فيه هذه المعاهدة ، وأصبح مستحيلا عليه أن يغض الطرف عنها ، ويعيش مسالما للامام • بدأ فى عام ١٩٣٣ م نزاع حول مسائل الحدود تجاوز الجانب اليمنى ، فأصبح صراعا بين الأطماع الايطالية وبين ابن سعود ، ساندت فيه انجلترا السعودية العربية ، لأن لندن لم تعد تصبر على وجود قوة أوروبية عظمى على الشاطىء الشرقى للبحر الأحمر • لاحظ امام اليمن تفوق المملكة العربية السعودية ، فوافق على عقد معاهدة صداقة ، يلتزم فيها بالمبادىء الأساسية للسياسة السعودية ، فارتبطت السياسة الخارجية لليمن بمنهج السياسة السعودية ربطا يقارب التوافق فى الخطوط العريضة ، وأغلقت تدريجياً تلك الأبواب التى فتحت من قبل أمام النفوذ الايطالى ، فخرج اليمن من الجبهة الايطالية ، ورفض منح الايطاليين امتيازات فى المملكة ، وأخيراً أنهى استعداد الامام الانضمام الى القوى العربية المتضامنة — كطرف نشط بين العراق والعربية السعودية — محاولة التوسع الايطالى فى أطراف الجزيرة العربية ، وقضى عليها قضاء نهائياً ، ففى أوائل عام ١٩٣٧ م انضم اليمن الى الحلف القائم بين بغداد والرياض عن طريق دخول كل منهما تحت جناح ما يسمى السلم البريطانى « Pax Britanic » ، وبهذا ضاع مركز ايطاليا فى جنوبى البحر — عند آخر نقطة تتحكم فى أمور البحر الأبيض المتوسط — الذى حصلت عليه طبقا للمعاهدة اليمنية الايطالية ، فوجدت نفسها — أى ايطاليا — مرة أخرى تقف على الناحية الغربية فقط من باب المندب •

اجتاح العالم الاسلامى موجة شك فى الاستعمار الايطالى ، وارتاب فيه ارتيابا لا حدود له ، وذلك أثناء العمليات الحربية فى الحبشة ، حيث وضحت روما لأول مرة أمام العالم — بالدليل القاطع وتحت

الأضواء الكاشفة — ارادتها التى لا تعرف اللين ، وقدرتها على استعادة القوة والسيطرة مرة أخرى ، فقد أزعج الهجوم الذى شنته ايطاليا على آخر مملكة مستقلة فى افريقيا السوداء ، المناطق المجاورة للحبشة ، وأنذرها بخطر الزحف الاستعمارى الايطالى ، وعلى الرغم من الخلافات القائمة منذ قرون طويلة بين الاسلام ، وبين المسـيحية ذى الطابع القبطى ، وعلى الرغم من اضطهاد الاسـلام فى المملكة الأثيوبية فقد تعاطف المسلمون أثناء الحرب الأثيوبية مع امبراطور الحبشـة الواقع تحت تهديد الغزو ، وشاع عدم الثقة بايطاليا فى المناطق الاسلامية ، واشتدت التيارات المضادة للتوسع الايطالى ، لأنهم أدركوا أن زحف هذا التوسع قد يحدد مصير أجزاء بعيدة فى المنطقة الاسلامية ، تلك الأجزاء التى أصبحت بعد الانتصار الايطالى فى أثيوبيا هامة بالنسبة لرومـا ، فهى مناطق اسـتراتيجية تجذب اهتمام وتفكير المخططين الاستعماريين لموقعها بين مناطق نفوذ روما ، فبعد غزو أثيوبيا أصبح وادى النيل محصوراً بين كماشة ايطالية ، أحد فكيها من الغرب — من ليبيا — والفك الآخر من الجنوب — من أثيوبيا — وكان من الممكن أن يؤثر هذا الوضع على موقف مصر • عمقت المساعدة الانجليزية هـذا الادراك ، خصوصا بعد ما أصبحت الخلافات الانجليزية الايطالية بعيدة الهوة عميقة الأغوار عقب انتصار روما على أثيوبيا ، وليس خافيا اليوم على أحد فى الشرق أن الفراغ الاسلامى فى شمال افريقيا وغرب آسيا مكان سوف يتحدد فيه مصير الخلافات ، فهو ساحة الاحتكاك بين القوتين الاستعماريتين ، اذ تتمسك كل منهما بموقفها الذى ترى فيه حماية مصالحها فى المنطقة ، وتصر على نهج الطريق الذى يضمن لها الحفاظ على مواقعها ، ويحقق لها تنفيذ مخططها الاستعمارى ، وعلى ضوء هذا الوضع تكون مواجهة ايطاليا للاسلام مواجهة مصيرية •

أضف الى هذا أن عدد المسلمين — الذين يعيشون تحت الحكم الايطالى — زاد بعد الحرب الأثيوبية الى ما يقرب من ٦ مليون مسلم ، وقد كانوا قبلا مليونين تقريباً ، ٦٠٠ر٠٠٠ تقريباً فى ليبيا و ٣٠ر٠٠٠

فى أريتريا وعددا يناهز المليون فى الصومال ، أملى هذا العدد الكبير — وخاصة أن تيارات الجمعيات الاسلامية تجتاح العالم الاســلامى غير عابئة بحدود سياسية ، ولا تستطيع السلطات الاستعمارية الوقوف فى طريقها أو منع اتصالها — على السياسة الايطالية اتجاها معينا ، اذ ألزمها بسلوك كل الطرق الممكنة ، واستعمال كل الوسائل المتاحة ، لانشاء علاقة طيبة مع العالم الاسلامى • أدركت روما هذا قبل الحرب الأثيوبية ، فبدأت تشير الى رغبتها فى التقرب الى المسلمين الوطنيين فى ليبيا ، وانشـــاء علاقة طيبة معهم كى تزيل الأثر السيىء الذى تركته معارك برقة فى العالم الاســلامى ، فشجعت بناء المســاجد وتبرعت لتأسيس مدارس اسلامية فى كل المدن والقرى ، فأقيم بالمـــال الرومانى — نسبة الى روما — مدرسة عليا لتدريس الحضارة والشريعة الاسلامية ، ففيها يتخرج القضاة وعلماء الدين ، وأولت ايطاليا هذه المدرسة رعاية خاصة ، وعنيت بها عناية كبيرة حتى تصرف المسلمين الذين يعيشون تحت الحـــكم الايطالى عن التوجه الى الأزهر ، وتحول بينهم وبين الاتصال بالثقافة الأزهرية والتيارات التى تجوب أرجاء هذه الجامعة القديمة ، وتمسك بهم بعيداً عن محيط التأثر بالروح الأزهرية ، لأن موقف الأزهر بالنسبة للقوى الأوروبية معروف ، فهو لا يهادن المستعمر ويعبىء كل من اتصل به بكره الأجانب الذين اقتحموا ديار الاسلام ، ويهيئهم لمناضلة الاستعمار الغربى ومقاومته •

بدأت روما — بعد انتهاء غزو أثيوبيا — تمثل دور « الصديق الحميم للاسلام » ، فقلدت بريطانيا فى عدم التدخل — أصلا — فى المسائل الدينية لرعايا المستعمرات ، كذلك استغلت وضع المسلمين فى أثيوبيا — الذين كانت تضطهدهم الســلطات الأثيوبية قبل الغــزو الايطالى — فناصرتهم وعاونتهم على نيل حقوقهم وحرياتهم الوطنية ، كى تكسب بهذه الطريقة صداقة المسلمين • ففى البندين رقم ٣١ ، ٣٢ من قانون اعادة بناء أثيوبيا قررت روما : « للمسلمين الحرية الكاملة فى اعادة واقامة بيوت عبادتهم وحرية ممارسة شعائرهم الدينية واعادة

تكوين الجمعيات الدينية والمدارس الاسلامية ، يقوم القاضى بالفصل فى المنازعات والخصومات بين المسلمين طبقا لأحكام الشريعة الاسلامية والتقاليد المحلية للسكان • ويكون التعليم باللغة العربية لازما للرعايا فى كل المناطق الاسلامية داخل حدود المملكة الأثيوبية » • بلغ التسامح الايطالى تجاه المسلمين أكثر من هذا ، اذ ساعدت روما — بقصد الدعاية لدى المسلمين — وشجعت على أن يؤدى مسلمو شرق افريقيا فريضة الحج ، وسهلت لهم السفر الى مكة ، فأصبحت هرر مركزاً للاسلام فى شرق افريقيا الايطالى • قابل المسلمون فى أثيوبيا هذا الاتجاه الايطالى — الذى أعقب اضطهادهم أثناء حكم الامبراطور الأثيوبى — بالشكر والامتنان ، وعمهم السرور بهذا الوضع الجديد ، فلم يتطرق الشك فى صدق واخلاص ولائهم لـ « جرازيانى Graziani » (١) القائم بأعمال الملك فى أثيوبيا • أخلص المسلمون الولاء له لما قدمه لهم من مساعدات رفعت عن كاهلهم الاجراءات الشديدة التى اتخذها من قبل امبراطور أثيوبيا •

حاولت ايطاليا أيضاً خارج حدود مستعمراتها محو عدم الثقة بها لدى الشعوب الاسلامية عن طريق الدعاية واظهار التعاطف مع المسلمين ، فوجهت سياستها الى اقتلاع ما غرس منذ أيام الحروب التى دارت مع السنوسيين فى قلوب المسلمين من حقد وعداوة للايطاليين ، والى ازالة ما خلفته الحروب الأثيوبية لدى الرأى العام الاسلامى من غرس الريبة والشك تجاه التوسع الايطالى فى افريقيا • ارتدت السياسة الجديدة ثوب دعاية ثقافية واسعة النطاق تركز ثقلها على تصوير روما الفاشية بأنها صديق حميم للاسلام :

— فتحت المدارس العليا الايطالية أبوابها أمام الطلبة العرب •

---

(١) Rudolfo Graziani ايطالى ولد فى ١١/٨/١٨٨٢م فى Filettino وتوفى فى روما ١١/١/١٩٥٥ • تولى القيام بأعمال الملك فى اثيوبيا عامى ٣٦/١٩٣٧م والقيادة العامة فى ليبيا عامى ٣٦/١٩٣٧ م وتولى وزارة الدفاع من سبتمبر ١٩٤٣ حتى ابريل ١٩٤٥ فى الحكومة الجمهورية ، قبض عليه فى مايو ١٩٤٥ وادين امام المحكمة ثم افرج عنه فى أغسطس • ( م • ش ) •

— أرسلت مدرسين ايطاليين الى المدارس العربية فى سورية وفلسطين ، دون أن تدفع تلك المدارس مليما واحدا من مرتباتهم ، فقد تكفلت بها الحكومة الايطالية ٠

— قدمت المستشفيات الايطالية خدمات مجانية فى جميع فروع الطب للعرب ٠

— بثت الاذاعة الايطالية عبر موجات الأثير برنامجا باللغة العربية يذاع يوميا من محطتين لمدد طويلة — أى أن الحكومة الايطالية أنشأت محطتين تذيعان اللغة العربية كل يوم — حاولت من خلالهما — بطريقة مانوية وبأسلوب ذكى — تصوير موقف القوى الاستعمارية الأخرى بأنه عدائى تجاه الاسلام ، بينما تكن ايطاليا للمسلمين الحب ، وهى مستعدة لتقديم العون لهم ومساندتهم فى قضاياهم ، وهى اذ تفعل ذلك فانما تعبر عن صداقتها للمسلمين ، تلك الصداقة التى لا تخفى وراءها أطماعا ولا ميلا الى الاستغلال ٠

— تدفق الذهب الايطالى على الصحافة العربية ابتداء من دمشق حتى القاهرة ، بغية التأثير عليها وتجنيدها لخدمة الدعاية الايطالية لدى الرأى العام العربى ٠

ومما لا شك فيه أن ايطاليا استهدفت من وراء هذه الدعاية تحقيق غرض سياسى فى ميدان الصراع مع انجلترا وفرنسا ، ولهذا كانت نغمتها ذات اتجاهين :

— أحدهما يؤكد الصداقة المتينة للاسلام وتأييد مطالب المسلمين والوقوف معهم لتحقيق آمالهم ٠

— والآخر يحمل فى طياته — بطريقة غير سافرة — سهما مدببا يطعن كلتا القوتين ، الأخريين ، وهما انجلترا وفرنسا ٠

تجاوزت الدعاية الايطالية الحدود التقليدية لهذين الاتجاهين ، يظهر ذلك فيما قامت به أثناء رحلة موسولينى عبر ليبيا بمناسبة افتتاح الطريق الكبير الممتد على شاطىء البحر الأبيض المتوسط ابتداء من الحدود

مع تونس حتى الحدود المصرية ، فقد وصفت الدعاية هذا الخط بأنه عمل ضخم ، أرسى قواعد الصداقة المتينة والعمل المشترك ، وهيأ جـواً لتعاون مثمر ، سوف يمتد عبر الأجيال القادمة بين ايطاليا الفاشـيـة والعالم الاسلامى •

أعلن موسولينى مراراً وتكراراً — فى الخطب التى ألقاها أثناء الرحلة — عن سياسة ايطاليا الرسمية تجاه الاسلام ، وعن تقديره واحترامه له ودعا الى ضرورة التعاون والعمل المشترك بين الحضارتين الاسلامية والايطالية • لقد كانت هذه الرحلة ذروة الدعاية الايطالية ، استمر الاستعداد لها شـهوراً طويلة ، واسـتخدمت المراكز الثقافية الايطالية أسلوبا منظما ومنسقا غاية التنسيق لتهيئة الجو لها ، اذ حرصت روما — من وراء هذا كله — على شد انتباه العالم العربى والشرق الاسلامى كله الى النجم الايطالى الصاعد • وكان من الأغراض الرئيسية أيضـاً طمس هيبة انجلترا فى الشرق ، بعد أن اهتز وتصدع بنيانها نتيجة الأحداث التى وقعت حول أثيوبيا وبسبب ما يـدور الآن فـى فلسطين ، ان الوصف الايطالى لرحلة موسولينى عبر ليبيا — كما عبر عنه المكتب الرسمى الايطالى للأخبار فى محطاته الموجهة الى الشرق — يشير الى مدى أهمية هذه الرحلة ، والى الطابع الذى سلكته الدعـاية الايطالية ، لتحقيق ما تهدف اليه ايطاليا لدى الرأى العام الاسلامى ، فقد سجلت كل زيارة قام بها موسولينى للمساجد ، وكتبت تقارير مطولة عن التبرعات التى قدمها لاقامة منشآت اسلامية ، كما وصفت وصفا دعائيا كل الاحتفالات التى أقامها المسلمون له فى ليبيا تعبيرا عن الصداقة والعمل المشترك بين الفاشية والعالم الاسلامى ، وبلغت الرحلة ذروتها فى اللحظة التى ظهر فيها موسولينى فى طرابلس على حصان أبيض — يلمع تحت أشعة الشمس من كثرة ما احتوى سرجه من أحجار براقة — ليتسلم « سيف الاسلام » هدية مقدمة له من المسلمين فى هذه المدينة ، ووصف « بالبـو Balbo »[1] فى الاحتفال سيد ايطاليا الفاشية بأنه « حامى

---

(١) هو « Italo Balbo » قائد السلاح الجوى الايطالى ولد =

الاسلام » ، وحياه بهذه الكلمة : « يزورنا اليوم محارب مثلكم ، أخذ على عاتقه مهمة الدفاع عن مجد روما وكل شعوب منطقة البحر الأبيض المتوسط » • شكر موسولينى الشعب الليبى وحيا الصداقة الاسلامية الايطالية فى كلمات رنانة ، وعبارات حماسية ، ثم علق على تقديم « سيف الاسلام » هدية له قائلا : « لقد أعطيتمونى أحسن الهدايا وأفضلها ، هذا السيف الذى هو رمز للقوة والعدل ، سوف آخذه معى الى روما وأحتفظ به كأغلى تذكار فى حياتى » •

بثت كلمات « بالبو Balbo » التى وصف بها موسولينى بأنه المدافع عن كل شعوب البحر الأبيض المتوسط حماسا ونشاطا لدى النقاد الانجليز والفرنسيين ، وانطلق وصفه لموسولينى بأنه « حامى الاسلام » يدوى فى أجواء العالم الاسلامى ، فأحدث ردود فعل سيئة لدى المسلمين ، فقبل أن تنتهى احتفالات الصداقة الاسلامية الايطالية فى طرابلس تحت الحكم الفاشستى ، اندلعت فى الجانب الآخر خارج حدود النفوذ الايطالى موجة عارمة من السخط والغضب — السخط الضارب بجذوره الى أعماق القلوب ، والغضب الهادر المتفجر من منطقة الايمان التى تسيطر على تصرفات المؤمن ، وتوجهها للدفاع عن عقيدته ، ولو كان فى ذلك هلاكه ، لأنه يعتقد أن المساس بالاسلام انما هو ضياع لكيانه ووجوده — ضد كل استعمار أوروبى ، يستوى فى ذلك الاستعمار الايطالى وغيره • انتظر المراقبون ما سيحدث من رد الفعل تجاه رحلة موسولينى ، وما صرح فيها من تصريحات على لسان المسئولين الايطاليين التى لم يقصد منها صداقة خالصة ، بل استعملت كلمة الصداقة للوصول الى أهداف سياسية فى المنطقة الاسلامية ، ولم يطل انتظارهم ، فقد قام شيخ الأزهر فى القاهرة ، الشيخ مصطفى المراغى يرد على ما حدث فى ليبيا ، وعلى ادعاء موسولينى — ويتمتع شيخ الأزهر بمركز

---

= فى ١٨٩٦/٦/٥ وتوفى فى ١٩٤٠/٦/٢٨ (أصابته طلقة طائشة قضت عليه) فاشستى ، أحد المقربين لموسولينى ، تولى وزارة الطيران المدنى فى الفترة من عام ١٩٢٩م حتى ١٩٣٣م ومن ١٩٣٣ تولى منصب الحاكم العسكرى فى ليبيا .
( م • ش ) .

كبير فى العالم الاسلامى كله ، يسمع له المسلمون ويطيعونه — فأعلن أن حامى الاسلام « لا يكون الا مسلما ، ولن يكون مسيحيا اطلاقا ، ولا يبحث الاسلام عمن يحميه ولا يركن الى أحد ، ولن يفرط المسلمون فى عقيدتهم ووسائل الدفاع عنها تجاه القوى غير المسلمة ، ولن يهدى سيفه لغير مسلم ليستعمله استعمالا سيئا » .

قوبلت هذه الكلمات — التى لا يفهم المرء المقصود منها بسهولة — بالاستحسان فى العالم الاسلامى كله ، حتى وصل دويها الهند وأفغانستان ، واندلعت فى الصحافة الاسلامية موجة هجوم شاملة وعنيفة ضد الاستعمار الايطالى ، اندلعت فى الوقت الذى ظنت فيه روما أن مجهوداتها فى العالم الاسلامى توجت بالنصر ، وفتحت باب الدخول الى رحاب الاسلام ، حيث يتعانق الفاشيون والمسلمون عناقاً حاراً ، وكانت أقوى من الحملة الصحفية التى شنت أيام الحرب الأثيوبية وأشد عنفاً ضد ايطاليا منها ضد القوى الأوروبية الأخرى . كتبت أحدى الصحف الاسلامية بأن المسلمين داخل حدود طرابلس لم ينسوا اطلاقا ما حدث للسنوسية ، أما بالنسبة للاسلام وقوته ومستقبله فهى مسألة اسلامية داخلية ، وتفاهم المسلمون فيها وتشاورهم فيما يتخذ ازاءها أجدى على الاسلام وأبعد أثرا من الأصوات المنبعثة من نفير أحدى القوى الأوروبية . وهكذا قوبلت ايطاليا — فى اللحظة التى ظنت فيها أن مقابلتها مع الاسلام قد نضجت وأوشكت أن تنتج الثمار المرجوة — بذلك الرفض الحاسم ، وعدم الثقة ، وهما صفتان تميزت بهما القومية الاسلامية فى كل لقاءاتها مع القوى الغربية . وصف عدد كبير من الصحف العربية عرض موسولينى باقامة علاقة ود وصداقة مع المسلمين بأنه نفاق ، وأمر يدعو الى السخرية والاستهزاء ، بينما فسرت الدوائر المعتدلة ، الاتجاه الايطالى نحو الاسلام بأنه عمل دعائى محض ، اتخذته ايطاليا وسيلة للمناورة فى جبهة المسلمين التى تقف موقفاً عدائياً ضد انجلترا .

ان من الخطأ أن يعتقد المرء بعد هذه التجربة أن العالم الاسلامى

أصبح صديقا لايطاليا ، لأن الأمور هادئة فى المستعمرات الايطالية ، اذ أن كل الخواطر — سواء أكانت سابقة أو لاحقة — التى تدور فى خليـة جميع العناصر الوطنية فى الشرقى الأدنى والأوسط — وهى عناصر تتولى مراكز الزعامة السياسية — تدور حول الحصول على الاستقلال الوطنى ، وتنطلق تياراتها وينبعث كفاحها من هذه النقطة ، وان كانت صورة هذا الاستقلال هنا وهناك ليست واضحة ، وتتصارع المفاهيم حولها ، بل تتناقض الآراء وتقف وجها لوجه حول أسلوب الوصول الى هذا الهدف • فلو قوبلت ايطاليا الفاشية — رغم الشك الراسخ فى النفوس وعدم الثقة — بالبشاشة والبشر واستقبلت استقبال الصديق فستكون هذه الصداقة نفعية يقصد من ورائها استغلال القوة الايطالية ضد القوى الاستعمارية الأخرى ، فكما رغبت شعوب الشرق الأوسط أثناء الحرب — وبعدها — أن تجذب الجانب الألمـانى الى ناحيتها كقوة مضادة للاستعمار الانجليزى والفرنسى ، تعتقد اليوم أنها وجدت هذه القوة المضادة ، ألا وهى روما ، اذ تأمل هذه الشعوب أن ترفع كابوس الاستعمار الانجليزى والفرنسى من أرضها بمساعدة روما ، وأن تهيىء لهم تلك المساعدة مناخاً يمكنهم من الاسراع فى طريق تجديد وتطوير العالم الاسلامى ، وتأتى تونس وفلسطين فى مقدمة المناطق التى تختبر فيها مدى فاعلية هذا التفكير ، ومقدار نجاح الشرق الاسلامى فى الاستعانة بروما ، لضرب القوتين الاستعماريتين الأخريين ، فهنا — حيث تناضل الجبهة الاسلامية نضالا مرا ضد فرنسا وانجلترا وتصر على موقفها اصرارا عنيفاً ضد المخططات الاستعمارية — تستطيع الدعاية الايطالية أن تجد لها مجالا ، وأن تحدث صدى يردده أولئك الذين يبحثون عمن يعينهم على الدفاع أمام هجمات الدخيل الأجنبى ، وهنا يحدثنا التاريخ أيضاً عن موقف مماثل ، يكاد يعيد نفسه ، مع تغيير بسيط فى بعض الأطراف ، فبعد انتهاء الحرب — تقريباً فى أوائـل العشرينات — أرادت انجلترا وفرنسا تقسيم تركة الباب العالى فى غرب آسيا طبقا لما اتفق عليه فى معاهدة —« Seikes - Picot » ، غير أنهما

اختلفا فى تحديد مناطق نفوذ كل منهما ، وحاول كل طرف أن يظفر بنصيب أكبر ، ويستولى على المناطق التى يرى أنها تخدم مخططه الاستعمارى ، وفى هذا الجو حاول القوميون الاسلاميون انتهاز فرصة الخلاف بين انجلترا وفرنسا للوصول الى تحقيق أهدافهم ، واليوم يحاولون استغلال الخلاف الانجليزى الايطالى بطريقة مماثلة لما حدث فى الماضى ، بغية الاستفادة منه على نحو يوصل الى تحقيق الأهداف الاسلامية ، فحركات القومية الاسلامية — فى كل مكان ظهرت فيه — لا توجه نشاطها بنوع خاص ضد انجلترا فقط ، أو فرنسا أو ايطاليا ، بل هى أصلا تكافح ضد الاستعمار ، أياً كان نوعه وجنسيته ، فالصداقة أو المعاهدة — وما أشبهها من اتفاقيات ومعاملات — مع احدى القوى الاستعمارية — ويندرج تحت ذلك ايطاليا أيضاً — تظل قائمة ، طالما أمكن التعاون معها فى مقاومة قوى استعمارية أوروبية أخرى فى احدى الجبهات ، ومن الخطأ البين أن يعتقد أن قوى القومية الاسلامية المعادية للاستعمار أصبحت صديقا حميما للاستعمار الايطالى ، أو أن العلاقة بينهما تنمو نموا ينبع من محبة طبيعية ، أو تقوم على ود صاف نابع من القلب ، اذ لم تنجح ايطاليا حتى اليوم فى اقناع الدول الاسلامية فى الشرق الأدنى بأن موقفها تجاه الاسلام وقضاياه مع القوى الاستعمارية الأخرى خال من الأطماع ، فليس مقيداً بشرط ولا يصاحبه فرض اتجاهات معينة .

لا زالت روما تعتقد أنها ليست فى حاجة الى اتخاذ اجراءات فى مستعمراتها الاسلامية لمواجهة احتمال ظهور حركات التحرر ، بينما تساعد هذه الحركات سرا فى الأجزاء الأخرى من العالم الاسلامى ، لأنها اعتمدت على الأسلوب الذى أطلق عليه اسم « العمل المشترك » ، ففى ليبيا تضمن القانون الجديد الذى وضع للمسلمين هناك التعبير عن هذا الاتجاه بهذا الاسم ، بغية اخضاع الطموح الوطنى التحررى ، والسيطرة على القوى المناهضة للاستعمار ، اذ شعار « العمل المشترك » يمتص الكثير من دوافع الثورة ضد الوجود الأجنبى ، فهو بمثابة الدواء المسكن

للانفعال الوطنى تجاه القوى الأجنبية • أما شرق افريقيا فقد مزقه الانقسام الدينى والصراع الطائفى ، فلا يمكن أن تقوم فيه فى المستقبل المرئى نظم سياسية يكون لها من التأثير بالحركات القومية الاسلامية فى منطقة الشرق الاسلامى ما يجعلها مصدر خطر على الاستعمار الأوروبى •

منعت سلطات الاحتلال قيام مثل هذه الأنظمة السياسية فى ليبيا ، وأضيف، الى هذا المنع عدم وجود ما يسمى بالطبقة الوطنية بين العرب ، تلك الطبقة التى يستمد منها الكفاح السياسى — فى المناطق الاسلامية الأخرى — قوته ، وتقذف بالوقود فى أتون الثورة ضد الاستعمار الأجنبى ••• هرب أفراد هذه الطبقة — وكانوا قلة — الى خارج ليبيا أمام الزحف العسكرى وتحت ضغط الحكم الاستعمارى القاسى ، ورغم هذا وصل الدوى الذى أحدثته هذه الطبقة — التى تعيش اليوم فى المنفى — الى روما ، فأعلن المطالب السياسية لطرابلس وبرقة ، اذ قدمت « جمعية الدفاع عن طرابلس » — التى اتخذت مقرها فى دمشق وكان أعضاؤها من بين الثلاثين ألف ليبى الذين يعيشون فى المنفى — المطالب الوطنية للعرب الليبيين الى المسئولين فى روما ، ووضعت برنامجا لتطوير المستعمرة الايطالية فى شمال افريقيا على نمط ما نفذ فى سوريا وفى العراق ، وما يأخذ طريقه الآن الى التنفيذ فى تونس •

* * *

حاولت القوى الاستعمارية الأوروبية — انجلترا وفرنسا وايطاليا — المحافظة على نفوذها وسلطاتها فى صراعها مع العالم الاسلامى ، كما رغبت وركزت جهودها لتحقيق هذه الرغبة فى ضم المزيد من المناطق تحت لواء سيطرتها ••• وبذلت جهود — تفاوتت فيما بينها — فى استخدام نغمة الصداقة مع الشعوب الاسلامية لتحقيق أغراضها السياسية ، وبجانب هذه القوى الثلاثة ظهرت اليابان كقوة آسيوية ثانية تلى روسيا التى سلكت فى سياستها مع المنطقة الاسلامية طريقا آسيويا •

وجهت اليابان من جنوب شرق آسيا حملة دعائية واسعة النطاق بين شعوب الاسلام ، ابتداء من الهند حتى ضفاف النيل ، واتخذت هذه الدعاية فى بداية أمرها نداء « آسيا للآسيويين » شعارا لها فى محاولة لفتح أبواب دول وسط وغرب آسيا بهذه الكلمة السحرية ، ثم اقتفت طوكيو أثر هذه الدعاية حاملة معها بنوع خاص مخططات ترمى الى تحقيق أهداف اقتصادية ، ونجحت فى ذلك ، اذ كان زحف اليابان الاقتصادى فى الدول الاسلامية يفوق تصور الخيال ، ولم يعترض طريقه أحد ، الا عندما بدأ فى مضايقة الصناعة الوطنية الحديثة فى البلاد الاسلامية •

نجحت طوكيو فى غزو مناطق من العالم الاسلامى اقتصاديا ، وفتحت أسواقا لصادراتها فى البلاد الاسلامية ، فحتم عليها هذا الوضع أن تبحث عن طريق يضمن لها المحافظة على بقاء تلك المناطق تحت سيطرتها الاقتصادية ، ويكون أشد أمنا من الشعار السياسى الخالص « آسيا للآسيويين » ، فوجهت الدعاية وجهة اسلامية ، وبذلت جهوداً لادخال اليابان — دعائيا — فى منطقة وحدة المصير الاسلامى التى تحيط العالم الاسلامى واليابان ، كما لو كانت دائرة الترابط الجماعى فهم شركاء فيما يوجه اليهم من هجمات ، اذا يجب تماسكهم وتعاونهم •

وهكذا امتدت فوق اليابان موجة اسلامية ، ويخبرنا زوار اليابان الخبراء فى شئونها — باجماع — فى تقاريرهم عن ازدياد الاهتمام بالاسلام هنا وارتفاع عدد المساجد التى يجرى تشييدها فى مناطق مختلفة فى جزر الامبراطورية اليابانية ، ونمو عدد المسلمين اليابانيين ! بينما كان عدد المسلمين قبل الحرب قليل جداً فى اليابان • قدمت الدولة مساعدات لانشاء معهد للدراسات الاسلامية فى طوكيو ، ويتمتع عميد هذا المركز الثقافى الاسلامى فى الشرق الأقصى — الامام « خوربنجالى Khur bangali » — بثقة الدوائر الحكومية اليابانية ، حتى الذين لم يعتنقوا الاسلام • ومن هذا المعهد انتشر القرآن والتعاليم الاسلامية فى كل أنحاء اليابان ، اذ ترجم الى اللغة اليابانية وطبع منه آلاف من

النسخ ، وزعت على جميع المناطق . نشطت الجمعية الاسلامية التى أسست فى عام ١٩٣٦ فى نشر التعاليم الاسلامية نشاطا لا نظير له ، فأسست معهداً عالياً للدراسات الاسلامية ، استدعى للتدريس فيه علماء كبار من الجامعة الاسلامية المشهورة فى القاهرة ... من الأزهر ، وساعدت الدولة ادارة شئون المنح الدراسية على تقديم منح دراسية سنوياً لعدد كبير من الطلبة المسلمين فى أفغانستان وفلسطين وسوريا والعراق والجزيرة العربية ، ليدرسوا فى المدارس العليا فى طوكيو ، ففى عام ١٩٣٦ م كان عدد الطلبة المسلمين فى المدارس العليا اليابانية يزيد عن عددهم فى المدارس الايطالية ثمان مرات ، على الرغم من أن ايطاليا تحاول — كما ذكرنا سابقاً — جذب الشباب المسلم الى ناحيتها عن طريق تقديم المنح الدراسية وحجز أماكن لهم فى مدارسها العليا .

يتزعم «محمد عبد الحى» المسلمين اليابانيين ، وهو ينحدر من أسرة تاتارية عريقة النسب ، هرب من البلشفيين الى طوكيو ، فقوبل بالترحاب ، ووجد ملجأ أميناً وملاذا يستقر فيه ، اذ هو عالم يتمتع باحترام بالغ ، وتقدير كبير فى الدوائر العلمية الاسلامية ، ويبدو أن السياسة اليابانية الرسمية فطنت الى استخدامه داعية يبشر بصداقة اليابان للعالم الاسلامى ، ويدعو بين المسلمين الى ضرورة اقامة هذا الترابط بين اليابان والدول الاسلامية .

لماذا يهتمون فى اليابان منذ نهاية الحرب[1] اهتمام سافرا بالاسلام، بينما لم يلتفت أحد قبل الحرب الى هذه الناحية ؟

لماذا يجيد اليوم كثير من اليابانيين التحدث باللغة العربية أو الفارسية أو التركية ، بينما كان من المتعذر قبل الحرب أن تقابل أحداً فى امبراطورية الشرق الأقصى يستطيع التحدث بلغة اسلامية ؟

لماذا ينشأ اليوم فى كل المدارس اليابانية العليا كراسى لتعليم هذه اللغات ، وأقسام تدرس فيها آدابها ويعنى فيها بنوع خاص بدراسة لغة القرآن ؟

---

(١) الحرب العالمية الأولى .

أيكون السبب أن قوة الجذب الروحى التى يتمتع بها الاســلام اســتولت على مشاعر اليابانيين فأسرتهم ؟ تلك القوة التى أضــاعت مجهودات البعثات التبشيرية المسيحية فى أواسط افريقيا واطمت المبشرين بعنف ، رغم أنها لا تعرف نظام الارساليات التبشيرية ، ولم يمارس المسلمون هذا النوع من طرق الدعوة الى دينهم ، بينما تعمل قــدرات علمية جبارة فى تنظيم الجهاز التبشيرى المسيحى ، ويستعان بخبراء ومعلومات مسيحية من مختلف الأجناس لتنسيقه وتطويره ، وله دعم مالى لا يتصوره خيال ؟ ربما استولت هذه القوة على مشاعر اليابانى ، ولكن اذا أثرت فى اليابان ، فسوف تقابل الشعور الدنيوى العملى الذى يميز اليابانى ، فى المسائل الدينية أيضاً ، ولن يعطينا هذا الاحتمال اجابة نابعة من التفكير اليابانى ، اذ أن تاريخ اليابان يبين لنا هذا ، فقــد كانت البوذية فى اليابان دين الدولة الرسمى قبل عودة الملكية الى الحكم فى عام ١٨٦٨[١] ، وأثناء تنظيمات عودة الملكية احتلت « الشــنتوية Shintoismus »[٢] مكان البوذية وأصبحت دين الدولة الرسمى ، ولم يفضل الشنتوية على البوذية لأنها تحتوى على آداب قيمة ، أو أن لها قوة روحية بل لأن الشنتوية دين قومى وطنى يتناسب مع موجــة التحرر الوطنى التى نقلت اليابان الى حقبة تاريخية جديدة ، وهيأت لها مكاناً بين القوى العظمى فى العالم • وبعد أعوام قليلة من عــودة الملكية تكونت لجنة فى اليابان للبحث فى مسألة الأديان واختيار أفضلها بالنسبة لليابان من الناحية الدينية القومية •

ان الأسباب التى جعلت اليابان تقترب أثناء عودة المــلكية من الشنتوية تشبه الدوافع التى تدفع اليابان اليوم الى الاقتراب من الاسلام ، فقد أملت اليابان فى الحصول على مكاسب سياسية واقتصادية

---

(١) ظلت الشنتوية دين الدولة الرسمى فى اليابان فى الفترة من ١٨٦٨ حتى ١٩٤٥م •

(٢) ألغيت الامبراطورية فى ١١٩٢م ثم عادت مرة أخرى الى الحــكم فى ١٨٦٨م •

من وراء الالتقاء بالاسلام ، اذ تستطيع صداقة المسلمين — بالأخص المسلمين اليابانيين — أن تلعب دوراً كبيراً فى كسب عاطفة ٣٠٠ مليون مسلم فى آسيا وافريقيا ، وتغزو أسواقهم ، وتؤثر على زعمائهم المفكرين فتجذبهم الى جانب اليابان ، كما تستطيع أيضاً أن تشرك اليابان أو على الأقل تستشيرها — عند بناء قوة الدفاع لشعوب الشرق الاسلامى • ويمكن أن يؤدى ذلك الى قيام جبهة مشتركة تتعاون فى ميدان نضال السياسة العالمية ، ويسند بعضها البعض فى الصراع العالمى مع القوى الاستعمارية خصوصاً وأن كلا الجانبين الاسلامى واليابانى — يحارب فى جبهة واحدة ضد الاستعمار الغربى •

أظهر تطور الأحداث فى السنوات الأخيرة مدى تحقيق هذا الأمل ومدى انتقال هذا التفكير من الناحية النظرية الى التطبيق العملى ، فالزحف الاقتصادى اليابانى فى المنطقة التى تضم السودان ومصر وفلسطين وسوريا والعراق وايران انتشر دون ضجيج بسرعة لا يعرف لها مثيل فى تاريخ الاقتصاد العالمى ، ولم تجد الصادرات اليابانية مقاومة من الحصون الاقتصادية التى أقامتها القوى الأوروبية ، بل من سياسة حماية الصناعة الوطنية الحديثة فى بلاد العالم الاسلامى ، اذ اهتمت الدولة بهذه الصناعة بأسلوب لولبى ينبىء عن ذكاء المهتمين بها ، كما يظهر هذا — من وقت قريب — التطور الصناعى فى مصر ، حيث هددت واردات القطن بخنق صناعة النسيج المصرى الحديثة ، وفيما عدا هذا — وبالذات بالنسبة للصادرات الأوروبية — فقد أصبحت كلمة الخطر الأصفر فى منطقة العالم الاسلامى حقيقة ماثلة أمام الأبصار ، اذ تقف اليابان اليوم عند شواطىء البحر الأبيض المتوسط•بأى سرعة يتقدم الزحف الاقتصادى اليابانى ، وما هى قوته ؟ يشير الى هذا اشارة واضحة بعض الأرقام التى نشرت فى فلسطين ، وهى تتعلق بناحية واحدة من مجالات الواردات اليابانية المتعددة ، فهى تعطى أرقام السوق التى — على الرغم من وقوعها فى المنطقة الاسلامية — تحتاج الى مساعدة أوروبية كبيرة • لأن العنصر اليهودى المهاجر من أوروبا يعتمد على هذه

المساعدة ، ففى السوق الفلسطينية ، كان لليابان فى عام ١٩٣١ م : ٦٪ من مجموع واردات المصنوعات الحريرية والقطنية ، ثم ارتفعت فى عام ١٩٣٢ الى ٢٨٪ وفى عام ١٩٣٣ وصل مجموع ما صدرته اليابان من هذه البضائع الى ٥٦٪ من مجموع واردات فلسطين من هذا النوع من المصنوعات ، ثم واصل ارتفاعه فبلغ فى عام ١٩٣٤ م الى ٦٧٪ وعليه فقد ارتفعت الواردات اليابانية من بضائع الحرير والقطن — أى واردات فلسطين من اليابان — فى مدة لا تتجاوز أربع سنوات الى أكثر من عشرة أضعاف •

لم يصبح ارتفاع الصادرات اليابانية فى كل بلاد العالم الاسلامى مزعجا بهذا الشكل الذى يصيب رأس المفكرين الاقتصاديين بالصداع والدوار ، وليست هذه القوة والانتشار فى كل أصناف البضائع ، ولكن اتجاه الغزو اليابانى موجود فى كل المجالات حيث تنزل البضائع اليابانية ساحة المنافسة •

كيف كان من الممكن أن تنتزع اليابان هنا فى وقت قصير جدا صادرات الصناعة الأوروبية من مركزها الذى أعدته منذ سنين طويلة ؟ فليس رخص الأسعار هو السبب الوحيد الذى جعل البضائع اليابانية تتغلب على البضائع الأوروبية فى المنطقة الاسلامية التى تخضع — وان كان هذا الخضوع يتفاوت من بلد الى أخرى — للنفوذ الأوروبى عسكريا وسياسيا ، بل يرجع سرعة تغلغل الاقتصاد اليابانى فى الشرق الاسلامى الى أسباب أخرى ، منها أنه قام على قاعدة راسخة استقرت فى لقاء اليابان مع الاسلام ، وأن اليابان — بموقفها من الاسلام واتجاهها نحوه — لم تحمل لواء النضال الاقتصادى ضد القوى الغربية بأسلحة اقتصادية فقط ، بل شمل جبهة أعرض من المنافسة فى المجالات الاقتصادية ، فالاذاعة الاسلامية — التى تبث برامجها من اليابان نحو الشرق الاسلامى — يتعدى أثرها المجال الدينى ، فيمهد الطريق للبضاعة اليابانية فى كل أرجاء العالم الاسلامى ، وتقترن المسائل الاقتصادية بالدينية ، ويسيران سويا جنبا الى جنب عبر البلاد التى تدين بالاسلام ،

وتؤدى الأحداث الدينية الى نجاح فى المجالات المادية ، ولتوضيح ذلك نضرب بعض الأمثلة •

منذ زمن قريب جـدا احتفـل فى مدينـة « كوبـى Kobe » فى اليابان بافتتاح مسجد المسلمين اليابانيين احتفالا لم يسبق له مثيل فى تاريخ اليابان ، أسهمت فيه الجهات الرسمية فى الدولة فكان عيدا للمسلمين وصورته أجهزة الدعاية بأنه معنى من معانى تبجيل الله ، واكراما لنبيه محمد [ ﷺ ] ، وبعثت الدعاية اليابانية بتقرير عن هذا الاحتفال الى صحافة العالم الاسلامى ، فخرجت براعم بذور هذه الدعاية ، يفوح أريجها فى أنوف المسلمين • كان المسجد كبيرا جدا فأضاء حب اليابان للاسلام ، كما لو كان مشعلا وضاء مرئيا للعالم الاسلامى كله •

كان المسلمون اليابانيون هم الطلائع التى تمهد الطريق فى كـل بلد اسلامى تريد اليابان أن تفتح فيه سوقا تجارية ، ففى كابـول عاصمة أفغانستان دخل أول وفد تجارى يابانى فى خريف عام ١٩٣٤ م وكان على رأسه أحد المسلمين اليابانيين ، فكان أول عمل يقوم به ، ذهابه الى المسجد بصحبة كبار رجال الدولة الأفغانيين للصلاة ، وبعدما أصبـح واضحا أنهم متحدون فى العقيدة ، وفى التوجه الى الله الواحد ، بدأت المحادثات بين الجماعتين فى جو الاخوة الاسلامية التى تفيض على الوجوه بشرا وسرورا •

حيثما يحل المسلمون اليابانيون — سواء فى ايران أو العراق أو فى مصر أو فلسطين — فى وطن اسلامى كتجار أو خبراء أو وكلاء أو مهندسين فانهم يمهدون الطريق لليابان ولقائها الاقتصادى مع الشعوب الاسلامية •

أقيم عقب الغزو الاقتصادى مشروعات لتأمينه وتثبيته ، ففى كل مكان ظهرت وفود تجارية يابانية ، وأسست غرف تجارية ، وافتتحت خطوط للسفن التى تربط اليابان بموانى العالم الاسلامى بطريق مباشر ، وبقيام مثل هذا الاتصال يهيأ الجو للاقتصاد الاسلامى أن يشارك الاقتصاد

اليابانى مشاركة تتناسب مع الارتباطات الجديدة دون أن يكون ذلك عائقا للأهداف اليابانية ، وفى نفس الوقت يحافظ على عدم اساءة احساس الاقتصاد الوطنى الاسلامى .

وهناك باعث آخر دفع الى الترحيب بوجود اليابان فى المنطقة الاسلامية ، اذ يعتبر الشرق اليابان قوة تقود نضالا اقتصاديا — بأسلوب جبار — ضد القوى الغربية ، أى أنها عدو حقيقى للاستعمار الغربى ، اذن اليابان عدو لعدو ، فهى حليف طبيعى ، فكل قطعة من البضائع اليابانية تباع فى المنطقة الاسلامية فانما هى ضربة موجهة ضد أولئك الذين تحاربهم القومية الاسلامية ، وتسعى لرفع وصايتهم التى فرضوها على شعوب منطقة الشرق الاسلامى . وكل كسب يابانى يعنى خسارة لأولئك الذين يناضل الاسلام ضد أطماعهم السياسية نضالا مريرا ، ويتصدى لمخططاتهم التوسعية باصرار عنيف وعزيمة لا تلين ، فالزحف اليابانى يدل فى نفس الوقت على تقهقر الأوروبيين الذين لا يرون فى المسلم اطلاقا انسانا يساويهم فى التمتع بالحقوق المدنية والسياسية ، ولا ينظرون اليه نظرة المساواة فى الآدمية ، بل يعتبرون أنفسهم أعلى منه خلقا وخلقا ، فهو — أى المسلم — ذلك الانسان الذى يسمح الأوروبى لنفسه أن يبتسم له من بعد ويحذر الاقتراب منه . دفع موقف الشعوب الاسلامية العدائى للدول الأوروبية — وقد نتج من ماضى وحاضر الدول الغربية السياسى — الى ترحيب هذه الشعوب باليابان، واعتبارها حليفا يناضل معها ضد الجشع الأوروبى . وبات واضحا فى ذهن المسلم أن الانسان ذا البشرة الصفراء هو أخ له فى ساحة الكفاح ضد الانسان الأبيض .. ضد الاستعمارى المسيحى . من الحقائق التى لا يمكن انكارها ، أى هذا الشعور لا يوجد لدى كل فرد مسلم كما يصوره المراقبون على الورق ، ولكن يراه كل انسان — فضلا عن المراقبين — فى تصريحات الزعماء المسلمين المتكررة أكثر حدة ضد الغربيين مما يكتبه ويسطره المراقبون السياسيون والاقتصاديون .

نما شعور المسلمين الحار — وكان سببه موقفهم العدائى تجاه

أوروبا — تجاه اليابان ، فأحاط المصـــالح اليابانية فى الشرق بحنان فياض ورعاية خاصة ، وانتشر ضوء منار الاسلام — الذى اشتعل فوق الامبراطورية فى الشرق الأقصى — واشتد نوره يوما بعد يوم ، فامتد شعاعه عبر الحدود حتى وصل الى شواطىء البحر الأبيض المتوسط ، وصل الى ساحة الكفاح التى ابتدأت فيها حقبة تاريخية جديدة فى سجل تاريخ النزاع بين الشرق والغرب .

* * *

الباب السادس

# بين الشرق والغرب

# بين الشرق والغرب

حاول موسولينى أثناء رحلته فى ليبيا عام ١٩٣٣ أن يكسب الاسلام الى جانبه ، فأعلن فى تصريحاته العامة — التى تشبه ما أعلنه القيصر « فيلهيلم الثانى Wilhelm II » فى عام ١٨٩٨م — بأنه صديق الاسلام والمدافع عنه • وفى نفس الوقت ألقيت خطبة فى لندن يطابق أسلوبها هذه النغمة ، اذ اشتملت على تودد للاسلام ، وركزت بصفة خاصة على ضرورة انشاء صداقة مع الشعوب الاسلامية •

كان الخطيب هو المندوب السامى البريطانى السابق فى مصر « لوردلويد Lord Lloyd » وتحدث فى خطبته — التى ألقاها فى أحد مساجد لندن — عن وضع الاسلام بين القوى العالمية ، وأهمية عودة القوة اليه مرة أخرى • لم يهتم الرأى العام الأوروبى بهذه الخطبة ، ولكن كان لها صدى كبير فى الصحافة الاسلامية ، فعلق عليها المراقبون السياسيون ، ونشر حولها كثير من الملاحظات والاستنتاجات ، وظلت مدة طويلة مادة صحفية لوسائل الاعلام على مختلف أنواعها وألوانها ، اذ فجرت هنا — فى ساحة الرأى العام الاسلامى — موجة من المجادلات والمناقشات ، أمدت فكر المسلمين بمعلومات غزيرة ، وزودته بمادة ثقافية تهيئه للدفاع عن القومية الاسلامية ، ولكنها كانت أيضا اشارة الى الخسارة المادية التى تكبدتها البلاد الغربية عموما فى الشرق الاسلامى ، وكان مما قاله « لورد لويد Lord Lloyd » فى هذه الخطبة :

« أعتقد أن الامبراطورية البريطانية لا يمكنها البقاء دون رحمة كاملة من المسلمين فى جميع أنحاء العالم ، فالاسلام — على ما أعتقد — بامكاناته الروحية والفكرية هو احدى القوى الجوهرية فى العالم وسوف أعمل دائما كل ما أستطيعه لتوجيه انجلترا الى انشاء علاقات ود وصداقة مع الاسلام فى كل مكان فى العالم •••• » •

وقعت قبل أعوام قليلة خلافات حادة بين « لورد لويد Lord Lloyd » وبين الوطنيين المصريين أثناء توليه منصب المندوب السامى البريطانى فى مصر ، مما أجبر لندن على استدعائه وتعيين آخر مكانه ، فاذا وازنا بين هذا الموقف وبين ما قاله فى هذه الخطبة نرى تغايرا كاملا وتباينا واضحا ، وتعتبر هذه التصريحات التى تحدث بها فى أحد مساجد لندن مفاجأة لم يتوقعها المراقبون السياسيون ، ويقوى عنصر المفاجأة فيها ، اذا تذكر المرء أن « لورد لويد Lord Lloyd » أحد الأعضاء المتشددين فى الجناح اليمينى لحزب المحافظين •

نشرت الصحف الاسلامية — وخاصة تلك التى تصدر فى البــلاد التى تخضع لنفوذ انجلترا السياسى أو التى كانت تخضع له من قبل — خطبة « لورد لويد Lord Lloyd » فى أماكن بارزة ، وأشارت فى تعليقاتها الى مدى الاستعداد للصداقة والعمل المشترك ، والى مدى التجاوب مع روح هذا الاعتراف ، الذى عبرت عنه كلمات انجليزى عريق فى الاتجاه اليمينى ، ولكن فيما عدا ذلك كان رد الفعل فى الصحافــة الاسلامية على هذا النداء مخالفا تمام المخالفة لما كان يتوقعه المراقبــون ، فهو تفكير مغاير لخطبة السياسى الانجليزى الذى عرف الشرق الاسلامى معرفة جيدة ، لأنه أقام فى ربوعه سنين طويلة ، اتسم رد الفعــل بالشك والبرود — عدم التحمس لما جاء فى الخطبة — والحذر ومحاولة البحث عن الأسباب التى دفعه «لورد لويد Lord Lloyd » وكثير غيره من الانجليز والأوروبيين الى تغيير موقفهم تجاه الاسلام ، ففى تعليق احدى الصحف المصرية الكبرى نقرأ ما يلى :

« هل يمكن أن يتذكر انجليزى — أو أوروبى عموما — أهميــة الاســلام وقوته اذا لم يحس بالأخطــار التــى تهــدده من الشرق الأقصى ؟

ألم يزعج الغرب نشاط اليابان واهتمامها بالاسلام فى كل أرجــاء العالم ، غير أن هــذا ليس كافيا وحده فى تغيير موقف الغرب تجاه

العالم الاسلامى ، اذ يضاف اليه ما هو أهم وأقوى أثرا فى تحويل نظرة الأوروبيين الينا ، ألا وهو : عودة الروح الى قوتنا الذاتية ، وتذكر ماضى الاسلام المشرق • ليس الاعتراف — من الناحية الجوهرية — بأهمية الاسلام ، والتسليم بأنه قوة عالمية شيئا جديدا ، فقد دلت عليه تحركات القوى السياسية الذاتية ، ونشاطها الذى لا يهدأ لتفتيت وحدة الاسلام ، وأفصحت عنه محاولات القوى الاستعمارية للسيطرة على منطقته وفرض نفوذها على شعوبه • ألم يكن هذا الاعتراف — ضمنيا بقوة الاسلام وأهميته — يفوق مثل هذه التصريحات ؟ فعندما كان الاسلام ضعيفا لم يعرفه أحد الا عن طريق فرض السيطرة عليه والتحكم فى أوطانه ، واليوم يخطب الجميع وده ، ويتحدثون عن توطيد علاقات الصداقة معه ، لأنه بدأ يستعيد قوته بالاعتماد على نفسه ، واتخاذ ماضيه التاريخى منارا يهديه الى طريق ابراز قوته الكامنة فيه • ولكن يجب أن تكون هذه الصداقة — ان كانوا صادقى النية فيما يصرحون به — صورة أخرى غير ما يتصوره الغربيون ، فالصداقة التى يتحدث عنها « لوردلويد Lord Lloyd » وكثير غيره من الرجال الأوروبيين الأذكياء لا تخرج عن أن تكون علاقة بين السيد والخادم ، أو بين القوى والضعيف ، اذ قصد بها — على الرغم من التصريحات المعسولة والخطب الرنانة المشتملة على كثير من كلمات الود والمحبة — خضوع أحد الجانبين للآخر ، ولن يقبل الاسلام صداقة بهذا المعنى فى أى مكان يقف عليه مسلمون ، اللهم الا اذا تسرب الضعف الى ركائز قوته وتوقفت نهضته ، وتلاشى مجده وعظمته • ان من الأخطاء الجسيمة أن يعتقد الغرب أن الشرق الاسلامى راض بوضعه الحالى ، لأن جزءا كبيرا من الشعوب الاسلامية ، ولأن ملايين من المسلمين لا زالوا يحنون الرؤوس أمام تفوق قوى الغرب المادية ، فهذا الانحناء مؤقت وسوف يستمر حتى اللحظة التى يصبح فيها المسلمون قادرين على هز الاستعمار الأجنبى هزا عنيفا يفقده صوابه ولا يملك سوى الرحيل عن المنطقة الاسلامية ، وستأتى هذه اللحظة لا محالة ، فهى تقترب بمعدل انتاج الأسلحة الذرية

فى أوروبا وضياع وحدتها الفكرية • اذ يكمن محرك مستقبل الشرق فى تفكك الفكر الغربى وانصداع وحدته الروحية •

فاذا تكلم الغرب اليوم — لأنه يحس بضعف داخلى — عن الصداقة ، فيجب أن يقبل صيغة أخرى مخالفة لما يتخيله العقل الاستعمارى ، وأن يقدم أدلة مقبولة — قبل أن ينتظر موافقة الاسلام — تشير الى طى سجل سطر فيه — على مدى قرون قادمة — الكثير عن السلام والعمل المشترك » •

يبين هذا التعليق — وهناك تعليقات كثير تشبهه صرفنا النظر عنها حتى لا يتكرر المعنى — الطابع الخاص لتفكير المسلم وثقافته وحكمه على وضع أوروبا وأحداثها ، فهو يظهر أنه غير مسالم ، بل مشاغب ، يتأهب للوثوب والنضال على الرغم من أنه يوجد اليوم فى عصبة الأمم مجموعة اسلامية كبرى بجانب القوى الغربية ويقال انها متساوية فى الحقوق مع الدول الغربية ، اذ يجلس الجميع على مائدة واحدة للتشاور فى خطط العمل المشترك • كذلك يبين هذا التعليق — يشاركه فى ذلك آلاف غيره من التعبيرات التى شاعت اليوم فى العالم الاسلامى — أن الشعور بالنقص الذى شاع بين المسلمين نتيجة الهزيمة السياسية والعسكرية قد اختفى ، وحل مكانه تصميم وارادة على بناء المستقبل دون التفريط بشىء للمستعمر ، بل كفاح ضد أطماعه ومخططاته الاستعمارية ، حتى يسلم بحقوق الشعوب الاسلامية دون قيد أو شرط •

أى قوى وجدانية بعثت هذه الارادة اليوم فى الشرق ؟

بعثها الشعور بأن الوحدة الفكرية للاسلام ووجود الاحساس الحى للدين الاسلامى ، ينتصر فى كل مكان حيث ينزل الاسلام الميدان مع العقل الغربى المسيحى فى معركة فكرية روحية خالصة ليس للتقدم المادى التكنولوجى مكان فيها • ولا يكون هذا المعنى واضحا فى أى مكان وضوحه فى وسط افريقيا ، فى ساحة النضال حيث تحيط القوى التبشيرية للغرب المسيحى والقوى الروحية المنبعثة من الشرق الاسلامى

بروح الانســـان الافريقى : فبينما كان الغرب فى القرون الماضية يحرز انتصارات سياسية فى كل مكان فى وسط افريقيا ، امتد — ومازال يمتد — الزحف الروحى الاسلامى الذى لا يمكن لأحد أن يوقفه ، وانتصر على المسيحية ، فحيثما حل الاسلام ضاعت جهود المبشرين المسيحيين وفقدوا الأمل فى تحويل روح وثنية الى المسيحية ، فالاسلام فى تماسكه وبساطته متفوق على المسيحية المبددة جهودها فى نزاعات عقائدية وخلافات مذهبية تزداد تعقيداً يوماً بعــد يوم فيتعسر فهمها ، وليس فى الامكان حل طلاسمها • ولا يغزو الاسلام هــذه المناطق عن طريق دخول الناس فيه فرادى ، بل يحاول غزو القبيلة كلها كوحدة وطنية ، لأنه لا يوجد دين آخر غير الاسلام يربط الحياة السياسية والدينية ببعضها ، ويوحد بين الطبيعة الروحية والدنيوية فى الفرد • وسوف يؤثر التفوق الاسلامى — الذى ينبىء البعثات التبشيرية المسيحية ذات الخبرات الواسعة فى المجال بأنه سيغزو افريقيا كلها عن طريق التبشير الذى يقوم به عامة المسلمين — فى المجالات السياسية ، اذا وصلت قضية التحرر الوطنى والاجتماعى فى المستعمرات الخاضعة للرقابة الأوروبية الى مرحلة تهديد الوضع السياسى — ومن المؤكد وصولها ان عاجلا أو آجلا — للقوى الاستعمارية ، على الرغم من الأسلحة الحربية الموجودة اليوم لدى الأوروبيين •

كذلك يبدو واضحا فى الوقت الحاضر أن التطور الغربى تجمد ، فلم يتحرك منذ العصر الذى طويت فيه صفحة « الغرب المسيحى » نحو تجميع نفسه ومواجهة الخطر الذى يهدده من الشرق الاسلامى ، فقد تعاقبت على أوروبا — قبل ضياع وحدتها المسيحية ، أشكال للوحدة ، وصور لتجميع جهود الدفاع عن القارة — ســجل لها التاريخ جوانب ايجابية فى صراعها مع القوى المحيطة بهــا ، اذ على أساسها ظهرت « أوروبا » كوحدة فى ميدان الصراع العالمى •

فبعد انهيار العصر القديم أصبحت المسيحية المبدأ الأساسى الذى تشع منه قوى التفاهم والتجمع السياسى ، فظهرت أوروبا فى الصراع التاريخى تحت اسم « الغرب المسيحى » فتلاشت الخلافات جزئياً ،

وهدأ الصراع الداخلى ، وتجمعت المصالح المتشابكة فى اطار موحد ، وخضعت لتوجيه الأحداث المسيحية المشتركة — وهو ما يجرى الآن فى المنطقة الاسلامية ، اذ يقضى الاسلام على النزعات الفردية للدول الاسلامية ، ويوجه كل الاتجاهات والقوى الى ميدان العمل المشترك — نزل الغرب المسيحى ميدان الصراع منافسا للشرق الاسلامى ، ولازال الصراع الذى سوف تشكل نتائجه الوجه السياسى للكرة الأرضية مستمراً حتى اليوم .

وجد الغرب المسيحى أكثر أساليبه حيوية فى عصور المملكة[1] ، وضعفت هذه الحيوية — بل ماتت — عندما هيأ التجديد الذى طرأ على مقومات حضارة القارة للمجتمع الأوروبى قوة فكرية أخرى : فقد تحررت المملكة — وهى شعار الغرب المسيحى — من وثاقها المسيحى الميتافيزيقى ولكنها — رغم ضعفها وهزالها — بدت صورة للوحدة الأوروبية ولتماسك البلاد الغربية وتساندها ، ثم تحولت مجموعات الشعوب الغربية الى مجتمع واحد فى القرن[2] الذى نضجت فيه الأفكار الانسانية ولكن الثورة الفرنسية هزت هذه الوحدة هزاً عنيفاً ، وقادت الى الانشقاق الأوروبى ، ودفعت دول أوروبا الى التسابق فى التسلح والمنافسة فى ميدان العلوم الطبيعية والكيماوية ، فأصبحت القومية مبدأ سياسياً فتت وحدة أوروبا الداخلية فى القرن التاسع عشر ، وأشعل نار العداوة بين دولها حتى غرقت أخيراً — فى قرننا الحالى — فى بحر من دماء الحرب العالمية .

---

(١) نشأت فكرة المملكة المسيحية منذ اغسطس وكان من أهدافها اقامة وحدة تتجاوز حدود الدولة السياسية ، بين كل شعوب المسيحية ، يقوم على رأسها قيصر هو ظل الله فى الأرض ، تعددت صور هذه المملكة : المملكة الرومانية القديمة التى انقسمت فى عام ٣٩٥ م الى الرومانية الغربية والرومانية الشرقية ( عرفت باسم البيزنطية ) ثم الامبراطورية الالمانية(٨٠٠م) ( م . ش ) .

(٢) كان العصر الذهبى للدراسات الانسانية القديمة فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر . ( م . ش ) .

هزت مأساة الحرب العالميـــة أوروبا من الأعماق ، فأدرك الأوروبيون مدى الخسارة المـــادية التى تكبدتها الدول الغربية بسبب هـــذه الحرب فى الشرق الاســـلامى ••• ثم ماذا ؟ •• ألا يحاول الأوروبيون اعادة تكوين الجبهة الأوروبية من جديد ، بحيث تكون قادرة على بعث حياة أخرى تتحكم فى توجيه مجرى التاريخ ؟ •• ألا تبذل الجهود لتعويض أوروبا عما فقدته ، كى تحتل مكانها مرة أخرى كقوة فكرية وسلطة سياسية تسيطر على زمام الأمور فى مجال توجيه النزاع السياسى العالمى بين الشرق والغرب ، ويستوى فى تحقيق هـــذا الهدف جميع الشعوب حول معبود واحد وهو ما يسمى « اتحاد الشعوب » ، أو تنفيذ فكرة « الوحدة الأوروبية Pan Europa » التى لم تزل بعد أفكاراً معلقة فوق الذرات المتطايرة من قلاع المصالح الأوروبية ؟

قضت الحرب العالمية على الأفكار الانســـانية ودفنتها فى ســـاحة القتال ، فلا يوجد اليوم مبدأ يجمع الدول الغربية على طريق العمـــل المشترك والتعاون لحماية مصالحها فى افريقيا وآسيا — حتى من الناحية الدينية — اذا نظرنا من جانبها الى ما يمكن الاستفادة منه لتجميع أوروبا ، اذ لم يعد للوحدة المسيحية بين الدول الغربية وجود ، فالوثنى الملون الذى يعيش فى قلب افريقيا أقرب الى الفرنسى من الألمـــانى المسيحى الذى يقيم على الناحية الأخرى من نهر الراين • وهكذا قضت أنانية الدولة قضاء تاماً على الوحدة المسيحية التى جمعت الشـــعوب الأوروبية فى المـــاضى تحت لواء واحد ، فاذا شهدت أوروبا فى القرن التاسع عشر آثار هـــذه الوحدة متمثلة فى تكوين « بعثة تبشيرية أوروبية واحدة » تغلغلت فى الأجزاء الأخرى من العالم — وخاصة فى بلاد الشرق — لتنشر ثقافة الغرب وحضارته ، فقد تلاشت أيضاً هـــذه الآثار ، اذ لم تعد شعوب ما وراء البحار فى حاجة الى هـــذه الثقافة ، لأنها تقدمت فى الصناعة الى درجة تجعلها تستغنى عما كانت تقدمه لها أوروبا من خبرات فنية ، ولم يبق لأوروبا اليوم من عوامل ارتباطها بهذا العالم الآخر — أو من القوى التى كانت تدفعها الى التشييد والبناء — سوى الخوف •

— الخوف من الشعوب الآسيوية التى تهدد — بمساعدة موسكو — النظام الأوروبى •

— والخوف من الشعوب الافريقية ونموها البشرى نمواً مطرداً ألقى الرعب فى قلوب المراقبين السياسيين ، اذ بدت معالم خطر فى وجود كثير من الافريقيين فى فرنسا ، ومعنى هـذا أنهم وضعوا أقدامهم على أرض أوروبية •

ولكن لن يستطيع هـذا الخوف أن يعيد الحيـاة الى الوحـدة الأوروبية ، الا اذا أصبح مدلول كلمة أوروبا وحـدة جغرافية ، وذكر مدلول كلمة البلاد الغربية الأوروبية بتاريخها الفكرى المشترك ، وما يجرى اليوم من محاولات لملء أوعية الفكر الفارغة بالمصالح المادية المشتركة ، أثبتت الأيام فشلها ، فطالما يقف من يملك ضد من لا يملك ، وقفة تعنت ولا يقبل تسـوية تضمن مصالح الطرفين ، وعليه فلن توجد الوحـدة الفكرية للمعسكر الغربى ، وطالمـا تتصارع القوى الثورية مع السلطة الحاكمة فلن تتحقق الوحدة السياسية لأوروبا •

وهكذا يرى المسلمون اليوم حالة تفكك الأوروبيين أعداءهم بالأمس ، فتستيقظ أمام هـذه الصورة الثقة بالنفس ، وتزداد مطامعهم ، وينسج خيالهم آمالا عريضة ، ويندفعون الى تحقيقها ، فينمو لديهم حب المغامرة واشعال نار النضال والكفاح ضد أوروبا • وبينما تزداد صورة البلاد تمزقا ، يقترب الشرق من الوحدة التى ينادى بها المسلمون ، فيتفادى السقوط فى هوة الصراع السياسى التى سقطت فيها أوروبا اليوم ، وسيعيد التاريخ نفسه مبتدئاً من الشرق ، عوداً على بدء ، من المنطقة التى قامت فيها القوة العالميـة الاسلامية فى الصدر الأول للاسلام ، وستظهر هـذه القوة التى تكمن فى تماسك الاسلام ووحدته العسكرية ، وستثبت هـذه القوة وجودها ، اذا ما أدرك المسلمون كيفية استخراجها والاستفادة منها ، وستقلب موازين القوى لأنها قائمة على أسس لا تتوافر فى غيرها من تيـارات القوى العالميـة • أدرك المفـكر الانجليزى « هيلير بيلوك Hilere Belloc » مدى فاعلية هـذه القوة — معارضا

بذلك كثيرا من الأحكام السطحية عليها — حين كتب : « لا يساورنى أدنى شك فى أن الحضارة التى ترتبط أجزاؤها برباط متين ، وتتماسك أطرافها تماسكا قويا ، وتحمل فى طياتها عقيدة مثل الاسلام ، لا ينتظرها مستقبل باهر فحسب ، بل ستكون أيضا خطراً على أعدائه • من الممكن أن يعارض المرء هـذا الرأى بأن الاسلام فقد سيطرته على بعض الأشياء المادية ، وخاصة ما يتصل بالحرب ، فهو لم يلحق بالتقدم التكنولوجى الحديث • لا أستطيع أن أدرك ، لمـاذا لم يعوض الشرق الاسلامى ما فاته فى هذا الميدان ••• ؟ فلا تحتاج علوم الهندسة الحديثة الى طبيعة عقلية خاصة ، بل يتطلب الالمـام بها ، والتفوق فيهـا الى الخبرة وتوجيه الخبراء • ومن الأمور المؤكدة أنه غالباً ما يحدث أن تكون حضارة أخرى وذات منزلة عالية فى التقدم التكنولوجى ، أقل درجة من حضارة لم يبلغ بعد تطورها فى هذا المجال ما بلغته الأولى ، اذن فهناك احتمال كبير أن يصبح شعب ظهر حتى الآن ، أن مواهبه فى الناحية التكنولوجية ضعيفة ، فى المستقبل سـيداً على شعب آخر استولت التكنولوجيا على حواسـه ومشاعره — فلم ينقذه أحد — وتحكمت فى سـلوكه النظريات ، التى تسلب الانسان الاحساس بالطبيعة • لمـاذا لا يتعلم العالم الاسلامى ما تعلمناه فى مجال التكنولوجيا ؟ وفى مقابل هـذا سوف يكون من الصعب علينا استعادة التعاليم الروحية — وهو من العوامل الأساسية لوحـدة أوروبية — التى فقدتها المسـيحية ، بينما لم يزل الاسلام يحافظ عليها ••• » •

يبدو أن ما أشار اليه « هيلير Hilare » من أن الاسلام سوف يعوض ما فاته فى مجال العلوم الهندسية وشيك الوقوع ، فقد استقلت دول فى العالم الاسلامى واعتمدت على نفسها فى بناء هيكلها السياسى وتأسيس نهضتها العلمية • وهكذا أصبح تكوين الدول فى منطقة وحدة مصير العالم الاسلامى ذا أهمية مضاعفة ، اذا انضمت هذه الدول — التى قامت فى الشرق على أسس قومية — الى جبهة القوى التى تثور على الرجل الأبيض ، وتكافح ضده فى أجزاء الأرض الثلاثة • صارت

هـــذه القوة ومركزها الاستراتيجى من الأمور المسلم — والمعترف — بهـــا فى هـــذه الجبهة ، على الرغم من أن الأساطيل القوية والأعداد الهائلة من القنابل والأســلحة الفتاكة لازالت تضـــمن للغرب تفوقه الاستراتيجى •

ان انتفاضة العالم الاسلامى صوت نذير لأوروبا ، وهتاف يجوب آفاقها يدعو الى التجمع والتساند الأوروبى لمواجهة هـــذا العملاق الذى بدأ يصحو وينفض النوم عن عينيه •

**هل يسمعه أحـــد ؟**

**ألا من مجيب ؟**

* * *

# الكشاف



ح

# فهرس الآيـــات القرآنيـــة

* * *

# فهـــــرس الأعـــــلام

(س)



(ش)



(ض)



(ع)



(ف)



(ك)



(ل)



(م)

* * *

# فهـرس المنـاطق والبلدان

## ( ب )

## ( ت )

( ج )



( ح )



( خ )



( د )

( ر )



( س )



( ش )

**( ن )**



**( هـ )**

**( و )**



**( ى )**



❋ ❋ ❋

## أهم المراجـــع


— Armstrong Der Graue Wolf. Leipzig 1933

— Lord of Arabia - London 1934

— Arnold , T . W . The Caliphate . Oxford 1924

— Banse, E . Das Orientbuch Strassburg 1908

— Castagne, Joseph « Le Bolchevisme et l' Islam » Paris 1922

— Chirel , Sir Valentine « Panislamism » Central Asian Society - London 1906

— Hoepli, Henry « England im Nahen Osten » . Erlangen 1931

— Hoffmann, Karl «Orientpolitikund angelsachsicher Imperialismus » - Berlin 1972

— Harwicz , Elias « Orientpolitik der dritten Internationle » Berlin 1922

— Kohn, Hans «Geschichte der Mationalen Bewegungen im Orient» Berlin 1928

— « Die Europärisierung des Orients » — Berlin 1934

— Kral, August V. « Das Land kemal Ataturks. Wien 1935

— De Lacy, O'Leary « Islam at the Crossroad » . London 1923

— Lothrop, Stiddard « The New World of Islam. London 1921.

— Mott, J. R. « The Moslem World of to day » . London 1925.

— Rohde, H . « Der Kampf um Asien » . Stuttgart 1924

— Scfmitz , Paul « Neubau der arebischen Welt » — Leipzig 1937

— Topf, Erich « Die Staatenbildungen in den arabischen Teilen der Türkei » — Hamburg 1929

— Toynbee, Arnold J. « The Islamic World since the peace Settlement » — Oxford 1927

Oriente .. Moderno. Revue du Monde Musulman.

Great Britain and the East. The Times. Daily Telegraph. Frankfuter Zeitung.

Deutsche Allgemeine Zeitung — Berlin. Münchener Neueste Nachrichten. Deutsche Zukunft . Leipzig.

# محتويات الكتاب




الترقيم الدولى ٤ — ٠٢٠ — ٣٠٧ — ٩٧٧

رقم الايداع بدار الكتب ٨٣/٣٧٣٢